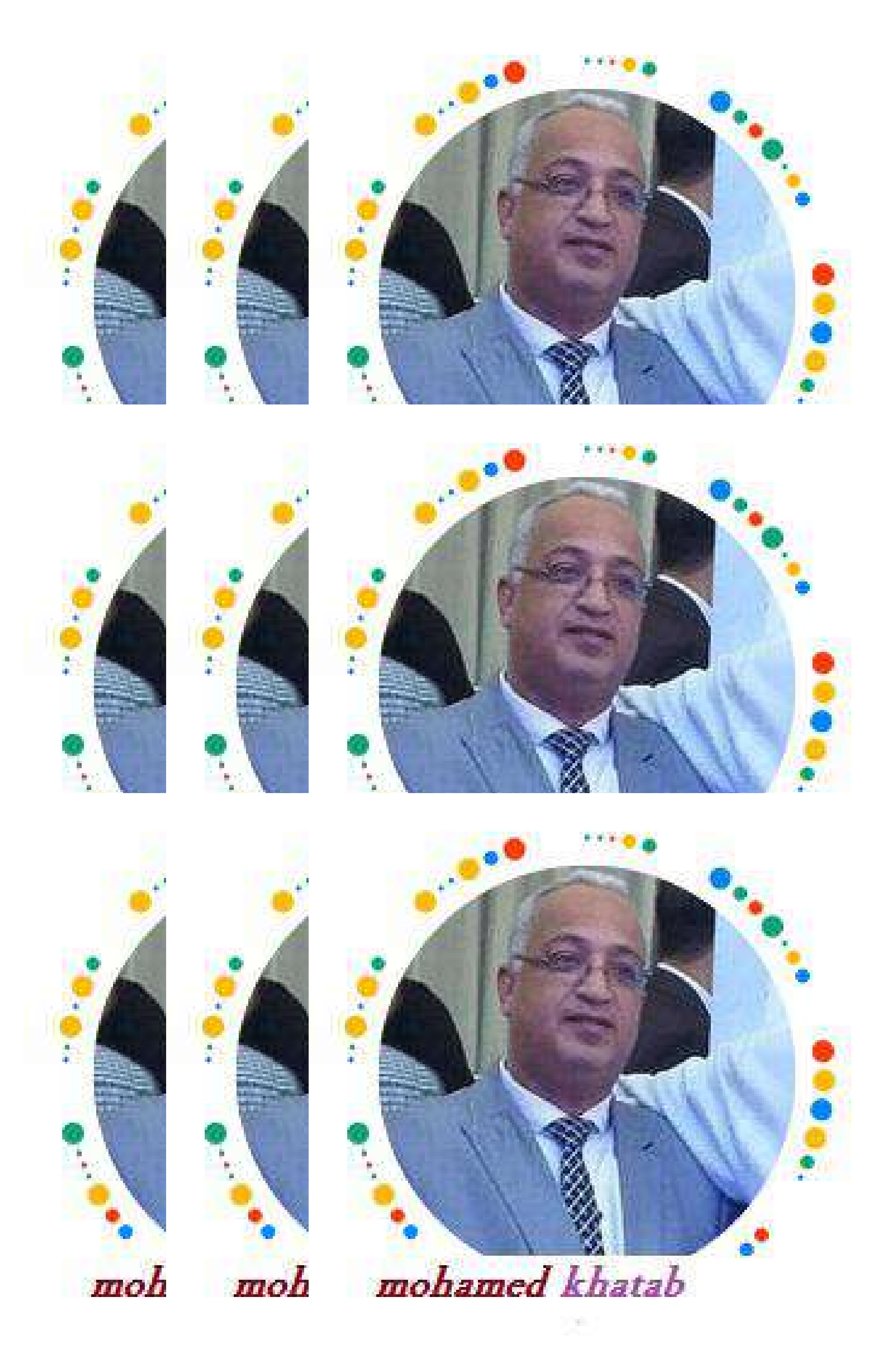
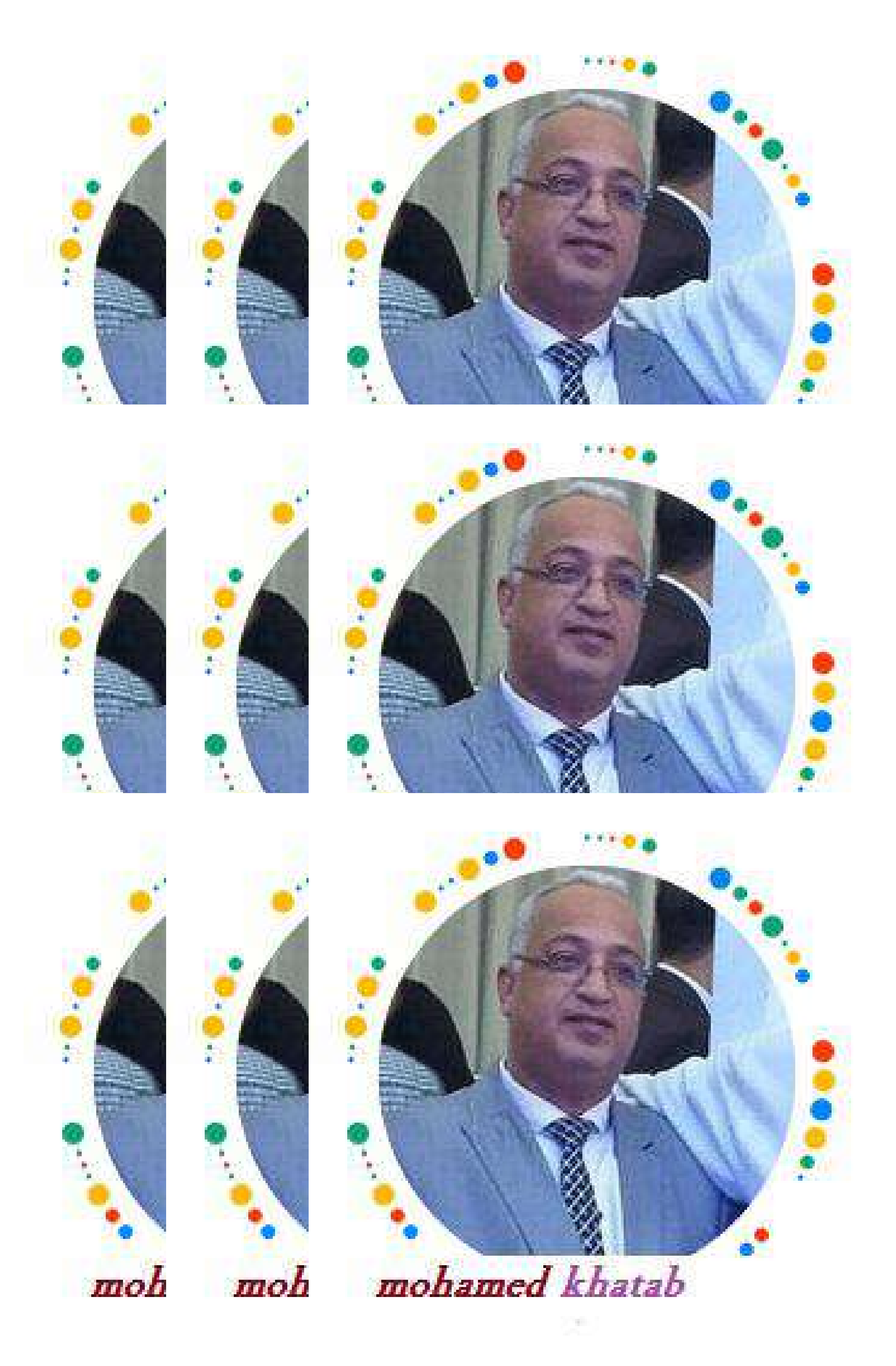
جَاك إيلول

برُوبَاجَاندا

ترجمة: روماني حنة




mohamed khatab



moh
moh
mohamed khatab

جاك إيلول

مكتبة | 1195

بروباجاندا

ترجمه إلى العربية

روماني حتة



للنشر والتوزيع

2023

إهـــداء

...إلى روح منى فؤاد، أمي الغالية التي ستظل دائمًا في فؤادي

...وإلى أبي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	13
تنبيه هام	21
الفصل الأول: خصائص البروباجاندا	35
1 - الخصائص الخارجية	40
الفرد والجماهير	40
البروباجاندا الشاملة	44
مدة البروباجاندا واستمراريتها	55
تنظيم البروباجاندا	58
العمل الصالح	63
2 - الخصائص الداخلية	73
معرفة المجال النفساني	73
التيارات السائدة في المجتمع	80

الموضوع	الصفحة
التوقيت المناسب	86
البروباجاندا والمترددون	93
البروباجاندا والحقيقة	97
مسألة الواقعية	100
النيات والتأويلات	104
3 - تصنيف البروباجاندا	109
البروباجاندا السياسية والبروباجاندا الاجتماعية	109
البروباجاندا التحريضية والبروباجاندا الاندماجية	120
البروباجاندا العمودية والبروباجاندا الأفقية	131
البروباجاندا العقلانية وغير العقلانية	137
الفصل الثاني: شروط وجود البروباجاندا	141
1 - الشروط الاجتماعية	145
المجتمع الفردي والمجتمع الجماهيري	145

الموضوع	الصفحة
الرأي	157
الإعلام الجماهيري	160
2 - الشروط الموضوعية للبروباجاندا الشاملة	165
الحاجة إلى مستوى المعيشة المتوسط	165
ثقافة عادية	169
المعلومات	174
الأيديولوجيات	179
الفصل الثالث: ضرورة البروباجاندا	181
1 - ضرورة الدولة	187
معضلة الدولة الحديثة	187
الدولة ووظائفها	200
2 - ضرورة الفرد	207
الحالة الموضوعية	208
الحالة الشخصية	217
الفصل الرابع: الآثار النفسانية للبروباجاندا	235
التبلور النفساني	237
الاغتراب عبر البروباجاندا	245
تأثير الانفصال النفساني للبروباجاندا	257
خلق الحاجة للبروباجاندا	262
الميثراداتسية	263
التحسس	263
غموض الآثار النفسانية	268

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس - الآثار الاجتماعية-السياسية	275
1 - البروباجاندا والأيديولوجية	276
العلاقة التقليدية	276
العلاقة الجديدة	280
2 - التأثيرات على بنية الرأي العام	288
التعديل في العناصر المكونة للرأي العام	288
من الرأي إلى الفعل	294
3 - البروباجاندا وتشكيل الجماعات	300
تقسيم الجماعات	300
التأثيرات على الأحزاب السياسية	304
التأثيرات على عالم العمل	312
التأثيرات على الكنائس	319
4 - البروباجاندا والديمقراطية	324
حاجة الديمقراطية للبروباجاندا	324
البروباجاندا الديمقراطية	328
آثار البروباجاندا العالمية	337
آثار البروباجاندا الداخلية	347
الملحق الأول - فعالية البروباجاندا	357
1 - صعوبات قياس الفعالية	358
صعوبة الموضوع	359
صعوبة المناهج	365
2 - عدم فعالية البروباجاندا	381
3 - فعالية البروباجاندا	393
4 - حدود البروباجاندا	402

الموضوع	الصفحة
الملحق الثاني - بروباجاندا ماو تسي-تونج	411
1- الحرب: من 1926م إلى 1949م	413
التعليم	413
التنظيم	415
2- منذ 1949م	417
التعليم	418
التطويق	420
3- غسيل الدماغ	421
قائمة المراجع	425
الفهرس	437

مقدمة المترجم



في ربيع 2015م، درستُ صف "البروباجاندا والتواصل السياسي" للأستاذ (مايكل سوكولو) خلال دراستي للماجستير في الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية. استغرقتُ وقتًا طويلًا في قراءة أحد الكتب التي كُلّفت بها في هذا الصف، وكان هذا الكتاب هو "بروباجاندا" بقلم (جاك إيلول)، المفكر الفرنسي الكبير. تزامنت قراءتي لهذا الكتاب مع تطورات سياسية متتالية ومتسارعة في بلدي الأم، مصر، واندهشت كل الدهشة أن ما كتبه (إيلول) في كتابه عن البروباجاندا في عام 1962م حدث بالحرف في مصر إبان ثورة 2011م والسنوات التي تلتها. ومن هنا بدأت علاقتي مع هذا الكتاب العميق الذي شغل تفكيري منذ ذلك الحين، ولم أجد أمامي سوى أن أترجمه للعربية حتى أتيح الفرصة للقارئ العربي أن يقرأ ما قرأته ويعرف ما عرفته عن البروباجاندا التي نتنفسها طوال الوقت دون أن نراها أو نشعر بها.

ثار الشباب المصري وقادوا ثورة 2011م بحثًا عن الكرامة والعدالة والحرية، وبعدها حدث الكثير والكثير. قرر نظام مبارك أن يقبل خلع الشعب له بعد 18 يومًا من التظاهرات الحاشدة، ثم حكم مؤقت للمجلس الأعلى للقوات

المسلحة، ثم حكم محمد مرسي ممثلًا عن الإخوان المسلمين لعام واحد، ثم توالت التطورات السياسية المتسارعة، وفي نهاية المطاف، عادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل الثورة وعاد النظام بوجوه وأسماء مختلفة وأكثر شراسة، وكان للبروباجاندا نصيب الأسد في تحقيق هذه العودة بجانب رغبة متلقيها وتواطؤه. أكد إيلول أن رغبة متلقي البروباجاندا شرط أساسي لنجاح البروباجاندا وفعاليتها.

كانت مشاهدة كل هذه التطورات وغيرها حتى وقت ترجمة هذا الكتاب في 2020م على شاشات التلفاز وعلى صفحات الجرائد مذهلة ولافتة للنظر لأي باحث أو محلل أو مراقب، ولاسيما مشاهدة البروباجاندا وعمل الماكينة الإعلامية في كل ما حدث. على سبيل المثال، تحدث (إيلول) في الفصل الأول (خصائص البروباجاندا) من هذا الكتاب عن استخدام المحاكمات في البروباجاندا للمتهمين الذين ينشرون أفكارهم خلال مرافعاتهم الدفاعية الاستعراضية. وهذا بالضبط ما حدث في مصر: بعد الثورة، أُلقي القبض على الكثير من لصوص وقتلة نظام مبارك ثم بدأت محاكمتهم محاكمات علنية تُبث بثًا حيًا، وأُتيحت لهم الفرصة للدفاع عن أنفسهم في المحكمة أمام شاشات التلفاز على مسمع ومرأى الجميع لساعات وساعات. ومن أشهر الأمثلة على ذلك هو محاكمة حبيب العادلي، وزير

داخلية مبارك والمسؤول – من بين آخرين – عن قتل وتعذيب المواطنين قبل وفي أثناء الثورة. استطاع العادلي أن يدافع عن نفسه في المحكمة في 2014م لساعتين ونصف، وشاهد الملايين دفاعه على شاشة التلفاز وعلى مواقع التواصل الاجتماعي. والآن حبيب العادلي حر طليق. وحدث الأمر ذاته مع مبارك في نفس العام.

تحدث (إيلول) أيضًا عن علاقة الحكومة بالبروباجاندا وملكية الوسائل الإعلامية، وهو ما كتب عنه الباحثان محمد ناصر وأمين حسين أيضًا، و(وليام رو) من قبلهما، ولكن بالتركيز على مصر بالتحديد، وأثبتت تسجيلات مسربة من أروقة الحكم منذ عام 2013م أن الحكومة المصرية كانت تخطط لـ "ترغيب وترهيب" مالكي المؤسسات الإعلامية في مصر، واستقطاب بعضهم، وإعادة رسم وتأكيد "الخطوط الحمراء." وكان هناك تشديد على ضرورة وجود "أذرع" في كل وسيلة إعلامية. وكنتيجة لذلك، ترك إعلاميون محنكون مثل منى الشاذلي ومحمود سعد الإعلام السياسي واتجهوا إلى الإعلامي الاجتماعي أو الفني حتى يتمكنوا من مواصلة العمل أمام الشاشة، أما يسري فودة وليليان داوود فتركا مصر، وهو ما فعله الإعلامي الساخر باسم يوسف أيضًا. والبقية من الإعلاميين وأشباه الإعلاميين قد ظلوا أمام الشاشة شريطة التزام الدعم الكامل والخضوع للنظام.

استشهد (إيلول) بكثير من الأمثلة على ماكينة البروباجاندا التي استخدمتها الجيوش، مثل الجيش الألماني والفرنسي – وهو الأمر الذي خصص له السياسي الأمريكي (وليام فولبرايت) كتابًا بعنوان "ماكينة البروباجاندا لوزارة الدفاع". وهذا ما تقوم به إدارة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة المعنية بتصميم حملات البروباجاندا وتغذية الشعب عليها. واستطاعت هذه الإدارة – بشكل مباشر أو غير مباشر – المساهمة في إنتاج عشرات المسلسلات الجاسوسية والأفلام

العسكرية ومؤخرًا المسلسلات التي تتناول العمليات الأمنية في سيناء والتصدي لجماعة الإخوان المسلمين بدايةً من أغسطس 2013م.

نجد أن كتاب (إيلول) ثري بأمثلة عن توظيف البروباجاندا في شتى البلاد والأنظمة السياسية، وخصوصًا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وألمانيا ومصر الناصرية، والآن نرى حملات بروباجاندا قوية وفعالة في جميع أنحاء العالم، في الدول الديمقراطية والسلطوية والشمولية على حد سواء. وبالنظر إلى هذه البلاد، ونشاط البروباجاندا فيها وتأثيرها، ندرك أن البروباجاندا نجحت في مساعدة الحُكّام المستبدين على إقناع الناس بوهم الديمقراطية، وتستعين البروباجاندا في ذلك بثورة التكنولوجيا ومنصات التواصل الاجتماعي التي جعلتنا نعيش في "عالم ما بعد الحقيقة." وهذا بالضبط ما تنبأ به (مارشال مكلوان) و(بول لازرسفيلد) و(نيل بوسمان) وغيرهم من الباحثين الذين تركوا لنا إرثًا غنيًا من البحث والدراسة عن التكنولوجيا وأثرها علينا.

نشأت كلمة "البروباجاندا" في القرن السابع عشر عندما دشنت الكنيسة الكاثوليكية لجنة من رجال الدين الكبار ليتولوا مسؤولية البعثات الأجنبية تحت رعاية البطريرك الكاثوليكي (جريجوري) الخامس عشر. تولت هذه اللجنة أمر الإرساليات التبشيرية. وأتت كلمة "بروباجاندا" أصلًا من اللغة اللاتينية بمعنى النشر أو الترويج؛ فالقصد من التسمية عند الكنيسة الكاثوليكية كان الدلالة على عمل اللجنة لنشر العقيدة الكاثوليكية في بلاد أخرى. تطور معناها عبر الزمن حتى وصلتْ إلى المعنى - أو بالأحرى المعاني - في عقول العوام اليوم.

فكرتُ مليًا في ترجمة كلمة "بروباجاندا" باستخدام كلمة عربية خالصة ولم أجد أي كلمة تعطي البروباجاندا حقها؛ فهي ليست مجرد دعاية، وليست في بساطة الإعلانات. البروباجاندا هي الإعلان والدعاية والفيلم والأغنية والرواية والجريدة والمقال واللافتة وكتاب المدرسة واستطلاع الرأي والاستفتاء وكتاب

الدين وكتاب التاريخ والخطاب والرسالة والبيان والصورة والكلمة. ليست البروباجاندا ما يُقال ويُرى فحسب، وإنما ما لا يُرى وما لا يُقال وما يُحجب عمدًا وما يُعتم عليه. ولذلك قررت استعارة كلمة "بروباجاندا" كما هي دون تغيير. لعل معرفتنا بالبروباجاندا من هذا الكتاب ووعينا بها يحررنا منها، أو على الأقل، يُقلص من وطأتها علينا؛ خصوصًا أن البروباجاندا ستظل معنا للأبد إذ إنها – كما يقول (إيلول) – نتيجة حتمية ومتلازمة مع التكنولوجيا في مجتمعنا.

يقول (إيلول) إن معظم الناس يقعون فريسة سهلة في فك البروباجاندا لاعتقادهم الراسخ – والخطأ تمامًا – أن البروباجاندا مجرد أكاذيب وقصص خيالية مبالغ فيها، وأن الحقيقة لا يمكن أن تكون بروباجاندا. على النقيض من ذلك، فلطالما ابتعدت البروباجاندا الحديثة عن الأكاذيب السخيفة البالية وأساليب البروباجاندا التي عفا عليها الزمن. وكذلك أكد اختصاصي العلاقات العامة والبروباجاندا العبقري (إدوارد برناز) أهمية استخدام الحقيقة في البروباجاندا.

تتعامل البروباجاندا الحديثة مع أنواع مختلفة من الحقيقة مثل أنصاف الحقائق والحقائق خارج سياقها. حتى (جوزيف جوبلز)، وزير (هتلر) للبروباجاندا، أصر دائمًا على أن تكون تقارير القوات المسلحة النازية دقيقة قدر الإمكان.

مفهوم مغلوط آخر يجعل الناس أكثر عُرضة للبروباجاندا هو الاعتقاد أنها لا تعمل إلا بهدف تغيير الآراء. نعم، تغيير الآراء أحد أهداف البروباجاندا لكنه هدف محدود وثانوي. الأهم من ذلك هو أنها تهدف إلى ترسيخ التيارات الحالية. ومن ثم، فإن (إيلول) يفرق بين أنواع مختلفة للبروباجاندا ولذلك يُعَنوِن كتابه "أنواع البروباجاندا."

الفرق الأوضح عند (إيلول) كان بين البروباجاندا التحريضية والاندماجية. فالأولى تقود الناس من الاستياء إلى التمرد، والأخرى تهدف إلى تكييفهم مع

أنماط مرغوب فيها. يحتاج المجتمع التكنولوجي بالتحديد إلى البروباجاندا الاندماجية ليزدهر، وتساهم وسائل الإعلام بدور كبير في عمل البروباجاندا الاندماجية. نرى هذا في تعزيز البروباجاندا للتيارات الشعبوية والقومية؛ فهي تيارات موجودة بالفعل، وتعمل الحكومات على تنميتها عن طريق البروباجاندا.

نقطة أخرى ذات صلة ومحورية في نظر (إيلول) هي أن البروباجاندا الحديثة لا يمكن أن يكون لها تأثير بدون التعليم. وعلى ذلك، فإن (إيلول) يسير ضد التيار الذي يؤمن بأن التعليم أفضل وقاية من البروباجاندا، بل ويزيد على ذلك ويقول إن التعليم هو الشرط الأهم للبروباجاندا، وأطلق على التعليم "البروباجاندا المسبقة" وهي تكييف العقول بالمعلومات التي انتشرت بالفعل لأغراض غير مُعلنة ولتظهر كأنها "حقائق" و"تعليم" للشعب. يعتبر التعليم أداة تفتح عقل الإنسان وتهيئه لمحتوى البروباجاندا.

يعتقد (إيلول) أن المثقف هو الأضعف أمام البروباجاندا الحديثة لأنه يتلقى قدر كبير من المعلومات غير المؤكدة كما أنه يشعر بحاجة ماسة إلى أن يكوّن رأيًا عن كل القضايا الهامة؛ وبالتالي يسهل استسلامه إلى آراء حصل عليها من خلال حملات البروباجاندا عن القضايا التي يصعب فهمها، وعلاوة على ذلك، يعتقد المثقف أنه قادر على "الحكم على الأمور" بنفسه. فالمثقف في حاجة إلى البروباجاندا. وتعتبر "حاجة" المتلقي للبروباجاندا أحد أهم ملامح فكر (إيلول).

يرى (إيلول) أن الإنسان في مجتمع اليوم يشعر بالعزلة والوحدة والعجز أكثر من ذي قبل – خصوصًا بعد تفكك العائلة والكنيسة ومجتمع القرية. ثم تأتي البروباجاندا لتفتح الباب أمامه للمشاركة في الأحداث الهامة، وذلك كان له مخرجًا من عزلته ومأساته. لن يكون للبروباجاندا أي قوة أو تأثير لولا رغبة وتعاون وتواطؤ متلقي البروباجاندا معها. يكمن دهاء البروباجاندا وسحرها في

أنها تخلق حاجات زائفة (من خلال البروباجاندا المسبقة) ثم تقدم إشباعًا زائفًا لهذه الحاجات.

يُعتبر مفهوم (جاك إيلول) عن البروباجاندا جديدًا حتى يومنا هذا، وكذلك طريقته في دراستها. استند (إيلول) في تحليله إلى الملاحظة والمنطق، وراجع ما كتبه معظم الكُتّاب الأمريكيين عن موضوع البروباجاندا والإعلام الجماهيري بعين ناقدة بعد دراسة دقيقة وشاملة للأعمال الأكاديمية لباحثين مثل (هارولد لازويل) و(دافد رايزمان). فقَبل بعض النتائج التي توصلوا إليها ورفض بعضها، خصوصًا المحاولات التي ترمي إلى قياس آثار البروباجاندا والتجارب غير الواقعية التي أُجريت مع مجموعات صغيرة حيث إن البروباجاندا ظاهرة مجتمعية لا يمكن محاكاتها في أنبوب اختبار.

يختتم (إيلول) هذا الكتاب بتحذير، ويؤكد أن البروباجاندا اليوم تمثل خطرًا وتهديدًا للمجتمع الديمقراطي، ويعرض الآثار الحتمية للبروباجاندا ويرصد التشابهات بين ممارسات البروباجاندا النازية والشيوعية والديمقراطية، ويثبت أنه لا يمكن استخدام سلاح غير ديمقراطي بطبيعته دون الإضرار بالنظام الديمقراطي أو دون تغييره بشكل جذري.

في النهاية، أود أن أشكر مركز السلطان قابوس الثقافي الذي منحني الفرصة أن أدرّس صف الترجمة حيث بدأت ترجمة هذا الكتاب مع طلابي، وأخص بالذكر الطالب (ألكس فارلي) والطالبة (نوالاني كيلي) اللذان ساهما في الترجمة في مراحلها الأولى. كما أود أن أشكر الأستاذ (سوكولو) على تعريفي بـ(إيلول) ويعلم البروباجاندا.

روماني حتة

2020م

تنبیه هام

بغض النظر عن أي اسم نستخدمه للإشارة للبروباجاندا، فقد أصبحت ظاهرة عامة في العالم الحديث حيث تفوق الاختلافات بين المستويات الاجتماعية الاختلافات بين الأنظمة السياسية من حيث الأهمية، والأهم هو الوعي الوطني. في عالمنا اليوم، يوجد ثلاث كتل كبيرة للبروباجاندا: الاتحاد السوفيتي والصين والولايات المتحدة. فهذه هي الأنظمة الأهم للبروباجاندا من حيث العمق والنطاق والاتساق. ولكن كل نظام من الثلاثة يمثل نوع وطريقة مختلفة كليةً.

ثم يأتي الحديث عن أنظمة البروباجاندا لمجموعة من البلاد - في مختلف مراحل التطور والتأثير، ولكنها أقل تقدمًا من الكتل الثلاثة الكبرى. هذه البلاد هي الجمهوريات الاشتراكية في أوروبا وآسيا: بولاندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوجوزلافيا وألمانيا الشرقية وشمال فيتنام. وفي هذه البلاد تتبع البروباجاندا النمط السوفيتي رغم بعض الفجوات وقلة الفهم وفقر الموارد. بعد ذلك، نجد ألمانيا الغربية وفرنسا وإسبانيا ومصر وجنوب فيتنام وكوريا، وهناك نجد أشكالًا متعددة جدًّا من البروباجاندا غير المنظمة. أما بلاد مثل إيطاليا والأرجنتين، والتي كان فيها أنظمة بروباجاندا قوية في الماضي، لم تعد تستخدم هذا السلاح.

بغض النظر عن البلد أو الطريقة، فلدى جميع البلدان شيء واحد مشترك وهو الاهتمام بالفاعلية.[1] تُصنَع البروباجاندا أساسًا كنتيجة لوجود الإرادة لعمل شيء بهدف تسليح السياسة بفعالية وإعطاء القرارات قوة لا تُقاوم.[2] مَن يتعامل مع هذه الأداة سيهتم فقط بالفعالية، هذا هو القانون الأعلى والذي يجب ألا ننساه عندما نحلل ظاهرة البروباجاندا. فالبروباجاندا غير الفعالة لا يُعتد بها كبروباجاندا حقيقية. هذه الأداة تنتمي إلى العالم التقني وتشترك معه في الخصائص ولا يمكن فصلها عنه. البروباجاندا في حد ذاتها تقنية، وهي كذلك شرط لا غنى عنه لتطوير التقدم الفني وتأسيس حضارة تقنية. والبروباجاندا - مثلها مثل كل التقنيات - تخضع لقانون الفعالية. ولكن، في حين أنه من السهل نسبيًّا دراسة

---

(1) قال (جوزيف جوبلز): "نحن لا نتكلم لكي نقول شيئًا، ولكن لكي نحقق تأثيرًا." صرح (فردرك بارتلت) أن هدف البروباجاندا ليس زيادة الفهم السياسي للأحداث، ولكن الحصول على نتائج من خلال الأفعال.

(2) تعريف (هارولد لازويل) لهدف البروباجاندا دقيق: "تعظيم القوة في البلد من خلال السيطرة على الأفراد والمجموعات مع تقليل التكلفة المادية للقوة." وبالمثل، فتُعد البروباجاندا في الحرب محاولة لتحقيق النصر بأقل تكلفة مادية. وقبل الحرب، تُستخدم البروباجاندا كبديل للعنف المادي، وخلال الحرب، محلق لها.

تقنية معينة وتحديد نطاقها، إلا أن العديد من العقبات تقف في طريق دراسة البروباجاندا.

من البداية، يبدو جليًا أن هناك حالة من الشك بشأن الظاهرة نفسها لعدة أسباب: أولها المفاهيم السياسية أو الأخلاقية الاستدلالية. عادةً ما تُعتبر البروباجاندا شرًا وهذا في حد ذاته يجعل الظاهرة عصية على الدراسة لأنه لكي تستطيع أن تدرس أي شيء دراسة صحيحة، يجب أن تنحي الأحكام الأخلاقية جانبًا. وربما ستقودنا الدراسة الموضوعية في النهاية إلى الأحكام القيمية - ولكن هذا يحدث لاحقًا - بعد الإدراك الكامل للحقائق. سبب آخر للالتباس هو الاعتقاد العام المستمد من التجارب السابقة والقائل إن البروباجاندا تتكون من "قصص خيالية" انتشرت عن طريق الأكاذيب. إذا تبنينا هذا الرأي، فإن هذا سيعني أننا سنمنع أنفسنا من فهم أي شيء عن الظاهرة الحقيقية التي تختلف اختلافًا كبيرًا مما كانت عليه في الماضي.

وحتى عندما زالت هذه العقبات، ظلت الصعوبات تقف أمام تحديد ماهية وطبيعة البروباجاندا في عالمنا لأنها سرية بطبيعتها. وهنا ميل إلى جانبين: إما الاتفاق في الرأي مع (جاك درينكورت) أن "كل شيء بروباجاندا" لأنه يبدو أن هذه القوة اخترقت أو شكلت كل شيء في الميادين السياسية أو الاقتصادية، وإما التخلي عن مصطلح البروباجاندا تمامًا لأنه لا يمكن تعريفها بدقة - وهو ما فعله بعض علماء الاجتماع الحديث في أمريكا. كل من المسارين يمثل استسلامًا فكريًا لا يمكن قبوله، وتبني أي من الموقفين سيقودنا إلى أن نترك دراسة ظاهرة موجودة حولنا في حاجة إلى تعريف.

والآن نواجه الصعوبة البالغة لتعريف البروباجاندا. يمكننا مباشرةً تجاهل التعريفات التبسيطية مثل تعريف (مربري أوجل) الذي قال إن "البروباجاندا هي أي محاولة لتغيير الآراء أو السلوكيات...ومروج البروباجاندا هو أي شخص ينقل أفكاره بهدف التأثير على مستمعه." تعريف مثل هذا ينطبق على المدرس

والكاهن، وأيضًا أي شخص يتحدث مع أي شخص آخر في أي موضوع. مثل هذا التعريف الواسع طبعًا لن يساعدنا على فهم الطبيعة المميزة للبروباجاندا. أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فتطور التعريف من 1920م إلى 1933م ليركز على الجانب النفساني: البروباجاندا هي التلاعب بالرموز النفسانية ذات أهداف لا يعيها المستمع.[1] ومنذ ظهور دراسات (لازويل)، تعتبر البروباجاندا ممكنة عن طريق وسائل أخرى ولها أهداف مُعلنة. بعد ذلك، انتقل الانتباه ليركز على نية مروج البروباجاندا، وهي - في الكتب التي نُشِرَت مؤخرًا - تلقين الناس معتقدات بشكل عام، ولاسيما تلك التي تتعلق بالأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبات هذا السمة المميزة للبروباجاندا. في طيات هذا الإطار المرجعي، يمكننا أن نحدد ما يشكل البروباجاندا من خلال النظر إلى مروج البروباجاندا. إذا اعتبرنا شخصًا ممارسًا للبروباجاندا، فإن كلامه وأفعاله أيضًا بروباجاندا. ومع ذلك، فإن الكُتّاب الأمريكيين، في نهاية المطاف، قد قبلوا تعريف معهد تحليل البروباجاندا المستوحى من لازويل: "البروباجاندا هي التعبير عن الآراء أو الأفعال التي قام بها الأفراد أو المجموعات بهدف التأثير على آراء أو أفعال الآخرين لغايات محددة سلفًا ومن خلال التلاعب النفساني."[2]

يمكننا إضافة تعريفات أخرى كثيرة. يعتقد الكاتب الإيطالي (أنتونيو ميوتو) أن البروباجاندا "تقنية الضغط الاجتماعي التي تخلق مجموعات اجتماعية أو نفسانية ذات بناء موحد عبر حالات عقلية فعالة ومتجانسة للأفراد قيد البحث."

---

(1) حدد (جون ألبيج) هذه الملامح للتعريف: صفة السرية لمصادر وأهداف البروباجاندا، والنية لتغيير الآراء ونشر استنتاجات مشكوك فيها، وغرس الأفكار بدلًا من تفسيرها. هذه الأفكار صحيحة إلى حد ما، ولكن عفا عليها الزمن.

(2) غالبًا ما تُضاف الفكرة أن البروباجاندا تتعامل مع "القضايا الجدلية في الجماعة." فكرة (دانيال ليرنر) كانت أكثر عمقًا من ذلك إذ إنه يقول إن البروباجاندا هي وسيلة لتغيير موازين القوة في الجماعة عبر تغيير السلوكيات، وهذا يحدث عندما يتم التلاعب بالرموز النفسانية. ومع ذلك، أنا لا أتفق تمامًا مع الطابع النفساني الخالص في هذا التعريف.

طبقًا للاختصاصي الأمريكي المعروف (ليونارد دوب)، البروباجاندا "محاولة لتغيير الشخصيات والتحكم في سلوكيات الأفراد فيما يتعلق بأهداف ذات قيمة - مشكوك فيها أو غير محددة - في فترة معينة ومجتمع معين." وإذا قرأنا الأبحاث الألمانية أو الروسية عن هذا الموضوع سنجد تعريفات أبعد من ذلك.

أما أنا فلن أقدم تعريفي الخاص هنا. كل ما أريده هو أن أوضح حالة الشك وانعدام اليقين بين المتخصصين بشأن التعريف، وأعتقد أنه أنفع لنا أن نمضي قدمًا في تحليل خصائص البروباجاندا كظاهرة اجتماعية موجودة بدلًا من الاستغراق في التعريفات. ولعله ضروريًا أن نؤكد هذا المصطلح. فعلينا دراسة البروباجاندا في الماضي والحاضر لأننا لا نستطيع عدم إدراج دراسة أنظمة البروباجاندا المتقدمة عند (هتلر) في ألمانيا و(ستالين) في روسيا وإيطاليا الفاشية في إطار دراستنا للبروباجاندا بشكل عام. هذا يبدو جليًّا، ولكنه ليس هكذا في واقع الأمر: الكثير من الكُتّاب لا يتفقون مع هذا المنهج. فهم يرسمون صورة معينة ويحددون تعريفًا للبروباجاندا، ويمضون في دراسة أي شيء يتناسب مع تعريفهم، أو يستسلمون إلى جاذبية البحث العلمي ويحاولون أن يجربوا منهجية معينة للبروباجاندا على مجموعات صغيرة وبجرعات صغيرة - ولكن في هذه حالة فهي لم تعد بروباجاندا.

لكي ندرس البروباجاندا من اللازم ألا نذهب إلى عالِم النفس وإنما مروج البروباجاندا. وكذلك لا يجدي أن نُخضِع مجموعة للتجربة، وإنما أن نلاحظ بلدًا بأكمله تحت تأثير الظاهرة الحقيقية والفعالة للبروباجاندا. ولكن بالتأكيد هذا سيستبعد كل الدراسات العلمية المزعومة (أي الإحصائية). فعلى الأقل نحن نحترم موضوع دراستنا بخلاف الاختصاصيين المعاصرين الذين يتبعون منهجًا صارمًا للملاحظة، ولكنهم يبتعدون عن موضوع الدراسة عند تطبيق المنهج. أما نحن فلا بد أن نركز على طبيعة البروباجاندا أينما أُستخدمت وأينما كانت فعالة.

وفي النهاية، سنتعامل مع البروباجاندا بمفهومها الواسع لتتضمن المجالات التالية:

الفعل النفساني: يهدف مروج البروباجاندا إلى تغيير الآراء عن طريق وسائل نفسانية بحتة. فغالبًا ما يسعى لتحقيق هدف شبه تربوي في خطابه لأقرانه من المواطنين.

الحرب النفسانية: هنا يتعامل مروج البروباجاندا مع عدو أجنبي ويستهدف تدمير معنوياته من خلال وسائل نفسانية تدفعه للشك في صحة معتقداته وأفعاله.[1]

إعادة التعليم وغسيل الدماغ: طرائق معقدة لتحويل العدو لحليف، ولكن لا يمكن استخدام هذه الطرائق إلا مع السجناء.

العلاقات العامة والإنسانية: ولا بد من إدراجها تحت مفهوم البروباجاندا. مع أن هذا ربما يصدم بعض القراء، فهذه الأنشطة تعتبر بروباجاندا لأنها تسعى إلى تكييف الفرد مع مجتمعه واستهلاك ما ونشاط معين. فالهدف في نهاية المطاف هو إذعان الفرد، وهو هدف البروباجاندا.

تشتمل البروباجاندا بمفهومها الواسع على كل هذه المجالات، وبمفهومها الضيق تتميز بالمؤسسية. نجد في البروباجاندا تقنيات التأثير النفساني مع تقنيات لتنظيم الناس وحصارهم بهدف حثهم على فعل بعينه. ومن ثم، فهذا هو المجال الواسع لهذا البحث. ومن هذا العالم الواسع للبروباجاندا تعمدت استبعاد الموضوعات التالية والتي عثرت عليها في معظم دراسات البروباجاندا:

- الدراسات التاريخية للبروباجاندا، وخصوصًا الماضي القريب (من 1914م أو 1940م فصاعدًا)

(1) يفرق تحليل (موريس ميجريت) بين ثلاثة أجزاء: هيئة البروباجاندا (دعم من العمليات العسكرية) والعمل العسكري-السياسي (للتأكد من خضوع الشعب للوسائل الفنية غير العنيفة) ونظام فكري متماسك.

- البروباجاندا والرأي العام: باعتبار الرأي العام وتشكيله وغير ذلك القضية الأهم، وباعتبار البروباجاندا كأداة بسيطة لتشكيل أو تغيير الرأي القضية الأقل أهمية.
- الأساسات النفسانية للبروباجاندا: ما هي التحيزات والدوافع والمحفزات والعواطف والعُقَد التي يستهدفها مروج البروباجاندا؟ ما هي القوة النفسانية التي يستخدمها للوصول إلى النتائج المرجوة؟
- تقنيات البروباجاندا: كيف يستخدم مروج البروباجاندا هذه القوة النفسانية؟ وكيف يصل للناس وكيف يحثهم على فعل شيء ما؟
- إعلام البروباجاندا: وسائل الإعلام الجماهيرية.

هذه هي عناوين الفصول الخمسة التي ستجدها في كل مكان، ولكن تُعد الدراسات عن خصائص لأمثلة عظيمة للبروباجاندا أقل شيوعًا: بروباجاندا (هتلر) و(ستالين) وأمريكا وهكذا. حذفنا هذه الأمثلة من هذه الدراسة لسبب واحد: وهو أنه تم تحليلها كثيرًا. يستطيع القارئ أن يجد كل ما يفيده عن هذه الموضوعات في قائمة المراجع. وبدلًا من التركيز على مثل هذه الأمثلة، فقد حاولت أن أبحث في مظاهر البروباجاندا والتي نادرًا ما يتم تحليلها - وبفعل ذلك فقد تبنيت موقفًا ومنظورًا ورأيًا أبعد كل البعد عن التقليد. لقد اتجهت لاستخدام منهج غير تجريدي ولا إحصائي، ولكن بين الحين والحين يستند إلى دراسات موجودة بالفعل. وعلى القارئ أن يعرف أنه لا يتعامل مع موسوعة البروباجاندا بل مع عمل يفترض أن القارئ على علم بالأساسات النفسانية والتقنيات والمناهج التي تقرب الإنسان المعاصر إلى الوعي بظاهرة البروباجاندا التي تكيف حياته وتنظم سلوكه.

من ناحية أخرى، لقد درست ظاهرة البروباجاندا ككل. فمن المعتاد أن نطلق الأحكام الأخلاقية على غايات البروباجاندا - الأحكام التي تساهم بعد

ذلك مساهمة كبيرة في اعتبار البروباجاندا وسيلة. على سبيل المثال، لأن الديمقراطية جيدة والديكتاتورية سيئة، إذًا فالبروباجاندا التي تخدم الديمقراطية تعتبر جيدة حتى إذا كان التقنية المستخدمة مماثلة لتلك المستخدمة في الديكتاتورية. أو لأن الاشتراكية حسنة والفاشية كريهة، لا يمكن أن نصف البروباجاندا بأنها شر تمامًا وهي في أيدي الاشتراكيين - ولكن فقط عندما تكون بين الأيادي الفاشية.[1] أما نحن فنرفض هذا التوجه لأن البروباجاندا ظاهرة مماثلة في الصين أو الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الجزائر. وكذلك تتشابه التقنيات، ولكن وسائل الإعلام تختلف من بلد لآخر من حيث الجودة والاستخدام المباشر كما هو الحال مع المؤسسات التي تختلف في فعاليتها ولكن هذا لا يغير جوهر القضية: أن هؤلاء الذين يقبلون مبدأ البروباجاندا ويتخذون القرار باستخدامها سوف يستخدمون الطرائق والتنظيم الأمثل لا محالة.[2] علاوة على ذلك، ركيزة هذا الكتاب هي أن البروباجاندا، بغض النظر عن صانعها، مستقيمة وحسنة النية وأن لها نتائج مماثلة في المجتمعات الشيوعية أو مجتمع (هتلر) أو في الديمقراطية الغربية، وكذلك لها نتائج حتمية على الأفراد أو المجموعات، على عكس ما تدعيه المذاهب المعلنة أو الأنظمة السياسية التي تدعمها البروباجاندا. وبعبارة أخرى، كان لنظام (هتلر) السياسي تأثيرات معينة، ومن المؤكد أن البروباجاندا التي استخدمها النازيون كان لها سمات محددة لا يمكن إنكارها، ولكن في حين أن معظم المحللين قد توقفوا عند هذه الحقيقة، فأنا حاولت أن أنحيها جانبًا لكي أتمكن من التركيز على الخصائص العامة والتأثيرات المشتركة بين كل هذه الحالات وكل مناهج البروباجاندا. ولذلك اتبعت نفس المنظور ونفس المنهج في بحث البروباجاندا كما فعلت مع مفهوم التقنية. قد تناولنا

---

(1) وهذا أيضًا ما افترضه (سيرجا تشكاوتن).

(2) كما قال (ميجرت)، كان عند الضباط في شبه جزيرة الهند الصينية والذين كانوا على اتصال بالبروباجاندا في شمال فيتنام رأيًا سياسيًّا عامًّا حل محل "استخدام متقطع للوسائل الفنية" للبروباجاندا - وكان كل هذا جزءًا من التطور من أفكار قديمة إلى ظواهر جديدة.

هذا الموضوع كثيرًا ولا داع للإعادة، وأكدنا في كتب أخرى أن البروباجاندا أيضًا تقنية.

وعليّ أن أخصص الكثير من الصفحات لمناقشة الحقيقة القائلة إن البروباجاندا أصبحت بالنسبة إلى الجميع واقعًا ضروريًا ولا مناص منه. وفي هذا الصدد، لقد توصلت إلى أحد أهم أسباب سوء الفهم: إن الإنسان المعاصر يعبد "الحدث" - أي الأشياء التي يقبلها كحقائق مطلقة ويؤمن أن الحدث في ذاته دليل وبرهان، وأنه جيد، وينظر له على أنها بديهي ويخضع له طوعًا، وكذلك يُخضِع القيم لهذا الحدث الذي يعتقد أنه ضرورة مرتبطة بفكرة التقدم. وحتميًا يؤدي هذا الموقف الأيديولوجي النمطي إلى التباس بين أحكام القيم وأحكام الاحتمالية، وذلك لأن الحدث هو المعيار الوحيد، ومن اللازم أن يكون الحدث جيد. وكنتيجة، فمن المفترض أن أي شخص يذكر حدث ما (خصوصًا دون أن ينتقده) فمن ثم فهو يؤيده. مثلًا، أي شخص يشدد على أن الشيوعيين سوف يفوزون في بعض الانتخابات (ببساطة يطلق أحكام الاحتمالية) يُعتبر على الفور أنه موالي للشيوعيين. وأي شخص يقول إن التقنية تسيطر على النشاط البشري بشكل متزايد يراه الناس على أنه يفضل التقنية، وهكذا.

بينما نمضي قدمًا في تحليل تطور البروباجاندا وتأثيرها الحتمي في العالم الحديث وما يربطها بكل أشكال البناء المجتمعي، سيجد القارئ نفسه في انتظار موقف يستحسن البروباجاندا لأنها نوقشت كضرورة - وهذا سيجبر الكاتب نفسه على ممارسة البروباجاندا وتقويتها والترويج لها. ولكننا نريد أن نؤكد أن هذا أبعد ما يكون من رأينا. يصح هذا الافتراض فقط مع عبيد الحدث والسلطة. في رأينا، الضرورة لا يمكن أن تتساوى مع الشرعية، فعالم الضرورة هو عالم ضعيف -عالم يرفض الإنسان. عندما نقول إن ظاهرة ضرورية نعني أنها ترفض الإنسان: ضرورتها دليل على قوتها وليس على تميزها.

ومع ذلك، في مواجهة الضرورة، يعد الوعي بوجودها أول الطريق للسيطرة عليها. وما دام ينكر حتمية الظاهرة ويتحاشاها، سيضل طريقه وسيخدع نفسه بالتسليم "للضرورة" بينما يتظاهر أنه حر "رغمًا عنها" لمجرد أنه يزعم ذلك. ولن يجرب بداية الحرية الحقيقية إلا عندما يدرك أنه رهينها. وتبدأ حريته عند إصراره على محاولة خلق مسافة بينه وبين الضرورة، وذلك لموضعتها واختزالها إلى مستوى الحدث المحض.

تكمن قوة البروباجاندا في الهجمة المباشرة على الإنسان، ويبقي السؤال: ما هو حجم الخطر؟ تستند معظم الإجابات على هذا السؤال إلى عقائد متزمتة غير واعية. ولذلك فالشيوعيون، الذين لا يؤمنون بالطبيعة البشرية، ولكن يؤمنون بالحالة الإنسانية، يؤمنون أن البروباجاندا عظيمة القوة ومشروعة (وقتما استخدموها) ويؤمنون بأهميتها في خلق إنسان جديد. يحاول علماء الاجتماع الأمريكيون بمناهج علمية أن يقللوا من أهمية فعالية البروباجاندا لأنهم لا يستطيعون قبول فكرة أن الفرد - حجر الأساس في الديمقراطية - يمكن أن يكون هشًا للغاية، ولأن عندهم ثقة كاملة في الفرد. وأنا أيضًا أميل إلى الإيمان بقدرات الإنسان الفائقة وبالتالي إلى الإيمان بأنه لا يمكن تغيير آرائه أو مواقفه. وبالرغم من ذلك، عندما آخذ الحقائق في الاعتبار، أدرك أن الإنسان طيع جدًا وغير واثق بنفسه ومستعد أن يقبل ويمشي وراء الكثير من الاقتراحات، ويترنح من جراء رياح المعتقدات. ولكن عندما أفصح عن القوة الكاملة للبروباجاندا ضد الإنسان في صفحات هذا الكتاب، وعندما أقترب من أول الطريق لإظهار التغيرات العميقة في شخصيته، هذا لا يعني أنني ضد الديمقراطية.

قوة البروباجاندا بالطبع تكشف أحد العيوب الأكثر خطورة للديمقراطية. ولكن هذا لا يمت بصلة لآرائي الشخصية. إذا كنت أؤيد الديمقراطية فأنا آسف على أن البروباجاندا جعلت الممارسة الحقيقية للديمقراطية شبه مستحيلة. بل يزداد الطين بلة إذا رضخت لأي أوهام عن إمكانية التعايش بين البروباجاندا

والديمقراطية الحقيقية. لا يوجد أسوأ من العيش في عالم الأحلام في وقت الخطر. ولّما نحذر نظامًا سياسيًا من تهديد يلوح في الأفق، هذا لا يعني ضمنيًا هجومًا ضده، وإنما أعظم خدمة يمكن أن نقدمها للنظام. ويمكن أن نقول الأمر ذاته عن الإنسان: عندما نحذره من ضعف يعاني منه، فهذا ليس محاولة لتدميره، بل تشجيعه على تقوية نفسه. لا أتعاطف مع المثقفين الأرستقراطيين المتكبرين الذين يحكمون على الأمور من برج عاجي، اعتقادًا أنهم يتمتعون بمناعة ضد القوى المدمرة في عصرهم، ويستخفون بعامة الناس (Profanum vulgus) ويعتبروهم كماشية يجب التحكم فيهم وتشكيلهم عن طريق نشاط البروباجاندا في مظاهر حياتهم الأكثر حميمية. كيف لي أن أعتبر أن ذلك حماية للإنسان وليس ضده وأني لست بمعزل عن قوة البروباجاندا لأني كنت تحت طائلتها وعانيت منها وتأملتها، فكنت وما زلت هدفًا للبروباجاندا مرات عديدة، وأريد أن أتكلم عنها كتهديد للشخصية الكاملة.

ولكي نَصف الأبعاد الحقيقية للبروباجاندا وصفًا دقيقًا يلزم دائمًا أن ننظر لها في ثنايا السياق الحضاري. ربما العيب الأساسي لمعظم الدراسات عن هذا الموضوع هو محاولتها لتحليل البروباجاندا كظاهرة منفصلة. وهذا يعكس موقفًا سائدًا جدًّا يفصل بين الظواهر السياسية الاجتماعية ويمنع تأسيس أي روابط بين أجزائها. وهذا الموقف بدوره يطمئن الباحث عن موثوقية الأنظمة المختلفة. الديمقراطية على سبيل المثال تُدرس كما لو كان المواطن كائنًا منفصلًا عن الدولة، كأن الرأي العام "شيء في حد ذاته." في الوقت نفسه، تُترك الدراسة العلمية للرأي العام والبروباجاندا لاختصاصيين آخرين، والاختصاصي في الرأي العام بدوره يعتمد على الفقيه القانوني ليعرّف الإطار القانوني الملائم للديمقراطية. وتُدرس مشكلات المجتمع التكنولوجي بمعزل عن أي إشارة لتأثيراتها المحتملة على الحالة العقلية والعاطفية. فلم يعر الباحثون اهتمامًا بالتغيرات التي شهدتها الوسائل النفسانية عندما درسوا الحركة العمالية، وهكذا.

مرة أخرى أود أن أشدد على أن دراسة البروباجاندا يجب أن تُجرى في سياق المجتمع التكنولوجي، فيُستعان بالبروباجاندا في حل مشكلات خلقتها التكنولوجيا، كما تستغل البروباجاندا عجز الأفراد عن التأقلم مع تغيرات المجتمع للتأثير عليهم ودمجهم في العالم التكنولوجي. أكثر بكثير من كونها سلاح سياسي للنظام (وهي كذلك)، تعد البروباجاندا أثر المجتمع التكنولوجي الذي يحتضن الإنسان بكل ما فيه، ويميل هذا المجتمع إلى أن يكون مجتمعًا متكاملًا.

في الوقت الحالي، البروباجاندا هي المظهر الأعمق والأكثر مراوغة لهذا التيار. يجب أن ننظر إلى البروباجاندا في موقعها المركزي لقوى متنامية للدولة وللتقنيات الحكومية والإدارية. كثيرًا ما يقول الناس إن "كل شيء يعتمد على نوع الدولة التي تستخدم البروباجاندا" ولكن إذا فهما حقًّا الدولة التقنية، سندرك أن عبارة مثل هذه لا معنى لها. فالبروباجاندا ببساطة وسيلة تُستخدم لمنع الناس من الشعور بالقهر ولتقنعهم بالتسليم عن طيب خاطر بينما يزداد التنظيم التكنولوجي والميكنة. عندما يكتمل تكيف الإنسان مع هذا المجتمع التكنولوجي سينتهي به الحال أن يطيع بحماس، مقتنعًا بعظمة ما أُجبِر على فعله ولن يشعر بالتنظيم كقيد (والذي لم يعد قيدًا في حقيقة الأمر). ولن تجد الشرطة ما تفعله. وفي النهاية، الخير التكنولوجي والمدني والحماس للأساطير الاجتماعية المناسبة التي صنعتها البروباجاندا ستحل مشكلة الإنسان حلًا نهائيًا.

جاك إيلول

1962 م

جاك إيلول

وُلد في (بوردو) الفرنسية في 1912م. عاش طفولة فقيرة لكن سعيدة، وكان طالبًا نجيبًا. أتقن اللاتينية والألمانية، وبعد الانتهاء من المرحلة الثانوية، أراد أن يلتحق بالبحرية كضابط لكن والده أثناه عن ذلك، وأقنعه بدراسة القانون. حصل على الدكتوراه عام 1936م، وتخصص في القانون الروماني.

دَرّس القانون في الجامعات حتى طرده نظام (الفيشي) لأن والده كان أجنبيًا يحمل الجنسية الأسترالية والبريطانية. اضطر بعد ذلك للعمل في الزراعة لتوفير قوته وقوت عائلته، وقال في فترة لاحقة من حياته إنه كان فخورًا بجني محصول البطاطس بما يضاهي فخره بالنجاح في امتحان الأستاذية في القانون الروماني.

التحق بصفوف المقاومة لدعم الحلفاء ضد ألمانيا النازية، وبعد تحرير فرنسا، أصبح أستاذًا للقانون في (بوردو). عام 1947م، أصبح رئيسًا لقسم القانون والتاريخ الاجتماعي في معهد الدراسات السياسية. بحث في القانون والتكنولوجيا وعلم الاجتماع وعلم اللاهوت، وألف ما يقرب من ألف مقال وأكثر من 50 كتابًا كما تُرجمت كتبه إلى أكثر من 12 لغة. ذاع صيته كفيلسوف سياسي واجتماعي بارز في الولايات المتحدة الأمريكية بعد نشر كتبه "المجتمع التكنولوجي" و"البروباجاندا" و"الوهم السياسي" فضلًا عن ذلك، كان له مساهمات ونشاطات متعددة في الأوساط المسيحية والكنائس كما كان له مساهمات في أعمال خيرية ومجتمعية تتعلق بالشباب والبيئة. ترك عالمنا عام 1994م.

الفصل

الأول

1

خصائص البروباجاندا

لا يمكن للبروباجاندا الحديثة أن تعمل إلا في سياق النظام العلمي الحديث، ولكن ما هي البروباجاندا؟ ينظر الكثير من المراقبين إلى البروباجاندا على أنها مجموعة من الحيل والممارسات الجادة بعض الشيء.[1] فضلًا عن ذلك، غالبًا ما يرفض علماء النفس وعلماء الاجتماع الطبيعة العلمية لهذه الممارسات. فمن جانبنا، نتفق تمامًا أن البروباجاندا تقنية أكثر منها علم.[2] البروباجاندا تقنية حديثة تعتمد على فرع أو أكثر من فروع العلم. وتعتبر البروباجاندا كذلك تعبيرًا عن هذه الفروع العلمية وتسير معها وتشاركها في نجاحها وتشهد على فشلها. لم تعد البروباجاندا مجرد أمر لإلهام الفرد والذكاء الشخصي واستخدام الحيل البدائية. دَخَل الآن العلم البروباجاندا كما سنعرض من خلال أربع وجهات نظر فيما يلي:

أولًا، تعتمد البروباجاندا الحديثة على التحليل العلمي لعلم النفس وعلم الاجتماع، فيبني مروج البروباجاندا تقنيته خطوة بخطوة معتمدًا على معرفته بطبيعة الإنسان ورغباته وميوله واحتياجاته وطرائق تكييفه والآليات النفسانية.

---

(1) أغلبية علماء النفس وعلماء الاجتماع النفسانيين الفرنسيين لا يعتبرون البروباجاندا ممارسة جادة أو أن لها تأثير كبير.

(2) كان (ألبج) على حق عندما شدد على أن البروباجاندا لا يمكن أن تكون علم لأنها تُطبّق في مجال لا يمكن أن يكون فيه تعميمات سليمة أو عوامل ثابتة.

وبنفس الدرجة، تعتمد تقنيته على علم النفس الاجتماعي وتعتمد بعمق على علم النفس. ويعمل على تشكيل أساليب العمل على أساس معرفته بالجماعات وقواعد تشكيل هذه الجماعات وحلها، والمحددات البيئية والتأثيرات الجماعية. ولكن بدون البحث العلمي لعلم النفس وعلم الاجتماع الحديث، لن يكون هناك بروباجاندا، أو بالأحرى، سنكون في المراحل الأولية من البروباجاندا التي كانت موجودة منذ عصر السياسي اليوناني (بريكليس) أو الإمبراطور الروماني (أغسطس). وبكل تأكيد، لن يكون ممارسو البروباجاندا ضالعين في أي من فروع العلم هذه، وربما يسيؤن فهمها ولعلهم يتجاوزون الاستنتاجات الحذرة التي يتمسك بها علماء النفس، أو يدعون تطبيق اكتشافات معينة في علم النفس، ولكن، في الواقع، لا يمكن تطبيقها على الإطلاق.

إن دل كل هذا على شيء واحد فهو المحاولات لإيجاد طرائق جديدة: على مدار الخمسين سنة الماضية، سعى الناس إلى تطبيق العلوم النفسانية والاجتماعية، والمهم هنا أن البروباجاندا قررت أن تخضع لسلطة العلم وتستفيد منه. وهذا قطعًا يصدم علماء النفس الذين يصفون ذلك بأنه إساءة لاستخدام علمهم - لكن هذا رأي ضعيف لأن نفس الرأي ينطبق على علماء الفيزياء والقنبلة الذرية. على العالِم أن يعرف أنه يعيش في عالم يستخدم اكتشافاته. وفي النهاية، سيكتسب ممارسو

البروباجاندا فهمًا أفضل لعلم النفس وعلم الاجتماع وسيستخدمونه في زيادة دقة استنتاجاتهم، وتصير أكثر فعالية كنتيجة لذلك.

ثانيًا، البروباجاندا علم حيث إنها تميل لسن مجموعة من القواعد الصارمة والدقيقة والمُجَرَّبة. هذه القواعد ليست مجرد مقترحات، وإنما تفرض نفسها على كل ممارس للبروباجاندا يتمتع ببعض من الحرية في أن يسير وراء أهوائه. ولا بد أن يُطَبِّق صيغًا دقيقة تطبيقًا متزايدًا، ويجب أن تكون هذه الصيغ مناسبة لأي شخص عنده التدريب السليم - مثل أي تقنية تعتمد على العلم.

ثالثًا، ما نحتاجه اليوم هو التحليل الدقيق للبيئة والفرد الخاضعين للبروباجاندا. لم يعد الإنسان الموهوب قادرًا على تحديد المنهج أو المدخل أو الموضوع. كل هذا يمكن (أو يجب) إجرائه حسابيًّا في الوقت الحاضر. ومن ثم، سيكون نوع واحد من أنواع البروباجاندا مناسبًا في موقف ما، ولا فائدة له على الإطلاق في موقف آخر. ولكي نقوم بعملية فعالة للبروباجاندا يجب أن نجري التحليل العلمي والاجتماعي والنفساني أولًا، ثم نستخدم العلم الذي اتسعت قاعدته. ولكن، مرة أخرى نقول إن التدريب السليم ضروري لهؤلاء الذين يريدون أن يستخدموه استخدامًا فعال.

وأخيرًا، آخر سمة تكشفها الطبيعة العلمية للبروباجاندا هي المحاولات المستمرة للسيطرة على استخدامها وقياس نتائجها وتعريف آثارها. هذا في منتهى الصعوبة، ولكن لم يعد مروج البروباجاندا راضيًا بالنتيجة التي توصل إليها - أو التي يعتقد أنه توصل إليها - إذ إنه يبحث عن دليل دقيق. وحتى النتائج السياسية الناجحة لا ترضيه لأنه يريد أن يفهم كيف ولماذا حدثت وأن يقيس آثارها بدقة. وتدفعه روح التجريب والرغبة في تأمل النتائج. وكنتيجة، نستطيع أن نرى بداية المنهج العلمي. لا أحد ينكر أن هذا ليس شائعًا حتى الآن، وهؤلاء الذين يحللون النتائج ليسوا ممارسي بروباجاندا وإنما فلاسفة. وهذا يبرز فرقًا بعينه بين التخصصات وليس أكثر، وهذا يشير إلى أن البروباجاندا لم تعد فعلًا قائمًا بذاته

يغطي على الأفعال الشريرة، ولكنها موضوع نتمحصه، وكذلك فهو موضوع يسير بحذو القنوات العلمية.

لا يتفق البعض مع هذا، وكثيرًا ما نسمع عن علماء نفس يقللون من زعم الأساس العلمي لممارسي البروباجاندا، كما يرفضون زعمهم أنهم قد استخدموا تقنيات علمية. "علم الاجتماع الذي يستخدمه مروج البروباجاندا ليس علم اجتماع علمي." ولكن بعد نظرة متأنية على هذا الخلاف، نجد الخلاصة التالية: بروباجاندا (ستالين) تأسست على نظرية (إفن بافلوف) بشأن الاستجابة الشرطية، وبروباجاندا (هتلر) تقوم على نظرية (سجمند فرويد) عن الكبت والرغبة الجنسية، والبروباجاندا الأمريكية ترتكز على نظرية التعليم لـ(جون ديوي). أما الآن، إذا رفض عالم النفس فكرة الاستجابة الشرطية وشك في أنه يمكن خلقها في الإنسان، فسيرفض أيضًا تفسير (بافلوف) للظواهر النفسانية وسينتهي إلى أن كل البروباجاندا التي تستند إليها علم زائف.

ماذا يعني هذا إذًا؟ هل هذا يعني أن البروباجاندا لا تتكل على قاعدة علمية؟ بالطبع لا، بل تعني أن العلماء لم يتفقوا فيما بينهم على المناهج أو النتائج أو نطاقات علم النفس وعلم الاجتماع. عالم النفس الذي يرفض أية من نظريات زملائه يرفض أيضًا النظرية العلمية وليس فقط الاستدلالات التي يستخلصها الاختصاصي الفني. لا نستطيع أن نلوم مروج البروباجاندا إذا وثق في عالم نفس معين أو عالم اجتماع ذي نظرية مقبولة أُعتُرِف به عالمًا في وقت معين وبلد معين. علاوة على ذلك، يجب ألا ننسى أنه لو استخدم مروج البروباجاندا هذه نظرية ثم ثبت فعاليتها وأتت بنتائج، فستزداد مصداقيتها، ولن يستطيع نقد عقائدي بسيط أن يبرز فيها عدم الدقة.

1 . الخصائص الخارجية

الفرد والجماهير

أولًا، سيخاطب أي نوع من البروباجاندا الحديثة الفرد والجماهير في الوقت ذاته. لا يمكنها فصل العنصرين، ومن المستحيل للبروباجاندا أن تخاطب الفرد، في عزلته، منفصلًا عن الحشد. الفرد كوحدة منعزلة ليس مهمًا لمروج البروباجاندا؛ لأنه، وحده، يقاوم العوامل الخارجية مقاومة شديدة.

حتى تصبح البروباجاندا فعالة، لا يجب عليها أن تهتم بالتفاصيل، وذلك ليس فقط بسبب طول الفترة المطلوبة للسيطرة على الأفراد واحدًا تلو الآخر، بل أيضًا بسبب صعوبة غرس قناعات معينة في شخص معزول. تنتهي البروباجاندا عندما يبدأ الحوار البسيط. وذلك هو السبب وراء محدودية التجارب التي أجريت في الولايات المتحدة لقياس فعالية مناهج البروباجاندا أو فعالية الآراء على الأفراد المعزولين: فهي لا تعيد إنتاج الموقف الحقيقي للبروباجاندا. ومن ناحية أخرى، لا تستهدف البروباجاندا الجمهور أو الحشد فحسب؛ فالبروباجاندا التي لا تعمل إلا حيث يتجمع الأفراد بروباجاندا ناقصة.

وفضلًا عن ذلك، أي نوع من البروباجاندا يستهدف المجموعات فقط - كأن المجموعة جسد له روح وردود فعل ومشاعر مختلفة تمامًا من تلك التي يتميز بها الأفراد - ستكون بروباجاندا تجريدية وليس لها أي فعالية. تصل البروباجاندا الحديثة إلى أفراد وسط الجمهور كمشاركين، بل كذلك عندما تستهدف الحشد؛ ستستهدفه فقط كجسد يتكون من أفراد.

فماذا يعني هذا؟ أولًا، لا يُعتبر الفرد فردًا أبدًا، بل يُنظر له دائمًا من حيث ما يجمعه بالآخرين، مثل حوافزه ومشاعره وأساطيره. ويُختزل إلى الشائع والعادي بينه وبين الآخرين. باستثناء نسبة صغيرة، القرارات التي تقوم على العادي يكون لها تأثير. وعلاوة على ذلك، يعتبر الفرد جزءًا من الجمهور الذي يحتضنه (وبقدر

نستطاع فالفرد مندمج داخل الجمهور اندماج منهجي)، لأنّ دفاعاته النفسانية قد ضعفت نوعًا ما، وباتت ردود فعله أسهل للإثارة، واستفاد مروج البروباجاندا من عملية انتشار المشاعر بين الجمهور. وفي الوقت ذاته، استفاد من الضغوط التي يمر بها الفرد عندما يكون في جماعة.

العاطفية والاندفاع والإفراط، إلى آخره - كل هذه الخصائص للفرد المحاصر في الجمهور مألوفة ومفيدة جدًّا للبروباجاندا. ومن ثم، من المفروض ألا يُعتبر الفرد وحيدًا أبدًا؛ مع أنّ مستمع الإذاعة فعلا لوحده، لكنه جزءًا من مجموعة كبيرة، وهو يدرك ذلك. ثبت أن مستمعي الإذاعة يتسمون بعقلية جماعية. كلهم مرتبطون ببعضهم البعض ويؤسسون نوعًا من المجتمع حيث يشارك فيه كل الأفراد الذين يؤثرون على بعضهم البعض دون أن يعرفوا ذلك.

وينطبق الشيء نفسه على البروباجاندا التي تعمل عن طريق الزيارات من باب للباب (التواصل المباشر وجمع التوقيعات)؛ مع أنّه من الواضح أنّنا نتعامل هنا مع فرد واحد، لكننا نتعامل في الواقع مع وحدة يسيطر عليها حشد غير مرئي يتألف من جميع أولئك الذين أُجريت معهم مقابلات، والذين تُجرى معهم المقابلات في الوقت الحالي، والذين سوف تُجرى معهم مقابلات في المستقبل. وذلك لأنهم يتمسكون بأفكار متشابهة ويعيشون بنفس الأساطير، ولاسيما لأنّهم مستهدفين من قِبَل نفس المنظمة.

إن تكون مستهدفًا من حزبٍ أو إدارةٍ ما - يكفي أن يغرق الفرد في ذلك القطاع السكاني الذي يضعه مروج البروباجاندا نصب عينه؛ وهذه الحقيقة البسيطة تجعل الفرد جزءًا من الجمهور. فهو لم يعد مجهولًا، بل جزءًا من تيار يجري باتجاه معين. والتيار يجري من خلال الشخص المتجول لجمع الأصوات (وهو لا يتكلم باسمه، ولا يعبر عن آرائه الشخصية، بل يعتبر جزءًا واحدًا من إدارة أو منظمة أو حركة جماعية)؛ عندما يدخل غرفةً لصيد الأصوات، فيدخل معه الجمهور - الجمهور المنظم الموجه. لا توجد علاقة هنا بين رجل ورجل؛ إنّها

المنظمة التي تحاول استقطابه كفرد (جزء من جمهور في الأساس) لأنه - مثل الآخرين - يُعتبر هدف جامعي الأصوات.

من ناحية أخرى، عندما تخاطب البروباجاندا جمهورًا، يجب عليها إثارة كل فرد في ذلك الجمهور، أي في تلك المجموعة. ولتكون البروباجاندا فعالة، يجب أن تعطي الانطباع أنها مشخصنة، فمن اللازم ألا ننسى أبدًا أنّ الجمهور يتكون من أفراد، وفي الحقيقة، أن الجمهور ليس إلا الأفراد مجتمعين. في الواقع، مع أنّ الرجال في مجموعة، ومن ثم ضعفاء، وفي دور المتلقي، وفي حالة انحدار نفساني، فيتظاهرون أكثر أنّهم "أفراد أقوياء."

عندما يكون الرجل وسط الجمهور، من الواضح أنه يحتل مكانة أقل من باقي البشر، لكنه يتظاهر أنّه ذا قدرات خارقة. فيسهل إقناعه لكنه يصر على أنه أكثر قوة. فهو أقل استقرارًا لكنه يظن أن قناعاته ثابتة. إذا تعاملنا صراحةً مع الجمهور كأنه جمهورًا، فالأفراد الذين يشكلون هذا الجمهور سيشعرون بالتقليل من شأنهم، وسيرفضون المشاركة فيه.

إذا تعاملنا مع هؤلاء الأفراد كأطفال (وهم فعلًا أطفال لأنهم في مجموعة)، فلن يقبلوا توقعات قائدهم ولن يشعروا بالانتهاء له، وسينسحبون، وبالتالي لن نستطيع أن نأخذ أي شيء منهم. وعلى العكس، من المفروض أنّ يشعر كل منهم بأنه مختلف عن الآخرين، ومن المفروض أن تخاطبه البروباجاندا مخاطبة شخصية، وتجعله يشعر أنها تنظر له. هذه هي الطريقة الوحيدة إذا أردناه أن يستجيب وألا يكون مجهولًا (مع أنّه في الواقع سيظل كذلك).

ومن ثم، تستفيد كل أنواع البروباجاندا الحديثة من بناء الجمهور، لكنها تستغل احتياج الفرد إلى تأكيد الذات؛ ومن اللازم أن يتوفر هذين الشرطين معًا وفي الوقت ذاته. وبالطبع، تتسهل هذه العملية كثيرًا في وجود وسائل الإعلام الجماهيرية الحديثة والتي تتمتع بهذا التأثير الملحوظ في الوصول إلى الحشد كله في اللحظة ذاتها، بينما تصل إلى كل واحد في ذلك الحشد.

قُراء الجريدة المسائية، ومستمعو الإذاعة، ومشاهدو الأفلام أو التلفاز بتأكيد يشكلون جمهورًا ذا وجود عضوي، غير أنه منتشرًا وليس مجمعًا في مكان واحد. هؤلاء الأفراد يتأثرون بنفس الحوافز، ويحسون بنفس الاندفاعات والانطباعات، ويجدون أنفسهم مركزين على نفس مراكز الاهتمام، ويمرون بالمشاعر نفسها، وعندهم تقريبًا نفس نمط ردود الفعل والأفكار، ويشاركون في نفس الأساطير - وكل هذا في نفس الوقت: فما لدينا هنا هو فعلًا جمهور نفساني، إن لم يكن بيولوجيًا.

ووجود الأفراد داخل الجمهور قادرًا وحده على تغييرهم حتى إذا لم يدركوا ذلك. لكن كل فرد على حدة - قارئ الجريدة، ومستمع الإذاعة. ومن ثم، يشعر بأنه مهتم فرديًا كشخص وكمشترك. ويصبح مشاهد الفيلم أيضًا وحده مع أنه يجلس حذاء أقرانه إلا أنه لا يزال وحيدًا تمامًا بسبب الظلام وجاذبية الشاشة المنومة. وهذا وضع "الحشد الوحيد" أو وضع عزلة الفرد وسط الجمهور، وهو نتاج طبيعي للمجتمع الحالي الذي تستخدمه وسائل الإعلام الجماهيرية وتعززه. تأتي أفضل لحظة للسيطرة على الإنسان والتأثير عليه عندما يكون وحده وسط الجمهور: ففي تلك اللحظة يمكن أن يكون للبروباجاندا عظيم التأثير.

ويجب التأكيد على هذه الدائرة (والتي سنقابلها كثيرًا): هيكل المجتمع المعاصر يضع الفرد حيث يمكن الوصول إليه بأسهل طريقة ممكنة عن طريق البروباجاندا. ووسائل الاتصال الجماهيري، والتي تعد جزءًا من الثورة التكنولوجية في هذا المجتمع، تعزز الوضع السائد وتمكّن البروباجاندا من الوصول إلى الفرد المتوحد مع الجمهور؛ وما تفعله هذه الوسائل هو بالضبط ما يجب على البروباجاندا أن تفعله لتحقيق أهدافها.

في الواقع، ليس هناك بروباجاندا بدون استخدام وسائل الإعلام الجماهيرية هذه. ولو بالصدفة خاطبت البروباجاندا مجموعة منظمة، فمن الناحية العملية لا

يكون لها أي تأثير على الأفراد قبل تفكيك تلك المجموعة.[1] ويمكن تحقيق هذا النوع من التفكيك من خلال الفعل، وبوسائط نفسانية على حد سواء.

تغيير مجموعات صغيرة جدًّا تغيير جذري بوسائط نفسانية خالصة من أهم تقنيات البروباجاندا. ومن ثم، لا يمكن لتأثير البروباجاندا أن يكون شاملًا إلا بعد القضاء على هذه المجموعات الصغيرة، عندما لا يجد الفرد دفاعات إضافية، ولا توازن، ولا مقاومة من المجموعة التي ينتمي إليها.[2]

البروباجاندا الشاملة

يجب أن تكون البروباجاندا شاملة وأن تستخدم كل الوسائل التقنية المتاحة - الصحافة والإذاعة والتلفاز والأفلام والملصقات والاجتماعات، وجمع الأصوات من الباب إلى الباب. يجب أن تستخدم البروباجاندا الحديثة *كل* هذه الوسائط. لن يكون هناك بروباجاندا إذا استخدم مروج البروباجاندا هذه الوسائل استخدامًا عشوائيًّا ومتقطعًا: مقالة في صحيفة في حين، وملصق أو برنامج إذاعي في حين آخر، أو تنظيم بعض الاجتماعات والمحاضرات حينًا، وكتابة بعض الشعارات على الجدران حينًا آخر. فهذه ليست بروباجاندا. كل وسيلة متاحة لها طريقتها الخاصة للتغلغل في عقلية المستهدفين، فهي محلية ولها استخدام محدد. ولكنها محدودة إذ لا يمكنها وحدها مهاجمة الفرد أو تبديد مقاومته أو اتخاذ قراراته بالنيابة عنه. الفيلم لا يستغل نفس الدوافع ولا يثير نفس المشاعر أو ردود الفعل كما تفعل الصحيفة. تشير محدودية فعالية كل وسيلة إلى ضرورة تكملتها بوسائل أخرى. يختلف تأثير الكلمة التي تسمعها في الإذاعة عن

---

(1) أثبت (إدوارد شلز) و(موريس جانواتز) أهمية الجماعة في نظر البروباجاندا، فقالا إن الألمان لم يستسلموا مبكرًا في الحرب العالمية الثانية لأن جماعات مختلفة في الهيكل العسكري كانت متماسكة ولا يمكن للبروباجاندا أن تؤثر على الجماعات إلا إن كانت هشة: لعبة الآراء ليس لها إلا قليل من الأهمية نسبيًّا. انظر إلى الملحق 1

(2) انظر إلى الملحق 2

تأثير نفس الكلمة في حوار خاص أو في خطاب عام أمام حشد كبير. ولجذب الفرد إلى شبكة البروباجاندا يجب استخدام كل أسلوب بطريقته الخاصة التي تهدف إلى التوصل إلى التأثير الخاص بها، ثم ينصهر هذا الأسلوب مع الوسائل الأخرى. فكل أسلوب يصل إلى الفرد بشكل معين ويدفعه للاستجابة بطريقة جديدة للأمر ذاته - في نفس الاتجاه، ولكن بشكل مختلف. وفي ضوء هذا، لا يمكن ترك أي جزء من الحياة الثقافية أو العاطفية حيث يجب أن تطوق وسائل البروباجاندا الإنسان من كل جانب.

ويجب أيضًا أن نضع في الاعتبار أن هذه الوسائط لا تصل إلى الجمهور بنفس الطريقة. فالذين يشاهدون الأفلام ثلاث مرات أسبوعيًّا يختلفون عن هؤلاء الذين يقرأون الصحف بعناية. وبالتالي يلزم استخدام كل أداة من أدوات البروباجاندا استخدام منظم حسب الجمهور المستهدف لتصل إلى أكبر عدد ممكن من الأفراد. على سبيل المثال، يعتبر الملصق وسيلة شائعة للوصول إلى أولئك الذين لا يملكون سيارات بينما تستمع النخبة إلى الإذاعة. وفي النهاية، يجدر الذكر أن لكل الوسائط جانب تخصصي ثالث سنتحدث عنه لاحقًا عندما نحلل الأشكال المتنوعة للبروباجاندا.

كل وسيلة مناسبة بشكل خاص لنوع معين من البروباجاندا. تعد الأفلام والاتصال الإنساني أفضل وسيلة للبروباجاندا الاجتماعية من حيث المناخ الاجتماعي والاختراق البطيء والتقدم التدريجي والاندماج الشامل. وتعتبر الاجتماعات العامة والملصقات أدوات أكثر ملاءمة لبروباجاندا الصدمة - وهي شديدة، ولكن مؤقتة - وتؤدي إلى اتخاذ إجراءات فورية. تميل الصحافة إلى تشكيل وجهات نظر لعامة الناس بينما يمكن أن تُستخدم الإذاعة كأداة للحرب النفسانية وإجراءات على الصعيد الدولي أما الصحافة تُستخدم محليًّا. على أي حال، بسبب هذا النوع من التخصص، لا يمكن الاستغناء عن أية من هذه الأدوات - من الضروري أن نستخدمها كلها مجتمعة. يستخدم مروج البروباجاندا لوحة مفاتيح ويؤلف مقطوعة موسيقية.

تتعلق البروباجاندا بالوصول إلى الإنسان والإحاطة به وبالآخرين، وتحاول أن تحيط به بكل الطرائق الممكنة - في عالم المشاعر والأفكار- وأن تستغل إرادته واحتياجاته في الوعي واللاوعي، وتهاجمه في حياته العامة والخاصة. تعطي البروباجاندا الإنسان نظامًا كاملًا لتفسير العالم وتزويده بالحوافز الفورية للتصرف. فنحن الآن أمام أسطورة منظمة تحاول السيطرة على الإنسان سيطرة تامة. ومن خلال هذه الأسطورة التي خلقتها، تفرض البروباجاندا مجموعة متكاملة من المعارف البديهية التي تسمح بتأويل فريد أحادي يستبعد أي اختلاف. تقوى هذه الأسطورة إلى أن تغزو كل جانب من جوانب الوعي وتهاجم كل قدرات الإنسان وحوافزه. وكذلك تثير عند الفرد الشعور بالتفرد وتخلق فيه موقفًا منحازًا.

للأسطورة قوة دافعة عظيمة - إذا قبلها الفرد - تصبح قادرة على التحكم فيه حتى أنه يتحصن ضد أي مؤثرات أخرى. هذا التأثير يفسر الموقف الشمولي الذي يتبناه الفرد - أينما تنشأ الأسطورة بنجاح - وهذا أيضًا يعكس الفعل الشمولي للبروباجاندا على الفرد.

لا تسعى البروباجاندا لغزو الإنسان فقط، بل كذلك لدفعه إلى تبني مواقف خرافية، والوصول إليه عبر كل القنوات النفسانية. فضلًا عن ذلك، تخاطب البروباجاندا كل الناس، فهي لا تكتفي بنجاح جزئي لأنها لا تقبل أي نوع من النقاش. فالبروباجاندا بطبيعتها تستبعد التناقضات والمناقشات. ما دام هناك توترٌ ملحوظٌ أو معلنٌ، أو نزاعٌ بين الأفعال فلن يكون ممكنًا أن نقول إن البروباجاندا قد حققت هدفها.

من اللازم أن تنتج البروباجاندا إجماعًا ظاهريًا وأن يتضاءل حجم المعارضة أو تصمت. يجب أن تهزم البروباجاندا القصوى العدو أو - على الاقل - تستخدمه عن طريق دمجه داخل إطارها المرجعي. هذا يفسر أهمية اختيار شخص إنجليزي ليتحدث في الإذاعة النازية أو أن يتكلم اللواء (فريدريش باولوس) في

الإذاعة السوفيتية - ولماذا كان في غاية الأهمية لبروباجاندا الفلاقة أن تستخدم مقالات في مجلة *(L'Observateur)* ومجلة *(L'Express)* ولماذا اهتمت البروباجاندا الفرنسية بالحصول على بيانات من الفلاقة التائبة.

من الواضح أن الهدف الأكبر الذي حققته البروباجاندا السوفيتية كان نقد أعداء الاتحاد السوفيتي لذواتهم. إن عدو النظام (أو عدو فصيل في السلطة) يمكن أن يعلن - *بينما لا يزال العدو* - أن هذا النظام كان على حق، وأن معارضته كانت ظالمة وأن إدانة الخصوم كانت عادلة. هذه هي النتيجة النهائية التي تصبو إليها البروباجاندا الشمولية.

العدو (بينما يظل العدو، ولأنه العدو) يصبح مؤيد للنظام. هذه ليست مجرد وسيلة مفيدة وفعالة للبروباجاندا. من الجدير بالذكر أن بروباجاندا النقد الذاتي، تحت نظام (خروتشوف)، استمرت في العمل كما عملت في السابق (النقد الذاتي للواء (نيكولاي بولكانين) كان أبرز مثالًا لذلك). هنا نرى آلية البروباجاندا الشاملة المفترسة - لا يمكن أن تترك أي جزء من الرأي خارج مجالها - لا يمكن أن تتسامح مع أي نوع من الاستقلال. يجب إعادة كل شيء إلى هذا المجال الفريد للفعل الذي يُعد غاية في حد ذاته ولا يمكن تبريره إلا إذا انتهى الحال بكل إنسان تقريبًا بالمشاركة فيه.

هذا يقودنا إلى جانب آخر من البروباجاندا الشاملة: من اللازم على مروج البروباجاندا أن يجمع عناصر البروباجاندا كأنها تزامنت معًا. فمن ناحية، عليه أن يضع في اعتباره المثيرات المستخدمة في وقت بعينه، وعليه أن ينظمها. والنتيجة ستكون "حملة" البروباجاندا.[1]

---

(1) أُجريت كثير من التحليلات لموضوعات مختلفة، وأولها أجراه معهد تحليل البروباجاندا، راجع:

(Eugene L. Hartley: *Fundamentals of Social Psychology*. New York: Alfred A. Knopt; 1952).

وهناك تحليل أعمق لاستراتيجية (لينين) للبروباجاندا: أول مرحلة هي خلق =

من ناحية أخرى، يجب على مروج البروباجاندا أن يستخدم أدوات مختلفة ترتبط ببعضها البعض. بالإضافة إلى الإعلام الجماهيري، تستخدم البروباجاندا الرقابة والنصوص القانونية والتشريعات المقترحة والمؤتمرات الدولية وما إلى ذلك، وهكذا تُضاف العناصر التي تبدو غريبة إلى البروباجاندا. وضروري ألا نعتمد على الإعلام فحسب، بل للتعاملات الشخصية فعالية متزايدة أيضًا. وكذلك تلعب المناهج التعليمية دورًا كبيرًا في التلقين السياسي (لينين وماو).

يعتبر مؤتمر حول عقيدة (لينين) للدولة بروباجاندا. المعلومات مفيدة جدًّا للبروباجاندا كما سنرى. "المهمة الكبرى للمحرض هي شرح الوضع الراهن شرحًا صحيحًا." أكد ماو في عام 1928م أن إطلاق سراح السجناء بعد تعرضهم لغسيل الدماغ كان نوعًا فعالًا للبروباجاندا. وكذلك الاعتناء بأسرى

= البروباجاندا في كل منظمة مركزية يعمل فيها أشخاص مشبعون بمعتقدات راسخة. المرحلة الثانية هي التعاون بين الحلفاء في المهمات السياسية التي تؤثر عليهم وتضعفهم. المرحلة الثالثة تأتي عندما تصل البروباجاندا إلى أقصى تأثير، وذلك يحدث عندما تضعف معنويات الخصوم. (النصر الشيوعي لا بد أن يأتي، وظلم قضية الخصم لا بد أن يظهر، وأساليبه لا بد أن تفشل، إلخ). تم تحليل نوع حملات هتلر تحليلًا جيدًا:

(Curt Riess: *Joseph Goebbels: A Biography* [New York: Doubleday and Company; 1948)

هذا التحليل أظهر التوقيت الدقيق للحظة بداية الحملة ونهايتها، ووقت الصمت وأوقات الهجمات الكلامية، ووقت استخدام الشائعات والمعلومات المحايدة والتعليقات والاجتماعات الحاشدة، وفوق كل هذا، وقت استهداف "النار المركزة" لنقطة معينة وموضوع معين وعدو محدد وفكرة محددة - تستخدم الحملة هذا التركيز لكل وسائل الإعلام، ولكن تدريجيًا حتى تكون الهجمات على الناس تدريجية.

(Jerome S. Bruner, In Katz et al.: *Public Opinion and Propaganda* [New York: Dryden Press; 1954)

أيضًا حلل حملة هتلر تحليلًا صائبًا. وكتاب آخر عن حملات البروباجاندا بشكل عام هو:

(Leonard W. Doob: *Propaganda: Its Psychology and Technique* [New York: Henry Holt II: Company; 1935)

العدو المصابين أظهرت خير الشيوعيين. كل شيء يمكن أن يكون وسيلة لخدمة البروباجاندا التي يجب أن تستخدم كل شيء.

وبهذه الطريقة تصبح الدبلوماسية جزءًا لا يتجزأ من البروباجاندا. سنناقش هذا في الفصل الرابع. وكما أثبتت لنا إمبراطورية (نابليون) للمرة الأولى، يجب على البروباجاندا التحكم في التعليم والتدريب. لا يمكن السماح بأي تعارض بين التعليم والبروباجاندا، ولا بين روح النقدية التي يشكلها التعليم العالي واستبعاد الفكر المستقل. على مروج البروباجاندا أن يستخدم تعليم الشباب لتكييفهم مع ما سيأتي في المستقبل. يجب أن تتغير المدارس وجميع أساليب التدريس تغييرًا جذريًا في ظل هذه الظروف حيث يندمج الطفل داخل المجموعة الممثلة بحيث يتسامح الأقران - وليس السلطات - مع شخص مستقل فكريًا. وعلى الدين والكنائس أن تتقيد بالتمسك بأماكنها في الأوركسترا إذا أرادت النجاة.[1] صاغ (نابليون) عقيدة البروباجاندا الكنيسية صياغة واضحة. بالإضافة لذلك، تستخدم البروباجاندا الجهاز القضائي.[2]

---

(1) كان الحال كذلك في الكنيسة الأرثوذكسية في الاتحاد السوفيتي إبان الحرب.

(2) هناك مثال على ذلك من فرنسا: محاكمة شبكة جونسون (سبتمبر/ أيلول 1960م) والتي ساعدت البروباجاندا ضد العصيان ومساندة جبهة التحرير الوطنية. من اللافت للنظر أن نجد الفكرة ذاتها في المحاكمات "التعليمية" في كتابات (جوزيف جوبلز) عن الفقهاء القانونين السوفيتيين. حتى القانون نفسه في الاتحاد السوفيتي كان أداة للبروباجداندا التي تهدف إلى تحبيب الناس في النظام السوفيتي. فالمحكمة أداة لإلقاء الخطب على الشعب. وأخيرًا، أظهر لنا ماو كيف يمكن للجيش أن يصبح أكثر أداة فعالة للبروباجاندا ليس فقط للجنود داخله، ولكن أيضًا للشعب تحت الاحتلال. حاول الجيش الفرنسي أن يفعل الشيء ذاته في الجزائر لكنه لم يحظ بنجاح كبير. من الجلي أن حتى المعلومات نفسها تعتبر بروباجاندا، أو لنتحرى الدقة، أينما ظهرت البروباجاندا، ويلي ذلك ليس محتوم بين المعلومات والبروباجاندا. وحتى الترفيه والمشتتات والألعاب يمكنها أن تُستخدم كأدوات للبروباجاندا كما كانت الأفلام للأطفال (في الاتحاد السوفيتي) والألعاب التي أُستخدمت في المجموعة الأمريكية للعمل الاجتماعي.

بالطبع، يمكن للمحاكمة أن تكون نقطة انطلاق رائعة للبروباجاندا للمتهمين الذين يستطيعون نشر أفكارهم خلال مرافعاتهم الدفاعية، وكذلك يستطيعون التأثير في الناس الذي يشاهدون عناء العقوبات التي تقع على هؤلاء المتهمين. هذا ما يحدث في الديمقراطية لكن العكس صحيح في الدول الديكتاتورية التي تصنع البروباجاندا حيث يضطر القاضي أن يعلّم الناس درسًا من خلال المحاكمة: الأحكام تربوية. نحن ندرك مدى أهمية الاعترافات في المحاكمات الاستعراضية الكبرى (على سبيل المثال، حريق مبني مجلس نواب الرايخستاج الألماني، ومحاكمات موسكو عام 1936م، ومحاكمات (نورنبرج) لمجرمي حرب القيادة النازية، ومحاكمات أخرى لا حصر لها في الديمقراطيات الشعبية بعد عام 1945م).

وأخيرًا، ستستولي البروباجاندا على الأدب (المعاصر والقديم) والتاريخ الذي يجب إعادة كتابته وفقًا لاحتياجات البروباجاندا. من اللازم ألا نقول: هذا حدث على يد حكومات استبدادية شمولية غاشمة. في واقع الأمر، هذه نتيجة البروباجاندا *ذاتها*. تحمل البروباجاندا في طياتها - بضرورة جوهرية - القدرة على السيطرة على كل ما يمكن أن يخدمها. دعونا نتذكر المثال البريء للبروباجاندا الديمقراطية الليبرالية الجمهورية التي، دون تردد، استولت على أشياء كثيرة في القرن التاسع عشر (ربما دون إدراك ذلك وبحسن نية، لكن هذا ليس عذرًا). دعونا نتذكر الديمقراطية الأثينية والجمهورية الرومانية وحركة البلديات في العصور الوسطى وعصر النهضة والإصلاح. حرّف البلاشفة التاريخ الروسي تقريبًا بنفس الدرجة التي حرّف بها الآخرون تاريخ العالم. من ناحية أخرى، نعلم كيف استولت البروباجاندا على أدب الماضي، وزودته بالسياقات والتفسيرات المصممة لإعادة دمجه في الحاضر. من بين آلاف الأمثلة، سنختار مثالًا واحدًا فقط:

كتب الشاعر الصيني (ماو دان) في مقال في الصحيفة الروسية (*Pravda*) في مايو/ أيار 1957م أن شعراء الصين القدامى استخدموا الكلمات التالية للتعبير

عن سعي الناس نحو حياة أفضل: "الزهور تعطر الهواء، والقمر يضيء، وللإنسان حياة مديدة." وأضاف: "اسمحوا لي أن أقدم تفسيرًا جديدًا لهذه الكلمات الشعرية. " الزهور تعطر الهواء" تعني أن زهور فن الواقعية الاشتراكية جميلة جمالًا لا مثيل له. "يضيء القمر" تعني أن (سبوتنيك) قد فتح حقبة جديدة في غزو الفضاء. "للإنسان حياة مديدة" تعني أن الاتحاد السوفيتي العظيم سيعيش آلاف السنين.

عندما يقرأ الشخص العادي هذه الكلمات يبتسم، ولكن إذا قرأها ألف مرة ولم يقرأ غيرها، لا بد أن يتغير شيء ما فيه. ويجب أن نفكر مليًّا في تحول المنظور الذي عانى منه بالفعل مجتمع بأكمله والذي وزعت وانتشرت فيه نصوص مثل هذه بالآلاف - مع العلم أنه ليس فقط السلطات، ولكن أيضًا المثقفين، يأخذون مثل هذه النصوص على محمل الجد. هذا التغيير الكامل في رؤية العالم يعتبر الملمح الشمولي الأساسي للبروباجاندا.

أخيرًا، من اللازم ألا يستخدم مروج البروباجاندا جميع الأدوات فقط، بل أشكال مختلفة للبروباجاندا كذلك. هناك العديد من الأنواع للبروباجاندا على الرغم من وجود ميل هذه الأيام إلى الجمع بينها. يجب أن يسبق البروباجاندا المباشرة (التي تهدف إلى تغيير الآراء والمواقف) البروباجاندا البطيئة العامة ذات الطابع الاجتماعي والتي تسعى إلى تهيئة مناخ أو جو من المواقف الأولية المواتية. لا يمكن للبروباجاندا المباشرة أن تعمل لو لم يأت قبلها بروباجاندا مسبقة والتي ستظل محدودة في عملها على خلق حقائق غامضة أو تحجيم التحيزات أو نشر الصور دون هدف على ما يبدو - لو لم تتسم بعدوان مباشر وملحوظ.

يصبح المشاهد أكثر استعدادًا للاعتقاد بعظمة فرنسا عندما يشاهد عشرات الأفلام عن النفط أو السكك الحديدية أو الطائرات الفرنسية. من اللازم أن تكون الأرض مستعدة اجتماعيًا قبل أن نقوم بالحرث المباشر. من الممكن أن نقارن

البروباجاندا الاجتماعية بالحرث، والبروباجاندا المباشرة بالزراعة - فلا يمكن فعل واحد دون الآخر أولًا. يجب استخدام كلتا التقنيتين لأن البروباجاندا الاجتماعية وحدها لن تحفز أحد ليغير أفعاله، وإنما ستتركه في حياته اليومية دون أن تدفعه إلى اتخاذ أي قرارات. فبروباجاندا الكلمات وبروباجاندا الأفعال يكملان بعضهما البعض. وعلى ذلك، يجب أن يتوافق الكلام مع الفعل المرئي - من اللازم أن يتضح العنصر النشط المرئي من خلال الكلام. ومن اللازم تعزيز بروباجاندا الأفعال (التي تنتج مواقف جديدة وبالتالي تُدخل الفرد بالكامل في حركة معينة) والبروباجاندا الشفوية أو المكتوبة (التي تستغل الآراء أو المشاعر). هنا، مرة أخرى، لا يمكن أن يكون لديك واحدة دون الأخرى.

علينا أيضًا أن نميز بين البروباجاندا السرية والبروباجاندا العلنية. الأولى تميل إلى إخفاء أهدافها وهويتها وأهميتها ومصدرها. لا يدرك الناس أن هناك شخصًا ما يحاول التأثير عليهم ولا يشعرون أن شخصًا يحاول دفعهم في اتجاه معين. وغالبًا ما يسمى هذا "البروباجاندا السوداء." كما أنها تستخدم الغموض والصمت. النوع الآخر، "البروباجاندا البيضاء،" صريحة وعلانية. يوجد وزارات للبروباجاندا؛ وتعتبر هذه الوزارات اعترافًا بصناعة البروباجاندا؛ مصدرها معروف؛ أهدافها ونواياها محددة. والجمهور على دراية أن هذه البروباجاندا تحاول التأثير عليهم. يضطر مروج البروباجاندا إلى استخدام كلا النوعين، للجمع بينهما، لأنهما يحققان أهدافًا مختلفة. إن البروباجاندا العلنية ضرورية لمهاجمة الأعداء؛ هي وحدها قادرة على طمأنة الأفراد - إنها مظهر من مظاهر القوة والتنظيم الجيد، ورمزًا للنصر.

لكن، تصبح البروباجاندا السرية أكثر فاعلية إذا كان الهدف منها دفع المؤيدين في اتجاه معين دون أن يشعروا بذلك. كذلك من الضروري استخدام البروباجاندا السرية في حين واستخدام العلنية في حين آخر على نفس المجموعة -

كان النازيون يعرفون جيدًا كيف يتناوبون في استخدام فترات طويلة من الصمت الطويل (الغموض)، والسر المكشوف، وفترة الانتظار التي ترفع مستويات القلق، ثم يأتي القرار العاصف الهائج فجأةً، العاصفة التي تبدو أكثر عنفًا لأنها تكسر الصمت.

وأخيرًا، نعلم جيدًا أن جمع البروباجاندا السرية والعلنية معًا يحدث أكثر وأكثر حتى تصبح البروباجاندا البيضاء فعليًا غطاءً وقناعًا للبروباجاندا السوداء - أي يكون وجود نوع من أنواع البروباجاندا علني وصريح، وكذلك يكون تنظيمها ووسائلها وأهدافها. ولكن كل هذا ليس سوى واجهة لجذب انتباه الأفراد ولإضعاف غريزتهم للمقاومة، بينما يعمل أفراد آخرون، خلف الكواليس، على الرأي العام في اتجاه مختلف تمامًا، ساعين إلى إثارة ردود فعل مختلفة للغاية، مستغلين حتى المقاومة الموجودة ضد البروباجاندا.[1]

دعونا نعطي مثالًا أخيرًا على هذه التشكيلات من الأنواع المختلفة من البروباجاندا. قَسَّم (لازويل) البروباجاندا إلى تيارين رئيسيين طبقًا لنوع التحريض الذي تثيره البروباجاندا: إما تحريض مباشر وإما غير مباشر. يتصرف

(1) يمكن أن يكون الملمح السري "شقًا" مستقلًا نظريًا، شبكة من الشائعات وما إلى ذلك. تؤدي مقارنة الطرائق الحقيقية للفعل إلى التأثير ذاته، ولكن لا يُعترف بهذه الطرائق أبدًا - مع تصريحات مختلفة للبروباجاندا العلنية. هذا هو النظام الأكثر شيوعًا في الاتحاد السوفيتي. في هذه الحالة، يلزم وجود البروباجاندا العلنية، وهو ما أكده (جوبلز): "نحن نعترف علنًا أننا نتمنى أن نؤثر على الناس. وهذا الاعتراف هو أفضل طريقة للتوصول إلى هذا التأثير." وبالتالي تدشين وزارة رسمية للبروباجاندا يمثل هذا الاعتراف. على أي حال، كما قال (جوبلز) أيضًا، يجب استخدام البروباجاندا السوداء السرية عندما يكون الهدف نشر أخبار لا يمكن تصديقها. بالنسبة إلى الرقابة، يجب أن تكون خفية وسرية قدر الإمكان. علاوة على ذلك، على كل مروجي البروباجاندا الجادين أن يعوا أن الرقابة يجب أن تُستخدم في أضيق الحدود.

مروج البروباجاندا نفسه عن طريق التحريض المباشر، ويشارك في هذا التحريض ويعبر من خلاله عن معتقداته وإيمانه الصادق. فيُلزم نفسه بمسار العمل الذي يقترحه ويدعمه. ولكي يتوصل إلى إجراء مشابه، يلتمس استجابة مكافئة من متلقي البروباجاندا. إن البروباجاندا الديمقراطية - التي يمد فيها السياسي يده إلى المواطن - من هذا النوع. التحريض غير المباشر هو الذي يقوم على الاختلاف بين رجل الدولة، الذي يتصرف، وعامة الناس، الذين لا يقومون بأي شيء إلا القبول السلبي والامتثال. هناك التأثير القسري وهناك الطاعة - هذه واحدة من خصائص البروباجاندا السلطوية.

بالرغم من أن هذا الاختلاف لا يجدي نفعًا على الإطلاق، من اللازم أن نشير مرة أخرى إلى أن كل ممارس للبروباجاندا الحديثة يجمع نوعي البروباجاندا لأن كل نوع يخاطب قطاعات مختلفة من الفعل. هذان النوعان لا ينتميان إلى الأنظمة السياسية المختلفة كما كان الحال في الماضي، بل يسدان الاحتياجات المختلفة للنوع الواحد من البروباجاندا ولمستوياتها المختلفة والتي عليها يقوم تنظيم البروباجاندا.

تتطلب بروباجاندا الأفعال التحريض الإيجابي؛ لكن البروباجاندا (عبر وسائل الإعلام الجماهيري) سوف تتعارض بشكل عام مع التحريض. وبالمثل، على مستوى اتصال المنفذ المباشر مع الحشد، يجب أن يكون هناك تحريض إيجابي (وسيكون الأمر أفضل إذا كان المتحدث في الإذاعة يؤمن فعلًا بقضيته)؛ وعلى مستوى منظم استراتيجية البروباجاندا، يلزم الانفصال من الجمهور. (سنعود لهذه النقطة أدناه) وسنكتفي بهذه الامثلة التي تثبت أن البروباجاندا يجب أن تكون شاملة.

مدة البروباجاندا واستمراريتها

من اللازم للبروباجاندا أن تكون دائمة ومستمرة - مستمرة بمعنى أنها لا تترك أي ثغرات، بل تملأ يوم المواطن كله؛ ودائمة بمعنى أنها طويلة الأجل في عملها.[1] تميل البروباجاندا إلى خلق عالم منفصل يعيش فيه الفرد إذ إنه لا يجب أن يكون له نقاط مرجعية خارجية. ولا يمكن السماح له بالتأمل أو بأن يرى نفسه في مواجهة مع مروج البروباجاندا، وهذا ما يحدث عندما لا تكون البروباجاندا استمرارية. وفي تلك اللحظة، يخرج الفرد من قبضة البروباجاندا.

وعلى النقيض من ذلك، فالبروباجاندا الناجحة ستشغل كل لحظة في حياة الفرد: عن طريق الملصقات ومكبرات الصوت عندما يمشي في الشوارع، وعبر الإذاعة والصحف عندما يكون في البيت، ومن خلال الاجتماعات والأفلام في المساء. ولا يجب السماح للفرد أن يتعافى أو أن يتمالك نفسه أو أن ينفصل تمامًا من البروباجاندا لوقت طويل لأنها تعتمد على الانتشار المتواصل والبطيء - البروباجاندا ليست لمسة عصا سحرية.

تخلق البروباجاندا قناعات داخل الفرد وتجعله يمتثل عبر تأثيرات تدريجية تستقي فعاليتها من التكرار المستمر فقط. من اللازم أن تخلق بيئة متكاملة يظل فيها الفرد للأبد. ولكي تمنع الفرد من أي نقطة مرجعية خارجية، تمارس البروباجاندا الرقابة على أي شيء يأتي من العالم الخارجي. التراكم البطيء لردود الفعل وللأساطير وللبيئة النفسانية وللتحيزات يتطلب بروباجاندا طويلة الأمد. ليست البروباجاندا حافزًا يتلاشى سريعًا؛ بل تتألف من بواعث وصدمات

---

(1) مبدأ التكرار الشهير والذي ليس له أي أهمية في ذاته لكنه يلعب دورًا في هذا الموقف فقط. مما لا جدال فيه أن (هتلر) كان على حق عندما قال إن الجماهير يأخذون وقتًا طويلًا للفهم والتذكر ولذلك وجب التكرار. ولكن، التركيز هنا على "الوقت الطويل" فيجب تكييف عامة الناس لقبول مزاعم معينة. على أي حال، يجب أن يتوقف التكرار عندما يتكيف الناس مع هذه المزاعم لأنه في هذه المرحلة سيبدأ التكرار في استفزازهم ودفعهم للشك فيما كانوا على يقين منه.

متعاقبة تستهدف شتى المشاعر أو الأفكار عبر وسائل متعددة ذكرناها سلفًا. وبالتالي، يتأسس نظام تناوب العمل بحيث يستمر العمل دون فشل أو انقطاع: إذا وهن تأثير باعث من البواعث، يحل آخر محله فورًا. وبذلك يستمر المتلقون في التعرض لتأثيراتها. وعندما تزول صدمة من الصدمات، تخلفها صدمة جديدة.

تتجاوز البروباجاندا المستمرة قدرات الفرد للتكيف أو الانتباه وبالتالي قدراته على المقاومة. سمة الاستمرارية هذه تفسر سبب استغراق البروباجاندا في التغيرات والتحولات المفاجئة.[٦] من المفاجئ دائمًا ألا يكون محتوي البروباجاندا متسقًا بحيث يدعم اليوم شيئًا أدانه أمس. يعتبر (أنتونيو ميوتو) قابلية البروباجاندا للتغير إشارة إلى طبيعتها. في حقيقة الأمر، هي إشارة إلى قوة قبضتها وواقع تأثيراتها. لا يجب أن نعتبر أن شخصًا قد توقف عن اتباع طريقًا إذا كان هناك منعطف مفاجئ. فمازال في نفس الطريق لأنه ما زال جزءًا من النظام. ولكنه طبعًا يشعر بهذا التغير المفاجئ وربما تراوده فكرة المقاومة - كما كان الشيوعيون وقت الاتفاق السوفيتي الألماني. والسؤال: هل سيستمر في بذل الجهد لمقاومة البروباجاندا؟ هل سيتنصل من أفعاله السابقة؟ هل سيخرج من البيئة التي تنشط فيها البروباجاندا؟ هل سيقلع عن قراءة صحيفة بعينها؟ الإقلاع عن العادات مؤلم للغاية؛ يفضل الفرد أن يحتفظ بعاداته حيث إنه لا يرى في هذا التغير تهديدًا لذاته.

وبعد هذا مباشرةً، سيسمع تقييم الحقيقة الجديدة مئة مرة، وسيجدها مُفَسَرة ومُثْبَتة، ولن يجد القوة لمقاومتها كل يوم بالاستناد إلى حقيقة اليوم السابق، ولن يشارك حتى في هذه المعركة. تستمر البروباجاندا في هجومها بدون انقطاع ولو

---

(٦) لا يجب على مروج البروباجاندا بالضرورة أن يقلق بشأن تناسق ووحدة مزاعمه التي يمكن أن تتباين أو حتى تتناقض حسب الظروف. مثلًا، وعد (جوزيف جوبلز) بزيادة في سعر القمح في البلد، وفي نفس الوقت، وعد بتخفيض سعر الخبز في المدينة، وحسب المناسبة، مثال على ذلك هو البروباجاندا التي استخدمها (هتلر) ضد الديمقراطية في 1936م ودعمًا للديمقراطية في 1943م.

للحظة واحدة بينما مقاومة الفرد متقطعة ومتجزئة. فهو عالق بين مهام مهنية ومشاغل شخصية، وكل مرة يتحرر من هذه المشاغل، يسمع ويرى الحقيقة الجديدة المعلنة. يسود ثبات البروباجاندا على انتباهه المتقطع ويجعله يمشي وراء كل التحولات منذ أن بدأ في الأكل من هذا الخبز.

هذا يفسر عدم مقدرتنا على مناقشة البروباجاندا التي تتعلق بحملة انتخابية استمرت لأسبوعين فقط. في هذا الوقت القصير، سيظن حتمًا بعض المثقفين أن البروباجاندا الانتخابية لم تكن فعالة؛ وأن أساليبها الأساسية وما نقشته على الجدران لن تقنع أحدًا؛ وأن الحجج المعارضة تنفي بعضها البعض. صحيح أن الشعب لا يبالي كثيرًا بالبروباجاندا الانتخابية ولكن ليس مفاجئًا أن لمثل هذه البروباجاندا تأثير ضئيل: لا يمكن لأي تقنية واحدة من تقنيات البروباجاندا العظيمة أن تترك أثرًا في أسبوعين.

هناك تجارب تُجرى كثيرًا لاكتشاف إذا ما كان منهج معين للبروباجاندا فعالًا ومؤثرًا على بعض المجموعات المستخدمة كفئران تجارب. مثل هذه التجارب ليس لها أي علاقة بالبروباجاندا الحقيقية لقصر مدتها. وعلاوة على ذلك، يستطيع الفرد أن يرى البروباجاندا بوضوح عندما تظهر بغتةً في بيئة اجتماعية غير متعلقة عادةً بهذا النوع من التأثير.

إذا ظهر جزء منفصل من البروباجاندا أو حملة معينة دون جهد كبير، سيكون التناقض صارخًا بحيث يستطيع الفرد أن يدرك بسهولة أنها بروباجاندا ثم يبدأ في الحذر. وهذا هو بالتحديد ما يحدث في الحملات الانتخابية: يستطيع الفرد أن يدافع عن نفسه عندما تسنح له الفرصة أن يكون وحده في مواقفه اليومية. ولهذا تتلاشى فعالية البروباجاندا عندما تُجرى عبر طفرات وحملات كبيرة صاخبة تتخللها فجوات طويلة. في مثل هذه الظروف، يستعيد الفرد وعيه وإدراكه بمحيطه ووضعه مرة أخرى، وسيتمكن من التمييز بين البروباجاندا وبقية ما تحمله الصحافة في الأوقات العادية.

فضلًا عن ذلك، كلما تزداد حدة حملة البروباجاندا، يزداد انتباه الفرد وحذره بحيث يقارن بين الحدة المفاجئة والهدوء العظيم الذي سبقها. ومن ثم، فالمطلوب هو الاستفزاز الاصطناعي المستمر، حتى لو لم يكن هناك ما يبرر أو يثير الحماسة في أحداث اليوم. على البروباجاندا المستمرة أن تخلق مناخًا أولًا ببطء ثم تُحَوِّل دون شعور الفرد بأي عملية للبروباجاندا والتي تتعارض مع الأحداث اليومية العادية.

تنظيم البروباجاندا

أولًا، يجب تنظيم البروباجاندا بطرائق متعددة. لكي تتمتع البروباجاندا بالخصائص المذكورة آنفًا (الاستمرارية والديمومة والجمع بين وسائط الإعلام المختلفة)، يجب أن يكون هناك تنظيم يتحكم في وسائط الإعلام الجماهيرية، قادرًا على استخدامها استخدام صحيح، وقادرًا على حساب الأثر الناتج عن هذا الشعار أو ذاك، أو استبدال هذه الحملة بتلك.

من اللازم أن يكون هناك تنظيم *إداري*؛ من المتوقع أن يكون هناك وزارة للبروباجاندا في كل دولة حديثة أيًّا كان الاسم الرسمي لهذه الوزارة، كما تحتاج الأفلام والبث الإذاعي إلى الاختصاصيين الفنيين. هذا يعني أن هناك حاجة إلى "الاختصاصيين الفنيين المؤثرين" – علماء النفس والاجتماع. ولكن هذا التنظيم الإداري الضروري ليس موضوع الحديث الآن. ما نقصده هو أن البروباجاندا دائمًا مؤسسية إلى درجة ترقى إلى مكانة (*Apparat*) أو «الماكينة» بالألمانية وما تحمله الكلمة من معنى.

تتعلق البروباجاندا بالحقائق. هناك خطأ كبير يعرقل تحليل البروباجاندا وهو الإيمان بأنها أمر نفساني فحسب، واستغلال للرموز، وتأثير مجرد على الآراء. كثير من الدراسات الأمريكية عن البروباجاندا ليس صالحة لهذا السبب. تركز هذه الدراسات على وسائل التأثير النفساني فقط ولا تعترف بغير هذه الوسائل، في حين أن كل ممارسي البروباجاندا المعاصرين الكبار يربطون بين الأفعال النفسانية

والمادية ربطًا قويًا مثل العناصر غير القابلة للفصل. تستحيل البروباجاندا إلا إذا ستند التأثير النفساني إلى الواقع.[1] وتوظيف الأفراد في فرق متخصصة وحركات يسير جنبًا إلى جنب مع التلاعب النفساني.

لن يكون هناك بروباجاندا ما دام تأثير التنظيم على الفرد غير مادي. هذا قطعًا ليس اختراع (ماو تسي-تونج) أو مجرد دعم ثانوي للبروباجاندا أو تعبير عن نوع معين منها. يعتبر فصل العناصر النفسانية عن المادية تبسيط طائش يَحُول دون المعرفة الكاملة بماهية البروباجاندا. طبعًا، يمكن أن يكون للتنظيم المادي أنواع مختلفة: يمكن أن يكون تنظيم حزبي (النازية والفاشية والشيوعية) وفيه يُدمَج المهزومون ويُجبَرون على المشاركة في العمل.

وعلاوة على ذلك، يستخدم مثل هذا التنظيم القوة والخوف في شكل بروباجاندا القوة. أو يمكن لمثل هذا التنظيم المادي أن يشكل دمج الشعب كله في خلايا عبر الوكلاء في كل حي سكني. في هذه الحالة، يعمل التنظيم داخل المجتمع عبر دمج الجسد الاجتماعي بأكمله (وطبعًا، يصاحب ذلك العمل النفساني المطلوب لدفع الناس للدخول في تلك الخلايا) أو التغيير الجذري الفعال الذي يحدث في النطاق الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي. نعرف أن مروج البروباجاندا أيضًا مستشار نفساني للحكومات؛ فيحدد التدابير التي يجب (أو لا يجب) على الحكومات اتخاذها لتيسير التلاعب النفساني.

كثيرًا ما يعتقد الناس أن البروباجاندا تُستخدم بغرض توفير غطاء حلو لطعم مر، وإقناع الناس بسياسات لا يقتنعوا بها اقتناعًا تلقائيًا في ظروف عادية. ولكن، في معظم الأحيان، تسعى البروباجاندا إلى توضيح مسارات العمل المرغوبة في حد ذاتها، مثل الإصلاحات المفيدة. بعد ذلك، تصبح البروباجاندا

---

(1) من الجلي أن البروباجاندا الموجهة ضد العدو ستنجح عندما تتزامن مع الانتصارات. اخفقت البروباجاندا الألمانية في فرنسا خلال الاحتلال بسبب وجود الجنود الألمان في فرنسا. (وبالتالي، كما قال (جوبلز)، كلما زادت الانتصارات، زادت ضرورة البروباجاندا)

مزيجًا من الرضا الفعلي الذي قُدّم للناس عن طريق الإصلاحات، واستغلال هـذا الرضا بعد ذلك.

لا يمكن للبروباجاندا أن تعمـل في فـراغ، ويجـب أن تتأصـل في العمـل وفي الواقع التي تنبع منه. بعض التـدبير الإيجابيـة والترحيبيـة يمكـن أن تكـون مجـرد وسائل للبروباجاندا؛ وعلى النقيض، يجب أن ترتبط البروباجاندا القسرية بالإكراه المادي. مـثلًا، انتكسـت بروباجانـدا جبهـة التحريـر الوطنيـة في 1958م عنـدما واجهت التهديد الصاخب أن الطرائق المؤدية لاستطلاعات الرأي كانت ملغومـة ومفخخة مما أثر سـلبًا عـلى الاسـتفتاء؛ حيـث إن النـاخبين سيُذبحون وسيُمثل بجثثهم، وسيكون هناك حراس على أبواب الاستطلاعات لهؤلاء الذين سيجرؤن على الذهاب إلى صناديق الاقتراع. ولكن لم تُنفذ أي من هذه التهديدات. التقـصير في الفعل في حد ذاته كان بروباجاندا مضادة.

ولأن ضرورة وجود التنظيم المادي والفعل يحد مـن مبـادرات البروباجانـدا التي لا تعمل إلا داخل الجماعة على أرضها، فالبروباجاندا خارج الجماعـة – تجـاه دول أخرى مثلًا أو تجاه عدو – ضعيفة بالـضرورة.(1) الـسبب الـرئيس لهـذا هـو طبعًا غياب التنظيم المادي وتطويق الفرد الذي لا يستطيع الوصـول إلى بلـد آخـر إلا من خلال الرموز والصحافة أو الإذاعة، وهذا لا يحدث إلا بـصورة متقطعـة. في أحـسن الأحـوال، مثـل هـذا الجهـد يثـير بعـض الـشكوك ويغـرس شـعورًا بالغموض، ويجعل النـاس يـسألون أنفـسهم أسـئلة، ويـؤثر علـيهم عـن طريـق الاقتراحات. في حالة الحرب، مثل هذه البروباجاندا المجردة لـن تحـبط العـدو إلا إذا هزمه الأعداء والقنابل في الوقت ذاته. من الصعب أن نتوقع نتـائج رائعـة مـن نشر بسيط للكلمات إلا إذا أعددنا لهذا عن طريق التعلـيم (البروباجانـدا المبكـرة) وحافظنا على ذلك عبر التنظيم والفعل.

هذا يشير إلى اختلاف رئيسي بين البلدان الغربية والشيوعية. تمـارس الـدول

---

(1) انظر أدناه، الملحق الأول.

الغربية البروباجاندا ضد الدول السوفيتية عبر وسائل نفسانية فقط (تتبع البروباجاندا بوضوح من قاعدة موضوعة في الدول الديمقراطية نفسها).[1] وعلى النقيض، يصنع الاتحاد السوفيتي القليل جدًّا من البروباجاندا؛ فلا يحاول أن يصل إلى الشعوب الغربية عبر إذاعته؛ وإنما تقتصر البروباجاندا على تنظيمات في شكل أحزاب شيوعية وطنية داخل حدودها الوطنية للشعوب المستهدفة. ولأن مثل هذه الأحزاب تعتبر هيكل خارجي للبروباجاندا في الاتحاد السوفيتي، تصبح البروباجاندا فعالة بسبب صلتها بالتنظيم المادي القادر على التطويق والاستمرارية. ويجدر الذكر هنا أن تأثير عظيم للبروباجاندا المضادة ظهر بعد فشل الولايات المتحدة الأمريكية في مساعدة المجر إبان تمرد 1956م (بعد كل الوعود التي قطعتها محطة صوت أمريكا). وللتأكيد، يجدر القول إنه لم يكن ممكنًا للأمريكيين مساعدة المجريين. ومع ذلك، كل أنواع البروباجاندا التي تقطع وعودًا زائفةً تتحول ضد مروج البروباجاندا.

ضرورة التنظيم الداخلي للبروباجاندا يفسر سبب تباين درجة المصداقية للتصريحات ذاتها من الحكومات الديمقراطية والحكومات الاستبدادية. عندما أعلنت فرنسا وإنجلترا أن الانتخابات التي أُجريت في سوريا ومصر لأجل تشكيل الجمهورية العربية المتحدة كانت مزورة ودليل على سلطوية الحكومة، لم يؤد هذا لأي تداعيات. كان تصريحًا بسيطًا من الخارج، ولكنه لم يتكرر كثيرًا، ولم يسمع عنه الناس. ومع ذلك، عندما أطلق ناصر حملة بروباجاندا بعد سنة عن نفس الموضوع، مدعيًا أن "الاستعماريين قد زوروا" نتائج الانتخابات في العراق، وأن مجلس الشعب العراقي كان مهزأة، تصريحاته هذه تركت أثرًا. تفاعل الشعب المصري معه،[2] والشعب العراقي حذا حذوه، والرأي الدولي كان مضطربًا.

---

(1) بالرغم من ذلك، اهتمام الاتحاد السوفيتي بهذا النوع من البروباجاندا النفسانية البحتة يؤكد فعاليتها.

(2) كانت الحملة المصرية، والتي انطلقت في مايو/ أيار 1958م، على وشك أن تصل إلى جلسة الأمم المتحدة وأن تقود القرار في 22 أغسطس/ آب، بينما لم تتوصل الاعتراضات الإنجليزية الفرنسية على ضم سوريا في 1957م لأي شيء.

ولذلك دفع جهاز البروباجاندا الشعب إلى التصرف، وأثقلت الحركة الشعبية الجدل في الخارج. ومن ثم، فالبروباجاندا لم تعد مجرد كلمات، وإنما تحرض الجماهير على مظاهرات حاشدة، وبذلك تصبح الحقيقة التي تعطي قوة للكلمات خارج الحدود.

علينا ألا نستنتج من الأهمية الحاسمة للتنظيم أن الفعل النفساني عقيم. فهو جزء واحد - وليس الوحيد - في آلية البروباجاندا. استغلال الرموز ضروري لثلاثة أسباب: أولًا، تقنع الرموز الفرد بدخول إطار المنظمة. ثانيًا، تزوده بالأسباب والمبررات والدوافع للفعل. ثالثًا، تكسب ولائه التام. ونتعلم كل يوم أنه لا بد من وجود الامتثال الصادق إذا أردنا تصرفًا مؤثرًا. يجب على العامل والجندي والحزبي أن يؤمنوا بما يفعلونه، وأن يقوموا به قلبًا وقالبًا وبحسن نية. كذلك عليهم أن يجدوا التوازن (أي الرضا) فيما يفعلون. كل هذا يعد نتيجة للتأثير النفساني الذي، وحده، لا يمكن أن يحقق نتائج عظيمة، ولكن يمكن أن يحقق أي شيء عندما يقترن مع التنظيم.

وأخيرًا، يخلق وجود التنظيم ظاهرة أخرى: ينفصل مروج البروباجاندا دائمًا عن متلقي البروباجاندا، ويظل غريب عنه.[1] وحتى في التواصل الإنساني الحقيقي، والاجتماعات، والزيارات من الباب للباب، يختلف مروج البروباجاندا من الناحية التنظيمية لأنه ليس إلا ممثلًا للمنظمة، أو بالأحرى، جزء مفوض منه. لكنه يظل مناورًا في ظل هذه الماكينة، ويعرف سبب كلماته وتأثيرها. فلم تعد كلماته كلمات إنسانية، بل كلمات محسوبة حسابًا تقنيًا، ولم تعد تعبر عن مشاعر أو أفكار تلقائية، ولكن تعكس تنظيمًا (حتى لو بدت تلقائية). ولذلك لا يُطلب أبدًا من مروج البروباجاندا أن يتدخل فيما يقوله لأنه سيُطلب منه أن يقول ضد ما قاله

(1) ملاحظة ظهرت في صحيفة (*Le Monde*) في 2 أغسطس/ آب 1961م انتقدت الحملة النفسانية في الجزائر وأوضحت أن عجزها كان إلى حد ما نتيجة للحماس الزائد لممارسي البروباجاندا الذين وثقوا كثيرًا في نظامهم إلى درجة أنهم لم يعد لهم القدرة على فهم الواقع إذ إنهم وقعوا فريسة للفخ الذي حفروه بأنفسهم.

في السابق وبنفس القناعة. من ناحية أخرى، يسمع متلقي البروباجاندا الكلمة هنا والآن وتُقدم له الحجة ويُطلب منه أن يؤمن بها. وعليه أن يقبل هذه الكلمات على أنها بشرية وتلقائية ومحملة بالإيمان. ومن الجلي أن الحال سينتهي بمروج البروباجاندا فريسة الفخ الذي صنعه (عندما يصدق خدعته) لو تُرك بدون توجيه ولو كان الأمر مجرد فعل نفساني. وبعد ذلك سيكون سجين عباراته وسيفقد تأثيره كمروج للبروباجاندا. وما يحميه من ذلك هو التنظيم ذاته الذي ينتمي إليه والذي يحافظ بقوة على مسار العمل. وبالتالي يصبح مروج البروباجاندا اختصاصيًّا فنيًّا أكثر وأكثر - يتعامل مع مرضاه بطرائق مختلفة لكنه يحافظ على نفسه متبلدًا ومتحفظًا. فيختار ألفاظه وأفعاله لأسباب تقنية خالصة. والمريض كأنه شيء يُحفظ أو يُضحى به وفقًا لضرورات القضية.

يمكن أن يسأل القارئ عن أهمية نظام التواصل الإنساني والزيارات من الباب للباب؟ الضرورة التقنية هي التي تملي على البروباجاندا استخدام هذه الزيارات وهذا النظام. ندرك تأثير العلاقات الإنسانية على الفرد وضرورة الاتصال الشخصي في صنع القرار. كذلك ندرك أن كلمة المذياع البعيدة تكتمل بدفء الوجود الشخصي. ولهذا بالضبط تُستخدم تقنية العلاقات الإنسانية للبروباجاندا. ولكن، هذا الاتصال الإنساني زائف ومجرد محاكاة: والوجود ليس للفرد، ولكن للتنظيم الذي يقبع وراءه. وعند التظاهر بالحديث بين شخص وآخر، يصل مروج البروباجاندا إلى قمة كذبه وتزييفه - حتى لو لم يكن على دراية بذلك.

العمل الصالح

نحن الآن بصدد حقيقة جازمة. عادةً ما تُوصف البروباجاندا بالتلاعب بهدف تغيير الأفكار أو الآراء ودفع الأفراد "للإيمان" بفكرة أو حقيقة ما، وفي النهاية، الالتزام بعقيدة ما - كل ما يدور في الذهن. أو، بعبارة أخرى، تُوصف البروباجاندا بأنها مَعْنيّة بالمعتقدات أو الأفكار.

إذا كان الفرد ماركسيًّا، تحاول البروباجاندا أن تدمر إيمانه وتحوّل موقفه إلى معاداة الماركسية، وهكذا. تستدعي البروباجاندا جميع آليات علم النفس، بل والمنطق أيضًا. تحاول أن تقنع شخصًا، وأن تدفعه إلى اتخاذ قرار والالتزام بحقيقة ما. ومن ثم، فمن الواضح أنه إذا كانت قناعته قوية بما يكفي، بعد رحلة البحث عن الذات، سيصبح الفرد مستعدًّا للفعل.

طريقة التفكير هذه خاطئة تمامًا. إذا نظرنا إلى البروباجاندا على أنها لا تزال كما كانت في عام 1850م يعني أننا نتشبث بفكرة بائدة عن الإنسان وعن وسائل التأثير عليه؛ وهذا يعني أننا لن نفهم أي شيء عن البروباجاندا الحديثة التي لم تعد تهدف إلى تغيير الأفكار، ولكن إلى إثارة الأفراد ليقوموا بأعمال معينة. لم تعد تستهدف التزام الناس بعقيدة ما، بل تجعلهم يتشبثون بمسار عمل ما تشبثًا غير عقلاني. لم تعد تهتم بدفع الناس تجاه خيار بعينه، وإنما تهتم بتخفيف ردود فعلهم وإثارة رأي أسطوري نشط بدلًا من تغيير رأي تغيير جذري.

دعونا نذكر هنا بإيجاز مدى سوء تجهيز استطلاعات الرأي لقياس البروباجاندا. سنعود إلى هذه النقطة لاحقًا عند مناقشة آثار البروباجاندا. مجرد أن تسأل شخصًا عما إذا كان يعتقد هذا أو ذاك، أو عما إذا كان لديه هذه الفكرة أو تلك، لن يعطي أي إشارة على الإطلاق إلى السلوك الذي سيتخذه أو الفعل الذي سيقوم به. يعتبر الفعل وحده محل اهتمام البروباجاندا الحديثة، لأن هدفها هو التعجيل بفعل ما، مع أقصى قدر من الفعالية والاستغلال الأمثل.[1]

---

(1) عندما نحلل الأنظمة الحديثة والعظيمة للبروباجاندا، نرى دائمًا أن الهدف الأساسي هو التوصل إلى فعل ما وتعبئة الفرد. من حين لآخر، يعلن البعض بوضوح عن هذه الأهداف - مثلما فعل (جوبلز) عندما فرّق بين السلوك والمعنويات. لكن للسلوك أهمية أكبر. بعد غارة دموية، يمكن لـ(جوبلز) أن يقول: "إن المعنويات متدنية للغاية، ولكن هذا لا يعني الكثير؛ لكن الأداء على ما يرام." "المعنويات متقلبة وتتبدل بسرعة؛ لذلك، وقبل كل شيء، من المهم تحقيق الفعل الصحيح والمحافظة عليه. عند تحليل البروباجاندا، لاحظ الاختصاصيون تحديدًا هذه الرغبة في تحقيق فعل فوري بدلًا من تغيير رأي ما. آمن =

لذلك فإن مروج البروباجاندا لا يخاطب عادةً عقل الفرد، لأن عملية الإقناع الفكري طويلة وغير مضمونة، والطريق من القناعة الفكرية إلى الفعل يستغرق وقتًا أكثر وكذلك غير مضمون. نادرًا ما يتصرف الفرد استنادًا على فكرة فحسب. علاوة على ذلك، يتطلب توجيه جهود البروباجاندا إلى المستوى الفكري إشراك مروج البروباجاندا في نقاش فردي مع كل شخص - وهذا أسلوب لا يمكن تصوره. من الضروري إبقاء نسبة المشاركة من الجميع على حدها الأدنى.[1]

يمكن أن تكون المشاركة سلبية أو إيجابية، ولكن على أي حال، فإنها ليست مجرد شأن الرأي العام. التعامل مع البرواجاندا كشيء مرتبط بالرأي العام فقط يفترض أن متلقي البروباجاندا يتمتع باستقلال فكري عظيم، وأنه في نهاية المطاف مجرد طرف ثانوي في أي عمل سياسي، وأن ما يُطلب منه ليس إلا رأيًا واحدًا فقط. ويتزامن هذا بالطبع مع مفهوم الديمقراطية الليبرالية والتي تفترض أن أقصى ما يمكن فعله مع المواطن هو تغيير رأيه عن طريق كسب صوته في وقت الانتخابات.

يعتمد مفهوم العلاقة الوثيقة بين الرأي العام والبروباجاندا على افتراض وجود إرادة شعبية مستقلة. إذا كان هذا المفهوم صحيحًا، فسيكون دور البروباجاندا تعديل تلك الإرادة الشعبية التي، بالطبع، تعبر عن نفسها من خلال

= (ماو تسي-تونج) بالفكرة نفسها: تهدف البروباجاندا إلى حشد الجماهير، وبالتالي ليس من الضروري تغيير آرائهم وإنما دفع جميع الأفراد للبدء في تنفيذ مهمة بالاشتراك مع الآخرين. وحتى التعليم السياسي، المهم للغاية عند (ماو)، يهدف أساسًا إلى التعبئة. وفي الاتحاد السوفيتي، تعرض التعليم السياسي في بعض الأحيان لانتقادات بسبب اتخاذه دور فكري ومحلي بحت لضمان تحقيق الفعل، ومن ثم فشل في تحقيق هدفه: مهمة التحريض ليست تثقيف، بل حشد الناس. وهناك دائمًا مسألة المشاركة الفعلية في مهام محددة يحددها الحزب، مثل زيادة الإنتاجية.

(1) هذه المشاركة السلبية هي ما قصده (جوبلز) عندما قال: "أتصور برنامجًا إذاعيًا يجعل كل مستمع يشارك في أحداث الأمة." ولكن في الوقت نفسه، يجبر الديكتاتور المستمع على السلبية.

الأصوات الانتخابية. لكن ما لا يأخذه هذا المفهوم في الاعتبار هو أن ضخ البروباجاندا في آلية العمل الشعبي يقمع بالفعل الديمقراطية الليبرالية، وبعد ذلك لم نعد نتعامل مع مصوتين أو سيادة الشعب؛ وبالتالي فإن البروباجاندا تستهدف المشاركة - *المشاركة فقط*. قد تكون المشاركة إيجابية أو سلبية: إيجابية إذا كانت البروباجاندا قادرة على تعبئة الفرد للفعل؛ وسلبية إن لم يتصرف الفرد بشكل مباشر، ولكن يدعم هذا الفعل دعمًا نفسانيًّا.

ولكن، قد يتساءل المرء، ألا يعيدنا هذا إلى الرأي العام؟ بالطبع لا، لأن الرأي يترك الفرد مجرد متفرج. وربما في نهاية المطاف، ولكن ليس بالضرورة، يلجأ إلى الفعل. ولذلك، فإن فكرة المشاركة لها تأثير أقوى. مشجع فريق لكرة القدم مثلًا له حضور نفساني نشعر به عندما يشجع ويثير ويدفع اللاعبين إلى التفوق على أنفسهم -وإن لم يشارك مشاركة مادية في المباراة.

وبالمثل، فالمؤمن الذي يحضر القداس لا يتدخل تدخلًا ماديًّا، ولكنه يشارك مشاركة إيجابية (من خلال التناول)، وفي إمكانه أن يغير طبيعة الظاهرة. هذه الأمثلة توضح ما أقصده بالمشاركة السلبية التي اكتسبتها البروباجاندا. لا يمكن تحقيق مثل هذا الفعل من خلال عملية الاختيار والتشاور. على البروباجاندا أن تعرقل كل الأفكار والقرارات لكي تكون مؤثرة[1] وأن تستهدف اللاوعي في الفرد الذي لا يجب أن يدرك أن قوى خارجية تشكله. (هذا شرط من شروط نجاح البروباجاندا)، ولكن على البروباجاندا أن تصل إلى جوهر الفرد لكي تتمكن من إطلاق الآلية في اللاوعي - والتي ستؤدي إلى التصرف المناسب والمتوقع.

قلنا منذ قليل إنه يجب تحقيق التصرف المناسب لغاياته، وهذا سيؤدي بنا إلى أن نقول إنه إذا كان المفهوم التقليدي القديم للبروباجاندا يتألف من تعريفها بكونها التزام الفرد برأي واحد مستقيم، أي الأرثوذوكسية، فالبروباجاندا الحديثة

(1) تطبيق "دراسات البحث التحفيزية" على الإعلانات أيضًا يؤدي إلى ذلك.

الحقيقية، على النقيض، تسعى إلى *العمل الصالح*، أي الفعل في حد ذاته (ليس بسبب الحكم القيمي للشخص الفاعل) الذي يؤدي مباشرةً إلى هدف لا يعيه الفرد ويعتبره مروج البروباجاندا الهدف المقصود. يَعْرف مروج البروباجاندا أي هدف يسعى وراءه وأي فعل عليه تحقيقه ثم يستخدم أدواته التي تضمن له التوصول بدقة لهذه الغاية.

هذا مثال محدد لمشكلة أكثر عمومية: الفصل بين الفكر والتصرف في مجتمعنا. فنحن نعيش في عصر الفصل المنهجي بين التصرفات والأفكار دون رغبتنا في ذلك. في مجتمعنا، الشخص الذي يشعر أنه لم يعد يستطيع أن يتصرف بنفسه، ولا يستطيع التصرف على الإطلاق في أحايين كثيرة، وأنه يتصرف بقوة الآخرين. والشخص الذي يتصرف لا يستطيع أن يفكر في أفعاله إما بسبب انعدام الوقت وإما عبء مشاكله الشخصية، وإما لأن خطة المجتمع تتطلب ترجمة أفكاره إلى أفعال. ونرى الفصل ذاته في الفرد نفسه لأنه يستطيع أن يستخدم عقله فقط خارج نطاق وظيفته - لكي يجد ذاته، ولكي يستخدم وقت الفراغ ليطور نفسه ولكي يكتشف أفضل ما يناسبه، بينما يستسلم في سياق عمله للضرورة العامة والمنهج العام والحاجة لدمج عمله الخاص في الخطة العامة. وبينما يمارس أفعالًا ميكانيكية بالكامل يتلقى اقتراحًا أن يلوذ بالفرار للأحلام.

تخلق البروباجاندا الفرق نفسه، ولكنها بالطبع لا تلغي الشخصية، فتترك للفرد حرية الفكر الكاملة باستثناء فعله السياسي أو الاجتماعي حيث يتغير ويشارك في أفعال لا تتفق بالضرورة مع معتقداته الخاصة. بل وأكثر من ذلك، يمكن أن تدفعه البروباجاندا أن يتصرف بطريقة تتعارض بوضوح مع معتقداته السياسية. وبالتالي، لا تفرض تحولات وتغيرات البروباجاندا الماهرة صعوبات لا يمكن التغلب عليها. يستطيع مروج البروباجاندا أن يُعبِّئ الناس لفعل لا يتناسب مع معتقداتهم السابقة. يعي مروجو البروباجاندا الحديثة أنه ليس هناك

بالضرورة استمرارية بين المعتقد والتصرف[1] وليس هناك عقلانية فعلية في آراء الفرد وتصرفاته. وتستغل البروباجاندا الفجوات في الاستمرارية لتستخدم أدواتها وتأثيرها. فالبروباجاندا لا تحاول أن تخلق إنسانًا حكيمًا أو عاقلًا، وإنما مُرتدًّا ومتشددًا.

وهذا يعود بنا إلى سؤال التنظيم حيث إن المرتد الذي تحثه البروباجاندا على فعل شيء لا يجب تركه بمفرده لأنه لا يُؤتمن على ذاته. ضروري أن الفعل الذي تحاول البروباجاندا أن تحققه أن يكون فعلًا جمعيًا وليس فرديًا. تستطيع البروباجاندا العمل عندما تحقق التقارب والتعايش بين شتى ردود الفعل والتي لا يمكن الجمع والتنسيق بينها إلا من خلال وساطة التنظيم. وفضلًا عن ذلك، رد الفعل الذي تحققه البروباجاندا ليس سوى نقطة البداية أو نقطة الانطلاق والتي ستتطور تطورًا متناغمًا إذا كان هناك تنظيم يصبح فيه (وبفضله) المرتد متشددًا.[2]

---

(1) هناك مسافة معينة واختلاف بين الرأي والفعل، وبين السلوك والمعنويات. يمكن أن يكون للإنسان رأي حسن عن اليهود لكنه يتصرف بعدائية، ويمكن لمعنويات وحدة عسكرية أن تكون في الحضيض ومع ذلك تبلي بلاءً حسنًا في الحرب. وبالمثل، نلاحظ أن الناس نادرًا ما يعرفون مقدمًا ما يريدون أو ما يريدون أن يفعلوا. فبمجرد أن يُقْدِموا على فعل شيء سيكون عندهم المقدرة على إعلان ما فعلوه بطريقة تختلف عما فعلوه حقًا، ولكن بحسن نية. لا يطيع الإنسان آراءه الواضحة أو ما يعتقد أنه إرادته الواعية. على المرء أن يدرك أن هناك فجوة بين ما يفعله وما يقوله حتى يستطيع أن يتحكم في الآراء. فأفعاله غالبًا لا تعكس أي دافع واضح أو ما قد نتوقعه في ضوء انطباع سابق له. بسبب هذا الاختلاف بين الرأي والفعل، مروج البروباجاندا الذي يسعى إلى تحقيق فعل ما من خلال تغيير الآراء لا يستطيع أن يتيقن من إحراز النجاح، ولذلك فعليه أن يجد طرائق أخرى ليضمن تحقيق الفعل.

(2) يجب أن نُؤكد مرة أخرى أن التنظيم جزء جوهري من البروباجاندا. فمن الوهم أن يظن المرء أنه يمكن الفصل بين البروباجاندا والتنظيم. منذ عام 1928، كان على المحرض في الاتحاد السوفيتي أن يكون منظم للجماهير. قبل هذا، قال (لينين) إن الجرائد تعتبر بروباجاندا وتحريض وتنظيم جماعي. وبالمثل، أصر (ماو تسي-تونج) على الفرق بين الجيوش الشيوعية والرأسمالية، وهو ما يُذَكِّرُنا بأن الأخير كان مسؤولًا عن تعبئة =

بدون التنظيم، سيؤدي التحريض النفساني إلى تجاوزات وانحرافات عن مسار الفعل المطلوب خلال تطوره. ويتلقى المرتد من خلال التنظيم دافعًا قويًّا يجعله يتصرف بكل جوارحه، ويتحول حقًّا إلى شخص ديني بالمعنى النفساني الاجتماعي للكلمة بحيث تكون العدالة ملمحًا في الأفعال التي يقوم بها بسبب التنظيم الذي يعمل في ثناياه. ومن ثم، يندمج فعله في مجموعة من أفعال الامتثال. يبدو أن هذا الاندماج الهدف الرئيس من كل أنواع البروباجاندا في يومنا هذا، ولكنه أيضًا السبب وراء دوام تأثيرها.

ما يجعل تأثير البروباجاندا لا رجعة فيه هو الفعل.[1] من يطيع البروباجاندا لا يمكن أن يرجع للوراء أبدًا إذ إنه ملتزم الآن بالإيمان بالبروباجاندا بسبب فعله السابق، وهو مجبر على أن يتلقى تبريره وسلطته منها. بدون البروباجاندا، سيكون فعله في عينيه ظالمًا وعبثيًّا، وهذا شيء لا يُحتمل. وعليه أن يتقدم في طريق أمْلَتَه عليه البروباجاندا لأن الفعل يتطلب المزيد من العمل. فيمكن أن نصفه بالملتزم، وهذا بالطبع هو ما توقعه الحزب الشيوعي وما حققه النازيون. الإنسان الذي تصرف تبعًا للبروباجاندا الموجودة قد شغل مكانه في المجتمع. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا سيكون له أعداء، وكثيرًا ما ستنقطع علاقته مع بيئته الاجتماعية وعائلته، وعندها سيكون عُرضة للخطر. وسيُجبر على قبول بيئة اجتماعية جديدة وأصدقاء

= الجماهير من خلال البروباجاندا والتنظيم. فكان يربط دائمًا بين هذين العنصرين، فالبروباجاندا بين الجماهير تسير جنبًا إلى جنب مع تنظيم الجماهير. ذكر (موريس ماجريت) العلاقة بين هذين العنصرين فيما يتعلق بمظاهرات 13 مايو/ أيار في الجزائر. تثبت هذه الأمثلة الخطأ الذي وقع فيه الكُتّاب الذين أرادوا أن يفصلوا بين البروباجاندا والتنظيم.

(1) الاستعانة بالفعل تسمح لمروج البروباجاندا بالتعويض عن ضعف ما في البروباجاندا على الصعيد النفساني أو بمشاركة الفرد في الفعل - إما لأنه جزء من مجموعة صغيرة (والتي - ككل - تركز على الفعل) وإما لأن دور مروج البروباجاندا (على مستوى العلاقات الإنسانية) أن يعطي مثالًا للفعل وأن يدفع الآخرين للقيام به. ولذلك، أول مسؤولية للمحرض السوفيتي هي أن "يضرب مثلًا ساطعًا في الجهد والانضباط والتضحية."

جدد ستصنعهم البروباجاندا من أجله. وكثيرًا ما سيرتكب أفعالًا مخزية في نظر القيم التقليدية وبذلك سيكدّر نظامًا معينًا ثم سيكون في حاجة إلى تبرير ما اقترف. ويَزيد انخراطه عند تكرار التصرفات لكي يثبت أنها كانت عادلة. وبالتالي، سيكون جزءًا من حركة تتطور حتى تشغل ضميره تمامًا. وعلينا أن نتذكر أن أي بروباجاندا لا تؤدي إلى هذا النوع من المشاركة ليست إلا مضيعة للوقت.

من الحكمة أن نسأل عن كيفية تحقيق البروباجاندا لمثل هذه النتيجة، رد فعل معين، عن طريق عرقلة العملية الفكرية. الزعم أن مثل هذه النتائج للبروباجاندا سوف تؤدي بالفعل إلى شك المراقب العادي والرفض القوي لعالم النفس، والاتهام أن هذا ليس إلا مجرد خيال يتعارض مع التجربة. لاحقًا، سنركز على مدى صحة التجارب التي أجراها علماء النفس في تلك المجالات ومدى وملاءمتها مع هذا الموضوع. عندما يقتصر الأمر على القول بإن ملاحظة الأشخاص الذين تعرضوا للبروباجاندا الحقيقية، النازية أو الشيوعية، ستؤكد دقة المخطط الذي رسمناه.

بالرغم من ذلك، علينا أن نضع هذا التصريح في نصابه. فنحن لا نقول إنه يمكن إجبار *أي* إنسان على طاعة *أي* تحريض على فعل شيء *بأي* طريقة بين عشية وضحاها. ولا نقول إن هناك آليات أولية مسبقة في كل إنسان، وإنه يمكن بسهولة التلاعب بهذه الآليات التي تؤدي دائمًا إلى تأثير بعينه. وكذلك لا نتمسك بالمنظور الميكانيكي للإنسان، ولكن علينا أن نقسم البروباجاندا إلى مرحلتين: البروباجاندا المسبقة (أو البروباجاندا الفرعية) والبروباجاندا النشطة. يأتي هذا مما ناقشنا سلفًا عن الطبيعة الدائمة والمستمرة للبروباجاندا. ليست بروباجاندا الأزمة (الشديدة النشطة) هي التي يجب أن تكون مستمرة وإنما البروباجاندا الفرعية التي تهدف إلى تعبئة الناس أو (بالمعنى الاشتقاقي) خلق قابلية للتغير السريع فيهم[1] وتعبئتهم لكي تدفعهم للتصرف في اللحظة المناسبة. من الواضح

---

(1) دائمًا ما طبق (لينين) و(ماو) و(جوبلز) وآخرون لفظ "التعبئة" على ما يأتي قبل

أننا لا نستطيع ببساطة أن نلقي بشخص في الفعل بدون أي تحضير أو تعبئة نفسانية أو أن نجعله متجاوب، ناهيك بالاستعداد المادي.

الهدف الأساسي من البروباجاندا المسبقة هو إعداد الفرد لتصرف معين وتجهيزه لتأثير ما وتهيئته للوقت الذي سيشارك فيه مشاركة فعالة في الفعل دون تردد أو تأخر. من هذا المنطلق، ليس هناك للبروباجاندا المسبقة أي هدف أيديولوجي دقيق وليس لها أي علاقة برأي أو فكرة أو عقيدة. فهي تسبق التلاعب النفساني بتغيير الشخصية وخلق مشاعر وصور نمطية تساعد البروباجاندا في الوقت المناسب. ويجب أن تكون مستمرة وبطيئة ويصعب إدراكها، ويجب أن تخترق الإنسان حتى تشكل مثل هذه النزعات، ويجب أن تجعله يعيش في مناخ نفساني معين.

الطريقان العظيمان لهذه البروباجاندا الفرعية هما الأسطورة ورد الفعل المنظم. تحاول البروباجاندا أولًا أن تخلق تلك الردود المنظمة عند الفرد عن طريق تدريبه بحيث تثير بعض الكلمات أو العلامات أو الرموز أو حتى الأشخاص أو الحقائق – ردود فعل بعينها طوال الوقت. بالرغم من الكثير من الاعتراضات مِن قِبَل علماء النفس، فخلق ردود الفعل هذه، سواء كانت جمعية أو فردية، ممكنًا بالطبع. ولكن، بالتأكيد لكي ينجح هذا الإجراء لا بد من مرور بعض الوقت أولًا للتدريب والتكرار. ولا يمكننا الأمل في ردود فعل تلقائية بعد بضعة أسابيع من تكرار نفس العبارات. لا بد من حدوث إعادة تشكيل للنفس حتى يتفاعل الحشد تلقائيًا في الاتجاه المرجو لبعض الصور بعد شهور من العمل الصبور. ولكن هذا العمل التحضيري ليس بروباجاندا بعد لأنها لا تنطبق على حالة ملموسة حتى الآن. ما نراه من البروباجاندا وما يذهلنا ويبدو لنا غامضًا ولا يمكن تصديقه – يمكن أن يحدث لسبب واحد وهو البطء والتحضير غير المعلن.

من ناحية أخرى، يحاول مروج البروباجاندا أن يخلق أساطير يؤمن بها الإنسان لأنها تؤكد شعوره بالقدسية. "الأسطورة" هنا تعني صورة مثيرة وشاملة: نوع من الرؤية للأهداف المرغوب فيها، ولكنها فقدت سماتها العملية

وصارت صاخبة وقوية وشاملة وقادرة على إزاحة كل ما لا يتناسب معها. تدفع هذه الصورة الإنسان إلى التصرف لأن فيها كل ما يستحسنه ويعتقد أنه حقيقي وعادل. وبدون التحليل التجريدي للأسطورة، سنناقش الأساطير العظيمة التي خلقتها أنواع مختلفة من البروباجاندا: أسطورة العِرق، والمجتمع الشيوعي، والإنتاجية، والطبقة العمالية، والطاغية. وفي النهاية، ستسيطر الأسطورة على عقل الإنسان سيطرة تامة حتى يكرس حياته لها. ولكن، لا يمكن تحقيق هذا التأثير إلا عن طريق العمل البطيء المتأني لكل مناهج البروباجاندا وليس لأي عملية فورية للبروباجاندا. ولا يمكن للبروباجاندا تعبئة الإنسان إلا عندما تتمكن من خلق ردود الفعل المنظمة داخل الإنسان الذي يعيش في أسطورة جمعية.

بالرغم من أنه يمكن استخدام منهجي الأسطورة ورد الفعل المنظم معًا إلا إن استخدام كل منهما على حدة له إيجابيات. تفضل الولايات المتحدة الأمريكية استخدام الأسطورة بينما ركز الاتحاد السوفيتي طول الوقت على رد الفعل. المهم هنا هو أنه عندما يحين الوقت، تدفع البروباجاندا النشطة الفرد إلى الفعل من خلال الوسائل النفسانية التي أعدتها وأثارتها الأسطورة.

ليس هناك علاقة بالضرورة بين تصرفات الإنسان ورد الفعل أو محتوى الأسطورة. فليس هناك ضرورة لتنظيم التصرف تنظيم نفساني عبر مظهر من مظاهر الأسطورة. والأدهش أن العمل التمهيدي لا يؤدي إلا إلى *استعداد* الإنسان. فبمجرد أن يستعد، يمكن تعبئته بفعالية في اتجاهات مختلفة - ولكن طبعًا على رد الفعل والأسطورة أن تُنعَش وتُجدَد باستمرار حتى لا تضمر. وهذا يفسر ضرورة استمرارية البروباجاندا المسبقة في حين أن البروباجاندا النشطة تتسم بعدم الانتظام إذا كان الهدف هو تصرف معين أو مشاركة ما.[1]

---

(1) التعليم السياسي في نظر (لينين) و(ماو) يعكس فكرتنا بدقة عن البروباجاندا الفرعية أو البروباجاندا الأساسية كما قال (جوبلز) لأن هذا التعليم ليس موضوعيًا أو محايدًا على الإطلاق. هدفه الوحيد هو خلق رؤية للعالم داخل الفرد، وتكمن افتراضات البروباجاندا في هذه الرؤية، ولاحقًا ستصبح هذه الافتراضات منطقية ولا جدال فيها.=

2. الخصائص الداخلية

معرفة المجال النفساني

هناك زعم أن البروباجاندا لا يمكن أن تغيّر أو أن تخلق أي شيء في الإنسان، وهذا الزعم كثيرًا ما يتعارض مع قوة البروباجاندا على التحريض على تصرف ما.

= المهم هو تشكيل صور نمطية جديدة وافتراضات وتبريرات مسبقة للأسباب والأهداف التي ستعطيها البروباجاندا للفرد. ولكن بينما تخلق البروباجاندا التحيزات والصور النمطية في مجتمعاتنا بطريقة غير متسقة نسبيًا (عشوائية ومنفصلة) في التعليم السياسي، سنجد مجموعة متناغمة من الافتراضات المسبقة صنعت عن عمد وبانتظام تفوق التحدي. لعل مثل هذا التعليم السياسي في بدايات الثورة السوفيتية لم يكن له أهداف محددة أو عملية، فكان التلقين الأيديولوجي غاية في حد ذاته. ولكن منذ عام 1930م، تغير هذا المفهوم وأصبح التعليم السياسي أساس البروباجاندا. فعل (ماو) ذلك حتى قبل ذلك الوقت. ففي الاتحاد السوفيتي، التلقين الأيديولوجي وسيلة لتحقيق غاية والأساس الذي عليه تقنع البروباجاندا الفرد بأي شيء تريده في أي لحظة وفي أي مكان.

وللتوضيح سنستخدم المصطلحات التقليدية للبروباجاندا والتحريض، ولكن بمعنى جديد. فالبروباجاندا هي توضيح للعقيدة التي تُنسب إلى (لينين وماركس)، وتعكس البروباجاندا المسبقة، أما هدف التحريض هو دفع الأفراد على فعل ما في لحظة ومكان بعينه - كوظيفة للتعليم السياسي، ومن حيث هذا "التعليم" (الذي يعكس ما نسميه البروباجاندا). أما التجربة النشطة في الواقع فتيسر التعليم أكثر. تختلط العناصر المختلفة بسهولة: تتولى شبكة الإذاعة مهمة زيادة "المعرفة السياسية" و"الوعي السياسي" (البروباجاندا المسبقة) وحشد الناس لدعم سياسة الحزب والحكومة (البروباجاندا). تتلقى صناعة الأفلام أوامر حتى لممثلين الكوميديا "أن ينظموا أفكار ومشاعر الجماهير في الاتجاه العمالي المطلوب."

يصف (ماو) تأثيرات هذا التعليم السياسي بأنه يخلق وعي طبقي ويدمر الروح الفردية وروح الطبقة الدنيا بينما يدمج الفرد في الفكر الجمعي ويخلق امتثال أيديولوجي بإطار جديد ويؤدي إلى فهم ضرورة عمومية الممتلكات وطاعة الدولة وخلق سلطة وبناء هيكلي. وتدفع الرفاق إلى التصويت للممثلين المناسبين وتحمل صعوبات وضجر الكفاح لزيادة الإنتاج. هذا يصف وصفًا كاملًا لدور البنية التحتية المخصصة للتعليم السياسي في مسار البروباجاندا.

نجد كثيرًا أن التلاعب النفساني لا يغير الآراء الراسخة عند الفرد. ليس هناك تأثيرًا قويًا للبروباجاندا العكسية على مسيحي أو شيوعي ذي معتقدات قوية، وربما ليس لها تأثير على الإطلاق.

وبالمثل، فلا تستطيع البروباجاندا أن تغير صورة نمطية أو انحياز عند الفرد. فمثلًا، يستحيل تقريبًا القضاء على العنصرية عن طريق البروباجاندا. ما يشعر به الناس تجاه السود أو اليهود أو الطبقة المتوسطة أو المستعمرين لن يتغير كثيرًا عن طريق محاولات البروباجاندا. وكذلك، لا يمكن خلق رد الفعل أو الأسطورة من العدم كأن الفرد محايد مثل أرض خالية يمكن بناء أي شيء عليها. علاوة على ذلك، حتى عندما تتمكن البروباجاندا من خلق رد الفعل عند الفرد، فلن تقدر على استخدامه لدفع الفرد في أي اتجاه. الفرد ليس آلة، فالطبيعة الآلية لردود الفعل لا تحول الفرد إلى إنسان آلي.

يمكننا من خبرة طويلة أن نستنتج أن مروج البروباجاندا لا يستطيع أن يسير ضد ما يقبع داخل الفرد، ولا يمكنه أن يخلق أي آلية نفسانية أو أن يصل لأي قرار أو تصرف. لكن علماء النفس الذين يرصدون هذه الملاحظات يتسرعون في استنتاجاتهم منها بحيث أن للبروباجاندا تأثير ضئيل وأن لها مجال محدود إلى درجة يصعب معها القول إن لها أي فائدة. وسنشرح لاحقًا سبب اعتقادنا أن هذا الاستنتاج خطأ، ولكن الملاحظات في حد ذاتها تعطينا مؤشرات جيدة جدًّا عن فعالية البروباجاندا. على مروج البروباجاندا في بادئ الأمر أن يعرف بدقة المجال الذي يعمل فيه، وأن يدرك المشاعر والآراء والميول الحالية والصور النمطية بين المستهدفين.[1] نقطة واضحة نبدأ منها هي تحليل خصائص الجماعة وأساطيرها

---

(1) لن يكون مروج البروباجاندا ناجحًا إلا إذا كان على دراية بالرموز الرئيسية للثقافة التي يسعى إلى استهدافها، والرموز التي تعبر عن الشخصيات المختلفة. لطالما درس الشيوعيون محتوى الآراء دراسة متأنية قبل إطلاق حملات البروباجاندا. فالإنسان وحده لا يكفي إذ إنه جزء من شيء كامل متكامل يطلق الأمريكيون عليه الثقافة التي تشكل نفسية الإنسان. ورموز هذه الثقافة تكيف الإنسان الذي بدوره ينقل هذه الثقافة =

وآرائها وبنائها الاجتماعي، فلا يمكننا أن نصنع أي بروباجاندا في أي مكان لأي شخص. يجب تصميم المناهج والحجج لتناسب نوع معين من الناس. من المؤكد أن البروباجاندا ليست ترسانة من تقنيات وحجج صالحة وجاهزة للاستخدام ومناسبة للاستخدام في أي مكان.[1] وقعت أخطاء واضحة في هذا الاتجاه في تاريخ البروباجاندا الحديث.[2] تتكون تقنية البروباجاندا من حساب دقيق للتصرف المرجو من الفرد الذي كيفته البروباجاندا للتصرف.

يتجسد الاستنتاج الثاني في القاعدة التالية: لا تهاجم رأي دائم وراسخ وعاقل أو نمط ثابت أو فكرة عامة مقبولة بين الناس. يرهق مروج البروباجاندا نفسه دون جدوى في مثل هذه المنافسة. مروج البروباجاندا الذي يحاول أن يغير شيئًا محددًا راسخًا في الرأي الجماهيري ليس كُفئًا. ولكن هذا لا يعني أنه عليه أن

= للآخرين. يتأثر الفرد تأثرًا عميقًا كل مرة تتغير فيها هذه الرموز. وبالتالي يمكن تغيير الفرد عن طريق تغيير هذه الرموز، وعلى مروج البروباجاندا أن يعمل حيال ذلك آخذًا في الاعتبار أن الأهم هو الوصول إلى ما يمكن تسميته "الرجل الهامشي" أو الرجل الذي لا يثق فيما يقول مروج البروباجاندا لكنه مهتم لأنه لا يثق في المعارضة أيضًا. إذا كنت في المعركة فعندك سبب وجيه للاستسلام.

(1) وغير ذلك، على البروباجاندا أن تتغير وفقًا للظروف، وعلى مروج البروباجاندا أن يتأقلم باستمرار مع تغيرات الموقف ووفقًا للتغيرات التي أحدثها خصمه. فمحتوى البروباجاندا له علاقة مباشرة بالخصم ولذلك يجب أن يتغير إذا تغير الخصم.

(2) وهنا نقرأ (بوميرانج) الشهير: عندما يخطئ مروج البروباجاندا في تحليل البيئة المحيطة، يمكن أن يؤدي هذا إلى نتيجة عكسية وتتحول البروباجاندا ضده. هناك العديد من الأمثلة على ذلك: خلال الحرب الكورية، أراد الأمريكيون أن يظهروا أنهم أحسنوا معاملة الأسرى، ونشروا صورهم في كوريا والصين بينما كانوا يلعبون الرياضة وما إلى ذلك. وقام الأمريكيون بإخفاء عيون هؤلاء الأسرى في الصور حتى لا يتعرف الشيوعيون عليهم (وبالتالي يضطهدونهم) بعد الحرب. فسر الصينيون هذه الصور على أن "الأمريكيين اقتلعوا عيون الأسرى." أتى هذا التفسير من اعتقادهم المسبق أنه يستحيل معاملة الأسرى معاملة حسنة، وأنه من الطبيعي أن تقتلع عيونهم.

يترك الأشياء كما هي، وأن يظن أنه لا شيء يمكن عمله. ليس عليه إلا أن يفهم جانبين في منتهى الدقة لهذه المشكلة:

أولًا، نتذكر أنه ليس من الضروري وجود استمرارية بين الرأي أو النمط الثابت والتصرف. فليس هناك اتساق ولا هناك منطق، ويستطيع الإنسان أن يتشبث بممتلكاته وأعماله ومصنعه وفي نفس الوقت يصوت للشيوعيين. أو يمكن أن يكون متحمسًا للعدالة الاجتماعية والسلام كما يطمح إليه الشيوعيون بينما يدعم الحزب المحافظ. مهاجمة نمط أو رأي راسخ ستؤدي إلى نتائج غير متوقعة وستجعل متلقي البروباجاندا واعيًا بالتناقضات.[1] سيسعى مروج البروباجاندا الماهر إلى التوصل إلى التصرف الذي يريده دون الحاجة إلى تحقيق اتساق ودون الحاجة إلى مقاومة التحيزات أو الصور عن طريق اتخاذ موقف مدروس ضد التناقضات.

ثانيًا، يستطيع مروج البروباجاندا أن يغير الآراء عن طريق إبعادها عن المسار المقبول وتغييرها أو وضعها في سياق غامض.[2] بدايةً من المواقف الثابتة، يمكن أن ندفع الإنسان حيث لا يريد أن يذهب (دون أن يعي ذلك) في مسارات لن يلاحظها. وبهذه الطريقة نظّم "أنصار السلام" البروباجاندا (المفضلة لدى الاتحاد السوفيتي) ضد إعادة التسليح في ألمانيا باستخدام مشاعر معادية لألمانيا من اليمين الفرنسي.

ومن ثم، لا يجب معارضة الآراء الموجودة، بل استخدامها. عند كل شخص العديد من الصور النمطية والميول الراسخة: ومن هذه الترسانة لا بد أن يختار

---

(1) الرد الأكثر شيوعًا هو رد الفرار. ففي وجه البروباجاندا المباشرة ضد انحياز ما، يفر متلقي البروباجاندا: يرفض ما قيل له (غالبًا دون وعي). فلا يريد أن يكون جزءًا منه ويبرر تصرفاته عن طريق إبعاد نفسه عما كان محل الهجوم، ويتظاهر أن الهجوم كان موجهًا ضد شخص آخر، وهكذا – لكنه لا يتغير.

(2) طرائق أخرى لتغيير الآراء هي تقديم أشكال للتصرف أو إثارة شقاق في الجماعات أو توجيه شعور عدواني ضد شيء معين.

مروج البروباجاندا الأسهل للتعبئة والذي سيعطي أكبر قوة للتصرف الذي يريده أن يحدث. الكُتّاب الذين يصرون على أن البروباجاندا ضد رأي راسخ غير مجدية حقًّا إذا كان الإنسان كائنًا بسيطًا عنده رأي واحد بحدود ثابتة. ولكن نادرًا ما نجد هذا بين هؤلاء الذين لم يتعرضوا للبروباجاندا بالرغم من أن هذا الأمر شائعًا بين أولئك الذين عاشوا البروباجاندا لفترة طويلة. أما الشخص العادي في المجتمعات الديمقراطية فعنده أفكار ومشاعر كثيرة.[1] ما على البروباجاندا إلا أن تحدد الآراء التي لا يجب المساس بها وأن تكتفي بإضعافها تدريجيًّا من خلال إغراقها في الغموض.[2]

الاستنتاج الثالث - المستمد من تجارب أُجريت في الولايات المتحدة - مفاده أن البروباجاندا لا يمكن أن تخلق شيئًا من العدم، فعليها أن ترتبط بإحساس ما أو فكرة، ويجب أن تُبنى على أساس موجود بالفعل داخل الفرد. ولا يمكن تشكيل رد الفعل المكيَّف إلا عن طريق رد فعل فطري أو رد فعل مكيف سابق له. لا تتوسع الأسطورة في حالة من الهرج والمرج وإنما تستجيب لمجموعة من المعتقدات فطرية. ولا يمكن تحقيق تصرف ما إلا من خلال الاستجابة لمجموعة من الميول أو التوجهات الموجودة والمستمدة من البيئة والنظام والمدرسة والكنيسة وهكذا. تقتصر البروباجاندا على استخدام المادة المتاحة، ولكنها لا تخلقها.

---

(1) هذا صحيح بالنسبة إلى الأفراد والجماعات. قيل إنه إذا كان الرأي العام كله في نفس الاتجاه فعلًا لن يكون هناك أي فرصة للبروباجاندا للنجاح لأن هناك جماعات ذات آراء خاصة في أي رأي عام، والبروباجاندا تستخدم هذه الجماعات كبذور لتغيير التيار العام.

(2) غني عن القول إنه على البروباجاندا أن تغيّر شخصيتها حسب النتائج التي تسعى لتحقيقها في ظروف معينة. مثلًا، على البروباجاندا أن تكون مشخصنة جدًّا عندما تحاول أن تخلق شعورًا بالذنب في الخصم. (مثلًا، "الفرنسيون مستعمرون"). ومن ناحية أخرى، لا يجب أن تكون البروباجاندا مشخصنة عندما تهدف إلى خلق ثقة وفرح. ("الفرنسيون عظماء" على سبيل المثال)

تنقسم هذه المادة إلى أربعة أقسام: أولًا، الآليات النفسانية التي تسمح لمروج البروباجاندا بمعرفة رد الفرد بطريقة ما لحافز ما. هنا يبتعد علماء النفس كل البعد عن الاتفاق. يفترض علم نفس العمق والنظرية السلوكية وعلم نفس الغرائز شتى الآليات النفسانية والدوافع والروابط المختلفة. وهنا أيضًا يقع مروج البروباجاندا تحت رحمة هذه التأويلات. ثانيًا، الآراء والأنماط والصور النمطية التقليدية موجودة في بيئة معينة أو داخل فرد معين. ثالثًا، الأيديولوجيات التي يقبلها ويتبناها وينشرها الناس تشكل العنصر الفكري الذي يجب أن يعد له في البروباجاندا. رابعًا وأخيرًا، على مروج البروباجاندا أن ينتبه (أكثر من أي شيء آخر) إلى احتياجات هؤلاء الذين يهدف التوصل إليهم.[1] لا بد أن كل أنواع البروباجاندا تسد حاجة مادية (الخبز أو السلام أو الأمن أو العمل) أو حاجة نفسانية[2] (سنناقش هذا بالتفصيل لاحقًا). من اللازم أن يكون هناك سبب وراء البروباجاندا، لا يستطيع مروج البروباجاندا أن يصنع بروباجاندا ببساطة في أي اتجاه أو لأي جماعة. يجب أن تكون الجماعة في حاجة تسعى البروباجاندا على سدها. (واحد من عيوب الاختبارات التي أُجريت في الولايات المتحدة هو أن البروباجاندا التجريبية المستخدمة لم تسد حاجة الأشخاص المختبرين في أغلب الأحيان). والخطأ الشائع من جانب مروج البروباجاندا هو الفشل في تحديد سواء كان متلقي البروباجاندا في حاجة لما يعرضه له.

عندما نقول إن مروج البروباجاندا يجب أن يستخدم عناصر موجودة بالفعل، لا نقصد أن عليه أن يستخدمها استخدامًا مباشرًا لا لبس فيه. لقد أشرنا فيما سبق أن عليه أن يستخدمها بشكل غير مباشر ومبهم. وعندما يفعل ذلك يخلق بالفعل شيئًا جديدًا. مروج البروباجاندا في حاجة إلى أن يعتمد على ما هو

---

(1) على المستوى الأدنى، تستغل البروباجاندا الحاجة للنجاة المادية (في وقت الحرب). ويمكن استخدام هذا أيضًا إما لإضعاف المقاومة وإما تقويتها. مثلًا، استخدم (جوبلز) هذا الموضوع في 1945م ليطيل مدة المقاومة: "القتال يعطيك فرصة للنجاة."

(2) لا بد أن تضع البروباجاندا في الاعتبار الطرائق التي يسد بها متلقي البروباجاندا حاجاته (بناء التوقعات). تهدف البروباجاندا كذلك إلى تغيير صورة توقعات الناس.

كائن بالفعل، ولكن هذا لا يعني أنه لن يستطيع المضي قدمًا. فإذا التزم رأيًا محددًا، هل سيلتزم ترديد هذا الرأي لأجل غير مسمى؟ هل سيقتصر دوره على إعادة إنتاج هذه الصورة لأنه ملزم بدعم صورة نمطية معينة دعم زائف؟ بالطبع لا. المتاح هو المادة الخام التي سيستخدمها مروج البروباجاندا ليخلق شيئًا جديدًا مئة بالمئة والذي لم يكن لينشأ على الأرجح من تلقاء نفسه. مثلًا، العمال غير السعداء تحت تهديد البطالة والذين يحصلون على أجور متدنية وليس عندهم أمل في تحسين أوضاعهم: أثبت كارل ماركس بوضوح أن رد الفعل التلقائي للعمال قد يشكل تمردًا وأن بعض نوبات العنف قد تحدث في أي مكان، ولكن هذا لن يتطور لأي شيء ولن يقود لأي شيء. وبالرغم من ذلك، في ظل البروباجاندا، الموقف ذاته والمشاعر الموجودة قد تُستخدم لخلق وعي طبقي وتيار ثوري منظم ودائم.

بالمثل، إذا أخذنا شعب في منطقة معينة (ولكن ليس بالضرورة من نفس العرق أو الدين أو اللغة) تحت قبضة محتل واحد، يشعر أفراد هذا الشعب بالسخط أو الكراهية تجاه الاحتلال (يمكن أن نجد هذا الشعور على مستوى شخصي بحت). وفي قبضة إدارة العدو، القليل من أعمال العنف الفردية ستحدث على نحو تلقائي - ولن يحدث أي شيء على الإطلاق في معظم الوقت. لكن البروباجاندا "ستبدأ من هذه النقطة" وستثير شعورًا بالوطنية ذا الأساسات الطبيعية، ولكن في نفس الوقت شعورًا زائفًا تمامًا عندما يكون قوة متكاملة. كان هذا الحال في الوطنية الجزائرية أو اليوغسلافية أو الإفريقية.

بهذه الطريقة، يمكن أن تكون البروباجاندا إبداعية ويمكن أن تتحكم فيما أنتجته. تغرس العواطف والتحيزات في الإنسان، وهذا يساعد على تعزيز قبضتها عليه وبالتالي تدفعه إلى أن يفعل ما لم يكن من الممكن أن يفعله أبدًا. ليس صحيحًا أن البروباجاندا ضعيفة لأنها في البداية مقصورة على ما هو كائن فعلًا. يمكن أن تهاجم من الخلف وتضعف الإرادة ببطء وتقدم مراكز جديدة للاهتمام والتي تؤدي إلى إهمال المواقف المكتسبة مسبقًا. يمكن أن تغير مسار انحياز ما أو تثير تصرف يتعارض مع رأي تبناه الفرد دون وعي.

وأخيرًا، من البديهي أن البروباجاندا لا يجب أن تهتم بما هو أفضل للإنسان – أعلى أهداف تضعها الإنسانية نصب أعينها وأعظم وأثمن مشاعرها. لا تهدف البروباجاندا إلى رفع الإنسان وإنما *استعباده*. وبالتالي، يجب أن تستخدم المشاعر الأكثر شيوعًا والأفكار الأكثر انتشارًا وأكثر الأنماط طبيعية، وبهذه الطريقة تضع نفسها على مستوى منخفض جدًّا بالنسبة إلى ما تريد الإنسان أن يفعله وإلى أية غاية.[1] للكراهية والجوع والكبرياء تأثير أكبر من الحب أو الحياد.

التيارات السائدة في المجتمع

لا يجب أن تقتصر البروباجاندا على ربط نفسها بما يمر به المرء، بل يجب أن تعبر عن التيارات السائدة في المجتمع التي تسعى إلى التأثير عليه. يجب أن تتعرف على الافتراضات الاجتماعية الجمعية والأساطير العفوية والأيديولوجيات العامة. وبذلك لا نعني التيارات السياسية أو الآراء المؤقتة التي ستتغير بعد بضعة أشهر، ولكن القواعد النفسانية والاجتماعية التي يعتمد عليها المجتمع كله. هذه الافتراضات المسبقة والأساطير لا تخص فرد أو جماعة ما فقط، بل كل الأفراد في المجتمع بما في ذلك الأشخاص ذوو الميول السياسية والانتماءات الطبقية المعارضة.

ليس هناك فرصة للنجاح للبروباجاندا التي تقاوم هذا النظام الأصولي والمقبول اجتماعيًّا. وعلى العكس، تعتمد البروباجاندا الفعالة على هذه التيارات الأساسية وتعبر عنها.[2] لن يفهم الناس البروباجاندا أو يقبلوها إلا إذا استندت

(1) يجب أن تبقى البروباجاندا على المستوى البشري، ولا يجب أن تقترح أهداف عليا إلى درجة أنها ستبدو صعبة المنال؛ لأن هذا سيؤدي إلى مخاطرة التأثير العكسي. يجب أن تقتصر البروباجاندا على رسائل بسيطة أولية (الثقة في زعيمنا وحزبنا... وكراهية أعدائنا، إلخ) دون خوف أن تكون سخيفة. يجب استخدام اللغة الأبسط التي يفهمها الفرد في حياته اليومية عند التواصل مع الجماعة المستهدفة.

(2) يجب أن ترتبط البروباجاندا بالقيم الثقافية السائدة في المجتمع ككل.

إلى المعتقدات الجمعية المناسبة. فهي جزء من حضارة معقدة تتألف من عناصر مادية ومعتقدات وأفكار ومؤسسات، ولا يمكن أن تنفصل عنها. لا يمكن أن تنجح البروباجاندا عن طريق مناهضة البنيوية المجتمعية. لكن من الواضح أن مهمة البروباجاندا الأساسية هي أن تعكس هذه الهياكل على نحو نفساني.

يبدو لنا أن هذا الانعكاس يتواجد في شكلين: الافتراضات الاجتماعية الجمعية والأساطير الاجتماعية. ما نعنيه بالافتراضات هو مجموعة من المشاعر والمعتقدات والصور التي يعتمد عليها الفرد دون وعي في الحكم على ما يحدث وعلى الأشياء دون التفكير فيها أو حتى ملاحظتها. هذه الأشياء مشتركة بين جميع الناس الذين ينتمون إلى نفس المجتمع أو الجماعة. تستمد قوتها من الحقيقة أنها تعتمد على اتفاق ضمني عام. بغض النظر عن اختلاف الآراء بين الناس، يمكن اكتشاف الاختلافات في ثنايا المعتقدات ذاتها - عند الأميركيين والروس والشيوعيين والمسيحيين. هذه الافتراضات المسبقة اجتماعية بحيث أن البيئة المحيطة هي التي توفرها لنا وتسير بنا في التيار الاجتماعي. تساعدنا هذه الافتراضات على البقاء في انسجام مع بيئتنا.

كما يبدو، هناك أربعة افتراضات جمعية عظيمة في العالم الحديث. ولا نعني بهذا العالم الغربي فقط وإنما العالم أجمع الذي يشهد التكنولوجيا الحديثة ويتكون من أمم (من ضمنها العالم الشيوعي) ولكن لا يشمل العالمين الإفريقي أو الآسيوي حتى الآن. هذه الافتراضات المشتركة للبرجوازية والبروليتاريا تقول إن هدف الإنسان في الحياة هو السعادة، وإن الإنسان جيد بالفطرة، وإن التاريخ يتطور بلا نهاية، وأن كل شيء مهم.[1]

(1) بهذه الصياغة يبدو أنها أفكار سياسية، ولكنها ليست كذلك. بالطبع، لا نرى هنا أية من المدارس الفلسفية أو النظرية المادية أو مذهب المتعة، بل المعتقد الغريزي الشائع الذي يميز العصر الذي نعيش فيه ويتبناه الجميع والذي يعبر عن نفسه بأشكال ملموسة.

انعكاس نفساني آخر للواقع الاجتماعي هو الأسطورة التي تعبر عن ميول عميقة للمجتمع، وبدونها لن يتمسك الجماهير بحضارة معينة أو مسار تطورها وأزمتها. فهي باعث قوي مبالغ فيه، وغير عاقل، ويستمد طاقته من قوة المرء على الإيمان. ويحتوي على عنصر ديني. في مجتمعنا، تعتمد كل الأساطير على أسطورتين أساسيتين عظيمتين: العلم والتاريخ. وتعتمد عليهما الأساطير الجمعية التي توجه الإنسان: أسطورة العمل، وأسطورة السعادة، (التي تختلف عن افتراض السعادة)، وأسطورة الأمة، وأسطورة الشباب، وأسطورة البطل. ليس هناك خيار أمام البروباجاندا إلا أن تبني على هذه الافتراضات وتعبر عن هذه الأساطير والتي بدونها لن يستمع أحد للبروباجاندا.

ولهذه الغاية، ينبغي أن تسير البروباجاندا في نفس الاتجاه الذي يسير فيه مجتمع – السبيل الوحيد أمام البروباجاندا هو تعضيد المجتمع. لن تتمكن البروباجاندا من جذب جمهور لها إذا ركزت على الفضيلة على حساب السعادة، وإذا افترضت أن التقشف والتأمل يهيمنان على مستقبل الإنسان. إذا شككت البروباجاندا في التقدم أو العمل، ستثير استياء الناس ولن تصل لأحد، وسيصفها الناس على الفور كأيديولوجية المثقفين نظرًا إلى أن معظم الناس يشعرون أن الأشياء الجدية أشياء مادية لأنها تتعلق بالكدح، وما إلى ذلك.

ومن اللافت للنظر كيف تكمل وتدعم وتدافع مختلف الافتراضات ومظاهر الأساطير عن بعضها البعض: إذا هاجم مروج البروباجاندا الشبكة في وقت ما فستتفاعل كل الأساطير مع الهجوم. ينبغي أن تستند البروباجاندا إلى المعتقدات والرموز الحالية للتواصل مع الإنسان والسيطرة عليه. على الجانب الآخر، يجب أن تتبع البروباجاندا الاتجاه العام للتطور الذي يتضمن الإيمان بالتقدم. التطور الطبيعي العشوائي متوقع إلى حد ما حتى إذا لم يشعر به الإنسان، ولكي تنجح البروباجاندا، يجب أن تتحرك في اتجاه التطور.

تقدم التكنولوجيا مستمر؛ ويجب أن تعبر البروباجاندا عن هذه الحقيقة التي تعتبر واحدة من معتقدات الإنسان. وعلى كل أنواع البروباجاندا أن تستفيد من الحقيقة أن الأمة ستكون صناعية، وأن الكثير سيُنتج في المستقبل، وأن التقدم وشيك، وما إلى ذلك. لا يمكن للبروباجاندا أن تنجح إذا كانت تدافع عن وسائل الإنتاج أو المؤسسات الاجتماعية أو الإدارية القديمة. ولكن أحيانًا يمكن أن تثير الإعلانات ذكريات الأيام الخوالي إثارة إيجابية، بينما لا تقود البروباجاندا السياسية إلى نفس النتيجة. وعلى النقيض من ذلك، على البروباجاندا أن تدفع الأحاسيس نحو المستقبل والغد المشرق لأن مثل هذه الرؤى تدفعنا على التصرف.[1]

تتدفق البروباجاندا على هذا التيار ولا يمكن أن تسير عكسه: يجب أن تؤكده وتعززه. وبالتالي ستحول الشعور العادي للوطنية إلى وطنية غاضبة. فهي لا تعكس الافتراضات والأساطير فحسب، بل تقويها وتخشوشنها وتستثمر فيها بقوة الصدمة والفعل. من المستحيل تغيير هذا التيار إلى اتجاه معاكس.

في بلد ليس فيه نظام مركزي، يمكن الترويج للمركزية لأن الإنسان في العصر الحديث يؤمن بقوة الدولة المركزية. ولكن في البلد ذي النظام المركزي لا يمكن للبروباجاندا أن تروج ضد المركزية. تتعارض البروباجاندا الفيدرالية الحقيقية مع المركزية القومية - بخلاف الوطنية العظيمة مثل الفيدرالية في الاتحاد السوفيتي أو أوروبا. من المستحيل أن تنجح مثل هذه البروباجاندا الفيدرالية لأنها تتعارض مع كل من الأسطورة الوطنية وأسطورة التقدم. فكل عملية اختزال (سواء كان لوحدة عمل أو وحدة إدارية) تُرى على أنها انحدار.

---

(1) ولكن في ظل هذه الجاذبية نحو المستقبل، على مروج البروباجاندا أن يكون حذرًا دائمًا عند اتخاذ قرارات متقنة والتزامات محددة وتعهدات دقيقة. لطالما عارض (جوبلز) تأكيدات النصر التي أتت من مقر الزعيم. يجب أن تشير الجاذبية نحو المستقبل إلى تيارات المجتمع العامة بدلًا من وقائع محددة. وبالرغم من ذلك، الوعد الذي قطعه (خروتشوف) على نفسه بأن الشيوعية ستتحقق بمرور عام 1980م ترك هامشًا كافيًا، إذ إن الأثر المراد قد تحقق في 1961م، والناس ستنسى الوعد بحلول 1980م إن لم يف بالوعد.

وعندما نحلل خضوع البروباجاندا الحتمي للافتراضات المسبقة والأساطير، هذا لا يعني أن البروباجاندا تعبر بالضرورة عن هذه الافتراضات والأساطير بوضوح طوال الوقت - فلا يجب أن تتحدث عن التقدم والسعادة باستمرار (ولكن من المفيد دائمًا الحديث عن هذه الموضوعات). ومع ذلك، في اتجاهها وبنيتها التحتية العامة، يجب أن تسمح البروباجاندا بنفس الافتراضات المسبقة وأن تتبع الأساطير ذاتها لأنها تسيطر على الجماهير. هناك اتفاق ضمني: مثلًا، المتكلم ليس مضطرًا أن يتفوه بأنه يؤمن بأن "الإنسان خيّر" إذ إن هذا يتضح من سلوكه ولغته ومواقفه، وكل إنسان (دون وعي) يفكر أن افتراضاته المسبقة وأساطيره هي ذاتها التي يؤمن بها الآخرون. يحدث الأمر ذاته مع البروباجاندا: يستمع شخص ما إلى بروباجاندا معينة لأنها تعكس أعمق معتقداته غير الواعية دون أن يتحدث عنها مباشرةً. وبالمثل، من الأسهل أن نقنع شخصًا أن يشتري ماكينة حلاقة كهربية من أن نقنعه بشراء شفرة حلاقة مستقيمة - بسبب أسطورة التقدم.

في النهاية، بجانب التيارات السائدة التي تجلت في الأساطير والافتراضات المسبقة، من اللازم أن نتذكر عنصرين آخرين. من الواضح أن شخصية المجتمع المادية وتطوره وتياراته الاجتماعية السائدة ترتبط ببنائه. ومن المهم أن تعمل البروباجاندا بالتوازي مع تلك التيارات المادية وعلى مستوى التقدم المادي. ومن الضروري أن ترتبط بالتنمية التعليمية والسياسية والإدارية والاقتصادية وإلا لن يكون لها أي تأثير. وكذلك يجب أن تعكس الأمور الاستثنائية على الصعيد المحلي القومي. وبالتالي، لم يتجاهل الفرنسيون الاتجاه العام نحو الاشتراكية ولم يشككوا في هذا الاتجاه. اليسار السياسي محترم، وعلى اليمين أن يبرر نفسه أمام أيدولوجية اليسار (الذي يشارك فيه حتى اليمينيون). من اللازم أن تتضمن كل أنواع البروباجاندا في فرنسا الملامح الأساسية لأيدولوجية اليسار (وأن تستحضرها) لكي تلقى قبولًا من الناس.

ومع ذلك، من الممكن أن ينشب صراع بين بيئة محلية ومجتمع قومي. نزعات الجماعة ربما تتعارض مع نزعات المجتمع الأكبر، وفي هذه الحالة لا يمكن وضع قواعد عامة. في بعض الأحيان، تنتصر نزعات الجماعة المحلية بسبب تضامن هذه الجماعة، وأحيانًا أخرى يفوز المجتمع العام لأنه يمثل الحشد، وبالتالي، الإجماع. على أي حال، يلزم على البروباجاندا دائمًا أن تختار التيار الرابح لأنه يتوافق مع الأساطير العظيمة لذلك العصر والتي يتبناها الجميع. المشكلة الزنجية في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية تتطابق مع هذا النوع من الصراع. فالبيئة *المحلية* في الجنوب كانت معادية للزنوج ومواتية للتمييز، بينما كان المجتمع الأمريكي ككل مناهض للعنصرية. وعليه، يمكننا أن نؤكد إلى حد كبير أن المجتمع سيتغلب على العنصرية رغم الانحياز الراسخ والتضامن المحلي. كان الأمريكيون في الجنوب في وضع الدفاع، ولم يكونوا على استعداد لإطلاق حملات بروباجاندا خارجية مثلًا لتستهدف الأمم الأوروبية. لا يمكن للبروباجاندا أن تسير إلا في اتجاه الرأي الدولي – من آسيا وإفريقيا ومعظم أوروبا. والأهم من ذلك، تدعم أسطورة التقدم البروباجاندا التي تعادي العنصرية.

وفي ضوء ذلك، لا يمكن تطبيق البروباجاندا بنفس الطريقة في كل مكان، وحتى الآن يمكننا أن نقول إن البروباجاندا في كل من إفريقيا وآسيا كانت تختلف من تلك في بقية العالم. وأؤكد – على الأقل حتى الآن – أن الأساطير الغربية تسيطر على هذه البلاد التي شرعت في بناء أشكالًا تكنولوجية وقومية لمجتمعاتها. ولكن، في هذه اللحظة، لا تمثل هذه الأساطير واقع الحياة اليومية، فالنسبة إلينا، تمثل الطبيعة والخبز الروحي والإرث المقدس. وباختصار، على البروباجاندا أن تعبر عن التيارات السائدة للمجتمع.[1]

---

(1) وفي هذا الصدد، انتقد ضابط ذو رتبة رفيعة الحملة النفسانية في الجزائر (*Le Monde* 2 أغسطس/ آب 1961م) انتقادًا صائبًا عندما أشار إلى أن ضعف نظام (لاكيروي) كان سببه التركيز على البيئة المادية للشعب الجزائري دون أن يأخذ في الاعتبار الأساطير والمقدرات الطبيعية والوطنية والالتزام بالأيديولوجيات الغربية.

يجب أن ترتبط البروباجاندا في شكلها الصريح بما يحدث في الوقت الحاضر فقط.[1] لا يمكن السيطرة على الإنسان وتعبئته إلا إذا كان هناك تناغم بين معتقداته الاجتماعية العميقة وتلك المعتقدات التي تحملها البروباجاندا التي تستهدفه. ولن تثيره وتدفعه للتصرف إلا إذا كان هذا التصرف في وقته المناسب. ليس هناك تعارضٌ بين هذين العنصرين، بل يكملان بعضهما البعض لأن الخبر المثير واللافت للنظر هو الخبر الذي يقدم لنا جانبًا مثيرًا في حينه عن واقع المجتمع العميق. خبر عن سيارة جديدة سيثير الإنسان لأنه يعتبر دليلًا مباشرًا على إيمانه العميق بالتقدم والتكنولوجيا. يمكن لنفس العلاقة بين الأمواج والبحر أن تنشأ بين الأخبار التي يمكن أن تستخدمها البروباجاندا وبين التيارات السائدة في المجتمع. لن يكون هناك أي أمواج إلا إذا كان هناك دعم من الجماهير. والإنسان لا يرى إلا هذه الأمواج التي تثيره وتبهره، ومن خلالها فقط يدرك عظمة وفخامة البحر - مع أن هذه العظمة لا تكمن إلا في الكتلة الهائلة للمياه. وبالمثل، يمكن أن تتمتع البروباجاندا بسطوة وتأثير قوي على الإنسان بسبب علاقتها بالتيارات السائدة ولأنها مثيرة إثارة مغرية وقادرة على دفعه عن طريق روابطها بالأمور العاجلة المتقلبة.[2] الحدث في حينه يلقى اهتمام الإنسان ليتذكره وينشره إذا عبّر عن الأساطير والافتراضات المسبقة في وقت ومكان بعينه. لا يهتم الناس إلا بالأحداث المعاصرة، فيهتمون ويحققون فيها وحدهم. من البديهي أن

---

(1) يكتظ تاريخ البروباجاندا السوفيتية بأحداث تذكرنا بضرورة التوقيت المناسب للبروباجاندا فيما يتعلق بالمشكلات العملية - فالنموذج السوفيتي يرفض البروباجاندا الغامضة والعقائدية. مثلًا، يجب أن تحقق البروباجاندا القبول العام لمعايير جديدة للعمل وتحسينات في الرواتب وغير ذلك.

(2) على البروباجاندا أن تتذكر: "قال (جوبلز) إن وجه السياسة يتغير كل يوم، ولكن طرائق البروباجاندا لا بد أن تتغير تدريجيًا."

البروباجاندا لا تنجح إلا عندما يشعر الإنسان بالتحدي، ولن يكون لها أي تأثير إذا شعر بالاستقرار والاسترخاء وفي قمة راحته وأمنه.

لا الأحداث السابقة ولا المشكلات الميتافيزيقية تتحدى الفرد العادي في هذه الأيام. فهو لا يهتم بمأسويات الحياة ولا يتألم بما يضعه الله في طريقه. الأحداث الجارية فقط (سواء أكانت سياسية أو اقتصادية) هي التي تتحداه. وعلى ذلك، يجب أن تبدأ البروباجاندا بالأحداث الجارية - فلن تصل لأحد إذا تأسست على حقائق تاريخية. فرأينا فشل البروباجاندا الفيشية عندما حاولت أن تستحضر صور نابليون والقديسة جان دارك، أملًا في دفع الفرنسيين ضد إنجلترا. وحتى الحقائق الأساسية الراسخة في الوعي الفرنسي لا تعد نقطة انطلاق جيدة للبروباجاندا - تنتقل مثل هذه الحقائق سريعًا إلى كتب التاريخ، وبالتالي اللامبالاة والحياد. أُجري استطلاع للرأي في مايو/ أيار 1959م وأثبت أن 70 بالمئة من الصبيان الفرنسيين بين الرابعة عشر والخامسة عشر سنة لم يعرفوا أي شيء عن (هتلر) أو (موسوليني)، بينما 80 بالمئة منهم قد نسوا أن الروس كانوا ضمن المنتصرين في 1945م، ولم يتعرف أي منهم على كلمة ميونخ أو دانزج كما تعرفوا على أشياء في أحداث وقعت مؤخرًا.

يجب كذلك أن نضع في الاعتبار أن الفرد يقع تحت رحمة الأحداث. تصبح الأحداث قديمة بسرعة حتى وإن ظلت أهميتها كبيرة - فلا يهتم بها أحد. وإذا شعر الفرد بأنه ابتعد عنها، فلن يقلق بشأنها بعد ذلك. بالإضافة إلى ذلك، الإنسان بالطبع له قدرة محدودة على الانتباه والوعي. حدث جديد يدفع ما سبقه إلى طي النسيان. ولأن ذاكرة الإنسان قصيرة، كل حدث جديد يحل محل الحدث الذي سبقه فينساه الإنسان ولا يهتم به أحد بعد ذلك.[1] في نوفمبر/ تشرين الثاني

---

(1) لا يتذكر الإنسان أخبار محددة، ولكنه يتذكر فقط الانطباع العام الذي تقدمه له البروباجاندا وتدخله في التيار الجمعي للمجتمع. وهذا بالطبع يسهّل عمل مروج البروباجاندا ويفسح المجال لتناقضات صارخة. ما يتذكره المستمع على المدى الطويل يحدد ولاءاته. دراسة بارزة أجراها (كارل هوفلاند) و(والتر ويس بينت) أثبتت أن الفرد =

1957م، نظمت هيئة (بوردو) محاضرة عن القنبلة الذرية لخبير معروف، وبالطبع ستلقى هذه المحاضرة اهتمام كبير (ولكن ليس لأغراض البروباجاندا). أعلنت الهيئة عن المحاضرة عن طريق توزيع واسع للمنشورات بين الطلاب، ولكن لم يحضر طالب واحد. لماذا؟ لأن هذا حدث في نفس الوقت الذي نجح فيه (سبوتنك)، ولم يهتم الناس بأي شيء إلا هذا الخبر، فكان (سبوتنك) هو اهتمامهم الوحيد، و"نسوا" المشكلة الدائمة.

حقًّا، يهتم الناس كثيرًا بالأحداث الجارية ويتركز انتباههم على أي حدث مدهش يتوافق مع الأساطير التي يؤمنون بها. في نفس الوقت، سيتركز اهتمام ومشاعر الناس على قضية واحدة وسيتجاهلون كل شيء آخر. فقد تعودوا على "كل شيء آخر" أو كيفوا أنفسهم عليه (أخبار البارحة أو قبل البارحة). فلا نتعامل هنا مع النسيان فحسب، بل فقدان الاهتمام.

مثال جيد على ذلك هو إنذار (خروتشوف) في أوائل 1959م عندما وضع حدًّا زمنيًّا من ثلاثة شهور لحل مشكلة برلين. مضى أسبوعان ولم تندلع الحرب. وعلى الرغم من أن المشكلة ذاتها استمرت، إلا إن الرأي العام قد اعتاد عليها وفقد الاهتمام بها - لدرجة أن الناس اندهشوا عندما تذكروا إنذار (خروتشوف) في آخر يوم له، 27 مايو/ أيار 1959م.

(خروتشوف) نفسه لم يقل أي شيء في 27 مايو/ أيار - فلم يحقق شيئًا، ولكنه اعتمد على الحقيقة أن الكل نسوا إنذاره.[1] يعتبر ذلك دليلًا على أنه كان

= الذي يدقق في معلومة لأنه لا يثق في مصدرها في النهاية ينسى الطبيعة المشكوك فيها للمصدر ويتذكر فقط انطباع المعلومة. على المدى البعيد، تقل الثقة في مصدر المعلومات الموثوق، وتزيد الثقة في المعلومات من المصدر المشكوك فيه.

(1) حدث الشيء ذاته في 1961م مع إنذار آخر ومطالبة لبرلين: في 15 يونيو/ حزيران، أصدر (خرونشوف) إنذارًا وطالب براين بالتنفيذ بنهاية العام، وفي 2 أغسطس/ آب، أعلن أنه سيستخدم القوة ليضمن إذعان برلين. ولكن بنهاية العام، نسى الجميع كل شيء.

مروجًا بارعًا للبروباجاندا. من المستحيل أن تستند حملة البروباجاندا إلى حدث لا يهتم بشأنه الناس - فقد نسوه وتعودوا عليه. في 30 نوفمبر/ تشرين الثاني 1957م، تجمعت الدول الشيوعية ووقعت اتفاقًا بخصوص عدة مشكلات سياسية ومشكلة السلام: كان نص الاتفاق رائعًا جدًّا - واحد من أفضل النصوص على الإطلاق. ولكن لم يتكلم أحد عن هذا الأمر الهام. لم يقلق التقدميون بهذا الشأن ولم ينبس أنصار السلام بكلمة بالرغم من أن النص ذاته كان رائعًا. ولكن بالنسبة إلى الناس "عفا الزمن" على محتواه. لم يستطع الناس أن يركزوا اهتمامهم مرة أخرى على موضوع قديم - خصوصًا أنه لم يكن هناك تهديدًا بالحرب يلوح في الأفق.

يبدو أن نتائج بروباجاندا السلام لا تؤتي ثمارًا إلا عندما ينتشر الخوف من الحرب. تكمن مهارة البروباجاندا الشيوعية في هذا المجال في خلق تهديد بالحرب وفي نفس والوقت تُجري بروباجاندا السلام. التهديد المستمر بالحرب (نابعًا من موقف (ستالين)) جعل بروباجاندا أنصار السلام فعالة وقاد غير الشيوعيين إلى ربط أنفسهم بهامش الحزب من خلال هذه البروباجاندا.

ومع ذلك، في 1957م، عندما بدا تهديد الحرب أقل واقعية بكثير حيث إن (خروتشوف) قد خلف (ستالين)، صار هذا النوع من البروباجاندا غير مؤثر على الناس. بدت الأخبار عن المجر أكثر أهمية بكثير في نظر العالم الغربي من مشكلة السلام العالمي. تفسر هذه العوامل فشل النص المكتوب بشكل جيد عن مشكلة السلام في تحقيق مراده بالرغم من أنه قد أثار اهتمامًا كبيرًا في وقت آخر. وكما ذكرنا سلفًا، يجب أن تكون البروباجاندا مستمرة - لا تكل ولا تمل - ويجب أن تغير موضوعاتها مع تغير تيار الأحداث الراهنة.

وعلى المصطلحات والكلمات والموضوعات التي تستخدمها البروباجاندا أن تحمل في ذاتها القوة لكسر حاجز اللامبالاة عند الفرد. يجب أن تكون قادرة على

الاختراق مثل الرصاصات ويجب أن تستحضر مجموعة من الصور استحضارًا فوريًا وأن تتمتع بعظمة في ذاتها.

نشر كلمات قديمة أو اختيار كلمات جديدة قادرة على الاختراق بالقوة فحسب لا يجدي لأن التوقيت يزودنا بـ "المصطلحات التشغيلية" ذات القوة المتفجرة والمؤثرة. وينبع جزء من قوة البروباجاندا من استخدام وسائل الإعلام، ولكن هذه القوة سوف تتبدد إذا اعتمدت البروباجاندا على مصطلحات تشغيلية تفتقر إلى القوة. في أوروبا الغربية، كلمة *البلشفي* في 1925م وكلمة *الفاشي* في 1936م وكلمة *المتعاون* في 1944م وكلمة *السلام* في 1948م وكلمة *الدمج* في 1958م كانت كلها مصطلحات تشغيلية قوية فقدت قيمة الصدمة بعد مرور حدثها العاجل .

وبقدر اعتماد البروباجاندا على الأخبار الجارية، لا يمكنها أن تسمح للناس بوقت للتفكير أو التأمل. فالمرء منهمك في الأخبار وليس أمامه سوى أن يظل على سطح الحدث؛ يحمله التيار وليس عنده وقت للاستراحة للحكم على ما يتلقاه أو تقدير قيمته؛ فمن المستحيل أن يجد فرصة للتوقف والتأمل.

فليس عند الإنسان أي وعي بنفسه أو بحالته أو بمجتمعه لأنه يعيش على الأحداث الجارية. لن يكف إنسان مثل هذا أبدًا عن التحقيق في أي نقطة - أكثر من قيامه بربط سلسلة من الأحداث الإخبارية ببعضها البعض. لقد ذكرنا من قبل عجز الإنسان عن التفكير في حقائق متعددة أو أحداث متنوعة في نفس الوقت أو أن يجمعها كي يواجهها أو يعارضها.

تطرد الفكرةُ فكرةً أخرى؛ وتطارد الحقائق الجديدة السابقة عليها. وتحت هذه الظروف، ليس هناك مكانًا للفكر. وفي الحقيقة، لا يفكر الإنسان المعاصر في المشاكل الآنية؛ لكنه يشعر بها. فيتفاعل مع المشاكل لكن فهمه لها لا يزيد على إدراكه لمسؤوليته عنها. ليس عنده القدرة على اكتشاف أي تناقض بين الحقائق المتتالية؛ فقدرة الإنسان على النسيان لا حدود لها. وهذه واحدة من أهم وأنفع

الأمور لمروج البروباجاندا الذي يستطيع دائمًا أن يتأكد من أن الناس سينسون موضوع البروباجاندا أو بيانها أو حدثها في بضعة أسابيع. بالإضافة إلى ذلك، هناك رد فعل دفاعي عفوي داخل الفرد ضد فائض المعلومات (حيث إنه يتمسك بوحدة شخصيته دون وعي) وضد التناقضات. أفضل وسيلة للدفاع هنا هي نسيان الحدث السابق. وبذلك، يرفض المرء استمرارية ذاته؛ وبالقدر نفسه يعيش على سطح الأحداث ويجعل أحداث اليوم حياته عن طريق محو أخبار أمس، ويرفض أن يرى التناقضات في حياته، ويحكم على نفسه بحياة من اللحظات المتتالية المتقطعة والمجزأة.[1]

تجعل هذه الحالة "إنسان الأحداث الجارية" هدفًا جاهزًا للبروباجاندا. وبالتأكيد، مثل هذا الشخص أكثر عرضة لتأثير تيارات اليوم. ونظرًا لافتقاره للعلامات الاستدلالية، يتبع كل التيارات. ويعاني من عدم الاستقرار لأنه يجري وراء ما حدث اليوم؛ ويتعلق بالحدث ولذلك لا يمكن أن يقاوم أي حافز من هذا الحدث. ولأنه منغمس في الشؤون الحالية، يمر بضعف نفساني يضعه تحت رحمة مروج البروباجاندا. لا تحدث أبدًا أي مواجهات بين الأحدث وبين الحقائق؛ وليس هناك علاقة قائمة بين الأحداث والأشخاص. مثل هذا الشخص لا يعر المعلومات الحقيقية اهتمامًا.

إذا نحينا القنبلة الذرية جانبًا، هل هناك أمر مدهش ومفجع وحاسم أكثر من انشطار الذرة؟ ومع ذلك، ظل هذا التطور العظيم بعيدًا عن الأضواء، خلف النتيجة العابرة والمذهلة لكارثة أو حدث رياضي لأن هذه هي الأخبار السطحية التي يريدها الشخص العادي. تخاطب البروباجاندا هذا الشخص؛ مثلها مثله لا ترتبط إلا بالجانب الأكثر سطحية من حدث مذهل قادر وحده على جذب الإنسان ودفعه على اتخاذ قرار أو تبني موقف معين.

---

(1) وكل هذا ينطبق أيضًا على هؤلاء الذين يدعون "المعرفة" لأنهم اطلعوا على بعض الدوريات الأسبوعية المملوءة بالتصريحات السياسية.

ولكن، هنا يلزم أن نبيّن شيئًا هامًا. يمكن أن يكون الحدث الخبري حقيقة واقعة موضوعية، أو مجرد معلومة - نشر لحقيقة مفترضة. ما يجعله خبرًا هو الانتشار وليس الحقيقة الموضوعية. مشكلة برلين مشكلة مستمرة ولهذا السبب لم يهتم بها الناس - لا تعد خبر. ولكن عندما أعلن (خروتشوف) أن المشكلة عويصة وأنها ترقى إلى خطر الحرب، وأنه لا بد من حلها فورًا، وعندما طالب الغرب بالتنازل - عندها فقط تصبح المشكلة خبرًا (رغم أنه لم يكن هناك أي جديد بخصوص مشكلة برلين). ثم يختفي الخبر بمجرد أن يتوقف (خروتشوف) عن التلويح بالتهديد. تذكر أنها كانت المرة الرابعة عندما حدث ذلك في 1961م.

وقع الأمر ذاته مع الغضب السوفيتي بسبب خطط الاعتداء التركية المزعومة في نوفمبر/ تشرين الثاني 1957م. افتتاحية صحيفة (*Le Monde*) عن هذا الموضوع تضمنت تعليقًا جاء أهم ما فيه كالتالي:

"إذا كان ممكنًا أن تُعلّمنا الأحداث الجارية درسًا، فهذا الدرس هو أننا لا يجب أن نعلّق أهمية كبيرة على المخاوف التي خلقتها تصريحات السوفيتيين. دلت الحرب الجرثومية المزعومة، من بين أمثلة أخرى، على أنهم قادرين على أن يشنوا حملة كاملة للإثارة، واتهام الآخرين بأسوأ النيات والجرائم، وقادرين على إعلان أن الخطر تلاشى يومًا ما، وسرعان ما يؤججوه بعد عدة أيام أو شهور."

سندقق في شأن "الحقيقة" في سياق البروباجاندا في قسم آخر. ولكن علينا هنا أن نشدد على أن الأخبار الجارية التي يضعف أمامها الإنسان ويضع نفسه فيها لا تحتاج إلى أصول موضوعية أو فعالة. من ناحية، هذا يُسهّل عمل البروباجاندا كثيرًا لأنها - في سياق الأخبار - تقترح مجموعة من "الحقائق" التي ستصبح واقعًا بالنسبة إلى الإنسان الذي يشعر بالاهتمام بها. ومن ثم، تتمكن البروباجاندا من استغلال هذا الاهتمام لمقاصدها الخاصة.

البروباجاندا والمترددون

يمكننا أن نوضح كل ما سبق من خلال التدقيق لبرهة في مسألة يعرفها علماء السياسة وهي المترددون - ذوو الآراء المبهمة، فهم يشكلون الأغلبية العظمى من المواطنين، ويمثلون الأرض الأكثر خصوبة في انتظار بذور مروج البروباجاندا. من الخطأ أن نفترض اللامبالاة في المترددين. فاللامبالاة تصف أولئك الذين يقولون إنهم محايدين سياسيًا أو بدون رأي، وهؤلاء لا يشكلون أكثر من 10 بمئة من السكان. بالطبع المترددون ليسوا خارج الجماعة وإنما يشاركون في حياة الجماعة، ولكنهم لا يعرفون ما عليهم فعله حيال المشكلات التي تبدو لهم عاجلة.

فهم ضعفاء أمام سيطرة الرأي العام أو الاتجاهات العامة، ودور البروباجاندا أن تُخضعهم لهذه السيطرة بحيث يتحول الاحتمال إلى نتيجة حقيقية. ولكن، لن يكون هذا ممكنًا إلا إذا كان الإنسان المتردد مهتمًا بشأن الجماعة التي يعيش وسطها. كيف يظهر ذلك؟ ما هو الواقع الحقيقي للمترددين؟

نعتبر درجة تكامل الفرد في الحياة الجمعية عاملًا قويًا هنا. لا يمكن أن تؤثر البروباجاندا إلا على الأفراد المشاركين بقوة في التيارات الاجتماعية. لا تؤثر البروباجاندا على متسلق الجبال المنعزل أو الحطّاب الذي يتفاعل مع المجتمع بين الحين والآخر في سوق القرية. فبالنسبة إليه، لا وجود للبروباجاندا على الإطلاق، فلن يلاحظها إلا إذا كان هناك ضوابط صارمة مفروضة على الأنشطة التي يقوم بها بحيث تتغير طريقة حياته، أو عندما تحول مشاكل اقتصادية بينه وبين بيع منتجاته بالطريقة العادية. يمكن أن يفتح هذا التصادم مع المجتمع الأبواب للبروباجاندا ولكن سرعان ما ستفقد تأثيرها مرة ثانية في صمت الجبال أو الغابات.

وعلى النقيض، تعمل البروباجاندا على الشخص المتورط في صراعات عصره والذي يهتم باهتمامات مجتمعه. إذا قرأتُ إعلانًا جيدًا عن سيارة معينة في الجريدة، لن أهتم به على الإطلاق إذا لم أهتم بالسيارات. لن يؤثر هذا الإعلان عليّ إلا

لدرجة هوسي بالسيارات كأقراني. يجب أن يكون هناك اهتمامًا عامًّا مسبقًا لتكون البروباجاندا فعالة. تعتمد هذه الفعالية على مركز الاهتمام الجمعي المشترك بين الجماهير ولا تعتمد على التحيزات الفردية.

ولهذا السبب، لا تحرز البروباجاندا الدينية مثلًا بارزًا للنجاح؛ فالمجتمع ككل لم يعد مهتمًّا بالقضايا الدينية. في بيزنطة، قاتل الجماهير في الشوارع بسبب مسائل لاهوتية، ولذلك كانت البروباجاندا الدينية منطقية في تلك الأيام. في الوقت الحالي، لا يهتم بالدين إلا المنعزلون لأنه جزء من آرائهم الخاصة، وليس هناك رأي عام حقيقي بخصوص هذا الموضوع. من ناحية أخرى، من المؤكد أن البروباجاندا المتعلقة بالتكنولوجيا تستقطب ردودًا لأن الجميع مهتمون بالتكنولوجيا اهتمام حماسي يضاهي اهتمامهم بالسياسة. وتمارس البروباجاندا تأثيرها في حدود مراكز الاهتمام الجمعي.

هنا لا نتعامل مع تحيزات أو صور نمطية إذ إنها تفترض أن الناس قد اتخذوا قراراتهم بالفعل، لكننا نتعامل مع بؤر الاهتمام وهنا لم يتخذوا قرارهم بعد. مثلًا، السياسة حاليًا مركز الاهتمام؛ ولكنها لم تكن كذلك في القرن الثاني عشر. تأتي تحيزات اليمين أو اليسار في وقت لاحق؛ فهي أكثر فردية في حين أن تركيز الاهتمام على السياسة كان جمعيًا بحق. (أفضل مجال لعمل البروباجاندا هو مراكز الاهتمام الجمعية المشتركة، وليس التحيزات الفردية)

يمكن أن تكون التحيزات أو الصور النمطية نتيجة لخلفية المرء النابعةَ من تعليمه وعمله ومحيطه وهكذا؛ ولكن المجتمع ككل هو الذي يصنع مراكز الاهتمام. لماذا تستحوذ التكنولوجيا على اهتمام الإنسان المعاصر؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بتحليل المجتمع المعاصر ككل. وهذا ينطبق على كل مراكز اهتمام الإنسان المعاصر. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مراكز الاهتمام هذه تتشابه أكثر وأكثر الآن في كل أنحاء العالم. ولذلك، يتطور مركز الاهتمام السياسي بين الشعوب الأسيوية والمسلمين والأفارقة. ينطوي مثل هذا التوسع في الاهتمام حتمًا

على توسع تلقائي للبروباجاندا - وربما يختلف هذا من بلد لآخر، ولكنه سيعمل بنفس الأنماط الأساسية وسيرتبط بنفس مراكز الاهتمام في كل مكان.

والآن، نتناول سمة أساسية أخرى لعلم النفس الاجتماعي للبروباجاندا: كلما كانت حياة الجماعة التي ينتمي إليها الفرد أكثر قسوة، كانت البروباجاندا أكثر نشاطًا وفعالية. إذا كان الشعور بالانتماء للجماعة ضعيف، وإذا كانت الأهداف المشتركة غير دقيقة، وإذا كان بناء الجماعة في طور التغيير، وإذا كانت الصراعات نادرة، وإذا لم ترتبط الجماعة بمركز اهتمام جمعي، لا يمكن أن تكون البروباجاندا فعالة على أعضاء الجماعة أو الناس خارجها. عمومًا، ما يجعل البروباجاندا مؤثرة ويجعل أعضاء الجماعة ضعفاء أمامها بازدياد هو قدرة الجماعة على التعبير عن حيويتها بالأشكال المذكورة. كلما كانت الجماعة نشيطة وحيوية، استمع أعضاؤها إلى البروباجاندا وآمنوا بها.(1)

ولكن، هذا لا ينطبق إلا على بروباجاندا الجماعة نفسها تجاه أعضائها. إذا ذهبنا أبعد قليلًا، سنقابل مشكلة ذات صلة، ولكن أكثر عمومية من صعوبة الحياة الجمعية. بالتأكيد يمكن للجماعات النشطة أن تتمتع بحياة جمعية بسيطة. وبالعكس، يمكن للجماعات الضعيفة أن تعيش حياة جمعية حامية الوطيس. تاريخيًا، نلاحظ أن الحياة الجمعية القاسية تنشأ حتى إذا كان المجتمع يتفكك - مثلًا الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع تقريبًا، أو في ألمانيا في وقت جمهورية (فايمر)، أو في فرنسا اليوم. لا يهم سواء أكانت هذه الحياة الجماعية مفيدة أو لا. المهم للبروباجاندا هي صعوبة هذه الحياة، أيًا كانت مصادرها. وتهيئ هذه الصعوبة الأفراد لقبول البروباجاندا دون تحديد معناها مسبقًا - في اتجاه التفكك

---

(1) كلما اندمج الفرد في الجماعة، زاد استعداده لتقبل البروباجاندا وزادت جاهزيته للمشاركة في الحياة السياسية لجماعته. ليس من الضروري أن يكون بناء الجماعة قوي ولذلك هناك فرصة ضئيلة لأي صديق أن يسير في طريق مختلف عن رفاقه عندما يصوتون لنفس الشخص. تمارس مجموعة الأصدقاء ضغطًا لا إراديًا.

الاجتماعي. مثل هؤلاء الأفراد غير مستعدون لقبول هذا التوجه أو ذاك، ولكنهم أكثر ضعفًا أمام الضغط النفساني.

وفضلًا عن ذلك، لا يهمنا كثيرًا إذا كانت صعوبة هذه الحياة طبيعية أو مصطنعة. فيمكن أن تنتج عن السعي الدؤوب أو عن اعتقاد نابع مباشرةً من ظروف سياسية أو اجتماعية مثلما حدث في فرنسا في 1848م أو في دويلات العصور الوسطى. يمكن أيضًا أن تنجم عن تلاعب على يد الجماعة مثلما حدث في إيطاليا الفاشية أو ألمانيا النازية. والنتيجة واحدة في كل هذه الحالات: الفرد عرضة للخضوع لتأثير البروباجاندا لأنه مشارك في حياة جمعية قاسية. وكل مَن ينجح في الابتعاد عن الحياة الجمعية القاسية ينجح في الخروج من حلبة تأثير البروباجاندا بسبب قدرته على الهروب من هذه القسوة

مما لا شك فيه أن صعوبة الحياة مرتبطة بمراكز الاهتمام؛ إذ إنها ليست تيارًا فاقدًا للهيئة أو الاتجاه. فهي ليست مجرد انفجار عشوائي وإنما قوة، ومركز الاهتمام هو إبرة بوصلتها. عادةً ما تكون العلاقات الاجتماعية في الجماعة نشطة جدًّا بسبب مراكز الاهتمام: مثلًا، عزز الاهتمام بالسياسة العلاقات الاجتماعية في جميع أنحاء أوروبا في القرن التاسع عشر. وعلى أي حال، ستكون شدة نشاط العلاقات في أوجها في ظل مثل هذا الاهتمام. على سبيل المثال، مركز الاهتمام المهم اليوم هو مهنة الفرد؛ فمَن لا يهتم كثيرًا بالحياة الاجتماعية لجماعته أو حياة أسرته أو الكتب، سيهتم كثيرًا بمهنته. ورد فعله لن يكون فرديًّا لأنه نتيجة مشاركته في الجماعة.

ولذلك نقدم المبادئ الثلاثة التالية:

(1) يجب أن يضع مروج البروباجاندا عمله في ثنايا مراكز الاهتمام.

(2) يجب أن يفهم مروج البروباجاندا أن لعمله أكبر فرصة للنجاح عندما تكون الحياة الجمعية التي يحاول التأثير عليها في أشدها.

(3) يجب أن يتذكر مروج البروباجاندا أن الحياة الجمعية في أشدها عندما تدور حول مركز الاهتمام.

استنادًا إلى هذه المبادئ يستطيع مروج البروباجاندا أن يصل إلى المترددين ويؤثر على 93 بالمئة من الجمهور.[1] وعندما يتعلق الأمر بكتلة المترددين، يمكننا الحديث عن الغموض وتأثير الأغلبية والتوتر والإحباط، إلخ.

البروباجاندا والحقيقة

حتى هذه اللحظة، لم نناقش قضية معروفة لكن كثيرًا ما يتم تجاهلها وهي قضية العلاقة بين البروباجاندا والحقيقة، أو بالأحرى، العلاقة بين البروباجاندا ودقة الحقائق. سنذكر من الآن فصاعدًا الدقة أو الواقع وليس "الحقيقة" إذ إنها لفظ غير مناسب في هذا السياق. المفهوم الأكثر رسوخًا بشأن البروباجاندا هو أنها سلسلة من القصص الخيالية ونسيج من الأكاذيب، وأن الأكاذيب ضرورية لفعالية البروباجاندا. هتلر نفسه أكد هذا الرأي عندما قال إنه كلما كبرت الكذبة، زادت فرصة تصديقها. هذا المفهوم أدى بالناس لتبني موقف من أثنين:

الأول: "طبعًا، لا يجب أن نقع فريسة للبروباجاندا لأننا قادرين على التفريق بين الحقيقة والكذب." الشخص الذي يتبنى هذا المعتقد هو الأضعف أمام البروباجاندا لأنها بالفعل تقول "الحقيقة" ومن ثم يقتنع أنها لم تعد بروباجاندا. وعلاوة على ذلك، ثقته بنفسه تجعله أكثر ضعفًا أمام الهجمات التي لا يشعر بها.

الثاني: "لا نصدق أي شيء ينطق به العدو لأن كل ما يقوله لا يمت للحقيقة بصله." ولكن إذا استطاع العدو أن يثبت صحة ما يقول، ستتغير الأمور بغتةً في

---

(1) بخصوص 93 بالمئة، كثيرًا ما نسمع (استبيانات الرأي تؤكد ذلك) أن ما بين 7 و10 بالمئة من الناس يلتزمون التيارات العامة والتجمعات بإرادة حرة وعن وعي، في حين أن 90 بالمئة من الناس يتأرجحون مع الظروف المحيطة بهم. أول تقدير صحيح لذلك نُسب لـ(نابليون)، و(هتلر) أعاد إحيائه.

صالحه. استمدت البروباجاندا الشيوعية في 1945-1948م جزءًا كبيرًا من نجاحها من الحقيقة القائلة إن كل ما قاله الاتحاد السوفيتي عن تقدمه الاقتصادي أو قوته العسكرية سيظهر على أنه بهتان ما دامت الشيوعية هي العدو في الغرب والبلقان. ولكن، بعد 1943م، أدت القوة العسكرية والاقتصادية الواضحة للاتحاد السوفيتي إلى تحول تام: "ما قاله الاتحاد السوفيتي في 1937م كان صحيحًا وبناءً على ذلك، الاتحاد السوفيتي يقول الحقيقة دائمًا."

مازال بعض المتخصصين يؤمنون بأن البروباجاندا تتكون من أكاذيب (ما يجعلها سخيفة وغير ضارة في عيون الناس). مثلًا، أضفى (فردرك إريون) هذه السمة على البروباجاندا في تعريفه لها.[1] ولكنها طبعًا ليست كذلك. أدرك مروج البروباجاندا منذ وقت طويل أن عليه أن يتجنب الكذب.[2] "الحقيقة مثمرة في عمل البروباجاندا." تتسع قاعدة قبول هذه العبارة على نحو متزايد. وصرح (لينين) بذلك. وعلينا أن نضع تصريح (هتلر) عن الكذب بجانب أصرار

(1) صحيح أن البروباجاندا صُنعت من الأكاذيب لفترة طويلة من الوقت. قال (بونسونبي) في *Falsehood in Wartime* "إنه عندما تدق طبول الحرب تقع الحقيقة أول ضحية...الكذب أفضل سلاح في حالة الحرب." كشف (بونسونبي) أكاذيب تعد ولا تحصى (متعمدة وغير متعمدة) إبان حرب 1914-1918م. من الممكن أن يكون مروج البروباجاندا اليوم أيضًا كاذبًا، فيختلق قصصًا عن خصومه ويزور الإحصاءات ويخترع أخبارًا وما إلى ذلك. ومع ذلك، يؤمن الناس إيمانًا قويًا أن هذا هو الحال دائمًا مع البروباجاندا وأنه يستحيل أن تكون البروباجاندا حقيقية.

(2) شدد بعض الكُتّاب بقوة على خطر الكذب: أثبت (ألفريد سافي) أنه لا يمكن تبرير "الأكاذيب المبتكرة" إلا بنجاحها، وذكر الكلمة الشهيرة: "علينا أن نفوز لأننا الأقوى." عندما يكتشف الناس كذبة سيعادون مصدر الكذبة بقوة. استخدم (جوبلز) طريقة عظيمة لتحطيم البروباجاندا الإنجليزية في 1940م عندما ذكر أكاذيب البربواجاندا التي اعترفت بها بريطانيا في 1916م. أثارت هذه الطريقة الشكوك حول بروباجاندا بريطانيا ككل.

(جوبلز) أنه يجب نشر الحقائق الدقيقة.[1] كيف نفسر هذا التناقض؟ يبدو أنه من اللازم عند الحديث عن البروباجاندا، التميز الجذري بين الواقع من ناحية، والتأويل أو النيات من ناحية أخرى، وباختصار بين المادة والملامح الأخلاقية. فالحقيقة المفيدة تنتمي إلى عالم الوقائع بينما تنتمي الأكاذيب الضرورية المفيدة أيضًا إلى عالم النيات والتأويلات. هذا قاعدة أساسية في تحليل البروباجاندا.

---

(1) هذه الفكرة مقبولة الآن بشكل عام. في الولايات المتحدة، هذه هي القاعدة الأولى في كتيبات البروباجاندا باستثناء الحقائق الضارة التي لا تُصدّق والتي يُفضل الصمت عنها. ذكر "المقر الأعلى لقوات الحلفاء التوسعية" في كتيبه: "يجب أن نقول الحقيقة إذا لم يكن هناك سبب مقنع لطمسها...وبجانب اعتبارات الأمن العسكري، السبب الوحيد لحجب خبر هو أن الناس لن يصدقوه... ستتلاشى قوتك إذا اكتشف المستمع أنك تكذب...ولهذا السبب، لا تكذب كذبة يمكن أن تُكتشف." بداية من 1940م، تلقت "الخدمات النفسانية الأمريكية" طلبات لتقول الحقيقة، وعند تنفيذ ذلك مثلًا، وزعوا نفس الجرائد للجنود الأمريكيين والألمان. نجد الموقف ذاته في الكتلة الشيوعية: كان (ماو) دائمًا حَذِرًا في قول الحقيقة كما هي - بما في ذلك الأخبار السيئة. وبناءً على نظرية (لينين) العامة للمعلومات، ليس صحيحًا أن نَشْر أخبار كاذبة لا يخلق مشكلات. وكذلك اكتشف مروجو البروباجاندا الفرنسيون أن للصدق تأثير فعال وأنه من الأفضل لهم نشر الأخبار السيئة بأنفسهم بدلًا من الانتظار حتى يكشفها الآخرون.

وهنا تظل مشكلة سمعة (جوبلز) الذي لقبته البروباجاندا الأنجلوساكسونية بـ "الكذاب الكبير" ومع ذلك لم يتوقف عن إصراره على أن تكون البروباجاندا دقيقة قدر الإمكان. فَضّل أن يكون ساخرًا وقاسيًا على أن تُكتشف أكاذيبه. كثيرًا ما كان يقول: "يجب أن يعرف الناس الوضع." فكان دائمًا الأول في إعلان الأحداث الكارثية أو المواقف الصعبة دون إخفاء أي شيء. وكانت النتيجة (بين 1939م و1942م) هي الاعتقاد العام بأن البيانات الألمانية كانت أكثر وضوحًا وصدقًا وإيجازًا وتنظيمًا من بيانات الحلفاء (وفقًا للرأي الأمريكي وآراء أخرى محايدة). بالإضافة لذلك، قام الألمان بنشر الأخبار قبل الحلفاء بيومين أو ثلاثة. في ضوء كل هذا، من المنصف أن نقول إن تلقيب (جوبلز) بالكذاب الكبير يجب اعتباره نجاحًا كبيرًا للبروباجاندا.

من المعروف جيدًا أن صحة المعلومات ودقتها من العناصر المهمة في الإعلانات. يجب أن يثق الزبون في الإعلان. فإذا خُدع عدة مرات، ستكون النتيجة غير مرضية بكل تأكيد. ولهذا السبب وضع المعلنون قاعدةً للدقة ونظموا قسمًا للمعايير لشجب المزاعم الكاذبة. ولكن، هنا نشير إلى عامل أساسي: التجربة. يمكن للزبون أن يمر بتجربة جيدة أو سيئة مع منتج ما. ورغم ذلك، في الأمور السياسية، التجربة الفردية نادرة وصعبة الحدوث وكذلك ليست حاسمة. وبالتالي، علينا أن نفرق بين الوقائع المحلية، التي يمكن التأكد منها، وبقية الوقائع. من الجلي وجوب احترام البروباجاندا للوقائع المحلية وإلا ستدمر نفسها؛ فلا يمكن للبروباجاندا أن تتماسك لوقت طويل أمام دليل محلي إلا إذا كان الناس آمنين جدًّا في قبضة يد مروج البروباجاندا بحيث يستطيع أن يقول أي شيء وسيصدقه الناس - ولكن هذا قلما يحدث.

فيما يتعلق بالوقائع الأكبر والأبعد التي لا يمكن أن يكون للناس تجربة مباشرة معها، يمكن أن نقول إن الدقة الآن لها احترامها في البروباجاندا. مثلًا، يمكن الاعتراف بأن الإحصاءات التي نشرها السوفييت أو الأمريكيون كانت دقيقة، فليس هناك سبب كاف لتزويرها. وبالمثل، ليس هناك سبب جيد لإطلاق حملة بروباجاندا استنادًا على وقائع كاذبة أو وقائع لا يمكن تصديقها. فأفضل مثال على الأخيرة كان الحملة الشيوعية على الحرب الجرثومية. وبالطبع كانت مفيدة من وجهات نظر معينة، والمؤمنون الحقيقيون ما زالوا على يقين أن ما قيل في حينه كان صحيحًا. ولكن بين المترددين كان لهذا تأثيرًا سلبيًّا جدًّا بسبب التناقضات وعدم احتمالية حدوث ما قيل. وبالرغم من أن الكثير من الناس في أوروبا الغربية اعتبروها خطأً فادحًا إلا أن الحملة كان لها مصداقية كبيرة في شمال إفريقيا والهند. ومن ثم، فالكذب المتعلق بالواقع ليس عديم الفائدة، ولكن في نفس الوقت لا يجب تجنبه تمامًا. ولكن تذكر أن هذا نادر الحدوث.[1]

---

(1) كما أكدنا، لا يجب استخدام مثل هذه الأكاذيب إلا إذا كانت تتعلق بحقائق لا يمكن التأكد منها. أكاذيب (جوبلز) مثلًا يمكن أن تركز على نجاحات الغواصات الألمانية لأن=

يجب هنا أن نوضح ثلاثة تحفظات بخصوص هذه العبارة. أولًا، يمكن أن ترتكز البروباجاندا بفعالية على زعم أن حقيقة ما غير صحيحة، وهذا الزعم يمكن أن يكون صحيحًا لكن صعب إثباته. تخصص (خروتشوف) في مثل هذا النوع من العمليات: فقد شجب أكاذيب مَن سبقوه لكي يُضفي صبغة الحقيقة على تصريحاته. ومن ثم، عندما وصف (خروتشوف) (مالينكوف) بـ"كاذب أصيل" أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في ديسمبر/ كانون الأول 1958م وأعلن أن إحصاءات (مالينكوف) كانت زائفة، لم يكن هناك داع لتصديق (خروتشوف) أكثر من (مالينكوف)، ولكن الهجوم كان منطقيًا. أول شيء هو أن (خروتشوف) كان يدين كذبة وهذا يعني بالضرورة أنه سيقول الحقيقة. ثانيًا، أثبت زيادة كبيرة في الإنتاج منذ 1952م عندما خفض الأرقام التي قدمها (مالينكوف). فلو صح أن إنتاج القمح في 1958م كان 9.2 مليار رطل وأن إعلان (مالينكوف) عن 8 مليار في 1952م كان دقيقًا فهذا يعني زيادة في الإنتاج بنسبة 15 بالمئة في غضون ست سنوات. ومع ذلك، لو كان الإنتاج في 1952م كان 5.6 مليار فقط كما زعم (خروتشوف) فسيعني ذلك أن الزيادة كانت 75 بالمئة – انتصار. من المعقول أن نعتبر إحصاءات (مالينكوف) دقيقة وليس (خروتشوف) حتى نجد ما يثبت العكس.[1]

ثاني تحفظ يتعلق بتقديم الحقائق – عندما تستخدمها البروباجاندا تتوقع أن يصدق الفرد أن الحقيقة العارية دقيقة. وكذلك كثيرًا ما تقدم الحقيقة بطريقة لا يفهمها القارئ أو المستمع، ولا يستخلص منها شيئًا. على سبيل المثال، ربما تقدم رقم ما دون ربطه بشيء أو الإشارة إلى أي شيء أو نسبة أو تناسب. إذا قال شخص ما إن الإنتاج زاد بنسبة 15 بالمئة دون أن يذكر إنتاج السنة التي سبقتها،

= القبطان فقط هو الذي يعرف إن غرقت الغواصة أو لا. فكان من السهل نشر الأخبار المُفصّلة عن مثل هذه الموضوعات بدون خوف من تضارب في المعلومات.

(1) ثبت صحة هذا التقييم – الذي كُتب في 1959م – منذ أن عرفنا (في 1961م) عن كارثة الزراعة السوفيتية.

أو أن مستوى المعيشة قد ارتفع بنسبة 15 بالمئة دون توضيح كيفية حسابها، أو أن عدد المنتمين لحركة نمى دون إعطاء أرقام السنوات الماضية. غياب تناسق البيانات مُتَعمّد مئة بالمئة.[1] وبالطبع، انطلاقًا من هذا النوع من البيانات، يستحيل إدراك الصورة الكاملة. ومع الصبر والعمل والبحث، يستطيع المرء تنظيم هذه الوقائع وربطها ببعضها البعض. ولكن هذه وظيفة المتخصص، ولا تظهر النتيجة حتى بعد مرور وقت طويل بعد أن يبلغ عمل البروباجاندا تأثيره المرجو منه. فضلًا عن أن هذه الوقائع ستُنشر كدراسة تقنية ولن يراها إلا القليل من القُرّاء. ولذلك، نشر حقيقة واقعة في حالتها الأولية ليس خطيرًا، وعندما يشكل نشر الحقيقة خطرًا، يُفضل مروج البروباجاندا إخفائها – وألا يقول شيئًا بدلًا من الكذب. حوالي خُمس تعليمات (جوبلز) الصحفية بين 1939م و1944م كانت أوامر بالتعتيم على موضوع أو آخر. تصرفت البروباجاندا السوفيتية بالطريقة ذاتها. تختفي الحقائق المعروفة ببساطة بعد حين، وبين الحين والآخر تُكتشف هذه الحقائق متأخرًا. يعتبر تقرير (خروتشوف) الشهير للدورة العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي مثالًا: لم تتحدث الصحافة الشيوعية في فرنسا وإيطاليا وأماكن أخرى بتاتًا عنه لأسابيع. وبالمثل، لم يعلم المصريون عن الأحداث في المجر إلا في مايو/ أيار 1960م – قبل ذلك لم تقل الصحافة المصرية كلمة واحدة عن هذه الأحداث. مثال آخر هو صمت (خروتشوف) وتجاهله أمر البلديات الصينية في تقريره للجنة المركزية للحزب الشيوعي في ديسمبر/ كانون الأول 1958م.

يعد الصمت طريقةً من الطرائق التي تُستخدم لتحريف الحقائق المعروفة عن طريق تغيير سياقها. كان هناك أمثلة رائعة على هذا في البروباجاندا ضد (بيير منديس– فرانس). قالت البروباجاندا إن (منديس) قد تخلى عن إندونيسيا

---

(1) ذكر (سافي) أن هذا النوع من البروباجاندا ينطوي على "احترام التفاصيل حتى تكون بالنهاية كيان كامل ثابت يعطي معلومات مضللة عن الحركة. وبالتالي... تصبح الحقيقة المظهر الرئيسي للكذب."

وتونس، وتخلص من البنوك الفرنسية في الهند، وهكذا. كانت هذه حقائق مباشرة، ولكن، كان هناك تعتيم كامل على السياسات السابقة في إندونيسيا والأحداث الماضية في المغرب التي أسفرت عن الأحداث في تونس، والاتفاقات المبرمة على البنوك الهندية على يد الحكومة المنصرمة.[1]

في نهاية المطاف، يمكننا القول إن البروباجاندا تستخدم الحقائق الدقيقة التي تقوم عليها آلية الإيحاء في أفضل صورها. يسمّى الأمريكيون هذه التقنية "التلميح." تتعامل البروباجاندا مع الحقائق بطريقة تجذب المستمع إلى تيار اجتماعي مغري. وهذا يدفع الناس للوصول لاستنتاجات واضحة من حقيقة قُدمت لهم بمهارة.[2] تصل الأغلبية العظمى من الناس لنفس الاستنتاجات. وللوصول إلى هذه النتيجة، على البروباجاندا أن ترتكز على الحقيقة التي يمكن نشرها في كلمات معدودة تمكث في الوعي الجمعي لوقت طويل. وفي هذه الحالة، لن يتمكن العدو من السير ضد التيار. يمكن للعدو أن يسير ضد التيار إذا كان أساس البروباجاندا كذبة أو حقيقة تتطلب دليل كي تواصل. وعلى النقيض، على العدو الآن أن يقدم دليلًا لا يغير الاستنتاجات التي توصل إليها متلقي البروباجاندا بالفعل من إيحاءات البروباجاندا.

---

(1) تؤدي هذه التقنية (وصفها الكتاب الأمريكيون بالاختيار) إلى تشويه الواقع. ويختار مروج البروباجاندا تلقائيًا مجموعة من الحقائق التي يفضلها ثم يحرفها باستخدامها خارج سياقها.

(2) احتمالية أو مصداقية الحقيقة هي العنصر الوحيد الذي يجب علينا أن نضعه في الاعتبار وندقق فيه عندما ننشر أي حقيقة. يتم التعتيم على الكثير من الأخبار في وقت الحرب لأن الناس لن يصدقوها وسيصفونها على أنها بروباجاندا خالصة. حادث وقع في 1942م يعد مثالًا ممتازًا على هذا. كان (رومل) غائبًا في لحظة انتصار (مونتجومري) الحاسم في شمال إفريقيا، ولم يتوقع النازيون هجومًا في ذلك الوقت، واستدعوا (رومل) إلى ألمانيا، ولكن (جوبلز) لم يعط الأمر بنشر هذه الحقيقة لأن الناس سيعتبرونها كذبة لتبرير الهزيمة وإثبات أن (رومل) لم ينهزم في واقع الأمر. لم تكن الحقيقة منطقية بما يكفي لنشرها.

هذا ميدان الأكاذيب بحق، ولكن لا يمكن العثور عليها، ولذلك نتحدث عنها هنا. إذا حرّف شخص حقيقةً، من الممكن أن يأتي شخص آخر بدليل لا يمكن دحضه لإثبات العكس. (أصبح من الصعب إنكار أن التعذيب أُستخدم في الجزائر.) ولكن لا يمكن تقديم برهان إذا كانت الدوافع أو النيات تتعلق بالحقيقة التي نحن بصددها أو تأويل لها. تتباين أهمية الحقيقة حسب ما إذا حللها اقتصادي برجوازي أو سوفيتي، أو مؤرخ ليبرالي أو مسيحي أو ماركسي. تتسع هوة الاختلاف عندما يتعلق الأمر بظاهرة خلقتها البروباجاندا عمدًا. كيف يمكن الشك في شخص يتحدث عن سلمية الرأي المضاد - دون تكبد غضب الرأي العام؟ وإذا شن الشخص نفسه حربًا، يمكنه أن يحمّل الأمر على الآخرين ويقول إنهم أجبروه، أو أن الظروف كانت أقوى من نواياه. ننسى أن (هتلر) ألقى خطابات عديدة للمؤتمرات بين 1936م و1939م عن رغبته في السلام وفي تسوية سلمية للمشكلات. لم يعبر هتلر عن رغبة واضحة في الحرب قط. كان طبيعيًّا أن يُسلّح نفسه بسبب "الحصار." وفي الواقع، قد تَمَكّن من الحصول على إعلان الحرب من فم الفرنسيين والإنجليز، وعندئذ لم يكن هتلر البادئ بالحرب.[1]

تسعى البروباجاندا بطبيعتها إلى أن تحرف في قيمة الأحداث وأن تدس نيات زائفة. وهناك جانبان مهمان لذلك: الأول هو أنه على مروج البروباجاندا أن يصر على نقاء نواياه، وفي نفس الوقت، يلقي التهم على أعدائه. ولكن هذه التهم ليست بلا أساس وليست عشوائية.[2] لن يتهم مروج البروباجاندا العدو بأي خطأ،

---

(1) يحدث الالتباس بين الحكم القيمي والحكم على حقيقة في مرحلة توضيح أو تأويل الحقيقة. على سبيل المثال، كل القنابل التي يلقيها العدو تعتبر أعمال همجية تستهدف المدنيين في حين أن كل القنابل التي تلقيها طائراتنا دليل على سيادتنا، ولا تدمر إلا الأهداف العسكرية. وبالمثل، عندما تبدي حكومة أخرى حسن النية، فهذا علامة على الضعف. وعندما تمارس سلطتها، فهي تسعى للحرب أو السلطوية.

(2) لأن المشكلات السياسية صعبة وغالبًا ما تكون محيرة ولأن أهميتها ومعناها ليس واضحًا، يستطيع مروج البروباجاندا بسهولة أن يقدمها بلغة الأخلاقيات - وهنا نترك عالم =

وإنها سيتهمه بنفس النية التي عنده هو وبمحاولة ارتكاب نفس الجريمة التي يوشك على ارتكابها. فالذي يريد نشوب حرب سيعلن سلامة نيته، بل وسيتهم الطرف الآخر بالتحريض على الحرب. والذي يستخدم معسكرات الاعتقال سيتهم جاره بفعل ذلك. والذي ينوي تأسيس دولة سلطوية يصر دائمًا أن خصومه عازمين على فعل ذلك. التهمة التي تستهدف نية الآخر تكشف بجلاء نية من ألقى الاتهام، ولكن لا يستطيع الناس رؤية هذا بسبب التداخل بينها وبين الحقائق.

الآلية التي يستخدمها مروج البروباجاندا هنا تساعده على التهرب من الحقائق (التي تتطلب الحكم على الوقائع) والدخول في مجال الأخلاقيات والحكم الأخلاقي. إبان أزمة قناة السويس، كان الالتباس على مستويين في البروباجاندا المصرية والتقدمية ناجحًا: اختبأت نيات ناصر خلف النيات المعلنة بوضوح لحكومتي بريطانيا وفرنسا. هذا المثال وأمثلة أخرى كثيرة تؤدي بنا إلى الاستنتاج أنه حتى الأذكياء يمكن أن يصدقوا نيات معلنة عن طريق بروباجاندا ذات تنفيذ محترف. يمكن مقارنة حجم عمليات بروباجاندا السويس بما تلتها في وقت ميونخ حيث تم استخدام نفس الطريقة لقلب تفسير الحقائق. ونجد الشيء ذاته في فرنسا مع عملية بروباجاندا جبهة التحرير الوطنية وكذلك في بروباجاندا (فيدل كاسترو).

الملمح الثاني للكذب هو أن مروج البروباجاندا لا يستطيع بطبيعة الحال أن يكشف النيات الحقيقية لرئيسه الذي يعمل تحت إمرته: سواء كان ذلك الحكومة أو رئيس الحزب أو اللواء أو مدير الشركة. لا تستطيع البروباجاندا أبدًا أن تكشف مشروعها أو خطتها الحقيقية أو أن تفشي أسرار الحكومة لأن هذا سوف يؤدي إلى تقديم مشروعات البروباجاندا إلى النقاش العام وتحقيق الرأي العام على طبق من فضة - وبالطبع هذا سَيَحُول دون نجاحها، والأدهى من ذلك، سيضعف مشروعات البروباجاندا أمام العدو الذي سيتمكن من اتخاذ

= الحقائق وندخل عالم العاطفة. ومن ثم، يستخدم الناس لغة السخط عند مناقشة الحقائق. تعد نغمة السخط علامة البروباجاندا في معظم الوقت.

الاحتياطات اللازمة لإفشالها. على البروباجاندا أن تكون غطاءً لمثل هذه المشروعات وأن تكون قناعًا لنواياها[1] وستار دخاني. تحدث مناورات خلف ستائر الكلمات الواقية والتي يتركز عليها انتباه الناس. من الضروري أن تكون البروباجاندا إعلانًا عن النيات وعن النقاء الذي لا يمكن إدراكه وعن السلام والحقيقة والعدالة الاجتماعية. وبالطبع، على المرء ألا يكون مبالغًا في الدقة على المستوى الأعلى أو أن يَعِد بإصلاحات قصيرة المدى لأن هناك مخاطرة المقارنة بين ما حدث وما وعد به. وتصبح مثل هذه المقارنة ممكنة عندما تعمل البروباجاندا في عالم الحقائق المستقبلية. وبالتالي، لا يجب حصرها في النيات وعالم الأخلاقيات والقيم والعموميات. فإذا أشار شخص غاضب إلى التناقضات، لن يعير الناس لرأيه اهتمام.

فالبروباجاندا بالضرورة زائفة عندما تتحدث عن القيم والحقيقة والخير والعدالة والسعادة – وعندما تفسر وتحرف الحقائق وتضيف معنى ما لهذه الحقائق. وتصبح البروباجاندا حقيقية عندما تقدم الواقع بوضوح، ولكنها لا تفعل ذلك إلا لتأسيس مَثَل – وزعم زائف – على أنها تؤيد هذا الواقع. عندما زعم (خروتشوف) في 1957م أن الاتحاد السوفيتي لحق بالولايات المتحدة في إنتاج السلع الاستهلاكية، استند إلى إحصاءات كثيرة ليثبت أن نمو الإنتاج الزراعي في غضون عشر سنوات كان دليلًا على ذلك. وطبقًا لهذه الإحصاءات،

(1) شدد كثير من الكتّاب على دور البروباجاندا السرية. قال (سبير) إن دور مروج البروباجاندا هو إخفاء الواقع السياسي عن طريق الحديث عنه. أما (سافي) فقد رأى أن مروج البروباجاندا يتولى أمر التخدير حتى يتمكن الجراح من القيام بالعملية دون تدخل العامة. ولهذا السبب، طبقًا لـ(ميجرت)، في كثير من الحالات، تعوق السرية التامة عمل مروج البروباجاندا إذ إنه من اللازم أن يتمتع بحرية الكلام حتى يتمكن من خلط الأمور وإظهار عناصر على أنها متباعدة عن بعضها البعض ولا يمكن الجمع بينها، وما إلى ذلك من التصرفات. على مروج البروباجاندا ألا يسمح للناس بفهم الواقع بينما يعطيهم انطباعًا أنهم يفهمون كل شيء. وفقًا لـ(ريس)، على مروج البروباجاندا أن يعطي الناس أخبارًا ونوايا محرفة – فهو يعرف مسبقًا الاستنتاجات التي سيصل إليها الناس من مثل هذه الأخبار.

استنتج أن السوفييت في 1958م كان عندهم نفس القدر من الزبدة مثل الولايات المتحدة (لم يكن هذا صحيحًا حتى في 1959م) وكان عندهم نفس كمية اللحوم في 1960م (في 1959م كان هذا بعيدًا كل البعد عن الحقيقة). وأضحك جمهوره عندما استهزأ بعلماء الاقتصاد الذين قدروا أن الاتحاد السوفيتي لن يصل لهذه المستويات حتى 1975م. وفي هذه اللحظة، قد أسدل ستارًا على الواقع عن طريق تفسيره لذلك الواقع.

تسمح الأكاذيب والتأويلات بدمج مناهج مختلفة للبروباجاندا. في الحقيقة، كانت بروباجاندا (هتلر) قادرة على صنع آلة دقيقة ومنهجية من الكذبة – صُممت هذه الأداة لتغيير قيم معينة بشكل جذري، وبذلك تعدل في مفاهيم سائدة وتتسبب في تحولات نفسانية داخل الفرد. تعد الكذبة أداة أساسية لهذا، ولكن هذا لا يقتصر فقط على تزييف بعض الأرقام أو الحقائق. أثبت (هرمن روشننج) أنها كانت كذب في صميمها.[1] كانت بروباجاندا (ستالين) على نفس الشاكلة. ومن ناحية أخرى، كانت الحقيقة هدف بروباجاندا أمريكا وبروباجاندا (لينين)[2] ولكنها تشابهت مع النماذج السابقة للبروباجاندا في أنها أثارت نظامًا عامًّا من المزاعم الزائفة. عندما تدعي الولايات المتحدة أنها حامية الحرية للجميع في كل مكان وزمان، فإنها تستخدم نظام التمثيل الزائف. وعندما يتظاهر الاتحاد السوفيتي بأنه حارس الديمقراطية الحقيقية، فإنه يوظف أيضًا نظام زائف للتمثيل.

الأكاذيب ليست بالضرورة متعمدة، بل يمكن أن تكون تعبيرًا عن قناعة وحسن نية – مما يسفر عن كذبة بخصوص النيات لأن القناعة مجرد عقلنة أو غطاء على الواقع الذي لا نريد أن نراه. ومن ثم، فإن الولايات المتحدة عندما تصنع بروباجاندا للحرية من الممكن أنها فعلًا تعتقد أنها تدافع عن الحرية، وأن

---

(1) باستثناء أن (جوبلز) قد استخدم التزييف استخدامًا دقيقًا جدًّا لتشويه سمعة العدو، فقد نقل أخبارًا كاذبةً سرًّا عن ألمانيا لعملاء استخبارات الأعداء ثم اثبت علنًا أن هذه الأخبار كانت كاذبة وبذلك أثبت أن عدوه قد كذب.

(2) أكد (أليكس إنكليس) أن (لينين) لم يكن عنده نفس الشخصية الساحرة تجاه الجماهير كما كان (هتلر)، وأنه اهتم بـ"حقيقة الرسالة" أكثر من التقنية.

الاتحاد السوفيتي عندما يقدم نفسه على أنه نصير الديمقراطية بتخيل نفسه حقًا نصير الديمقراطية. ولكن، من المؤكد أن هذه القناعات تؤدي إلى مزاعم زائفة بسبب البروباجاندا ذاتها إلى حد ما. مما لا شك فيه أن جزءًا من نجاح البروباجاندا الشيوعية ضد الرأسمالية أتى من الاستنكار الفعال لمزاعم الرأسمالية: تتكون "الحقيقة" الزائفة للبروباجاندا الشيوعية من فضح التناقض بين قيم المجتمع البرجوازي (فضيلة العمل والعائلة والحرية والديمقراطية السياسية) وواقع هذا المجتمع (الفقر والبطالة وما إلى ذلك). هذه القيم زائفة لأنها ليست إلا مزاعم لتبرير الذات. ولكن النظام الشيوعي عبّر عن مزاعم زائفة من نفس النوع.

تغذي البروباجاندا نظامًا من المزاعم الزائفة وتطوره وتنشره. يتكون هذا النظام من أكاذيب تستهدف تغيير العقول والقيم والأفعال والأحكام تغيير جذري كامل، وبذلك تشكل إطارًا مرجعيًا للتزييف المنهجي. وعندما تفقد النَظّارات التركيز، تتشوه الرؤية. ولكن، لم يكن الوضع كذلك دائمًا في الماضي. يكمن الاختلاف اليوم في الطبيعة المدروسة للتقديم غير الدقيق الذي تنشره البروباجاندا. وبينما ننسب بعض حسن النية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في قناعاتها، يتلاشى حسن النية بمجرد أن يرتكز نظام البروباجاندا على مزاعم زائفة. وبذلك تصبح العملية كلها وعي ذاتي، وتظهر القيم الزائفة على حقيقتها. وتظهر الكذبة نفسها للكاذب. لا يمكن لشخص أن يصنع بروباجاندا بادعاء حسن النية، فالبروباجاندا تكشف الخدع التي تحيط بنا وتدخلنا في نظام الخدع الذي لم يعد بمقدورنا أن نتملص منه.

وبعد أن قمنا بتحليل هذه الخصائص، نستطيع الآن أن نتعمق أكثر في تعريف البروباجاندا – ليس تعريفًا شاملًا أو حتى فريدًا أو مختلفًا عن التعريفات الأخرى، وإنما على الأقل تعريفًا جزئيًا: البروباجاندا هي مجموعة من المناهج التي تستخدمها جماعة منظمة بهدف الوصول إلى مشاركة الناس إيجابيًا أو سلبيًا في أفعال جماهير الأفراد المندمجين في منظمة والمتحدين نفسانيًا من خلال التلاعب النفساني.

3. تصنيفات البروباجاندا

رغم الاعتقاد العام، ليست البروباجاندا ظاهرة بسيطة ولا يمكننا أن نحصر كل أشكالها. يمكن تمييز أنواع البروباجاندا عن طريق الأنظمة السياسية التي تستخدمها. لا تتشابه بروباجاندا الاتحاد السوفيتي وبروباجاندا أمريكا في شيء - لا في المنهج ولا في التقنية النفسانية. فكانت بروباجاندا (هتلر) مختلفة تمامًا من البروباجاندا الصينية اليوم، ولكنها تشابهت مع بروباجاندا (ستالين) بصورة ملحوظة. لا يمكن مقارنة بروباجاندا جبهة التحرير الوطنية في الجزائر مع البروباجاندا الفرنسية. وحتى في النظام السياسي الواحد يمكن أن تتواجد مفاهيم مختلفة جنبًا إلى جنب. أبرز مثال على ذلك هو الاتحاد السوفيتي. تقدم بروباجاندا (لينين) و(ستالين) و(خروتشوف) ثلاثة أنواع مختلفة في تقنياتها وموضوعاتها ورمزيتها لدرجة أنه عندما نعد إطارًا ضيقًا لتعريف البروباجاندا، نغفل جزء من الظاهرة. هؤلاء الذين يرون البروباجاندا السوفيتية كما كانت في عهد (ستالين) فحسب يميلون إلى القول إن (خروتشوف) لم يصنع بروباجاندا. ومع ذلك، كانت بروباجاندا (خروتشوف) شاملة مثل بروباجاندا (ستالين) وربما أكثر شمولًا منه؛ فقد أخذ (خروتشوف) تقنيات معينة للبروباجاندا إلى أقصى إمكاناتها. وبالإضافة إلى التصنيفات السياسية والخارجية هذه، يجب تحديد اختلافات أخرى تعتمد على خصائص البروباجاندا الداخلية.

البروباجاندا السياسية والبروباجاندا الاجتماعية

أولًا، يجب أن نميز بين البروباجاندا السياسية والبروباجاندا الاجتماعية. لن نسهب في الحديث عن النوع الأول لأنه النوع الذي يخطر على البال بمجرد أن نسمع كلمة "بروباجاندا." يتضمن تقنيات التأثير التي تستخدمها الحكومات والأحزاب والإدارات وجماعات الضغط بغرض تغيير سلوكيات الناس. اختيار الوسائل المستخدمة مقصود ومحسوب، وتتميز الأهداف المرجوة عن بعضها البعض بوضوح وبدقة مع أنها محدودة عمومًا. غالبًا ما تكون الموضوعات

والأهداف سياسية مثلما في بروباجاندا (هتلر) أو (ستالين). يمكن التفريق بين هذا النوع من البروباجاندا والإعلان تفريقًا جليًا: أما النوع الآخر له غايات اقتصادية في حين أن الأول له غايات سياسية. البروباجاندا السياسية إما استراتيجية وإما تكتيكية. الأولى تؤسس الاتجاه العام، وسلسلة المناقشات، وتنظيم الحملات، أما الأخرى فتسعى للوصول إلى النتائج المباشرة في ذلك الإطار (مثل منشورات في وقت الحرب ومكبرات الصوت لدفع العدو على الاستسلام الفوري).

ولكن هذا لا يغطي كل ما يخص البروباجاندا، والتي تشتمل أيضًا على ظواهر أوسع وأقل يقينية: مجموعة من التجليات التي يعتمد عليها المجتمع في دمج أكبر عدد من الأفراد في ثناياه وفي توحيد سلوكيات أفراده حسب نمط ما لنشر طريقة الحياة فيه خارج حدوده، وبهذا يفرض نفسه على مجموعات أخرى. نَصِف هذه الظاهرة بـ"البروباجاندا الاجتماعية" لنُبيّن، أولًا، أن المجموعة كلها، بوعي أو بدون وعي، تعبر عن نفسها بهذه الطريقة، وثانيًا لنشير إلى أن تأثيرها يستهدف طريقة العيش ككل أكثر من الآراء أو حتى طريقة معينة في السلوك.[1]

طبعًا، يمكن التعبير عن نوع أو أكثر من البروباجاندا السياسية في ثنايا بوصلة البروباجاندا الاجتماعية ذاتها. كانت بروباجاندا المسيحية في العصور الوسطى مثالًا على هذا النوع من البرواجاندا الاجتماعية: قد قصد (بنيامين كونستنت) ذلك بالضبط عندما قال عن فرنسا في 1793م: "الوطن كله كان عملية واسعة النطاق للبروباجاندا." وفي الوقت الحاضر، من المؤكد أن البروباجاندا الامريكية والصينية تعتبران أنجح نماذج هذا النوع. مع أننا لا نشمل

---

(1) هذه الفكرة أعم نوعًا ما من فكرة (دوب) عن البروباجاندا غير المقصودة. شمل (دوب) في تعريفه التأثير غير المقصود الذي يحققه مروج البروباجاندا. فكان الأول من أكد إمكانية وجود الطبيعة غير المقصودة للبروباجاندا - فهذا يتعارض مع رأي الأمريكيين في ذلك الموضوع، باستثناء (دافد كرتش) و(ريتشارد كرتشفيلد) اللذان ذهبا حتى إلى قياس نطاق البروباجاندا غير المقصودة والتي يجدونها حتى في كتب الرياضيات.

هنا الحملات والوسائل الفعالة نسبيًّا والتي تستخدمها الحكومات، بل الظاهرة الشاملة، فنجد أن البروباجاندا الاجتماعية تجمع أشكالًا متنوعةً جدًّا في داخلها. على هذا المستوى، يمكن القول إن مثل هذه البروباجاندا تنطوي على الإعلانات لنشر أسلوب الحياة بعينها. ينطبق هذا أيضًا على العلاقات العامة والعلاقات الإنسانية والهندسة الإنسانية والأفلام وغيره في الولايات المتحدة. خاصية من خصائص الدولة التي تحيا على البروباجاندا الاجتماعية هي التقاء كل هذه التأثيرات نحو نفس النقطة، بينما في مجتمع مثل فرنسا في 1960م، تباينت التأثيرات في غاياتها ونياتها.

يصعب فهم ظاهرة البروباجاندا الاجتماعية أكثر من البروباجاندا السياسية وقلما تُناقش. فهي في الأساس تغلغل الأيديولوجية عن طريق سياقها الاجتماعي. تعتبر هذه الظاهرة عكس ما درسناه حتى الآن. كما تُعرف تقليديًّا، تَفْتَرِض البروباجاندا محاولة لنشر أيديولوجية من خلال وسائل الإعلام التواصلية لدفع الناس إلى قبول نظام سياسي أو اقتصادي، أو المشاركة في فعل ما. هذا هو العنصر الشائع بين كل أنواع البروباجاندا التي درسناها. تنتشر الأيديولوجية بغرض حمل الناس على قبول أفعال سياسية مختلفة. ولكن، تنقلب هذه الحركة في البروباجاندا الاجتماعية. تسمح العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية القائمة بتغلغل الأيديولوجية داخل الأفراد أو الجماهير بالتدريج. وتتأسس الأيديولوجية من خلال الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي تؤدي بالجماهير إلى المشاركة الفعالة، وتؤدي بالأفراد إلى التأقلم. والأهم هو دفع الفرد للمشاركة بفعالية والتأقلم قدر الإمكان مع السياق الاجتماعي.

مثل هذا النوع من البروباجاندا منتشر، ولكن قلما يشير إليه الناس في شعاراتهم أو نياتهم الواضحة. يعتمد هذا النوع على المناخ العام - الجو الذي يؤثر على الناس تدريجيًّا. وبدون أن تظهر بمظهر البروباجاندا، تصل إلى المرء من خلال تقاليده وعاداته غير الواعية. تخلق البروباجاندا فيه عادات جديدة؛ فهي بمثابة الإقناع داخله. وكنتيجة لذلك، يتبنى المرء معايير جديدة للحكم والاختيار

بشكل تلقائي، كما لو أنه قد اختارها بنفسه. ولكن تتماشى كل هذه المعايير مع الجو، كما أن لهذه المعايير طبيعة اجتماعية بالأساس. تصنع البروباجاندا الاجتماعية تأقلمًا تدريجيًا مع نمط معين من الأمور ومفهوم معين للعلاقات الإنسانية التي تشكل الأفراد من دون انتباههم وتجعلهم يمتثلون للمجتمع.

تنشأ البروباجاندا الاجتماعية تلقائيًا؛ فهي ليست نتيجة عمل مقصود للبروباجاندا. لا يستعمل القائمون على البروباجاندا هذه الطريقة عن عمد والكثير يمارسونها دون قصد، ويميلون إلى هذا الاتجاه دون إدراك. على سبيل المثال، عندما يصنع منتج أمريكي فيلمًا، له أفكار محددة يريد أن يعبر عنها، وليس المقصود منها البروباجاندا بل أن عنصر البروباجاندا يكمن في طريقة الحياة الأمريكية التي تتغلغل في المخرج الذي يعبر عنها في فيلمه دون أن يدري. نرى هنا قوة التوسع في المجتمع النشيط والشمولي بمعنى أنه يدمج الفرد الذي يؤدي به المجتمع إلى سلوكيات غير طوعية.

تعبر البروباجاندا الاجتماعية عن نفسها بطرائق مختلفة - في الإعلان وفي الأفلام (التجارية غير السياسية) وفي التكنولوجيا بشكل عام وفي التعليم وفي مجلة (*Reader's Digest*) وفي الخدمة العائلية والخدمة الاجتماعية ومؤسساتها. تتفق كل هذه التأثيرات مع بعضها البعض، وتسير تلقائيًا في نفس الاتجاه، ويتردد المرء في وصف كل هذا على أنه بروباجاندا. التأثيرات هذه، التي تشكل السلوكيات، تبدو بعيدة عن تنظيم البروباجاندا العظيم لـ(هتلر). لا يعتبر الشخص العادي ولا علماء الاجتماع الأنشطة التي جمعناها (من مفهوم يمكن الحكم عليه بأنه عشوائي أو مصطنع) بروباجاندا. تعد هذه الأنشطة غير مقصودة (في المرحلة الأولى على الأقل)، وغير سياسية، ومنظمة وفق أنماط وإيقاعات تلقائية.

مع ذلك، بتحليل أعمق وأكثر موضوعية، ماذا نجد؟ يتم التعبير عن هذه التأثيرات كبروباجاندا من خلال نفس الوسائط. هؤلاء الذين يصنعون البروباجاندا هم الذين يتحكمون في هذه التأثيرات. في نظري، هذه حقيقة

أساسية. مثلًا، سيكون لحكومة ما علاقاتها العامة، وأيضًا ستصنع البروباجاندا. لمعظم الأنشطة التي ذكرتها في هذا الفصل الأغراض ذاتها. بالإضافة إلى ذلك، تتبع هذه التأثيرات نفس الصور النمطية والتحيزات كما تفعل البروباجاندا، وتثير نفس المشاعر وتؤثر على الفرد بنفس الطريقة. هذه هي التشابهات التي تقرّب بين جانبي البروباجاندا أكثر مما تفصلها الاختلافات التي ذكرتها سلفًا.

ولكن، هناك أكثر من ذلك: تعتبر مثل هذه الأنشطة بروباجاندا بحيث أن الجمع بين الإعلانات والعلاقات العامة والرعاية الاجتماعية وغيره يُنتج مفهومًا عامًّا للمجتمع - طريقة للعيش. لم نجمع هذه الأنشطة معًا جمعًا عشوائيًّا، وإنما تعبر هذه الأنشطة عن نفس المفاهيم الأساسية وتتفاعل كي تجعل المرء يتبنى طريقة بعينها في العيش. وكنتيجة لذلك، في براثن البروباجاندا الاجتماعية هذه، يؤمن الفرد بأن هؤلاء الذين يعيشون بهذه الطريقة على حق وأن مَن يختلف عن ذلك شرير، والذين يفكرون بطريقة غير ذلك مخطئين. بالتالي، بالضبط كما يحدث مع البروباجاندا العادية، الأمر يتعلق بنشر سلوكيات وأساطير (سواء أكانت جيدة أو سيئة). علاوة على ذلك، يصبح هذا النوع من البرواجاندا أكثر فعالية عندما يقبل هؤلاء الخاضعون لها بمبادئها فيما يتعلق بالخير والشر (مثل الطريقة الأمريكية للحياة). هناك، مجتمع كامل يعبر عن نفسه من خلال هذه البروباجاندا بالإعلان عن طريقته لهذا النوع من الحياة.

عند فعل ذلك، يشترك المجتمع في البروباجاندا على أعمق مستوى. أدرك علماء الاجتماع أن البروباجاندا قبل كل شيء لا بد وأن تغير بيئة الفرد. شدد (كريتش) و(كرتشفيلد) على هذه الحقيقة، وأثبتا أن تغيير بسيط في السياق النفساني يمكن أن يغير الشخصية من دون الهجوم المباشر على مواقف أو آراء بعينها. وبالمثل، قال (ماكدوجلاس): "على المرء أن يتجنب الهجوم على تيار ما هجومًا مباشرًا. من الأفضل تركيز الجهود على خلق الظروف النفسانية حتى تظهر النتيجة المرغوب فيها من الفرد طبيعية." ومع ذلك، يؤدي تغيير المناخ النفساني إلى تداعيات أخرى لا يمكن الحصول عليها مباشرةً. وهذا ما أطلقت

عليه (أولجا) "تأثير الإيحاء." تعتمد درجة تأثير الإيحاء على بيئة المرء والمناخ النفساني. وهذا تحديدًا ما يغير الأنشطة المذكورة آنفًا. ما يجعل من هذه الأنشطة بروباجاندا هو مجرد أنها ترمي إلى ترسيخ موقف ما في الناس مما يمهد الطريق للبروباجاندا الرئيسية المقبلة.

يجب أن تتصرف البروباجاندا الاجتماعية بلطف وتعمل على التكييف وتقدم حقيقة ومبدأ في أشكال حميدة متنوعة. ومع أنها متفرقة، تخلق في النهاية هيكلًا شخصيًا متكاملًا. وتعمل على الاختراق ببطء، وتكون أكثر فعالية في المجتمعات النشيطة والمستقرة نسبيًا أو خلال التوترات بين مجتمع متوسع وآخر متفكك (أو في مجموعة متوسعة داخل مجتمع متفكك). تكفي البروباجاندا الاجتماعية القائمة بذاتها في ظل هذه الظروف؛ فهي ليست مجرد بروباجاندا أولية فرعية. ولكنها لا تكفي وقت الأزمة ولا تستطيع أن تحشد الجماهير لفعل شيء في ظروف استثنائية. وكنتيجة لذلك، فيجب أحيانًا أن تعزز البروباجاندا التقليدية البروباجاندا الاجتماعية مما سيؤدي إلى الفعل.

في أوقات مثل هذه، تظهر البروباجاندا الاجتماعية على أنها الوسط الذي مهّد الطريق للبروباجاندا المباشرة، وبذلك تنتمي إلى البروباجاندا الفرعية. ليس هناك شيء أسهل من إدخال البروباجاندا المباشرة في مكان أعدته البروباجاندا الاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تتحول البروباجاندا الاجتماعية ذاتها إلى بروباجاندا مباشرة. ثم نرى (عبر سلسلة من المراحل المتوسطة) أن كل نوع منها يتحول إلى نوع آخر، كما نرى انتقال سلس مما كان مجرد تأكيد تلقائي لطريقة الحياة إلى تأكيد مقصود لحقيقة ما. وصف (إدوارد ل. برناز) هذه العملية في مقال: يرتبط "النهج الهندسي" المزعوم بجمع المناهج البحثية المهنية والتي من خلالها يمكن دفع الناس إلى تبني أفكار أو برامج، ودعمهم لها دعم إيجابي بمجرد إدراكهم لوجودها. ينطبق هذا الكلام أيضًا على الأمور السياسية. منذ عام 1936، حاولت رابطة الصناعيين الوطنية تحدي تطور التيارات اليسارية

باستخدام مثل هذه الوسائل. في عام 1938م، انفقت الرابطة نصف مليون دولار لدعم الرأسمالية التي تمثلها. زاد هذا المبلغ إلى 3 مليون في عام 1945م وإلى 5 مليون في عام 1946م. مهّدت هذه البروباجاندا السبيل لتشريع (تافت- هارتلي). كانت المسألة تتعلق بـ "بيع" النظام الاقتصادي الأمريكي. نحن هنا في مجال البروباجاندا بحق، ونرى أن هناك وسائل متعددة مستخدمة للتأثير على الآراء كما نرى علاقة قوية بين البروباجاندا الاجتماعية والمباشرة.

تصبح البروباجاندا الاجتماعية، والتي كانت تلقائية في البداية، مقصودة ومدروسة على نحو متزايد، وتواصل ممارسة نفوذها. يعتبر القانون الذي وضعته رابطة صناعة السينما مثالًا على ذلك حيث اشترط أن تعزز الأفلام "أعلى مستويات الحياة الاجتماعية" و"المفهوم الصحيح للمجتمع" و"المعايير الصحيحة للحياة" وأن تتجنب "أي سخرية من القانون (الطبيعي أو الوضعي) أو "تعاطف مع أولئك الذين ينتهكون القانون." مثال آخر هو شرح (ج. آرثر رانك) للغرض من أفلامه: "متى تصبح المواد المصدَّرة أكثر من كونها مواد مصدرة؟ عندما تكون فيلم بريطاني، وعندما يظهر الإنتاج الرائع من أستوديوهات (إيليج) في العالم. يمثل هذا الإنتاج شيء أفضل من مجرد خطوة نحو مستوى أعلى من الصادرات..." وبذلك تعتبر هذه الأفلام بروباجاندا لطريقة الحياة البريطانية.

في سياق البروباجاندا الاجتماعية، الملمح الأول من الوعي بسيط جدًّا ومنه يأتي كل شيء آخر. ما يبدأ كموقف بسيط يتحول تدريجيًّا إلى أيديولوجية محددة، لأن طريقة الحياة التي يعيش وفقها الفرد في نظره ميسورة بالطبع وتصبح معيارًا للقيمة له. هذا لا يعني أنه ميسور بشكل موضوعي، بل أنه، بغض النظر عن وضعه الحقيقي، يظن أنه هكذا. يتأقلم مع بيئته تأقلمًا تامًّا "مثل السمك في الماء." وكنتيجة لذلك، أي شيء يعبر عن طريقة الحياة هذه - وليس غيرها - ويعززها ويحسنها، يعتبر جيد، وأي شيء يمكن أن يزعج هذه الحياة أو ينتقدها أو يدمرها ينظر إليه على أنه بغيض.

وضع مثل ذلك يقود الناس إلى الاعتقاد بأن الحضارة التي تمثل طريقة حياتهم هي الحضارة الأفضل. يقنع هذا الاعتقاد الفرنسيين بالالتزام بنفس الطريق الذي اتخذه الأمريكيون، الأكثر تطورًا في هذا الاتجاه. من الطبيعي أن يحاول المرء أن يحاكي ويلحق بأولئك الذين تقدموا بكثير - فيصبح الأول نموذجًا. تجعل هذه المحاكاة الفرنسيين يتبنوا نفس المعايير الحكمية ونفس الأبنية الاجتماعية ونفس الأيديولوجيات التلقائية، وفي النهاية، نفس الشخصية الإنسانية. ومن ثم، تصبح البروباجاندا الاجتماعية شكلًا دقيقًا من أشكال البروباجاندا - شكل بسيط نسبيًا إذ إنه يستعمل كل التيارات الاجتماعية لكنه أبطأ من أنواع أخرى من البروباجاندا لأنه يهدف إلى التغلغل طويل الأجل والتأقلم التدريجي.

ولكن، من اللحظة التي يستخدم فيها الفرد طريقة الحياة هذه كمعيار للخير والشر، يقتنع بإصدار الأحكام: على سبيل المثال، يعتبر أي شيء غير أمريكي شر. ومنذ ذلك الحين، تقصر البروباجاندا الحقيقية نفسها على استعمال هذا الميل وعلى دفع الفرد إلى أفعال الامتثال أو الدفاع عن النظام القائم.

البروباجاندا الاجتماعية في الولايات المتحدة نتيجة طبيعية للملامح الأساسية في الحياة الأمريكية. في البداية، كان على الولايات المتحدة أن توحد السكان المختلفين الذين أتوا من جميع البلدان في أوروبا وكان لهم تقاليد وميول متنوعة. لزم إيجاد وسيلة للدمج السريع - وكانت تلك المشكلة السياسية الكبرى في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر. والحل كان التوحيد النفساني - وهو ببساطة استخدام طريقة الحياة كأساس للتوحيد وكأداة للبروباجاندا. بالإضافة إلى ذلك، يلعب التوحيد دورًا حاسمًا آخر - دور اقتصادي - في الحياة في الولايات المتحدة، ويحدد حجم السوق الأمريكي.

يتطلب الإنتاج على نطاق واسع استهلاك على نطاق واسع، ولكن ليس ممكنًا أن يكون هناك استهلاك واسع النطاق بدون انتشار آراء متطابقة بشأن ماهية

ضروريات الحياة. يجب على المرء أن يتأكد أن السوق سيستجيب بسرعة وقوة لطرح أو اقتراح ما. وبالتالي، يحتاج المرء إلى الوحدة النفسانية الضرورية والتي في ظلها يمكن للإعلان أن يستغل اليقين عندما يتلاعب بالرأي العام. ويجب أن يقتنع الرأي العام بعظمة كل شيء "أمريكي" حتى يستجيب، وهكذا يرتبط امتثال الحياة بالفكر ارتباطًا لا ينفصم.

ولكن، يمكن أن يؤدي مثل هذا الامتثال إلى تطرف غير متوقع. نظرًا لليبرالية الأمريكية وثقة الأمريكيين في قوتهم الاقتصادية ونظامهم السياسي، من الصعب فهم "موجة الهستيريا الجماعية" التي حدثت بعد عام 1948م وبلغت ذروتها في المكارثية. من المرجح أن هذه الهستيريا قد نشأت من الشعور الغامض بالضعف الأيديولوجي - عدم القدرة على تحديد أسس المجتمع الأمريكي. ولهذا السبب يسعى الأمريكيون إلى تعريف طريقة الحياة الأمريكية بحيث يجعلونها واضحة وشعورية ونظرية وذات قيمة. وكانت النتيجة هي البحث عن الذات وصلابة الذهن مع التأكيدات المبالغ فيها والتي صُممت لتخفي ضعف الموقف الأيديولوجي. من الجلي أن كل ذلك يشكل الإطار المثالي للبروباجاندا المنظمة.

نتناول البروباجاندا المنظمة على عدة أصعدة: أولًا، على الصعيد الحكومي. وهناك جماعات ضغط مختلفة: لجنة العمل السياسي والجمعية الطبية الأمريكية ونقابة المحامين الأمريكية ورابطة الرجال للمشاريع التجارية الصغيرة - وكل هذه الجهات لها نفس الغرض وهو الدفاع عن المصالح الخاصة للقطاعات الثلاثة الكبرى: المشاريع التجارية والعمالة والإنتاج الزراعي. ومجموعات أخرى تستهدف الإصلاح السياسي والاجتماعي مثل الفيلق الأمريكي وعصبة الناخبات وغيرها. تمارس تلك المجموعات ضغوطًا على الحكومة كي تؤثر على قراراتها وتمارس البروباجاندا بأشكالها التقليدية لكي تؤثر على الناس، وتحاول أن تعرّفهم بأهدافها الأيدلوجية من خلال الأفلام والاجتماعات والإذاعة.

ظاهرة غريبة أخرى رأت النور مؤخرًا (وأكدها العديد من علماء الاجتماع الأمريكيين) هي ظهور "المحرضين" بجانب السياسيين ومروجي البروباجاندا

السياسية. المحرض الحقيقي يهيج الرأي العام "دون أن يكون جزءًا منه،" ويؤدي عمله كأنه قومي. فهو لا يجذب الناس إلى عقيدة أو مبدأ ولا يقترح إصلاحًا بعينه وإنما هو النبي "الحقيقي" لطريقة الحياة الأمريكية. عادةً يعارض برامج إصلاحات "الصفقة الجديدة" ويؤيد الليبرالية الحرة، وفي نفس الوقت يعارض البلوتوقراطيين الأثرياء، والمؤمنين بالعالمية، والاشتراكيين.

يشكل أصحاب المصارف والشيوعيون على حد سواء "الطرف الآخر البغيض ورغم وجودهم قد تمكنت الأنا غير المتبلورة من التواجد." ينشط المحرض وبخاصة بين المجموعات الأقل تنظيمًا بالولايات المتحدة ويستغل القلق الشديد لدى الشرائح الأدنى من الطبقة الوسطى والطبقة العاملة الجديدة والمهاجرين والجنود المسرّحين - الناس الذين لم يندمجوا في المجتمع الأمريكي بعد أو الذين لم يتخذوا العادات والأفكار الجاهزة. يستخدم المحرض طريقة الحياة الأمريكية من أجل أن يحرض تيارات الرأي العام المعادية للسامية والشيوعية والأجانب والزنوج. فيجعل مجموعات تتصرف بطريقة غير منطقية ولكن في نفس الوقت متناسقة - عالم (مانوي) من البروباجاندا. هناك كلام أكثر سنقوله عن هذا الموضوع لاحقًا. الأمر الأبرز في هذه الظاهرة هو أن المحرض لا يعمل لدى حزبٍ سياسي، والمصالح التي يخدمها غير واضحة. فهو ليس رأسمالي ولا شيوعي، ولكنه يؤثر على الرأي العام الأمريكي تأثيرًا عميقًا، وقد يتبلور تأثيره بغتةً.

كلما أصبحت مثل هذه البروباجاندا النفسانية واعية، عبرت عن نفسها داخليًّا، ومع ذلك اتسع تأثيرها خارجيًّا، مثلما حدث في أوروبا على سبيل المثال. كثيرًا ما تحتفظ بطبيعتها الاجتماعية، وهكذا لا تبدو بروباجاندا بسيطة وخالصة. مثلًا، لا شك أن لمشروع (مرشال) - والذي كان في المقام الأول نوعًا حقيقيًّا من أنواع المساعدة الحقيقية للدول الأقل تطورًا - أيضًا عناصر البروباجاندا مثل انتشار البضائع والأفلام الأمريكية ومعها دعاية عما كانت تفعله الولايات المتحدة

لمساعدة الدول المحرومة. هذان الجانبان من البروباجاندا غير المباشرة اجتماعيان تمامًا، ولكن قد يرافقهما بروباجاندا ما، مثلما حدث في عام 1948م، عندما أُغدق دعم قُدِّر بخمسة عشر مليون دولار على المنشورات الأمريكية في أوروبا. الطبعة الفرنسية من (*Herald Tribune*) في نيويورك ذكرت أنها تلقت مبالغ كبيرة في شكل أرصدة (مرشال) بغرض إعداد بروباجاندا أمريكية. وإلى جانب الدوريات النقدية المتخصصة بالبروباجاندا مثل (*France-Amérique*) ومراكز الأفلام ومكتبات تحت رعاية أمريكية في أوروبا، ينبغي أن ندرج (*Reader's Digest*) والتي وزعت ملايين النسخ لكل إصدار، وكانت ناجحة لدرجة أنها لم تعد تحتاج إعانة.

مع ذلك، فإن نجاح البروباجاندا الأمريكية غير متساو لدرجة كبيرة. للمنشورات التقنية جمهور مطمئن، ولكن ليس للنشرات والكراسات تأثير كبير لأن الأمريكيين عندهم "عقدة التفوق" وهذا ما انعكس في هذه منشورات وما أثار استياء الأجانب. تقديم طريقة الحياة الأمريكية كأنها الطريق الوحيد إلى الخلاص يثير سخط الرأي العام الفرنسي مما يجعل مثل هذه البروباجاندا غير فعالة في فرنسا، ولكن في نفس الوقت، سيطرت المناهج التقنية الأمريكية المتطورة على الرأي الفرنسي.

من الجلي أن كل أشكال البروباجاندا الاجتماعية منتشرة جدًّا وتهدف إلى نشر أفكار وتحيزات نحو طريقة حياة أكثر من نشر عقيدة أو استحضار فعل ما أو دفع الناس على التزام رسمي. تمثل أشكال هذه البروباجاندا اختراقًا عميقًا حتى بلوغ نقطة محددة والتي فيها يقع الفعل. تجدر الإشارة مثلًا أن عدد المصوتين الشيوعيين انخفض بين 1951م و1953م في كل الوزارات الفرنسية التي كان فيها أمريكيون ومكاتب للبروباجاندا.

فرق ثان مهم بشأن الظاهرة العامة للبروباجاندا هو الفرق بين البروباجاندا التحريضية والبروباجاندا الاندماجية، وهنا نجد فرقين، وقد نسأل أنفسنا: إن كانت المناهج والموضوعات والخصائص والجماهير والأهداف مختلفة جدًّا، فهل نحن إذًا لا نتعامل حقًّا مع كيانين منفصلين، بل جانبين لنفس الظاهرة؟

يعكس هذا التفريق في جزء منه التمييز المعروف لـ(لينين) بين "التحريض" و"الدعاية" - ولكن هنا ينقلب معنى هذين المصطلحين، ويتشابه ذلك أيضًا إلى حد ما مع التمييز بين بروباجاندا التقويض الثقافي (فيما يتعلق بالعدو) وبروباجاندا التعاون (مع نفس العدو).

تجذب البروباجاندا التحريضية انتباه الجميع لأنها الأكثر بروزًا والأوسع انتشارًا، فغالبًا ما تستهدف التقويض الثقافي وتحمل ختم المعارضة، ويقودها حزب يسعى إلى تدمير الحكومة أو النظام القائم. فتسعى هذه البروباجاندا إلى التمرد أو الحرب، وكان لها دائمًا مكان في مجرى التاريخ. فقد غذّت مثل هذه البروباجاندا التحريضية كل الحركات الثورية وكل الحروب الشعبية. اعتمد (سبارتاكوس) على بروباجاندا من هذا النوع كما فعلت البلديات الفرنسية والحروب الصليبية والحركة الفرنسية في 1793م إلى آخره. ولكن بلغت القمة مع (لينين)، وهذا يؤدي بنا إلى الملاحظة أن الحكومات يمكن أيضًا أن تصنع البروباجاندا التحريضية - حتى وإن كانت بروباجاندا المعارضة في معظم الأحيان. على سبيل المثال، حين تريد الحكومة أن تحفز الطاقات لاستنفار الأمة بأسرها للحرب ستستخدم البروباجاندا التحريضية. وفي هذه اللحظة، يتجه التقويض الثقافي صوب العدو الذي يجب أن تُدمّر قدرته عن طريق الوسائل النفسانية والمادية، وأن تتغلب حماسة الأمة على قوة هذا العدو.

وكذلك تستخدم الحكومات البروباجاندا التحريضية - بعد أن تكون في سدة الحكم - عندما تريد أن تتخذ مسار عمل ثوري. وبالتالي، بعد أن صار

السوفييت في سدة الحكم، نظم (لينين) البروباجاندا التحريضية وطور الحملة الطويلة للتحريض في روسيا لهزيمة المقاومة وسحق المزارعين الملاك (الكولاك). وفي حالة مثل هذه، يستهدف التقويض الثقافي مقاومة جزء أو طبقة اجتماعية، ويختار عدو داخلي للهجوم عليه. على نحو مماثل، معظم بروباجاندا (هتلر) كانت تحريضية؛ فلم يتمكن (هتلر) من أن يقوم بتحولات اقتصادية واجتماعية شاملة إلا عن طريق التحريض الدائم والحماس البالغ ودفع الطاقات إلى أقصى حدودها. نمت النازية من خلال موجات متعاقبة من الحماس الشديد، وهكذا حققت أغراضها الثورية. وأخيرًا، كانت الحملات العظيمة في الصين الشيوعية بروباجاندا تحريضية بالتمام. هذه البروباحاندا هي الوحيدة التي تستطيع أن تنتج هذه "القفزات الكبيرة للأمام."

ما كان نظام البلديات الفرنسية ليلقى قبولًا لولا البروباجاندا التحريضية التي – في نفس الوقت – أطلقت العنان للناس ليقوموا بفعل ملموس، وغيرت سلوكهم عن طريق تقويض عاداتهم وتقاليديهم ومعتقداتهم التي كانت عائقًا أمام "قفزات كبيرة للأمام." هذه كانت البروباجاندا الداخلية، وكان (ماو) على حق حين قال إن العدو موجود داخل كل شخص.[1] وبذلك تخاطب البروباجاندا التحريضية العناصر الداخلية في كل واحد فينا، ولكن تتجلى هذه البروباجاندا دائمًا في الواقع عن طريق المشاركة المادية في نشاط قوي وحماسي للغاية. ويتوقف مروج البروباجاندا عن استخدام المكابح الداخلية (العوائق النفسانية من العادات والقناعات والأحكام) عن طريق دفع الفرد على المشاركة في هذا النشاط.

يجب أن ننظر إلى حملة (بياتيليتكا) التنموية بالاتحاد السوفيتي على أنها بروباجاندا تحريضية. مثل الحملات الصينية، كان هدفها تمديد الطاقات إلى أقصاها من أجل الحصول على أعلى إنتاج ممكن للعمل. وبالتالي، يمكن للبروباجاندا التحريضية لبعض الوقت أن تخدم الإنتاجية، والأمثلة الرئيسية

---

(1) نظرية "القولبة" لـ(ماو). أنظر أدناه، الملحق الثاني.

للبروباجاندا التحريضية من هذا النوع أتت على يد الحكومات. ولكن، في أغلب الأوقات، تتسم البروباجاندا التحريضية بالثورية بالمعنى العادي للكلمة. وهكذا أثارت البروباجاندا الشيوعية من هذا النوع في الغرب إضرابات وأعمال شغب. أحدث الأمثلة النمطية على هذا النوع من البروباجاندا هو بروباجاندا (فيدال كاسترو)، وجبهة التحرير الوطنية بالجزائر، و(هو تشي مين) قبل استيلائه على السلطة.

في كل الحالات، تحاول البروباجاندا التحريضية أن تمدد الطاقات إلى أقصاها وتنال تضحيات كبيرة وتقنع الفرد أن يتحمل محن ثقيلة وتخرجه من حياته اليومية وإطاره الاعتيادي وتدفعه إلى الحماس والمغامرة وتقدم له إمكانات لم تكن متوقعة إلى هذه اللحظة وتقترح عليه أهداف استثنائية (ولكنها تبدو له في متناول اليد). وهكذا تطلق البروباجاندا التحريضية العنان لحركة متفجرة تشتغل داخل أزمة أو تثير الأزمة ذاتها. ومن ناحية أخرى، يمكن لمثل هذه البروباجاندا أن تحقق تأثيرات قصيرة المدى.

لو لم يتحقق الهدف المفترض بسرعة كافية، سيمهد الحماس الطريق لليأس والإحباط. ولذلك يقسم اختصاصيو البروباجاندا التحريضية الأهدافَ المرغوب فيها إلى سلسلة من المراحل التي يمكن الوصول إليها واحدة تلو الأخرى. وهناك فترة من الضغط لتحقيق بعض النتائج ثم فترة من الاسترخاء والراحة. هكذا عمل (هتلر) و(لينين) و(ماو). لا يمكن إبقاء شعب أو حزب في أعلى مستويات التضحية والإيمان والإخلاص لوقت طويل. لا ينبغي أن يُفرض على الفرد أن يعيش في حالة من الحماس وعدم الأمان على الدوام. فبعد وقت من الصراع والمقاومة، يحتاج الفرد إلى الراحة والعالم المألوف الذي اعتاد عليه.

من الجلي أن هذه البروباجاندا التحريضية التي تسعى إلى التقويض الثقافي هي الأكثر صخبًا: فتجذب الانتباه بسبب طبيعتها الثورية والانفجارية. وهي أيضًا الأسهل في صناعتها؛ من أجل أن تنجح لا تحتاج إلا أن تخاطب النزعات

الأبسط والأعنف عبر وسيلة بدائية للغاية. عامةً تعتبر الكراهية المورد الأكثر ربحًا. سهل جدًّا أن تطلق حركة ثورية قائمة على كراهية عدو بعينه. من المرجح أن الكراهية هي النزعة الأكثر عفوية وشيوعًا إذ إنها تتألف من لصق مصائب وذنوب الفرد بـ "الآخر" الذي ينبغي قتله للتأكد من اختفاء هذه المصائب والذنوب. سواء أكانت كراهية البورجوازيين أو الشيوعيين أو اليهود أو المستعمرين أو المخربين، فهذا لا يهم. تنجح البروباجاندا التحريضية كل مرة تحدد شخصًا كمصدر لكل البؤس والمعاناة شريطةً أنه لا يتمتع بقوة كبيرة.

طبعًا، لا يمكن أن نستخلص الاستنتاجات الأساسية من حركة انطلقت بهذه الطريقة. من العجيب أن نرى أن المثقفين مثلًا يأخذون نزعات ضد البشرة البيضاء عند الجزائريين أو ضد السود على محمل الجد، ويعتقدون أن هذه النزعات تعبر عن مشاعر أصيلة. اتهام الرجل الأبيض (الغازي والمستغل - فهذه حقيقة) بأنه مصدر كل المصائب، وإثارة ثورات ضده أمر سهل للغاية، ولكن هذا لا يثبت أن الرجل الأبيض مصدر كل الشرور أو أن السود يكرهونه تلقائيًّا. ومع ذلك، بمجرد أن تُثار الكراهية، تستمر في إعادة إنتاج نفسها.

هناك دوافع ثانوية تتلاءم إلى حد ما مع الظروف إلى جانب هذه النزعة العامة والموجودة في كل أنواع البروباجاندا التحريضية (وحتى حين تثيرها الحكومة، وحتى في حركة البلديات الصينية). فالدعوة للحرية بين المقهورين والمنهزمين والمستعمَرين تعتبر وسيلة سهلة الاستخدام بالتأكيد: فمثلًا، تلقى دعوات الكوبيين أو الجزائريين للحرية الدعم والتعاطف بكل تأكيد. والشيء ذاته ينطبق على الوعد بالخبز للجياع، والوعد بالأرض للذين سُلبت منهم أراضيهم، والدعوة للحق بين المتدينين.

في المجمل، تخاطب هذه النداءات المشاعر البسيطة والبدائية ولا تتطلب تنقية أو تنقيح، وبفضل ذلك يمكن لمروج البروباجاندا أن ينال قبول الأكاذيب الأكبر والأوهام الأسوأ - وهي المشاعر التي تعمل فورًا لتثير أعمالًا عنيفة وتوقظ العواطف التي تبرر كل التضحيات.

تتوافق مشاعر كهذه مع الحاجات الأولية لكل إنسان: حاجة الإنسان أن يأكل وأن يكره وأن يكون سيد قراره. في ضوء سهولة إثارة مشاعر كهذه، فإن الوسائل المادية والنفسانية المستخدمة يمكن أن تكون بسيطة: الكراسة والخطاب والملصق والإشاعة. ليس هناك حاجة لامتلاك وسائل الإعلام الجماهيرية لصنع البروباجاندا التحريضية لأنها تتغذى على نفسها، ويصبح كل شخص تحت تأثيرها مروج لها. فإنها مفيدة للغاية كبروباجاندا التقويض الثقافي ليس لشيء إلا إنها لا تحتاج إلى جهاز تقني كبير. وليس من الضروري أن تهتم بالاحتمالية أو صدق المعلومات. أي بيان، أيًّا كانت درجة غبائه، أو أية "حكاية خيالية" سيصدقها الناس حينما تدخل في التيار الحماسي للكراهية. مثال مميز على هذا حدث في يوليو/ تموز 1960م، عندما ادعى (باتريس لومومبا) أن البلجيكيين أثاروا ثورة الجنود الكونجوليين في معسكر في (تايسفيل).

وأخيرًا، كلما انحدر المستوى التعليمي والمعرفي لدى الناس الذين تخاطبهم البروباجاندا التحريضية، سهل صنع بروباجاندا من هذا النوع. ولذلك السبب، من المناسب جدًّا استخدامها بين الطبقات الأدنى المزعومة (البروليتاريا) وبين الشعوب الإفريقية. وعندها يمكن أن تعتمد على كلمات مفتاحية ذات أهمية سحرية، فيصدقها الناس بدون شك رغم أن السامعين لا يقدرون أن يربطوا أي محتوى حقيقي بها أو يفهموها فهمًا تامًّا.

واحدة من هذه الكلمات بين الشعوب المستعمَرة هي *الاستقلال*، وهي كلمة مفيدة للغاية من ناحية التقويض الثقافي الفعال. لا طائل من محاولة الشرح للناس أن الاستقلال الوطني ليس مثل الحرية الفردية على الإطلاق؛ وأن الشعوب السوداء عامةً لم تتطور إلى المستوى حيث يمكن أن يعيشوا في استقلال سياسي على الطريقة الغربية، وأن اقتصاد بلدانهم لم يسمح لهم إلا بمجرد تغيير السادة. ولكن، ليس هناك سببًا واحدًا يمكن أن يطغى على سحر الكلمة. وعلى الأرجح تم دفع ذوي الذكاء المحدود إلى حركة ثورية عن طريق مثل هذه النداءات المتعجلة.

على عكس البروباجاندا التحريضية، نرى البروباجاندا الاندماجية في البلاد المتطورة وتتميز بها حضارتنا. في الواقع، لم يكن هناك بروباجاندا اندماجية قبل القرن العشرين. فهي بروباجاندا الامتثال التي تتعلق بالحقيقة (التي حللناها من قبل) حيث إنه في المجتمع الغربي لم يعد يكفي الحصول على فعل سياسي مؤقت (التصويت مثلًا)؛ فيحتاج المرء الالتزام الكامل بحقائق المجتمع وأنماطه السلوكية. وكلما تشابه أفراد المجتمع تشابهًا تامًا، زادت قوة البروباجاندا وفعاليتها حيث لا ينبغي أن يكون كل الفرد سوى عضو وجزء عامل فيه - مندمج فيه ومتكيف معه على نحو كامل.

يجب أن يحمل هذا الفرد نفس الصور النمطية والقناعات وردود الفعل التي تحملها جماعته؛ وعليه أن يكون مشاركًا نشطًا في الأنشطة الاقتصادية والأخلاقية والجمالية والسياسية للجماعة. فتعتمد كل أنشطته ومشاعره على هذا الحالة الجماعية - وكثيرًا ما تُذَكّره الجماعة أنه لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا عبر هذه الجماعية - كعضو في الجماعة.[1] وهكذا تهدف البروباجاندا الاندماجية إلى دفع الفرد إلى المشاركة في مجتمعه بكل طريقة ممكنة. وهذه هي البروباجاندا طويلة الأمد التي تنتج نفسها بنفسها وتسعى إلى تحقيق سلوك مستقر وتسعى إلى تكييف الفرد مع حياته اليومية وإعادة تشكيل أفكاره وسلوكه وفقًا للمحيط الاجتماعي الدائم. ويمكننا أن نرى أن هذه البروباجاندا أكثر تعقيدًا وشمولًا من البروباجاندا التحريضية - فيجب أن تكون دائمة إذ لا يجب أن يُترك الفرد دون سيطرة.

في حالات كثيرة، تقتصر بروباجاندا كهذه على تبرير موقف قائم وتحويل أفعال أفراد المجتمع غير الواعية إلى أنشطة واعية ومرغوب فيها - مستحسنة ومبررة ويراها الناس. وصف (بيرلين وروزنبرج) هذا بـ"توضيح التابعات الكامنة." وفي مثل هذه الحالات، يجب إثبات أن المستمعين - والمواطنين عامةً - مستفيدين من التطورات الاجتماعية-السياسية الناتجة.

---

(1) هذه واحدة من النقاط المشتركة بين كل الأعمال الأمريكية عن علم الاجتماع المصغر.

ترمي البروباجاندا الاندماجية إلى حفظ توازن الجسم الاجتماعي وتوحيده وتعزيزه. ومن ثم، فهي الأداة المفضلة لدى الحكومات. ولكن، لكي يكون كلامي دقيقًا، فهذه البروباجاندا ليست بروباجاندا سياسية فحسب. فبروباجاندا الاتحاد السوفيتي منذ 1930م ومنذ الحرب وبروباجاندا كل الجمهوريات كانت بروباجاندا اندماجية.(1) ولكن، يمكن أيضًا لمجموعة من المنظمات غير الحكومية أن تصنع مثل هذا النوع من البروباجاندا وأن تسير في نفس الاتجاه مسيرة تلقائية إلى حد ما في ضوء تخطيط الدولة. والمثال الأهم على استخدام هذا النوع من البروباجاندا هو الولايات المتحدة. من الواضح أن البروباجاندا الاندماجية أكثر دقةً وتعقيدًا من البروباجاندا التحريضية. فالبرباجاندا الاندماجية لا تسعى وراء إثارة مؤقتة، بل تشكل الفرد تشكيلًا شاملًا وعميقًا.

وهنا يجب استخدام كل تحليلات الرأي والتحليلات النفسانية، وكذلك وسائط الإعلام الجماهيري. البروباجاندا الاندماجية هي التي سنناقشها في المقام الأول في دراستنا هذه، لأنها الأكثر أهمية حاليًا بالرغم من نجاح بروباجاندا التقويض الثقافي وطبيعتها المبهرة.

دعونا الآن نشير إلى الجانب الأخير للبروباجاندا الاندماجية: كلما كان الوسط الاجتماعي الذي تخاطبه البروباجاندا ميسورًا ومثقفًا ومطلعًا، كان أداؤها أفضل. فالمثقفون أكثر ضعفًا من الفلاحين للبروباجاندا الاندماجية. في الواقع، يحملون نفس الصور النمطية التي يحملها المجتمع حتى وإن كانوا على جانب المعارضة السياسية لهذا المجتمع. لنتأمل مثلًا حديثًا: بدت معارضة المثقفين الفرنسيين للحرب في الجزائر عدائية تجاه البروباجاندا الاندماجية. ومع ذلك، حملوا كل الصور النمطية والأساطير في المجتمع الفرنسي - التكنولوجيا والوطن والتقدم؛ فكانت كل أفعالهم قائمة على هذه الأساطير. كانوا جاهزين جدًا

---

(1) في مؤتمر بشأن المشكلات الأيديولوجية عُقد في موسكو في أواخر ديسمبر/ كانون الأول عام 1961م، تم التأكيد على الحاجة لـ "تشكيل الإنسان الشيوعي" وأُلقي اللوم على مروجي البروباجاندا بسبب التأخر في تحقيق هذا الهدف لأثنين وعشرين سنة.

للبروباجاندا الاندماجية لأنهم قد تكيفوا فعلًا مع مطالبها. ولم يكن لمعارضتهم المؤقتة أهمية - مجرد تغيير لون العلم كان كافيًا لتجدهم مرة أخرى بين المجموعات الأكثر امتثالًا.

ولكن مشكلة أساسية مازالت موجودة. عندما تنطلق حركة ثورية، تعمل، كما قلنا، مع البروباجاندا التحريضية؛ ولكن بمجرد أن يستولي الحزب الثوري على السلطة، ينبغي أن يشرع في العمل باستخدام البروباجاندا الاندماجية على الفور (إلا في الحالات الاستثنائية المذكورة). هذه هي الطريقة لتحقيق التوازن بين سلطته واستقرار الوضع. ولكن الانتقال من نوع ما من البروباجاندا إلى نوع آخر صعب ومعقد للغاية. من الصعب دمج الجماهير في إطار عمل عادي للسياسة والاقتصاد أو إعادة ضمهم لصفوف الجماهير بعد النجاح في إثارتهم على مر سنين ودفعهم للمغامرات وتغذية آمالهم ومشاعر الكراهية داخلهم وفتح أبواب الفعل لهم وطمأنتهم أن كل أفعالهم مبررة.

ليس من السهل إخضاع ما أُطلق سراحه، ولاسيما عادات العنف أو أخذ الجماهير على عاتقهم تطبيق القانون بأيديهم - مثل هذه العادات تتلاشى ببطء. فإن هذه حقيقة واقعة لأن النتائج التي تحققها الثورة عادةً ما تكون خادعة. مجرد الاستيلاء على السلطة لا يكفي. يريد الشعب أن ينفّس عن الكراهية التي نمت على يد البروباجاندا التحريضية، وأن يحصل على الخبز وأرض الميعاد فورًا. وبسرعة أصبح الجنود الذين ساعدوا على الاستيلاء على السلطة في صفوف المعارضة واستمروا في التصرف كما فعلوا تحت التأثير بروباجاندا التقويض الثقافي.

وعلى الحكومات التي تأسست حديثًا أن تستخدم البروباجاندا للقضاء على هذه الصعوبات ولمنع استمرار المعركة. ولكن يجب أن تُصمَم هذه البروباجاندا بطريقة تدمج الأفراد في "النظام الجديد" وتحوّل معارضيهم إلى متعاونين مع الدولة، وتدفعهم إلى قبول التأخر في الوفاء بالوعود - وبعبارة أخرى، من الضروري أن تكون بروباجاندا اندماجية.

عامةً، يمكن مباشرةً إرضاء عنصر واحد فقط - الكراهية - ويلزم تغيير كل شيء آخر. من الواضح أن تحويل البروباجاندا على هذا النحو بالغ الصعوبة: لا يمكن استخدام تقنيات ومناهج البروباجاندا التحريضية؛ فلا يمكن إثارة نفس المشاعر، بل يجب توظيف مروجي بروباجاندا آخرين إذ إن البروباجاندا الاندماجية تتطلب خصائص مختلفة تمامًا.

أصعب شيء هو أن البروباجاندا التحريضية تنتج تأثيرات سريعة ومذهلة جدًّا في حين أن البروباجاندا الاندماجية تسير ببطء وبالتدريج وبدقة بالغة. فبعد تعرض الجماهير للبروباجاندا التحريضية، يعتبر تحييد بواعثهم المُثارة عن طريق هذه البروباجاندا دون أن يجرفوها بعيدًا مشكلة دقيقة. في بعض الحالات، كانت استعادة السيطرة على الجماهير مستحيلةً فعلًا. الكونجو البلجيكية مثال جيد: السود الذين كانوا متحمسين منذ 1959م بسبب بروباجاندا (لومومبا)، أول مرة تجلى حماسهم كان عن طريق تقاتلهم فيما بينهم؛ وبعد ذلك، بمجرد تأسيس الحكومة السوداء جمحوا واستحالت السيطرة عليهم. كان ذلك التأثير المباشر لبروباجاندا (لومومبا) الجامحة ضد البلجيكيين. يبدو أن النظام الدكتاتوري - وليس غيره - يقدر على منع هذا الوضع.[1]

ضرب (سافي) مثالًا جيدًا آخر: إبان الحرب، أثارت الإذاعات في لندن والجزائر الشعب الفرنسي على قضية نقص الطعام، وأيضًا اتهمت الألمان بافتعال الشح الغذائي عن طريق المُصادرة (والتي لم تكن صحيحة). بعد التحرير، لم تستطع الحكومة أن تتغلب على آثار هذه البروباجاندا؛ فكان هناك توقعات بعودة الوفرة على الفور، واستحالت السيطرة على التضخم والحفاظ على التوزيع الرشيد؛ وبذلك فشل الاندماج بسبب التحريض الذي سبقه.

في بعض الحالات، تؤدي البروباجاندا التحريضية إلى فشل جزئي. وأحيانًا، هناك فترة طويلة جدًّا من المتاعب والتعاسة، حيث كان مستحيلًا استعادة النظام،

---

(1) دُوّن في سبتمبر/ أيلول 1960م.

ولم يكن ممكنًا السيطرة على الوضع مرة أخرى إلا بعد سنوات عديدة من البروباجاندا التحريضية. من الواضح أن المثال الأفضل هو الاتحاد السوفيتي. حتى في فترة مبكرة مثل 1920م، استخدمت البروباجاندا الاندماجية كما رآها (لينين) ولكنها أخذت العقلية الثورية ببطء شديد. ولم تتلاشَ تابعات البروباجاندا التحريضية إلا بعد عام 1929م. وكان تمرد مدينة كرنشتات مثالًا صارخًا على ذلك.

في حالات أخرى، يتوجب على الحكومة أن تتبع الحشود الذين لا يمكن إيقافهم بمجرد أن ينطلقوا للأمام. وتُضطر الحكومة - شيئًا فشيء - إلى تلبية حاجات الجماهير التي أثارتها البروباجاندا التحريضية. كان هذا الحال مع (هتلر) إلى حد ما. فبعد أن تولى الحكم، استمر في السيطرة على الشعب من خلال البروباجاندا التحريضية: ولذلك كان عليه أن يقوم باستحضار شيء جديد طيلة الوقت في طريقه للحرب - إعادة تسليح وراينلاند وإسبانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا.

البروباجاندا التي استهدفت كتيبة العاصفة النازية (S.A.) والفرق الوقائية (S.S.) كانت بروباجاندا تحريضية كما كانت البروباجاندا التي دفعت الشعب الألماني للدخول في الحرب 9-1937م. وفي الوقت نفسه، تعرض السكان ككل للبروباجاندا الامتثالية. لذا استعمل (هتلر) نوعين من البروباجاندا في نفس الوقت. على نحو مماثل، في الاتحاد السوفيتي، تم توظيف البروباجاندا التحريضية ضد الإمبرياليين والمخربين أو تم توظيفها في صالح تنفيذ "المشروع" بالتزامن مع البروباجاندا الاندماجية في النظام (باستخدام شتى الآراء والوسائل) خلال التعليم السياسي والحركات الشبابية وغيرها. هذا بالضبط هو الوضع اليوم مع (كاسترو) في كوبا؛ فهو غير قادر على الدمج، ولكنه يستطيع أن يباشر البروباجاندا التحريضية. وهذا سوف يؤدي به حتمًا إلى الاستبدادية وربما الحرب.

ومع ذلك، تمكنت نظم سياسية أخرى من الانتقال بامتياز من بروباجاندا لأخرى، كما تمكنت من وضع البروباجاندا الاندماجية في المقدمة بسرعة كبيرة.

كان هذا الحال في شمال فيتنام والصين، نظرًا لمفهومهما المثير عن البروباجاندا – المفهوم الذي تبنتاه منذ الثورة. في الواقع، منذ 1927م، استهدفت بروباجاندا (ماو) التقويض الثقافي؛ وخاطبت المشاعر الأساسية كي تثير التمرد، وتسفر عن صراع وتكييف الناس، وتعتمد على الشعارات.

ولكن، في نفس الوقت، بمجرد أن يلتحق الفرد بالجيش يتعرض للبروباجاندا الاندماجية التي يسميها (ماو) *التعليم السياسي*. تفسيرات مطنَبة تخبره بالسبب وراء ضرورة التصرف بطريقة معينة؛ وينشأ – كجزء من هذه البروباجاندا – نظام متحيز للأخبار مع أنه يبدو موضوعيًّا، والتصرف خاضع لنظام وضوابط صارمة.

دمج المتمرد الثوري في جيش منظم بصرامة ومنضبط للغاية يعده إلى أن يكون أسير البروباجاندا الاندماجية بعد النصر وأن يُدخله في مجتمع جديد دون مقاومة أو زوغان فوضوي. ويسير دمجه في الجيش جنبًا إلى جنب مع التلقين الفكري والأخلاقي. هذا النوع من التشكيل الصبور والدقيق للإنسان ككل أو مفهوم " القولبة" وفقًا لـ (ماو) كان بالتأكيد نجاحه الأساسي.

طبعًا، بدأ (ماو) مع وضع كان فيه الإنسان بالفعل مندمج بصورة جيدة في الجماعة، ولكنه استبدل إطار عمل كامل بآخر. وكذلك احتاج أن يشكل عقول الناس الذين لم يتلقوا إلا القليل من التعليم (بما تحمله الكلمة من معنى في الغرب)، فانّهم تعلموا أن يفهموا كل شيء من خلال الصور والصور النمطية والشعارات والتفسيرات التي عرف كيفية غرسها. وفي ظل مثل هذه الظروف، يسهل الدمج، ولا يمكن محوه أو إبطال مفعوله من الناحية العملية.

وفي النهاية، الفرق بين نوعين من البروباجاندا يشرح لنا إلى حد ما هزيمة البروباجاندا الفرنسية في الجزائر منذ 1955م. من جانب، كانت بروباجاندا جبهة التحرير الوطنية الجزائرية فعل تحريضي مصمم لإثارة مشاعر النزاع والمقاومة. وفي مواجهة ذلك، استخدم الجيش الفرنسي البروباجاندا الاندماجية والاستيعابية

في الإطـار الفرنـسي وفي الإدارة الفرنـسية وفي المفـاهيم الـسياسية الفرنـسية وفي التعليم والتدريب المهني والأيديولوجية.

ولكن، يفصل بين هذين النوعين من البروباجانـدا فـرق شاسـع عظـيم مـن حيث السرعة والسهولة والفعالية؛ وذلك يفسر سبب فوز جبهة التحرير الوطنيـة في كل مرحلة تقريبًا في ظل هذه المنافسة بين أنـواع البروباجانـدا. ولكـن، هـذا لا يعنـي أن بروباجانـدا جبهـة التحريـر الوطنيـة عـبرت عـن الـشعور الحقيقـي للجزائريين. ومع ذلك، إذا قال البعض "أنـت غـير سـعيد إذًا عليـك أن تنـتفض وتقتل الحاكم وبعدها ستتحرر" وقـال آخـرون "سنـساعدك ونعمـل معـك وفي النهاية ستنتهي كل مشاكلك" لن يكون هناك اهتمامًا كبيرًا بمـن سـيبايعه النـاس. ولكن بغض النظر عن كل شيء، كما ذكرنا آنفًـا، فالبروباجانـدا الاندماجيـة هـي أهم حقيقة جديدة في يومنا هذا.

البروباجاندا العمودية والبروباجاندا الأفقية

البروباجاندا التقليدية - كما يفكر فيها المرء عادةً - عمودية الاتجـاه، بمعنـى أنها من صُنع القائد والفني والزعيم السياسي أو الديني الذي يتصرف مـن موقـع سلطته العالي ويسعى إلى التأثير على الحشد تحته.

يأتي هذا النوع من البروباجاندا من فـوق؛ فإنهـا تـشكل في خبايـا الـدهاليز السياسية وتستخدم كل المناهج التقنية لوسائل الاتصال الجماهيرية المركزية وتحيط بجماهير الأفراد - ولكن هؤلاء الذين يمارسون البروباجاندا يقعون خـارج نطـاق تأثيرها. دعونا نتـذكر هنـا الفـرق، المـذكور آنفًـا، الـذي طرحـه (لازويـل) بـين البروباجانـدا المبـاشرة وبروباجانـدا التـأثير، مـع أن كلاهمـا ينـدرجان تحـت البروباجاندا العمودية.

سمة من سمات البروباجانـدا العموديـة هـي أن متلقـي البروباجانـدا يبقـى وحيدًا مع أنه جزء من الحشد. رغم أن صـيحاته الحماسـية أو البغيـضة جـزء مـن صيحات الحشد إلا إنه لا يتواصل مع الآخرين، فليست صيحاته إلا رد على فعـل

القائد. وفي نهاية الأمر، يتطلب هذا النوع من البروباجاندا موقفًا سلبيًا من الذين يتعرضون لها، فتستحوذ عليهم وتتلاعب بهم، فيلتزمونها ويعيشون التجارب التي تُوضَع أمامهم؛ ويتحولون إلى أشياء. لنأخذ بعين الاعتبار مثلًا الحالة شبه التنويمية للذين يتعرضون للبروباجاندا في اجتماع حيث يصبح الفرد مسلوب الشخصية؛ فلم يعد سيد قراره، بل أن قراراته هي التي اقترحها القائد وفُرضت عليه من خلال رد الفعل المكيَّف. عندما نقول إن هذا موقف سلبي، لا نقصد أن متلقي البروباجاندا لا يفعل شيئًا؛ بل يتصرف بقوة وحماسة.

ولكن، كما سنرى، لم تنبع تصرفاته من داخله حتى وإن ظن ذلك. تتشكل البروباجاندا وتتحقق خارج الفرد، ويتصرف مروج البروباجاندا من خلاله ويختزله لحالة أداة سلبية ميكنة خاضعة. ويتجلى ذلك أكثر فأكثر حيث إن الفرد كثيرًا ما يكون غارقًا وسط حشد من المتلقين للبروباجاندا، وعندها يفقد فرديته ويصبح عنصرًا واحدًا من بين عناصر أخرى. لا يمكن فصله عن الحشد ولا يمكن تصوره بدون الحشد.

على أي حال، البروباجاندا العمودية هي الأكثر انتشارًا - سواء أكانت من إنتاج (هتلر) أو (ستالين)، أو الحكومة الفرنسية منذ 1950م أو الولايات المتحدة. فهي الأسهل في صنيعها، ولكن آثارها المباشرة سرعان ما تزول ويجب تجديدها باستمرار. فهي في المقام الأول مفيدة للبروباجاندا التحريضية.

أما البروباجاندا الأفقية فهي مرحلة تطور لاحقة، ونعرف لها شكلين: البروباجاندا الصينية والديناميكيات والتفاعلات الجماعية في العلاقات الإنسانية. الشكل الأول هو البروباجاندا السياسية؛ والثاني هو الاجتماعية، وكلاهما بروباجاندا اندماجية. فخصائصهما متطابقة، حتى وإن كان هذا مدهشًا عندما نضع في الاعتبار الاختلاف التام لأصولها - من حيث السياق ومناهج البحث والمنظور.

يمكن تسمية هذه البروباجاندا أفقية لأنها صُنعت داخل الجماعة (وليس من فوق)، حيث تتساوى الرؤوس في الأساس وليس هناك قائد. ويتواصل الفرد مع

الآخرين على نفس المستوى وليس مع قائد؛ وبالتالي تسعى مثل هذه البروباجاندا دائمًا وراء "الالتزام الواعي." ويُقدم محتواها بشكل تعليمي يخاطب العقل.

أما القائد – مروج البروباجاندا – موجود فقط كمصمم الحركات أو قائد المناقشة؛ وأحيانًا لا يعرف الناس هويته أو حتى أنه موجود. مثلًا، "الكاتب الشبح" في جماعات أمريكية معينة أو "الجاسوس الشرطي" في الجماعات الصينية. فالتزام الفرد تجاه جماعته فعل "واع" لأنه يدركه، ولكنه فعل لا إرادي في نهاية المطاف إذ إنه محصور في الجدلية وفي الجماعة التي تقوده دائمًا إلى هذا الالتزام.

وهذا الالتزام "فكري" كذلك لأن الفرد يستطيع أن يعبر عن قناعاته بوضوح وبطريقة منطقية، لكنه غير صادق لأن المنطق والبيانات والمعلومات التي أدت به إلى الالتزام نحو الجماعة قد حُرّفت عمدًا لكي تقوده إلى ذلك.

ولكن، السمة الأبرز للبروباجاندا الأفقية هي المجموعات الصغيرة حيث يشارك الفرد في حياة هذه المجموعة مشاركة فعالة كما يشارك في حوار حقيقي وحيوي. ففي الصين، تُراقَب المجموعة مراقبة دقيقة للتأكد من أن كل فرد فيها يتكلم ويعبر نفسه ويشارك بآرائه. فقط في سياق الكلام، سوف يكتشف الفرد شيئًا فشيء قناعاته الحقيقية (التي يحملها أفراد المجموعة الآخرون) وبذلك ينخرط في المجموعة انخراطًا لا رجعة فيه، ثم يساعد الآخرين على تشكيل آراءهم (التي تتطابق مع آراءه).

فكل الفرد يساعد على تشكيل رأي المجموعة، ولكن المجموعة تساعد كل الفرد على اكتشاف الطريق الصحيح لأنه – بأعجوبة – دائمًا الطريق الصحيح والحل المتوقع والمعتقد السليم والذي سيُكتَشَف في النهاية.

يقع كل المشاركين على قدم المساواة. فالاجتماعات حميمية والمناقشات غير رسمية وليس هناك قائد ليترأس عليهم. التقدم بطيء؛ فيجب أن تُعقَد الكثير من الاجتماعات، وكل اجتماع يستدعي أنشطة أقيمت من قبل حتى تتشكل تجارب مشتركة بين هؤلاء المشاركين. ولكي يكون هناك التزامًا طوعيًا بدلًا من الالتزام الميكانيكي ولكي "يجد" الفرد الحل بنفسه بدلًا من أن يُفرض عليه من فوق، يجب

استخدام منهج متطور للغاية - وهذا سيكون أكثر فعالية وإلزامًا من الفعل الميكانيكي للبروباجاندا العمودية. يسهل التلاعب بالفرد عندما يتحول إلى كيان ميكانيكي، ولكن ما هو أصعب وأكثر دقة هو أن نضعه في موقف يبدو فيه أن عنده حرية الاختيار وفي نفس الوقت نأخذ ما نتوقعه منه.

تحتاج البروباجاندا العمودية جهازًا ضخمًا من وسائل الإعلام الجماهيرية؛ أما البروباجاندا الأفقية فتحتاج منظومة كبيرة من الناس. يجب إدخال الفرد في المجموعة بكل كيانه، وإن أمكن في مجموعات متعددة ذات أفعال متقاربة. فيجب أن تكون المجموعات متجانسة ومتخصصة وصغيرة: يتراوح العدد الأمثل لأفراد المجموعة بين خمسة عشر وعشرين كي يفسح المجال لمشاركة نشطة مِن قِبَل كل فرد في المجموعة. يجب أن تتألف المجموعة من أفراد من نفس الجنس والطبقة والعمر والبيئة. وبعد ذلك، يمكن تسوية معظم الخلافات بين أفراد المجموعة والقضاء على العوامل التي يمكن أن تشتت الانتباه وتهبط الدوافع وتعوق المسار السليم للمجموعة.

ومن ثم، هناك حاجة لعدد كبير جدًّا من المجموعات (هناك ملايين منها في الصين)، وكذلك هناك حاجة إلى كثير من القادة لهذه المجموعات. هذه هي المشكلة الرئيسية لأنه (وفقًا لقاعدة (ماو)) إذا كان على كل فرد أن يكون مروجًا للبروباجاندا للجميع، سيصح أيضًا القول إنه يجب أن يكون هناك حاجة لرجال ليقوموا بالتواصل بين السلطات وهذه المجموعات. يجب أن يندمج مثل هذا النوع من الرجال أنفسهم في المجموعة وأن يكونوا راسخين فيها وأوفياء لها وأن يكون لهم أثر الاستقرار والديمومة على المجموعة. فعليهم أن يكونوا أعضاء في جهة سياسية مندمجة - الحزب الشيوعي في هذا الحالة.

تحتاج البروباجاندا على هذه الشاكلة إلى شرطين: قبل كل شيء، تحتاج إلى انقطاع في الاتصال بين المجموعات. فلا يجب أن ينتمي عضو في مجموعة صغيرة إلى مجموعات أخرى يمكن أن يتعرض فيها لتأثيرات أخرى والتي ستعطيه الفرصة لإيجاد نفسه مرة ثانية، وعندها سيجد القوة لمقاومتها. ولهذا السبب أصر الشيوعيون الصينيون على تفكيك المجموعات التقليدية مثل العائلة التي تمثل

عقبة هائلة أمام هذا النوع من البروباجاندا إذ إنها مجموعة خاصة ومتنوعة (تختلف في العمر والجنس والوظيفة). كان هناك ضرورة لتفكيك العائلة في الصين، والتي ما زالت فيها العائلة قويّة جدًّا. تختلف المشكلة اختلافًا كبيرًا في الولايات المتحدة والمجتمعات الغربية؛ فهناك يتسم النظام الاجتماعي بالمرونة والتفكك مما لا يجعلها عائقًا. ليس ضروريًّا أن تتفكك العائلة لكي تصنع مجموعة حيوية وفعالة بشكل كامل: فالعائلة مفككة بالفعل، ولم يعد لها قوة لتحيط بالفرد، ولم يعد لها مكان تتشكل فيه أو يمتد فيه جذورها. فالمجال مفتوح لتأثير المجموعات الصغيرة.

الشرط الآخر للبروباجاندا الأفقية هو الهوية بين البروباجاندا والتعليم. فالمجموعة الصغيرة هي مركز للتعليم الأخلاقي والفكري والنفساني والمدني الكامل (المعلومات، والتوثيق، والتلقين)، ولكنها أساسًا مجموعة سياسية، وكل شيء تقوم به يتعلق بالسياسة. ليس للتعليم أي معنى إلا فيما يتعلق بالسياسة. وينطبق ذلك على المجموعات الأمريكية رغم أن الأمر يبدو عكس ذلك. ولكن، من الضروري أن نفهم لفظ "السياسة" بمعناه الأوسع. كان التعليم السياسي الذي قدمه (ماو) على مستوى التلقين - الأكثر فعالية بين المجموعات الصغيرة. يتعلم الفرد معنى أن يكون فردًا في المجتمع الشيوعي. ومع أن العامل الشفوي (مبادئ التعلم الأساسية للشيوعية الماركسية) مهم، يسعى مروج البروباجاندا بالمقام الأول إلى ترسيخ سلوك جديد في أعضاء المجموعة وإلى ترسيخ معتقد في النوع البشري الذي يرغب في خلقه وإلى تأسيس قناة اتصال بين أعضاء المجموعة والواقع من خلال التجربة الجماعية. وبهذا المعنى، فإن التعليم كامل تمامًا - مع تنسيق كامل بين ما تعلمه الفرد "فكريًّا" وما "عاشه" عمليًّا.

ومن الجلي أنه لا يمكن أن يكون هناك "تعليمًا" سياسيًّا في المجموعات الأمريكية. كل الأمريكيين بالفعل يعرفون المبادئ العظيمة ومؤسسات الديمقراطية. ولكن، هذه المجموعات سياسية: تعليمها بالتحديد يتسم بالديمقراطية، بمعنى أن الأفراد يُدَرَّسون كيف يتصرفون ويتخذون مواقف كأعضاء في النظام الديموقراطي. هذا فعلًا تعليمٌ مدنيٌّ - تعليم شامل يخاطب الشخص ككل.

تعد هذه المجموعات وسيلة للتعليم، ولكن مثل هذا التعليم ليس إلا عنصرًا واحدًا من عناصر البروباجاندا التي تهدف إلى تحقيق التزام تجاه المجتمع ومبادئه وأيديولوجِيته وأساطيره - وإلى السلوك المطلوب من قِبَل السلطات. المجموعات الصغيرة مكان مختار لهذا التعليم النشط، وعندما يستخدم النظام السياسي البروباجاندا الأفقية، لا يسمح بأي نوع أو أسلوب أو شكل غير ذلك. لقد رأينا بالفعل أن أهمية هذه المجموعات الصغيرة تتطلب تفكيك مجموعات أخرى، مثل الأسرة. وينبغي لنا أن نفهم الآن أن التعليم المقدم في المجموعات السياسية الصغيرة يتطلب إما اختفاء التعليم الأكاديمي وإما دمجه في النظام.

في كتاب "رجل التنظيم"[1] أوضح (وليام أتش وايت) كيف باتت المدرسة الأمريكية آلية بسيطة أكثر فأكثر تكيِّف الأطفال في المجتمع الأمريكي. أمّا بالنسبة إلى المدرسة الصينية، فهي مجرد نظام بروباجاندا منوط بتلقين الأطفال معايير مجتمعية بينما تعلمهم القراءة.

ولذلك يصعب صنع البروباجاندا الأفقية (خصوصًا لأنها تحتاج إلى معلمين كثيرين) ولكنها فعالة جدًّا من خلال تطويقها الدقيق لكل الناس، وذلك عبر المشاركة الفعالة من قِبَل كل الناس الموجودين، ومن شهاداتهم العلنية بالالتزام.

من الغريب أن النظام يبدو كأنه يتماشى بامتياز مع المجتمعات القائمة على المساواة والتي تدعي أنها مؤسسة على إرادة الشعب وتسمي نفسها ديمقراطية: تتكون كل مجموعة من أشخاص متشابهين - ويمكن بالفعل تشكيل إرادة مجموعة من هذا النوع. ولكن، في نهاية الأمر، كل هذا أكثر صرامة وشمولية من البروباجاندا المتفجرة. وبفضل هذا النظام، قد نجح (ماو) في الانتقال من بروباجاندا التقويض الثقافي إلى البروباجاندا الاندماجية.

---

(1) Whyte H., William. *The Organization Man.*

البروباجاندا العقلانية والبروباجاندا غير العقلانية

تستم البروباجاندا بطبيعة غير عقلانية، وما زالت هذه حقيقة راسخة ومعروفة. كثيرًا ما يتم التفريق بين البروباجاندا والمعلومات: تخاطب المعلومات المنطق والخبرة - تقدم حقائق؛ أما البروباجاندا فتخاطب المشاعر والشغف - فهي غير عقلانية.

بالطبع، هناك صحيح إلى حد ما، ولكن الواقع ليس بهذه البساطة لأن هناك شيء مثل البروباجاندا العقلانية كما أن هناك الإعلانات العقلانية. الإعلانات عن السيارات أو الأجهزة الكهربائية تستند عمومًا إلى أوصاف تقنية أو أداء ثبت نجاحه - أُستخدمت الملامح العقلانية لأغراض إعلانية.

وبالمثل، هناك بروباجاندا تستند استنادًا تامًّا إلى الحقائق والإحصاءات والأفكار الاقتصادية. تأسست البروباجاندا السوفياتية، خصوصًا منذ 1950م، على التقدم العلمي والتطور الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي والذي لا يمكن دحضه ؛ ولكنها ما زالت بروباجاندا لأنها تستخدم هذه الحقائق لتُظهر تفوّق النظام السوفيتي *على نحو منطقي* ولتطلب الدعم الجميع.

لقد لوحظ كثيرًا في وقت الحروب أن البروباجاندا الناجحة تقوم مباشرةً على حقائق جلية: بمجرد أن يتكبد جيش العدو هزيمة فإنه من المعقول أن يناشد الجيش المنتصر جنود الجيش المنهزم أن يستسلموا. عندما تتضح اليد العليا بين جيشين متحاربين، تعتبر المطالبة بالاستسلام مطالبة بإعمال العقل.

ومن نفس المنطلق، بروباجاندا العظمة الفرنسية منذ 1958م كانت بروباجاندا عقلانية تستند إلى حقائق؛ فالفيلم الفرنسي بالأخص يركز تركيزًا شبه كامل على النجاحات التكنولوجية الفرنسية. فيلم *الجزائر الفرنسية* فيلم اقتصادي مُثقَل بالجغرافيا الاقتصادية والإحصاءات، وبالرغم من ذلك، يظل بروباجاندا. وتمارس شتى الأنظمة السياسية مثل هذا النوع من البروباجاندا العقلانية. ارتكز التعليم الذي قدمه (ماو) في الصين على براهين شبه عقلانية، ولكنها فعالة لهؤلاء الذين ينتبهون إليها ويقبلونها. ومن باب الحرص على الصدق والإيمان الراسخ

بالديمقراطية، تحاول البروباجاندا الأمريكية أيضًا أن تكون عقلانية وقائمة على الحقائق. تعد نشرات الأخبار الأمريكية مثالًا نموذجيًا على البروباجاندا العقلانية التي تقوم على "المعرفة" والمعلومات. فليس هناك أي شيء يشبه هذه النشرات الأمريكية أكثر من منشور "نقد جمهورية ألمانيا الديمقراطية" الذي اتبع نفس أسلوب البروباجاندا. ويمكننا أن نقول إنه كلما نحرز تقدمًا، تصير البروباجاندا عقلانية وتستند إلى حجج جادة وإلى نشر المعرفة ونشر معلومات وأرقام وإحصاءات.[1]

تتلاشى البروباجاندا الحماسية والعاطفية الخالصة. وحتى هذه النوع من البروباجاندا يشتمل على ملامح من الحقيقة: لطالما تضمنت خطابات (هتلر) الأكثر تحريضًا على الغضب بعض الحقائق التي شكلت قاعدة أو ذريعة ما. غير معتاد في الوقت الراهن أن تجد بروباجاندا هائجة لا تنطوي إلا على ادعاءات دون أي علاقة بالواقع. ما زالت تتواجد في البروباجاندا المصرية، وظهرت في يوليو/ تموز 1960م في حملة (لومومبا) في الكونجو البلجيكية. أما الآن، فقد فقدت هذه البروباجاندا مصداقيتها، ولكنها ما زالت قادرة على الإقناع ودائمًا تثير المشاعر.

يحتاج الإنسان المعاصر إلى علاقة مع الحقائق وتبرير الذات لكي يقنع نفسه أنه – عندما يتصرف بطريقة ما – يُذعن للمنطق وللتجارب المثبتة. ولذلك، علينا أن ندرس العلاقة الوثيقة بين المعلومات والبروباجاندا. يتشابه محتوى البروباجاندا مع المعلومات أكثر وأكثر. وقد ثبت بوضوح أن نص البروباجاندا العنيفة الصادمة والمبالغ فيها يؤدي إلى إيمان ومشاركة أقل مما يؤدي إليه نص عقلاني "معرفي" عن نفس الموضوع. تُعَجِّل جرعة كبيرة من الخوف بتصرف فوري؛ وجرعة صغيرة تؤدي إلى دعم مستمر. تخور قوى المستمع النقدية إذا كانت رسالة البروباجاندا أكثر عقلانية وأقل عنفًا.

---

(1) في هذا الصدد، كان (إرنست كريس) و(ناثان ليتيس) على حق عندما ذكرا الفرق بين بروباجاندا 1914م وبروباجاندا 1940م، فالأخيرة كانت أكثر معرفية واتزانًا وأقل عاطفية وأخلاقية. وكما نقول بلغة اليوم، فهي تخاطب الوعي أكثر مما تخاطب الضمير.

ومن ثم، يميل محتوى البروباجاندا إلى العقلانية والواقعية. ولكن، هل هذا يكفي ليثبت أن البروباجاندا عقلانية؟ فضلًا عن المحتوى، هناك متلقّ لهذا المحتوى، الفرد الذي يتعرض لوابل من البروباجاندا أو المعلومات. عندما يقرأ الفرد إعلانًا تقنيًّا حقيقيًّا عن جهاز تلفاز أو محرّك سيارة جديد، وإن لم يكن ميكانيكيًّا أو كهربائيًّا، ما الذي سيتذكره؟ هل يمكنه أن يصف "المقحل" أو نوع جديد من "نظام تعليق الإطار"؟ بالطبع لا. تشكل كل تلك الأوصاف التقنية والتفاصيل الدقيقة صورة عامة في ذهنه - صورة ضبابية جدًّا، ولكنها ملوّنة بدرجة عالية – وعندما يتكلم عن المحرّك، سيقول: "إنه رائع!"

ينطبق هذا بالضبط على كل أنواع البروباجاندا المنطقية العقلانية القائمة على الحقائق. فبعد قراءة مقالة عن القمح في الولايات المتحدة أو الصلب في الاتحاد السوفيتي، هل سيتذكر القارئ الأرقام والإحصاءات؟ هل فهم النظم الاقتصادية؟ هل استوعب المنطق فيها؟ إذا لم يمتهن الاقتصاد، فلن يبقى في ذاكرته إلا الانطباع العام، والاعتقاد العام أن "هؤلاء الأمريكان (أو الروس) مذهلون... لهم طرائقهم...والتقدم مهم حقًّا" وهكذا. بصورة مشابه، بعد أن يترك دار العرض بعد مشاهدة فيلم مثل "الجزائر الفرنسية" سينسى كل الأرقام والدلائل المنطقية ولن يحتفظ إلا بشعور بالفخر المشروع بإنجازات فرنسا في الجزائر. بعد ذلك، ما يبقى مع الفرد المتأثر بالبروباجاندا هو صورة غير عقلانية تمامًا، وشعور عاطفي محض، أسطورة. فسينسى كل الحقائق والبيانات والمنطق ولن يبقى معه إلا الانطباع.

وهذا هو بالفعل ما يسعى إليه مروج البروباجاندا في نهاية المطاف لأن الفرد لن يشرع أبدًا في التصرف على أساس الحقائق أو ينخرط في تصرف عقلاني بحت. ما يجعله يتصرف هو الضغط العاطفي، رؤية المستقبل، الأسطورة. المسألة هي صناعة ردة فعل غير عقلانية على أساس عوامل عقلانية وواقعية. يجب أن تتغذى ردة الفعل هذه على الحقائق، ولا بد أن تثير البراهين المنطقية الدقيقة ذلك الاهتياج. وعليه، فتصبح البروباجاندا في ذاتها صادقة وصارمة ودقيقة، ولكن تأثيرها يظل غير عقلاني لأن الفرد يغير محتوياتها تلقائيًّا.

ونؤكد أن هذا لا ينطبق فقط على البروباجاندا ولكن المعلومات أيضًا. باستثناء المتخصصين، تعطي المعلومات للناس صورة عامة للعالم - حتى وإن قُدمت تقديمًا جيدًا جدًّا. وكثير من المعلومات المنشورة هذه الأيام - نتائج الأبحاث والحقائق والإحصاءات والتفسيرات والتحليلات - تقضي على الحكم الشخصي والقدرة على تشكيل الفرد لرأيه الشخصي بشكل حاسم أكثر مما تقدر عليه أنواع البروباجاندا المبالغ فيها. ربما يبدو هذا الزعم صادمًا لكنه حقيقة أن وابل من البيانات لا ينير عقل القارئ أو المستمع وإنما يغرقه. فهو لا يستطيع أن يتذكرها كلها ولا ينسقها ولا يفهمها. وإن لم يرد أن يخاطر بفقدان عقله، سيستخلص صورة عامة منها وليس أكثر. وكلما تلقى معلومات أكثر، أضحت الصورة أبسط. لو أعطينا شخصًا معلومة واحدة سيتذكرها، ولكن لو أعطيناه مئة من البيانات عن مجال واحد وعن أمر واحد، لن يكون عنده إلا صورة عامة عن هذا الأمر. ولكن، إذا أعطيناه مئة معلومة على كل الأمور السياسية والاقتصادية في البلد، فسيصل إلى حكم متسرع - "الروس رائعون!" وما إلى ذلك.

قدر كبير من المعلومات - أكثر بكثير مما يسمح للفرد بأن يصدر أحكامًا أو يشكل آراء - يمنعه من فعل ذلك ويشله في الحقيقة. فهو عالق في شبكة من الحقائق، وضروري أن يبقى على مستوى الحقائق التي أعطيت له. لا يمكنه أن يصدر حكمًا أو أن يتخذ قرارًا في اختيار ما في مجالات أخرى أو بشأن موضوعات أخرى. ومن ثم، تخلق آليات المعلومات الحالية نوعًا من التنويم المغناطيسي في الفرد الذي لا يستطيع أن يخرج من المجال الذي رسمته له المعلومات. وفي النهاية، لن يشكل رأيه إلا على أساس الحقائق التي نُقلت إليه، وليس على أساس قراره وتجربته الشخصية. وكلما تتطور تقنيات نشر المعلومات، تشكل مثل هذه المعلومات الفرد. ليس صحيحًا أنه قادر على الاختيار بحرية فيما يتعلق بما قُدّم إليه على أنه الحقيقة. وبالتالي، لأنّ البروباجاندا العقلانية تخلق وضعًا غير عقلاني، تظل بروباجاندا أكثر من أي شيء آخر - أي السيطرة الداخلية على الفرد بواسطة القوة الاجتماعية - بمعنى أنها تحرمه من نفسه.

الفصل

الثاني

2

شروط وجود البروباجاندا

لماذا وكيف تنشأ البروباجاندا؟

لقد أشرنا إلى أن البروباجاندا الآن ليست مثلما كانت في الماضي وأن طبيعتها تغيرت. لقد قلنا كذلك إنّه لا يمكن للفرد أن يصنع أي بروباجاندا في أي مكان أو في أي وقت أو بأي طريقة. وبدون بيئة معينة، لا يمكن أن تنشأ البروباجاندا. فلا يمكن لظاهرة البروباجاندا أن تظهر أو تنمو إلا في ظل شروط بعينها. الأمثلة الأوضح على هذه الشروط هي الشروط التاريخية الخالصة أو الشروط العرضية. باستثناء هذه، من الجلي مثلًا أن نشوء البروباجاندا يرتبط بعدد من الاكتشافات العلمية.

لا يمكن أن تنشأ البروباجاندا الحديثة بدون وسائل الإعلام - الاختراعات التي صنعت الصحافة والإذاعة والتلفاز والأفلام أو الاختراعات التي صنعت وسائل النقل الحديثة والتي سمحت لحشود من الناس المتنوعين من كل مكان للتجمع بسهولة وفي أحيان كثيرة. لم تعد اجتماعات البروباجاندا المعاصرة ترتبط بالاجتماعات في الماضي مثل "المنتدى الروماني" أو "الأجورا" القديمة في أثينا. ثم أن هناك بحثًا علميًّا في كل المجالات الأخرى - مثل علم النفس وعلم الاجتماع. لولا اكتشافات نصف القرن الماضي على يد علماء "ما أرادوا هذا قط"

فلم تكن البروباجاندا لتنشأ أبدًا. فنتائج أبحاث علم النفس الاجتماعي وعلم نفس العمق وعلم السلوكية وعلم اجتماع الجماعات وعلم اجتماع الرأي العام - كلها كانت أساس عمل مروج البروباجاندا.

بشكل آخر، كان للظروف السياسية أيضًا تأثير وأسباب مباشرة لتطوير البروباجاندا الجماهيرية. الحرب العالمية الأولى، والثورة الروسية في 1917م، وثورة (هتلر) في 1933م، والحرب العالمية الثانية، وتوابع تطور الحروب الثورية منذ 1944م في الصين، والهند الصينية الفرنسية، والجزائر، فضلًا عن الحرب الباردة - كلها كانت خطوة نحو تطور البروباجاندا الحديثة. مع كل من هذه الأحداث، تطورت البروباجاندا أكثر، وزادت في العمق، واكتشفت طرائق جديدة. وفي نفس الوقت، استولت على أمم جديدة وأراض جديدة: للنيل من العدو، يجب استخدام الأسلحة المتاحة - فهذه الحجة التي لا يمكن دحضها تعتبر أساس التطور المنهجي للبروباجاندا. وأصبحت البروباجاندا بهذه الطريقة سمة دائمة للأمم التي في الواقع تحتقر البروباجاندا مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا.

دعونا نشير أيضًا إلى تأثير العقائد والأفراد. من الواضح أن عقيدة معينة يمكن أن تجعل من بروباجاندا مركزًا للحياة السياسية، وجوهر السلوك السياسي،

بدلاً من مجرد كماليات أو أداة ثانوية ومريبة جدًّا. كان المذهب اللينيني كما أسسه (ماو) عقيدة للبروباجاندا والتصرف الذي يعبر عنه، كما أنه يرتبط بالماركسية ارتباطًا أبديًا. ومع انتشار اللينينية، تتطور البروباجاندا معها - بالضرورة وليس طوعيًا. فضلًا عن ذلك، أشخاص بعينهم قد ساعدوا على تطور البروباجاندا إلى درجة كبيرة: (هتلر) و(جوبلز) مثلًا كانا عبقريان في ذلك ولكن، دور رجال مثل هؤلاء لن يكون حاسمًا أبدًا. فهم لا يخترعوا البروباجاندا - فهي لم تنشأ لأنهم أرادوا ذلك. فهم ليسوا إلا منتجين ومخرجين ومحفّزين يستفيدون من التقاء ظروف مواتية. كل هذا معروف جيدًا وواضح إلى حد لا يجب الإسهاب فيه.

ولكن مجموعة من شروط معينة لا تكفي لتفسير تطور البروباجاندا. فالشروط الاجتماعية الشاملة في المجتمع يجب أن توفر بيئة ملائمة حتى تنجح البروباجاندا.[1]

---

(1) سيكون لنفس العوامل المؤثرة وزن وفعالية متباينة في سياقات مختلفة. لا يمكن للإعلام الذي يوظفه مروجو البروباجاندا أن يعمل إلا في بناء اجتماعي معين. يعد هذا التأثير المتبادل للبروباجاندا والبناء الاجتماعي بالضبط أحد القضايا التي تحتاج أن تُدرس.

أصاب (إرنست كريس) و(ناثان ليتيس) عندما قالا إن الاستجابات العامة لتأثير البروباجاندا قد تغيرت في العقود القليلة الماضية، وإن هذا التغير قد أتى كنتيجة لتيارات في الظروف الاجتماعية والنفسانية لحياة القرن العشرين.

1. الشروط الاجتماعية

المجتمع الفردي والمجتمع الجماهيري

حتى تنجح البروباجاندا، أولًا يجب أن يتسم المجتمع بسمتين متكاملتين: يجب أن يكون مجتمعًا فرديًا وجماهيريًا. كثيرًا ما تعتبر هاتان الصفتان متناقضتين. فهناك اعتقاد أنّ المجتمع الفردي، حيث يسود الاعتقاد أن للفرد قيمة أعلى من المجموعة، يميل إلى تدمير المجموعات التي تحد من نطاق عمل الفرد، بينما ينفي المجتمع الجماهيري الفرد ويحوله إلى لا شيء.

ولكن هذا التناقض نظري تمامًا ووهم. في الواقع الفعلي، لا بد أن يكون المجتمع الفردي مجتمعًا جماهيريًا، لأنّ الخطوة الأولى نحو تحرير الفرد هي فك المجموعات الصغيرة التي تشكل حقيقة عضوية للمجتمع بأكمله. في هذه العملية، يحرر الفرد نفسه تمامًا من العائلة، أو القرية، أو الأسقفية، أو الروابط الأخوية - ليجد نفسه في مواجهة مباشرة مع المجتمع بأكمله.

عندما لا يرتبط الأفراد ببعضهم البعض بواسطة أنظمة محلية، لن يمكنهم العيش معًا إلا في مجتمع جماهيري بلا بنية. وكذلك لا يمكن للمجتمع الجماهيري أن يرتكز إلا على الأفراد - بمعنى أنه يرتكز على الناس في عزلتهم، حيث تتحدد هوياتهم من خلال علاقاتهم مع بعضهم البعض. وبالتحديد لأنّ الفرد يزعم أنه متساو مع كل الأفراد الآخرين، يصير تجريدًا وبالفعل يُختزل إلى لا شيء.

حالما تتشكل تجمعات عضوية محلية، يميل المجتمع إلى التوقف عن كونه فرديًا، وبذلك يفقد خاصيته الجماهيرية أيضًا. وبعد ذلك، تتشكل مجموعات عضوية من النخبة في ثنايا ما تبقى من المجتمع الجماهيري الذي، مع ذلك، يعتمد على إطار الأحزاب السياسية المركزية ذات التنظيم الراسخ والنقابات وغيرها.

لا تصل هذه التنظيمات إلا إلى أقلية نشيطة، ويتوقف أعضاء هذه الأقلية عن كونهم فرديين باندماجهم في مثل هذه المجموعات العضوية. من هذا المنظور، فإن

المجتمع الفردي والمجتمع الجماهيري جانبان لازمان للواقع ذاته. ويتوافق هذا مع ما قلناه عن الإعلام الجماهيري: يلزم السيطرة على الفرد والحشد في نفس الوقت لأداء وظيفة تتعلق بالروباجاندا.

لا يمكن للبروباجاندا أن تكون فعالةً إلا في المجتمع الفردي - وهنا لا نقصد الفردية النظرية من القرن التاسع عشر، وإنما الفردية الأصيلة لمجتمعنا. وبالطبع، الاثنان ليسا متناقضين مئة بالمئة. عندما ننسب القيمة الكبرى للفرد، فالنتيجة النهائية ستكون مجتمع يتكون في جوهره من الأفراد، وبالتالي مجتمع غير مندمج.

ولكن، مع أنّ النظرية والواقع ليسا متناقضين مئة بالمئة، فهناك فرق شاسع بينهما على أي حال. للفرد قيمة عالية في *النظرية* الفردية؛ فالإنسان نفسه يسيطر على حياته؛ وفي *الواقع* الفردي، كل إنسان معرض لقوى ومؤثرات لا تُحصى، وفي هذه الحالة لن يكون الإنسان مسيطرًا على حياته على الإطلاق. وما دامت هناك مجموعات قوية البنية، فإن هؤلاء المندمجين داخلها معرضين لهذه القوى والمؤثرات التي - في الوقت ذاته - تحميهم من المؤثرات الخارجية مثل البروباجاندا.

ليس ممكنًا أن يتأثر الفرد بقوى مثل البروباجاندا إلا عندما تنقطع عضويته في المجموعات المحلية التي لا يمكن للبروباجاندا أن تخترقها بسهولة لأنّ مجموعات مثل هذه عضوية ولها حياة مادية وروحية وعاطفية ومنظمة تنظيم جيد. مثلًا، صار أصعب اليوم للبروباجاندا الخارجية أن تؤثر على جندي مندمج في مجموعة عسكرية، أو أن توثر على عضو متشدد في حزب متجانس، من أن تؤثر على نفس الشخص عندما يكون مجرد مواطن عادي. وكذلك ليست المجموعة العضوية عرضة *للعدوى* النفسانية التي تعد في غاية الأهمية لنجاح البروباجاندا الجماهيرية.

فيمكننا القول بصورة عامة إنّ المجتمع الفردي للقرن التاسع عشر نشأ من خلال تفكك مثل هذه المجموعات صغيرة كالعائلة أو الكنيسة. وبمجرد أن تفقد هذه المجموعات أهميتها، يُترك الفرد معزولًا جدًا. فينغمس في بيئة جديدة، مدنية

بشكل عام، وبذلك "يُقتلع من جذوره." لم يعد له مكانًا تقليديًا يعيش فيه؛ لم يعد مرتبطًا بمكان ثابت - ولا مرتبطًا تاريخيًا بأسلافه. وبالتالي، لا يمكن للإنسان المُقتلع سوى أن يكون جزءًا من الحشد. فهو وحده، والتفكير الفردي يطلب منه أن يفعل شيئًا لم يُطلب منه أن يفعله من قبل: وهو أن يصير، الفرد، معيارًا لكل الأشياء.

فيبدأ في الحكم على كل شيء بنفسه. وبالفعل يجب أن يصدر أحكامه الخاصة. فيعتمد اعتمادًا كاملًا على موارده الخاصة، ولا يجد المعايير إلا في نفسه. من الواضح أنه مسؤول عن قراراته، الشخصية والاجتماعية. ويصبح البداية والنهاية لكل شيء. لم يكن قبله شيء؛ ولن يكون بعده شيء. أصبحت حياته المعيار الوحيد للعدالة والظلم، والخير والشر.

من الناحية النظرية، هذا رائع، ولكن في الواقع ما الذي يحدث بالفعل؟ فالفرد موضوع في موقف الأقلية، وفي نفس الوقت على كتفه المسؤولية الكاملة والثقيلة. مثل هذه الظروف تجعل المجتمع الفردي أرضًا خصبة للبروباجاندا المعاصرة. الحيرة الدائمة والحراك الاجتماعي وغياب الحماية الاجتماعية والإطارات المرجعية التقليدية - كلها توفر بيئة طيعة للبروباجاندا لا محالة - حيث يمكن تغذيتها بالمعلومات من الخارج وتكييفها في أي وقت.

الفرد الذي لا يتحكم به أحد عرضة للهجوم، وأكثر من ذلك لأنه ربما عالق في تيار اجتماعي وبذلك يصبح ضحية سهلة للبروباجاندا. فكان يتمتع بحماية جيدة من التأثيرات والعادات والاقتراحات الجماعية كعضو في مجموعة صغيرة. ولم يكن يتأثر نسبيًا بالتغيرات في المجتمع بوجه عام. فلم يكن ليطيع إلا إذا أطاعت مجموعته بأسرها. وهذا لا يعني أنه كان يتمتع بحرية أكثر، بل أن بيئته المحلية ومجموعته المقيدة هي التي كانت توجهه وتؤثر عليه، ولم يكن للمؤثرات الأيديولوجية الواسعة أو المحفزات النفسانية الجمعية إلا نصيب ضئيل في ذلك التوجيه والتأثير.

الخطأ الشائع كان الاعتقاد أنّ الفرد سيتحرر لو تحرر من المجموعات العضوية الصغيرة. لكن في واقع الأمر كان معرضًا لتأثيرات التيارات الجماهيرية وتأثير الدولة والاندماج المباشر في المجتمع الجماهيري. وأخيرًا، صار ضحية البروبوجاندا، فيتزعزع استقراره عندما يُقتلع من جذوره نفسانيًّا وماديًّا. على سبيل المثال، استقرار الفلاحين أحد أسباب عدم تأثر مجموعتهم نسبيًّا بالبروباجاندا. وأدرك (جوبلز) نفسه أنّه ليس ممكنًا الوصول إلى الفلاحين إلا إذا تشرذمت بيئتهم؛ والقاصي والداني يعرفون الصعوبات التي واجهها (لينين) عند دمج الفلاحين الروس في نمط الثورة.

إذًا هذا أحد الشروط الأولى لنمو البروبوجاندا الحديثة وتطورها: نشأت في غرب أوروبا في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ليس لشيء إلا أن المجتمع في تلك الفترة أضحى فرديًّا أكثر فأكثر وبنائه العضوي كان يتفكك.

ولكن، حتى تتطور البروباجاندا، على المجتمع أيضًا أن يكون مجتمعًا جماهيريًّا. فلا يمكنه أن يكون مجرد مجتمع مفكك أو منحل. ولا يمكنه أن يكون مجتمعًا على وشك الاختفاء، مع العلم أن المجموعات الصغيرة ربما تتفكك في هذا المجتمع أيضًا. المجتمع الذي يفضل تطور البروباجاندا يجب أن يكون مجتمعًا يحافظ على نفسه، ولكن في الوقت ذاته يتخذ بناءً جديدًا - بناء المجتمع الجماهيري.[1]

---

(1) من بين كتب تعد ولا تُحصى عن الجماهير، يظل كتاب José Ortega Gasset. *The Revolt of the Masses* معقولًا رغم انتقادات علماء اجتماع كثيرين. تصنيف (إلمو روبر) للمجموعات المؤثرة في الولايات المتحدة معروف جدًّا: نحو 90 بالمئة من السكان "خاملين سياسيًا" ولا ينشطون إلا بالصدفة عندما يدفعهم أحد للحركة، ولكن في الأوقات والظروف العادية، نجدهم "غافلين خاملين ويسهل التلاعب بهم في غياب قدرات نقدية" - السمات التي تشكل الجماهير. (Roper: "Who Tells the Storytellers?" *Saturday Review*، 31 يوليو/ تموز، 1954م) كل هذا الوقت، نناقش هذا النوع من الناس - رجل الجماهير - الرجل العادي.

نوقشت العلاقة بين الجماهير والحشود كثيرًا، واتضحت الفروق بين الجماهير وعملية تشكيل الجماهير. الأولى تجمع حشد مؤقت؛ أما الثانية فهي انخراط الأفراد في دورة اجتماعية دائمة. بالتأكيد، تجمع حشد في نقطةٍ ما ليس جماهير بالمعنى الصحيح للكلمة. فالمجتمع الجماهيري مجتمع فيه كثافة سكانية عالية وتنظيمات وأبنية محلية ضعيفة، وتيارات الرأي قوية، كما أن الناس يدخلون في جماعات كبيرة ومؤثرة، والفرد جزء من هذه الجماعات، وكذلك هناك وحدة نفسانية من نوع خاص. علاوة على ذلك، يتصف المجتمع الجماهيري باتساق الحياة المادية. بالرغم من الاختلافات في البيئة أو التدريب أو الوضع، فإن الناس في المجتمع الجماهيري عندهم نفس الانشغالات ونفس الاهتمام بالأمور التقنية ونفس المعتقدات الأسطورية ونفس التحيزات.[1] ربما يبدو الأفراد الذين يشكلون الجمهور - الذي يقع في قبضة البروباجاندا - أنهم متنوعين جدًّا، ولكن هناك أشياء مشتركة بينهم بما يكفي للبروباجاندا أن تؤثر عليهم تأثيرًا مباشرًا.

هناك بالفعل علاقة وثيقة بين الجمهور والحشد في المجتمع المعاصر لأن الحشود تستطيع أن تجتمع مرارًا وتكرارًا في المجتمع الجماهيري، بمعنى أن الفرد يتنقل باستمرار من حشدٍ إلى آخر - من حشد الشارع إلى حشد المصنع، أو من حشد المسرح أو حشد قطار الأنفاق أو حشد تجمّع في لقاء. وبالعكس، واقع انتماء الفرد إلى الحشود في حد ذاته يحوّل الفرد إلى رجل جماهيري أكثر فأكثر ومن ثم يغير في كيانه.

لا شك أن انتماء الفرد إلى المجتمع الجماهيري يغير في نفسيته، ويحدث هذا التغيير حتى وإن لم يكن هناك مناشدة من البروباجاندا إلى روح الحشد أو الجماعة. هذا الفرد الذي أنتجه المجتمع الجماهيري مستعد للمشاركة بدون تردد؛ فهو أكثر سذاجة ويسهل إقناعه وإثاراته والتأثير عليه. في مثل هذه الظروف، يمكن

---

(1) المجتمع الجماهيري منظم تنظيم قوي. لـ (جون ألبج) ملاحظة ثاقبة عن حتمية تلازم البروباجاندا مع نمو وتنظيم المجتمع.

للبروباجاندا التطور إلى أقصى حد. ولأن المجتمع الجماهيري تواجد في غرب أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فأصبحت البروباجاندا ممكنة وضرورية.

وتنبثق الملامح النفسانية التي تفضلها البروباجاندا من المجتمع الجماهيري: الرموز والصور النمطية. وبالطبع تتواجد هذه الملامح أيضًا في المجموعات الصغيرة وفي المجتمعات المحدودة، ولكنها تختلف من حيث النوع والعدد ودرجة التجريد. ففي المجتمع الجماهيري، تعتبر أكثر انفصالًا عن الواقع وأكثر قابلية للتلاعب وأكثر عددًا وأكثر عرضة لإثارة للأحاسيس القوية العابرة، وفي الوقت ذاته أقل أهمية وأقل تأصلًا في الحياة الشخصية.

لا تسمح الرموز في مجتمع بدائي باللعب الحر والمرن للبروباجاندا لأن هذه الرموز جامدة ومستقرة وقليلة العدد، وطبيعتها مختلفة أيضًا: كانت من أصل ديني في البداية، ثم تصبح سياسية (بالمعنى الواسع للكلمة). وأخيرًا، نجد في المجتمع الجماهيري التباعد الأقصى بين الآراء العامة والآراء الخاصة الكامنة، والتي إما تُكبت وإما يُقضى عليها تدريجيًا.

فالجماهير في المجتمعات المعاصرة قد جعلت البروباجاندا ممكنة؛ وبالفعل لا يمكن للبروباجاندا العمل إلا عندما تتأثر نفسية الإنسان بالحشد أو الجماهير التي ينتمي إليها. علاوة على ذلك، كما أشرنا، تعتمد وسائل نشر البروباجاندا على وجود الجماهير؛ ففي الولايات المتحدة تسمى هذه وسائل الإعلام الجماهيري للاتصالات لأسباب منطقية: بدون الحشد الذي يتلقى البروباجاندا وينقلها، يستحيل نشوء البروباجاندا.

وعلينا أيضًا أن نأخذ في الاعتبار أهمية الرأي العام في هذه الصلة. الرأي العام كما نفكر فيه حاليًا يتطلب مجتمعًا جماهيريًا. وبالفعل، في ظل وجود حافز أو فعل، يجب أن يكون هناك تبادل للآراء والتصرفات والتفاعلات - وهي الخطوات الأولى في تشكيل الرأي العام. ويلزم أيضًا أن يكون هناك وعي بالآراء

الموجودة والآراء الخاصة أو الآراء العامة غير المعلنة. وأخيرًا، يجب أن يُعاد النظر في القيم والمواقف، وحينها فقط سيكون هناك رأي عام متبلور.

من الواضح أن وجود علاقة وثيقة بين عدد كبير من الناس ضروري حتى تتم هذه العملية بأكملها. ونوع الرأي العام الذي نقصده هو النوع المستخدَم مِن قِبَل البروباجاندا وضروري لها - لا يمكن أن ينشأ في مجتمع يتألف من خمسين أو مئة شخص منعزلين عن العالم الخارجي (سواء كان ديرًا أو قرية من القرن الخامس عشر) أو في مجتمع يتسم بكثافة سكانية منخفضة جدًّا حيث تتباعد صلات الشخص مع الآخرين. الاجتماع مرة واحدة في الشهر في السوق مثلًا لا يسمح بالانتشار الواسع لوجهات النظر الشخصية - المطلوبة لتشكيل الرأي العام.

ومن ثم، لا يمكن للبروباجاندا أن تكون فعالة فعالية نفسانية واجتماعية إلا في ظل مزيج من الظواهر السكانية. الأولى هي الكثافة السكانية مع تواصل إنساني متكرر ومتنوع، وتبادل الآراء والتجارب، ومع أهمية كبيرة للشعور بالحميمة. الثانية هي التمركز الحضري (نتيجة للاختلاط بين الجماهير والحشد) الذي يعطي الجماهير خاصيتها النفسانية والاجتماعية. حينها فقط يمكن للبروباجاندا استخدام تأثيرات الحشد؛ وحينها فقط يمكنها الاستفادة من التغيرات النفسانية التي تنتجها الحياة الجمعية في الفرد، ولولا هذه التغيرات لا يمكن - من الناحية العملية - لأي نوع من أنواع البروباجاندا أن يلقى أي قبول. وعلاوة على ذلك، تجد أدوات البروباجاندا مصادرها الأولية للدعم في التمركز الحضري.

إن شراء جريدة أو مذياع أو الاستماع إلى البث فعل اجتماعي يفترض بناء جماهيري للمجتمع، أي خضوع كامل لواجبات معينة يشعر بها الفرد عندما يغوص وسط الجماهير الذين يرون قيمة في إتمام هذا الفعل الاجتماعي.

وفضلًا عن ذلك، يفترض الذهاب إلى السينما أو إلى اجتماع سياسي قرب

المسافة بين الناس ومن ثم وجود الجماهير المتمركزة. وبالفعل، لن يبذل منظم سياسي جهودًا ليجري اجتماعه إذا عرف أنّه يستطيع تجميع عشرة أو خمسة عشر شخصًا فقط؛ والأفراد لن يجيئوا بسهولة من مسافة شاسعة. ولأنّ الحضور المنتظم ضروري لتحقق آثار البروباجاندا خلال الاجتماعات والأفلام، فلا غنى عن الجماهير.

يعتبر "أثر الأغلبية،" وسيلة جوهرية للبروباجاندا ولا يمكن الإحساس به إلا في المجتمع الجماهيري. فمثلًا، الحجة أنّ "كل الفرنسيين يريدون السلام في الجزائر" أو من ناحية أخرى، "كل الفرنسيين يريدون التمسك بالجزائر" صحيحة فقط إذا مثّلت "كل الفرنسيين" واقع مباشر واسع النطاق. ومن ثم، فالمجتمع الجماهيري كان شرطًا أوليًّا لنشوء البروباجاندا. وبمجرد أن يتشكل المجتمع الجماهيري، يثير قوة البروباجاندا وآثارها.

مع إننا لن نتناول موضوع النفس الفردية، علينا أن نتذكر أنّ، بحسب كلمات (ستوتزل) العظيمة، "ظروف الحياة في المجتمعات الجماهيرية تميل إلى مضاعفة إحباطات الفرد. فتنتج علاقات مجردة ومتقطعة بين الناس...تفتقر إلى الحميمية افتقارًا تامًّا...ويمكن أن ترى في الفرد مشاعر عدم الأمان أو القلق وهي تنمو؛ ونتتبع التناقضات في بيئتنا - الصراعات بين المنافسة المقبولة اجتماعيًّا والوعظ عن الحب الأخوي، وبين التحفيز المستمر لاحتياجاتنا من خلال الإعلانات ومواردنا المحدودة، وبين حقوقنا القانونية وقيود الواقع."

تستجيب البروباجاندا إلى هذا الوضع استجابة نفسانية. ومعرفة أنّ البروباجاندا تخاطب الفرد بينما تؤثر على الجماهير تفسر، على سبيل المثال، الاتحاد بين أنواع البروباجاندا المتنوعة على ما يبدو - مثل البروباجاندا القائمة على مكانة الزعيم (البطل أو حتى الخبير) والبروباجاندا القائمة على مكانة الأغلبية. وطبعًا لكلا النوعين وظائف معينة عند ممارسة البروباجاندا. لكن، من المهم أن نؤكد هنا أنّ هذين النوعين لا يختلفان كثيرًا عن بعضهما البعض.

الزعيم أو الخبير الـذي يتمتـع بالـسلطة والمكانـة بـين الجماهـير هـو الرجـل الأنسب للتحدث للجماهير. وعلى الزعيم أن يعبر عن "الرجل العـادي." ويجـب على الزعيم أن يمثل تهذيب وضبط "الرجل العادي" فـلا يجـب أن يبـدو كأنـه ذا طباع مختلفة، ولا يجب أن يشعر الإنسان العادي أن الزعيم يتعـالى عليـه. ظهـرت سمة "الرجل العادي" لدى البطل (الممثل والطاغية والبطـل الريـاضي) عـلى مـر الثلاثين عام الأخيرة. وهذا ما شدد عليه (إي مورين) في دراسته عن تأليـه نجـوم الأفلام.

عندما يتبع الفرد الزعيم فهو بذلك فعلًا يتبع الجماهير، مجموعة الأغلبية التي يمثلها الزعيم تمثيلًا كاملًا. يفقد الزعيم كل قوته عندما ينفصل عـن مجموعتـه؛ لا يمكن لأي بروباجاندا أن تنبع من زعيم منعزل. فالنبي موسى ميت على مـستوى البروباجاندا؛ فكل ما بقي لنا هو شخص مثل "جونسون" أو "دي جول،" مجـرد من الخواص الشخصية ومغطى برداء الأغلبية.

قد يعترض البعض على هذا التحليل الذي يرى في تأسيس المجتمـع الفـردي والمجتمع الجماهيري متطلبًا أساسيًّا لتطور البروباجاندا، لأنّـه لا يمكـن للوسـائل الماديـة وإرادة الدولـة الاسـتبدادية أن تتـشكل إلا في ظـل هـذا المـزيج. يقـوم الاعتراض الأول على نشوء مجموعات محليـة عـضوية جديـدة في مجتمعنـا - عـلى سبيل المثال، الأحزاب السياسية والاتحادات العمالية التي تبدو متناقضة مع وجود البناء الفردي والبناء الجماهيري.

الرد على هذا هو، أولًا، أنّ مجموعات مثل هذه لا تزال بعيـدة عـن أن تـتحلى بالصلابة والمقاومة وبناء مجموعات عضوية قديمة. لم يكن لدى هذه المجموعـات الوقت لتعزيز نفسها. وليس علينا سوى أن ننظر إلى هشاشتها وتقلباتها وتغيراتها. فهذه المجموعات ليست فعلًا مجموعات مقاومة ضد التأثير الجماهيري، غـير أنّهـا -مثل حزب يـستبدل النمـوذج الـديمقراطي بـالنموذج المتجـانس - تحـاول أن تكون مقاومة عن طريق تبني بناءات سلطوية.

ثانيًا، لا يمكن لمجموعات جديدة مثل هذه أن تكون حواجز حقيقية أمام البروباجاندا الشاملة، ولكن يمكنها أن تقاوم نوع *واحد* بعينه من البروباجاندا إلا إنها لا تقاوم ظاهرة البروباجاندا بشكل عام، لأن تطور المجموعات يحدث بالتزامن مع تطور البروباجاندا. تتطور هذه المجموعات في ثنايا مجتمع تَعَرّض إلى البروباجاندا إلى أقصى حد؛ هذه المجموعات - في ذاتها - بؤر البروباجاندا؛ فهي أدوات البروباجاندا ومندمجة في تقنياتها.

لم نعد في وضع اجتماعي مماثل للوضع في المجتمعات التقليدية حيث كان هناك بالكاد أي بروباجاندا جماهيرية ولم يكن هناك أي شيء تقريبًا غير التأثيرات النفسانية المحلية. وعندما دخلت البروباجاندا بالفعل مجتمعات مثل هذه، لزم مناهضة المجموعات المحلية الموجودة ومحاولة التأثير عليها والتعديل فيها؛ وهذه المجموعات العضوية قاومت.

ونشهد الآن نشوء مجموعات عضوية يميل الأفراد فيها إلى الاندماج. لهذه المجموعات خصائص معينة من خصائص المجموعات العضوية القديمة، لكن ما يحدد حياتها الجمعية وحياتها الفكرية والعاطفية والروحانية هي البروباجاندا. ولم تعد هذه المجموعات تستطيع أن تصون نفسها بدون البروباجاندا. ولا تصبح مجموعات عضوية في المجتمع الجماهيري إلا إذا عرّضت نفسها للبروباجاندا وعملت كوكلاء لها.

قد تحول مجتمعنا تمامًا: عندما تركنا المرحلة الفردية الخالصة، التي سمحت بتطور البروباجاندا، وصلنا إلى مجتمع ما زال يمكن فيه لبناءات المجموعات الأولية أن تنشأ، ولكن تأسست فيه البروباجاندا الشاملة ولم تعد المجموعات قادرة على الانفصال عن هذا النوع من البروباجاندا. من الغريب أن نرى كيف تحاول المجموعات العضوية الباقية، مثل العائلة والكنيسة، العيش بالبروباجاندا مهما كلف الأمر: العائلات تحميها جمعيات عائلية، والكنائس تسعى إلى تبني

مناهج التأثير النفساني. فهي الآن النقيض ذاته للمجموعات العضوية القديمة. وفضلًا عن ذلك، تعد المجموعات الأولية الجديدة (مثل الأحزاب السياسية والنقابات) محطات إرسال الإشارة الضرورية لسير وتدفق البروباجاندا الشاملة؛ فيتم حشدها واستعمالها كأدوات، ومن ثم، لا تُقدّم أي نقطة ارتكاز للمقاومة الفردية. وعلى النقيض، يصبح الفرد المحاصر جاهزًا للبروباجاندا من خلال هذه المجموعات.

وتبادر إلى الذهن في الحال اعتراض آخر. قد تطورت البروباجاندا في مجتمعات لم تكن فردية ولا جماهيرية: المجتمع الروسي في 1917م، والصين الآن، والهند الصينية، والعالم العربي. لكن الفكرة هنا هي بالضبط أنّ البروباجاندا لم ولن تتمكن من حشد هذه المجتمعات أو السيطرة عليها أو التلاعب بها إلا عندما تتفسخ هياكلها التقليدية وعندما ينمو مجتمع جديد (فردي وجماهيري في آن واحد). وتبقى البروباجاندا غير مجدية إذا لم يتحقق ذلك. ومن ثم، إذا لم يتكون المجتمع الجديد تلقائيًا، ستشكله أحيانًا سطوة الدول الاستبدادية التي لن يمكنها أن تستغل البروباجاندا إلا في ذلك الحين.

ففي الاتحاد السوفيتي، كانت القوقاز وأذربيجان حضانة مروجي البروباجاندا في 1917م لأن عالمية المنطقة، وموجات النزوح السكاني الهائلة (الروسية والمسلمة) واقتلاع الناس من جذورهم وقوة أسطورة الوطنية تميل إلى تشكيل مجتمع جماهيري. في روسيا السوفياتية، تقدمت البروباجاندا بالتزامن مع دمار المجموعات العضوية القديمة وتأسيس المجتمع الجماهيري.[1]

---

(1) نعرف أيضًا أن تأسيس منظمة (مين-فيت) في الهند الصينية فتح المجال لهيكلة مجتمع إداري كامل يفرض نفسه على المجموعات التقليدية. (اللين-فيت) مع بنائه الهيكلي المركزي المستقل أثار انقسام جديد للمجموعات التقليدية من السكان - إغضاب العائلات والقرى والأحياء، والعصف بالأشكال القديمة حتى يندمج الأفراد في مجموعات جديدة. ويتم تصنيف الفرد حسب سنه وجنسه ووظيفته. وبذلك تنهار =

ونجد أن هذا أيضًا ينطبق على الصين الشيوعية التي حصلت في ثلاث سنوات، عن طريق العنف، على ما استغرق الاتحاد السوفيتي عشرين سنة ليحصل عليه، وهو ما حدث بشكل طبيعي في الغرب في 150 سنة: تأسيس الظروف الاجتماعية الخاصة ببيئة يمكن فيها للبروباجاندا أن تكون فعالة جدًّا.

ويبدو أنّ الحكومة الصينية فهمت تمامًا الحاجة إلى بناء مجتمع جديد. عندما تساءل الفرنسيون عما إذا كان ممكنًا تطبيق طرائق البروباجاندا (التي كانت قد نجحت في الهند الصينية) في الجزائر، واجهوا مشكلات من نفس النظام الاجتماعي.[1] فنجد في التحول السريع جدًّا والاضطراري والمنهجي لهذه المجتمعات تأكيدًا ملحوظًا لتحليلنا وهو ما يُظهر أنّ تشكيل معين للمجتمع مطلوب حتى تستطيع البروباجاندا أن تتطور.

= مجموعة العائلة، إذ إن الأطفال لا ينتمون إلى نفس المجموعة التي ينتمي إليها آباؤهم. وبذلك تنشأ كل مجموعة ككتلة متجانسة (نوعًا ما) من الأعضاء الذين لديهم نفس الاحتياجات والأذواق والأدوار، وبالتالي تستطيع البروباجاندا أن تسيطر بسهولة ويسر على الأفراد الذين أُجبروا على الدخول في هذه المجموعات المصطنعة. فمن الممكن أن يكون هناك جلسات للنقاش الموجه (الموضوعات المطروحة في مجموعات الشباب ستختلف من مجموعات البالغين) وجلسات النقد الذاتي (بعيدًا عن السيطرة الأبوية، يمكن للشباب أن يشاركوا في نقد ذاتي صادق ويسير). أخفقت البروباجاندا الفرنسية في الهند الصينية في جزء منها لأنها احترمت المجتمع التقليدي ومجموعاته الصغيرة المنظمة.

(1) محاولة جبهة التحرير الوطنية الجزائرية لمحاكاة حركة شمال فيتنام إلى جانب وضع مليون عربي في مخيمات إعادة التوطين على يد السلطات الفرنسية أدى إلى نفس التحول الاجتماعي (كل بدوره وبطرائقه الخاصة). أجريت هذه العمليات في نفس الوقت، وفي كلتا الحالتين قطعًا لم يغب عن البصر الرغبة لخلق أرض خصبة للبروباجاندا.

يجب أن نضيف إلى كل هذا مشكلة الرأي العام. وقد قلنا بالفعل إنه، من ناحية، لم تعد البروباجاندا مسألة خاصة بالرأي في المقام الأول، ومن ناحية أخرى، إنّ وجود رأي عام مرتبط بظهور مجتمع جماهيري.[1] ونود أن نؤكد هنا أنّ الرأي الذي تشكل في المجموعات الأولية، أو المجموعات الصغيرة، له سمات تختلف عن الرأي الموجود في المجتمعات الكبيرة.

ففي المجموعات الصغيرة - التي يتواصل فيها الأفراد تواصلًا مباشرًا - العلاقات مع الآخرين هي العلاقات السائدة، ويعتمد تشكيل الرأي العام على هذه العلاقات المباشرة. الرأي "الغالب" (وهو اسم على مسمى) هو الذي يحدد الرأي في هذه العلاقات وهو الذي يفرض نفسه على المجموعة بأسرها تلقائيًا. تؤدي العلاقات بين الأشخاص إلى رأي غالب لأنّ، أولًا، القيادة في مجموعات مثل هذه تظهر تلقائيًا. وكذلك يُستعان برأي المجموعة لتنظيم أوضاع معينة أو تجارب مشتركة تأتي بالاهتمامات المشتركة لكل الأفراد في المجموعة. وعلاوة على ذلك، بشكل عام، يتشابه المستوى الاجتماعي للأفراد في مجموعات من هذا النوع.

فالمجموعات الأولية من هذا النوع ديمقراطية بطبيعتها. وبالفعل، يتشكل الرأي بشكل مباشر لأن الأفراد على اتصال مباشر مع الفعاليات التي تتطلب مشاركتهم. وفور أن يتشكل الرأي، يعرفه الجميع ويعبرون عنه مباشرةً. ويعرف زعماء المجموعة رأي المجموعة ويأخذونه في الاعتبار؛ فقد ساهموا في تشكيله بدرجة كبيرة.

(1) كثيرًا ما تم تحليل الظروف التي في ظلها يتغير رأي مجموعة ما، فنحن نعلم مشكلة الغموض والآراء التي تستند إلى التحيزات والمظاهر التي تنهار بغتة، ومؤثرات الأغلبية وغيرها. أجريت الكثير من الدراسات المحدودة على مثل هذه الظروف، ولكن ليس لهذه الدراسات بذاتها قيمة عندما نأخذ في الاعتبار البيئة الخارجية للمجتمع الجماهيري.

لكن هذه المجموعات ليست ليبرالية على الإطلاق؛ فالأقليات ضمن هذه المجموعات تبدو كأجسام غريبة - لأن في علاقة مثل هذه، تُضْعِف المعارضة التواصل بين أفراد المجموعة. العقوبات عمومًا منتشرة لكنها فعالة. ليس هناك مساواة؛ والأعضاء يقبلون *القيادة*، وطبعًا تعترف المجموعات الصغيرة بالسلطات المؤسسة (رب العائلة على سبيل المثال). تلعب الشخصيات المسيطرة دورًا كبيرًا، وكثيرًا ما يتشكل رأي المجموعة على يد الأفراد المعروفين لكل أعضاء المجموعة الذين يقبلون سلطتهم.

من الواضح أنّ المجتمعات الثانوية أو الكبيرة لها طبيعة مختلفة تمامًا. في هذه المجتمعات (عمومًا المجتمعات التي بحثت فيها دراسات الرأي العام) لا يعرف الأفراد بعضهم بعضًا وليس بينهم أي اتصالات مباشرة. وعلاوة على ذلك، ليس هناك خبرة مباشرة مشتركة بينهم بشأن المشكلات التي يتعين عليهم أن يتخذوا قرارات بشأنها. لا تنشأ علاقات بين الأفراد، بل علاقات عامة فحسب - علاقات الفرد بالمجموعة ككل. وإلى حدٍ ما، الرأي الذي يسود على مجموعات مثل هذه سيكون رأي الأغلبية (وهذا لا يعني أن الرأي العام هو رأي الأغلبية).

في مجموعات من هذا النوع، يتسم تشكيل الرأي العام بتعقيد بالغ، وهناك الكثير من النظريات عن هذا الموضوع. على أي حال، للرأي العام ثلاث سمات. لا يمكن للرأي العام أن يشكل نفسه إلا في مجتمع فيه قنوات مؤسسية للمعلومات تعطي الناس الحقائق التي سيتخذون موقفًا بخصوصها.

ومن ثم، تتدخل بعض الخطوات بين الحقيقة والرأي. وما المعلومات التي تصل إلى الناس سوى معلومات غير مباشرة، ولكن لولاها لما كان هناك أي رأي على الإطلاق. وحيث إننا نتعامل مع معلومات نشرها وسطاء، لا يشكل الرأي نفسه عن طريق التواصل الشخصي البسيط. وهذه الأيام يعتمد الرأي إلى حد كبير على مثل هذه القنوات الوسيطة للمعلومات.

وخاصية ثانية للرأي العام هي أنّه لا يستطيع التعبير عن نفسه بشكل مباشر، بل من خلال قنوات فحسب. حتى الآن لا يمثل الرأي العام المتشكل أي شيء ولا يعبر عن نفسه تلقائيًا. سيعبر عن نفسه في الانتخابات (عندما يتفق الرأي الانتخابي مع الرأي العام)، من خلال الأحزاب السياسية، والجمعيات في الصحف، والاستفتاءات، إلخ. لكن كل هذا لا يكفي.

الخاصية الثالثة للرأي العام هي أنّ هذا الرأي يتشكل على يد عدد كبير جدًّا من الناس الذين لا يمكنهم أن يعيشوا نفس الحقيقة بنفس الطريقة، والذين يحكمون على هذه الحقيقة بمعايير مختلفة، ويتكلمون لغة مختلفة، وليس بينهم ثقافة مشتركة ولا مكانة اجتماعية مشتركة. عادةً يفرق بينهم كل شيء.

لا ينبغي لهم تشكيل الرأي العام، ولكنهم يفعلون ذلك. لا يمكن لهذا أن يحدث إلا عندما لا يطلع كل هؤلاء الناس على الحقائق، بل يطلعون فقط على الرموز التجريدية التي تعطي الحقائق شكلًا تقوم فيه الرموز بدور القاعدة للرأي العام.

يشكل الرأي العام نفسه حول المواقف والمشكلات النظرية التي لا ترتبط ارتباطًا واضحًا بالوضع الفعلي. والرموز الأكثر فعالية في تشكيل الرأي العام هي التي تبتعد كل البعد عن الواقع. ولذلك، يستند الرأي العام دائمًا إلى المشكلات التي لا تتشابه مع الواقع.

وقد أشرنا عدة مرات من قبل إلى أنّ المجموعات الأصلية الصغيرة تمثل عقبات في وجه البروباجاندا. بناء رأي المجموعات الأولية هذه يعارض التصرف خارج المجموعة (طبعًا، لا نسمي أفعال زعيم المجموعة بروباجاندا، لكن هذا لا يعني أنّ أعضاء المجموعة لا يتأثرون بالبروباجاندا؛ بل على العكس، قد ذكرنا بالفعل أنّهم يتأثرون بها).

ولأنّ التجربة المباشرة، والإدراك الفوري للحقائق والمشكلات، والتعارف الشخصي بين الأفراد ينشأ في مجموعة صغيرة، لا يمكن للبروباجاندا أن تعمل في مجموعة مثل هذه. لا يمكن للبروباجاندا أن تلعب دورها إلا في رأي يستقيه الفرد من الآخرين؛ وبالفعل، تقوم بلعب دورها باستمرار هناك.

حتى يشكل الرأي العام نفسه في مجموعات كبيرة، يجب أن تتوفر قنوات المعلومات والتلاعب بالرموز. وحيث ينشأ الرأي العام، تبلور البروباجاندا هذا الرأي من حالة ما قبل الوعي للفرد إلى حالة الوعي العام. ولا يمكن للبروباجاندا العمل إلا في المجموعات الثانوية التي يشكل فيها الرأي الثانوي نفسه. لكن علينا أن نتذكر أنّنا لا نستطيع أن نضع أي من هذين النوعين من المجموعات بجانب الآخر، لأنّ المجتمع الكامل أيضًا يتألف من مجموعات متعددة.

سينشب صراع بين الآراء الأولية والثانوية، وسيسود واحد على الآخر. ولا يمكن أن تنشأ البروباجاندا إلا في المجتمعات التي يسود فيها الرأي الذي يستقيه الفرد من الآخرين على الرأي الأولي بالتأكيد، وهذا الأخير يُختزل ويندفع نحو موقف الأقلية؛ ثم، عندما يجد الفرد نفسه بين نوعين متناقضين من الرأي، من الطبيعي أن يدرك الرأي العام. وهذا يتطابق مع ما قلناه عن المجتمع الجماهيري.

الإعلام الجماهيري

وفي النهاية، هناك شرط أساسي آخر للبروباجاندا. لقد صرحنا مرة أخرى أنه لا يمكن لرأي أن يشكل نفسه في مجتمعات كاملة إن لم يكن هناك إعلام جماهيري. وهذا واضح للعيان: لا يمكن للبروباجاندا الحديثة أن تنشأ بدون الإعلام الجماهيري. لكن يجب أن نشير إلى عامل مزدوج ضروري إذا كان الإعلام الجماهيري فعلًا في طريقه أن يكون من أدوات البروباجاندا لأنه لا يصبح أداة كهذه تلقائيًا أو تحت أي ظروف، وإنما يلزم خضوعه للتحكم المركزي من

ناحية، وتنوعه فيما يتعلق بمنتجاته من ناحية أخرى. عندما يغيب التحكم المركزي عن إنتاج الأفلام والصحافة والبث الإذاعي، تستحيل البروباجاندا. ما دام هناك عدد كبير من وكالات الأنباء المستقلة، ومنتجي نشرات الأخبار والجرائد المحلية المتنوعة، تستحيل البروباجاندا الواعية والمباشرة.

وهذا ليس لأنّ القارئ أو المشاهد يتمتع بحرية اختيار حقيقية - فهو لا يتمتع بها كما سنرى لاحقًا - ولكن لأنّه ليس هناك وسيلة واحدة من وسائل الإعلام قادرة بما يكفي على إحكام قبضتها على الفرد على الدوام وعبر كل القنوات. وعلى سبيل المثال وليس الحصر، للتأثيرات المحلية القوة الكافية لإضعاف الصحافة الوطنية العظيمة.

وحتى يصبح تنظيم البروباجاندا ممكنًا، يجب على الإعلام أن يكون مركزًا، وأن يكون عدد وكالات الأنباء محدودًا، وأن تخضع الصحافة إلى سيطرة واحدة، وأن يتأسس احتكار للإذاعة والأفلام. وسيظل التأثير أعظم إذا تركزت وسائل الإعلام المتنوعة في نفس الأيادي. عندما تمتد سيطرة احتكار صحيفة إلى الأفلام والإذاعة أيضًا، يمكن للبروباجاندا الاتجاه نحو الجماهير ويمكن أن يقع الفرد في قبضة شبكة الإعلام الواسعة.

عن طريق التركز في بعض الأيادي لعدد كبير من وسائل الإعلام، يمكن التمكن من تنسيق حقيقي، واستمرارية، وتطبيق المناهج العلمية للتأثير على الأفراد. يتمتع احتكار الدولة والاحتكار الخاص بنفس القدر من الفعالية. وحال مثل هذا ما زال في مرحلة التطور في الولايات المتحدة، وفرنسا، وألمانيا - هذه الحقيقة معروفة تمام المعرفة.

ينخفض عدد الصحف بينما يزداد عدد القراء. تزداد تكاليف الإنتاج باستمرار وتتطلب تركزًا أكبر؛ وتتقارب كل الإحصاءات في هذا الصدد. وهذا التركز نفسه يستمر في التسارع، فيجعل الوضع ملائمًا للبروباجاندا بشكل متزايد.

وطبعًا، لا يجب أن نستنتج من هذا أنه أن تركز الإعلام الجماهيري سيؤدي حتمًا إلى البروباجاندا. تركز من هذا النوع ليس إلا شرط لازم لها. لكن تركز الإعلام وحده لا يكفي؛ فمن الضروري أيضًا أنّ الفرد يصغي إليه. يبدو هذا كأنه حقيقة بديهية: لماذا تصدر صحيفة بهدف البروباجاندا إذا لم يشترها أحد؟

شراء الصحيفة والذهاب إلى السينما أفعال غير مهمة في حياة فرد؛ يفعلها بسهولة. لكن يجب أن يؤكد التليفزيون أو الإذاعة ما تلقاه الفرد؛ وهنا نجد مشكلة توزيع الأجهزة – على متلقي البروباجاندا هنا اتخاذ خطوة إيجابية جدًّا: يجب أن يشتري جهاز. لا يمكن للبروباجاندا أن تكون فعالة إلا إذا تم تركيب عدد كاف من الأجهزة. من الجلي أنه لا يجدي نفعًا أن تروج البروباجاندا عبر التلفاز إن لم يكن هناك ما يكفي من أجهزة التلفاز في المنازل. وهذا ما حدث في 1950م للبروباجاندا المتلفزة لمحطة صوت أمريكا والتي بُثت في بعض البلاد الشيوعية.

لكن أمر الحصول على جهاز يتطرق بنا إلى نقطة سنناقشها باستفاضة: *تواطؤ* متلقي البروباجاندا. إذا كان الفرد متلقي للبروباجاندا، هذا لأنه يريد ذلك، فهو جاهز أن يشتري صحيفة، وأن يذهب إلى السينما، ويدفع ثمن جهاز البث الإذاعي أو التلفاز. وبالطبع، فهو لا يشتري هذه الأجهزة حتى يتعرض للبروباجاندا – حوافزه أكثر تعقيدًا. ولكن، عندما يقوم بفعل هذه الأشياء يجب أن يدرك أنّه يفتح الباب للبروباجاندا ويعرّض نفسه لها.

عندما يعي ذلك، تتعاظم جاذبية امتلاك جهاز البث الإذاعي داخله أكثر من خوفه من البروباجاندا، فيقبل طوعًا أن يتلقى البروباجاندا. وينطبق هذا الكلام أكثر عندما يتم البث عن طريق مجموعة من أجهزة الاستقبال، كما حدث في البلاد الشيوعية. يتجمع المستمعون، مع إنّهم يعرفون أنّ ما هو يسمعونه هو بالضرورة بروباجاندا. لكنهم لا يمكنهم الفرار من جاذبية المذياع أو التنويم المغناطيسي للتلفاز.

الحقيقة أكثر إثارةً للدهشة فيما يتعلق بالصحف، فالقارئ يشتري الصحيفة التي يحبها ويرى فيها آرائه وأفكاره والتي تعبر عنه تعبيرًا جيدًا. هذه هي الصحيفة الوحيدة التي يريدها، ما يجعلنا نقول إنّه بالفعل يريد أن يتعرض للبروباجاندا. يريد أن يخضع لهذا التأثير وبالفعل يمارس اختياره في اتجاه البروباجاندا التي يرغب في تلقيها.

إذا وجد بالصدفة في "صحيفته" مقالًا لا يحبه أو رأي ينحرف قليلًا عن رأيه، يلغي اشتراكه. فلا يمكنه تحمل أي شيء لا يتفق معه. هذه هي فعلًا عقلية متلقي البروباجاندا، كما سنرى.

لا تدع أحد يقول: "هذا القارئ لا يخضع للبروباجاندا؛ أولًا، عنده أفكار وآراء كذا وكذا، ومن ثم يشتري الصحيفة التي تناسبه." حجة مثل هذه ساذجة، وتنفصل عن الواقع، وتقوم على المثالية الليبرالية. في الواقع، البروباجاندا لها أثر هنا، فما يحدث هو تقدم من رأي غامض منتشر من جانب القارئ إلى تعبير نشط ومثير وقوي عن هذا الرأي. فيتحول الإحساس أو الانطباع إلى حافز للفعل.

الأفكار المشوشة تتبلور، وتعزز الأساطير وردود الفعل المهيئة لدى القارئ إذا قرأ *تلك* الصحيفة. كل هذا من خصائص البروباجاندا. القارئ فعلًا خاضع للبروباجاندا، مع أنّها بروباجاندا من اختياره. لماذا دائمًا نقع في خطأ عدم رؤية أي شيء في البروباجاندا إلا أداة لتغيير الآراء؟ فالبروباجاندا أيضًا وسيلة لتعزيز الآراء، وتحويلها إلى تصرف ما. القارئ نفسه يستسلم لقبضة البروباجاندا التي يختارها.

وقد قلنا إنّ البروباجاندا مستحيلة ما لم يكن هناك حشد يمكن الوصول إليه وتحريكه. لكن الحقيقة الغريبة والملحوظة هي أنّ الإعلام الجماهيري فعلًا يخلق جمهوره الخاص؛ ومروج البروباجاندا لم يعد يحتاج إلى إثارة اهتمام الناس وقيادة المسيرة لجمع أتباع.

كل هذا يحدث حدوثًا تلقائيًا تامًا من خلال تأثيرات الإعلام الاتصالي الذي يتمتع بقوة الجذب ويسيطر على الأفراد بطريقة تحولهم إلى جماعة وحشد وجمهور. شراء جهاز التلفاز، مع أنه عمل فردي، يُدخل الفرد في هيكل الحشد النفساني والسلوكي. فيطيع الحوافز الجمعية عندما يشتريه، ومن خلال تصرفاته يفتح الباب للبروباجاندا. فلا يمكن للبروباجاندا الحديثة أن تعمل في المجتمع إن لم تحدث هذه العملية المزدوجة لتركز مصادر البروباجاندا والانتشار الواسع لمتلقيها.

2. الشروط الموضوعية للبروباجاندا الشاملة

الحاجة إلى مستوى المعيشة المتوسط.

كما أن هناك مجتمعات غير معرضة للبروباجاندا، هناك أفراد غير معرضون لها. وكما رأينا، على سبيل المثال، أنّ الأمر يتطلب أن يقرأ الفرد الصحيفة ويشتري جهاز المذياع أو التلفاز - فرد في مستوى معيشة معين.

لا يمكن للبروباجاندا الاندماجية الحديثة التأثير على الأفراد الذين يعيشون على هوامش حضارتنا أو أولئك الذين يعيشون في مستوى معيشة متدني. في البلاد الرأسمالية، الذين يعيشون في فقر مدقع ليس عندهم مذياع ولا تلفاز، ونادرًا ما يذهبون إلى السينما. لا يمكن للبروباجاندا الوصول إليهم. أما البلاد الشيوعية فتتعامل مع هذه المشكلة عن طريق الأجهزة الجماعية والأفلام المجانية. فحتى أفقر الفقراء يمكن للبروباجاندا الوصول إليهم.

لكن هناك عقبات أخرى تعرقل عمل البروباجاندا. لا يمكن للفقراء جدًّا أن يخضعوا للبروباجاندا الاندماجية لأنّ الهموم الآنية للحياة اليومية تستنزف كل قدراتهم وجهودهم. وللتأكيد، يمكن دفع الفقراء إلى التمرد، وإلى انفجار عنيف؛ ويمكنهم أن يتعرضوا للبروباجاندا التحريضية ويمكن إثارتهم لدرجة ارتكابهم السرقة والقتل. ولكن لا يمكن للبروباجاندا تدريبهم أو إبقائهم في قبضتها، والاستمرار في توجيههم والسيطرة عليهم.

لا يمكن للبروباجاندا الأكثر تقدمًا التأثير إلا على الفرد الذي لم يثقل الفقر كاهله، الفرد الذي يستطيع أن ينظر إلى الأشياء من مسافة معينة وألا يعبأ إلى حد معقول بقوت يومه، وبالتالي عنده فرصة ليهتم بأمور أكثر عمومية ويحشد جهوده لأغراض أبعد من مجرد كسب قوته. من المعروف أنّه في البلاد الغربية البروباجاندا فعالة بالأخص في الشريحة الأعلى من الطبقة العاملة والطبقات الوسطى. تواجه البروباجاندا صعوبات أكبر بكثير مع الطبقة الكادحة أو الفلاحين. وسنعود إلى هذا الموضوع.

كذلك علينا أن نتذكر أنّ البروباجاندا يجب أن تركز على الحشد الأكثر كثافة – ويجب أن تنظم حشد ضخم من الأفراد. هذه الأغلبية الكاسحة لا تتواجد بين الأثرياء جدًّا أو الفقراء جدًّا؛ ومن ثم، صُممت البروباجاندا لهؤلاء الذين قد وصلوا إلى مستوى معيشة متوسط. في البلاد الغربية، تخاطب البروباجاندا الحشد الكبير من الطبقة المتوسطة، والتي تمثل بذاتها قوة حقيقية.

لكن، قد نقول إنّ البروباجاندا في البلاد الفقيرة جدًّا مثل الهند أو الأوطان العربية تخاطب حشدًا آخر، الفقراء جدًّا، الفلاحين. حسنًا، القصد هنا هو أنّ هؤلاء الفقراء لا يستجيبون إلا قليلًا وببطء لأي بروباجاندا غير بروباجاندا الإثارة الخالصة. فالطلاب والتجار يستجيبون لها، أما الفقراء لا يستجيبون لها. هذا يفسر ضعف البروباجاندا في الهند ومصر لأنه يجب أن يكون لدى متلقي البروباجاندا مخزون من الأفكار وعدد من ردود الأفعال المهيئة حتى تكون البروباجاندا فعالة. وهذا لا يتأتى إلا مع القليل من الثروة، وبعض التعليم، وراحة البال النابعة من الأمن النسبي.

وبالعكس، كل مروجي البروباجاندا ينتمون إلى الشريحة العليا في الطبقة المتوسطة، سواء كانوا سوفيتيين أو نازيين أو يابانيين أو أمريكيين. لا يأتي مرجو البرباجاندا من الأثرياء أو الطبقة المثقفة لأنها نائية عن الناس ولا تفهمهم جيدًا بما يكفي للتأثير عليهم.

ولا يأتي مروجو البروباجاندا من الطبقة الدنيا لأنّه نادرًا ما يجد أفرادها الوسائل اللازمة لتعليم أنفسهم (حتى في الاتحاد السوفيتي)؛ والأهم من ذلك، لا يمكنهم التراجع قليلًا والنظر إلى طبقتهم من منظور ضروري لتصميم رموز لها. ولذلك أثبتت الدراسات أنّ معظم مروجي البروباجاندا يُجندون من الطبقة المتوسطة.

نطاق *تأثير* البروباجاندا أكبر ويشمل الشريحة الدنيا في الطبقة الوسطى والطبقة العاملة العليا كذلك. لكن رفع مستوى معيشة الناس لا يحصنهم ضد

البروباجاندا - بل العكس. طبعًا إذا وجد كل شخص نفسه في مستوى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة، ربما ستتضاءل فرص نجاح بروباجاندا العصر الحاضر.

لكن بالنظر إلى الحقيقة التي تقول إنّ الصعود إلى ذلك المستوى تدريجي، فارتفاع مستوى المعيشة في الغرب، وفي الشرق وإفريقيا أيضًا - يجعل الأجيال القادمة أكثر عرضة للبروباجاندا التي تؤسس نفوذها في الوقت الذي تتحسن فيه ظروف العمل والغذاء والسكن كما سيترسخ تنميط الناس في نفس الوقت، وسيترسخ تحولهم إلى ما يُعتبر "الناس العاديين التقليديين."[1] ولكن بينما كان نشوء نوع "عادي" مثل هذا تلقائي وعفوي لوقت طويل، أصبح الآن إنتاج منتظم وواع ومخطط ومقصود أكثر فأكثر. الجوانب التقنية لعمل الإنسان، ومفهوم واضح للعلاقات الاجتماعية والأهداف الوطنية، وتأسيس طريقة شائعة للحياة - كل هذا يؤدي إلى خلق نوع من الإنسان العادي، ويرشد كل الناس بيسر نحو هذا النموذج من خلال عدد كبير من الطرائق.

ولهذا قد أصبح التأقلم إحدى الكلمات المفتاحية لكل المؤثرات النفسانية، سواء أكان هذا مسألة تكيف مع ظروف العمل، أو الاستهلاك، أو البيئة، تسود نية واضحة وواعية لدمج الناس في النمط "العادي" في كل مكان. هذه قمة عمل البروباجاندا. على سبيل المثال، ليس هناك اختلافًا كبيرًا بين نظرية "القولبة" لـ(ماو) والمذهب المكارثي. في كلتا الحالتين، الهدف هو أن يكون الوضع طبيعيًّا، طبقًا لطريقة معينة للحياة.

بالنسبة إلى (ماو)، يعد الوضع الطبيعي إنسانًا مثاليًّا إلى حد ما، وهو النموذج الشيوعي المبدئي الذي يجب أن يتشكل، وهذا لا يمكن أن يتم إلا عن طريق قولبة

---

(1) هذا ما قاله (لينين) عندما دعا إلى تحول ثقافي شامل، مع تغيرات في الطب، والعلاقات بين الرجال والنساء، وفي تناول الكحول، إلخ. هذا التحول لطريقة الحياة بأكملها كان مرتبطًا بالبروباجاندا التحريضية.

الأفراد حيث سيتخذ الشكل المطلوب. ولأن هذا لا يمكن تحقيقه بين عشية وضحاها، يجب الضغط على الفرد ليدخل القالب مرارًا وتكرارًا؛ ويقول (ماو) إنَّ الفرد نفسه على وعي كامل بأنّ عليه أن يخضع للعملية. ويضيف (ماو) أنّ هذه الوضع الطبيعي لا يتشكل "إلا على مستوى معين من الوعي - أي، على مستوى معيشة معين."[1] ونحن في مواجهة مباشرة هنا مع المفهوم الأكثر شمولًا للبروباجاندا.

من ناحية أخرى، ومع عبارات أخرى، هناك المذهب المكارثي وهو ليس بصدفة. فهو يعبر عن تيار عميق في المجتمع الأمريكي ضد كل ما هو "غير أمريكي،" وفي نفس الوقت يستغله. لا يهتم هذا المذهب بالآراء بقدر ما يهتم بطريقة الحياة. ومن المفاجئ أن تجد أنّ الانتماء إلى بيئة، أو مجموعة، أو عائلة من الشيوعيين مستهجن في الولايات المتحدة لأنّ ما يهم هنا ليس الأفكار وإنما طريقة مختلفة للحياة.

وهذا يقودنا إلى الربط بين إدمان الكحول والمثلية الجنسية عند الشيوعية في الأدب عن الأنشطة غير الأمريكية، ويقودنا إلى القواعد الصادرة في 1952م، والتي أسست "الخطر الأمني الأدنى" وأدت إلى فحص سبعة آلاف موظف. لم يكن هناك سبب لهذا التعريف سوى أنّ الشيوعي "غير طبيعي" لأنّه لم يستطع أن يقبل "العادي" - أي، طريقة الحياة الأمريكية. وطبعًا يجب التعامل مع هؤلاء الأشخاص "غير الطبيعيين" هكذا، يتم إعفاؤهم من المسؤولية كلها وإعادة تعليمهم. ومن ثم، نُقِل السجناء الأمريكيون في الحرب الكورية الذين بدا وأن الشيوعية أفسدتهم إلى المستشفى بعد إطلاق سراحهم وتلقيهم العلاج النفساني والطبي في مستشفى في (فالي فورج). في الرأي الأمريكي الحالي، تعتبر كل الجهود لاقتلاع ما يفشل في التوافق مع طريقة الحياة الأمريكية ويعرضها للخطر بالضرورة أعمالًا صالحة.

---

(1) انظر أدناه الملحق الثاني.

ولنلخص: يمكن لخلق الوضع الطبيعي في مجتمعنا أن يتخذ شكلًا من شكلين. يمكن أن يكون نتيجة لتحليل نفساني-اجتماعي علمي قائم على إحصاءات - أي، النوع الأمريكي من الوضع الطبيعي. ويمكن أيضًا أن يكون أيديولوجيًّا وعقائديًّا - أي، النوع الشيوعي. لكن النتائج متطابقة: يتسبب وضع طبيعي مثل هذا بالضرورة في نشوء البروباجاندا التي تستطيع أن تختزل الفرد في النمط الأكثر إفادة للمجتمع.

ثقافة عادية

بالإضافة إلى مستوى معيشة معين، هناك شرط آخر يجب أن يتحقق: حتى يتعرض الإنسان للبروباجاندا بنجاح، يحتاج إلى الحد الأدنى من الثقافة على الأقل. لا يمكن للبروباجاندا أن تنجح إذا لم يكن لدى الناس لمحة من الثقافة الغربية. ولا نقصد هنا الذكاء؛ فبعض القبائل البدائية أكيد ذكية، لكن عندها ذكاء غريب على مفاهيمنا وعاداتنا. هناك حاجة لقاعدة - التعليم، على سبيل المثال؛ فالشخص الذي لا يستطيع أن يقرأ سيهرب من معظم البروباجاندا، كما سيحدث مع الشخص الذي لا يهتم بالقراءة. كان الناس يظنون أنّ تعلم القراءة أثبت التقدم البشري؛ وما زالوا يحتفلون بانخفاض الأمية كانتصار كبير؛ ويدينون البلاد مع نسبة كبيرة من الأميين؛ ويعتقدون أنّ القراءة هي الطريق إلى الحرية.

كل هذا يمكن الجدال حوله، فالمهم ليس القدرة على القراءة، بل فهم المرء لما يقرأه وتأمله والحكم عليه. وفيما عدا هذا، لا معنى للقراءة (فهي حتى تدمر خصائص تلقائية معينة للذاكرة والملاحظة). لكن، عندما نتحدث عن الملكات العقلية والإدراك، نتحدث عن شيء يعلو على التعليم الابتدائي بكثير، وننظر إلى أقلية صغيرة جدًّا. الأغلبية الساحقة من الناس، ربما تسعون بالمئة، يعرفون القراءة، ولكنهم لا يمارسون ذكائهم أبعد من ذلك. يعزون سلطة وقيمة كبيرة إلى الكلمة المطبوعة، أو، بالعكس، يرفضونها تمامًا. وكما أن هؤلاء الناس لا يمتلكون القدر الكافي من المعرفة للتأمل والإدراك، فهم يؤمنون تمامًا بما يقرؤونه أو

ينكرونه تمامًا. وعلاوة على ذلك، سيختار أشخاص مثل هؤلاء موضوعات القراءة الأسهل، وليس الأصعب، ولذلك، هم على المستوى المناسب بالضبط للكلمة المطبوعة لتستحوذ عليهم وتقنعهم دون معارضة. فقد تكيفوا تكيفًا كاملًا مع البروباجاندا.

لا نقُلْ: لو تلقوا أشياءً جيدة للقراءة ... لو تلقى هؤلاء الناس تعليمًا أفضل ..."حجة مثل هذه ليست صحيحة لأنّ الأمور ببساطة لا تسير بهذه الطريقة. وأيضًا لا نقُلْ: "هذه فقط المرحلة الأولى؛ قريبًا سيتحسن تعليمهم؛ المهم أن يبدأوا حتى إذا كانت البداية متواضعة." أولًا، المرور من المرحلة الأولى إلى الثانية يستغرق وقتًا طويلًا؛ في فرنسا، تم التوصل إلى المرحلة الأولى منذ نصف قرن، وما زلنا بعيدين للغاية من التوصل إلى الثانية. وللأسف، هناك أكثر من ذلك - وضعت هذه المرحلة الأولى الإنسان تحت تصرف البروباجاندا. وقبل أن يتمكن من المرور إلى المرحلة الثانية، سيجد نفسه في عالم من البروباجاندا. بالفعل سيتشكل ويتكيف ويندمج.

ولهذا يمكن تطوير الثقافة في الاتحاد السوفياتي بلا خطر. يمكن للمرء الوصول إلى مستوى أعلى من الثقافة دون التوقف عن تلقي البروباجاندا ما دام كان كذلك *قبل* اكتساب الملكات العقلية، وما دامت تلك الثقافة نفسها مندمجة في عالم البروباجاندا. وبالفعل، النتيجة الأكثر وضوحًا للتعليم الأساسي في القرنين التاسع عشر والعشرين هي أنه جعل الفرد ضعيفًا أمام البروباجاندا العظمى.[7] ليس هناك فرصة لرفع المستوى الفكري للشعوب الغربية بدرجة وبسرعة كافية لتحقيق التوازن في وجه تقدم البروباجاندا.

لقد تقدمت تقنيات البروباجاندا أسرع بكثير من القدرة على التفكير المنطقي

---

(7) لأن (لينين) اعتبر الصحيفة الأداة الرئيسية للبروباجاندا، أصر على ضرورة تعليم القراءة، بل وكانت العلامة الأبرز لـ"السياسة الاقتصادية الجديدة": صارت المدرسة مكانًا لتجهيز الطلاب لتلقي البروباجاندا.

لدى الإنسان العادي لدرجة أنّه من المستحيل سد هذه الفجوة وتشكيل هذا الإنسان فكريًا خارج إطار البروباجاندا. وبالفعل ما يحدث وما نراه من حولنا في كل مكان هو الزعم أنّ البروباجاندا نفسها هي ثقافتنا وهي ما يجب على الحشود أن يتعلموه. لا يمكن للجماهير أن يصلوا إلى الاقتصاد السياسي أو السياسة أو الفن أو الأدب إلا عن طريق البروباجاندا، وفي ثناياها، يُمكّن التعليم الأساسي الناس من الدخول في نطاق البروباجاندا الذي يتلقى فيه الناس لاحقًا بيئتهم الفكرية والثقافية.

لا تستطيع البروباجاندا أن تصل إلى الإنسان غير المثقف. أظهرت التجربة والبحث الذي أجراه الألمان بين 1933م و1938م أنّه لم يكن للبروباجاندا أثر في المناطق النائية حيث بالكاد يعرف الناس القراءة. وينطبق الشيء نفسه على الجهد الضخم المبذول في العالم الشيوعي لتعليم الناس القراءة. أما في كوريا، فكانت الكتابة المحلية صعبة للغاية ومعقدة؛ ولذلك اخترع الشيوعيون في كوريا الشمالية أبجدية جديدة تمامًا وكتابة بسيطة من أجل تعليم الشعب كله القراءة.مكتبة

في الصين، بسّط (ماو) الكتابة خلال معركته مع الأمية، وتُخترع الآن أبجديات جديدة في بعض الأماكن في الصين. لن يكون لهذا أي أهمية إلا عندما تكون النصوص المستخدمة لتعليم القراءة للطلاب البالغين (الذين لم يروا أي نصوص غيرها) نصوص بروباجاندا خالصة مثل أناشيد سياسية وقصائد لمجد النظام الشيوعي ومقتطفات من الماركسية الكلاسيكية.

وأعمال (ماو) هي النصوص الوحيدة المكتوبة بالطريقة الجديدة بين أيادي شعب التبت والمُغُول، والويغور، والمنشوريين. ومن ثم، نرى هنا أداة رائعة للتشكيل: يُعلَّم الأمويون قراءة الكتابة الجديدة فقط؛ ولا يُنشر شيء بهذه الكتابة إلا نصوص البروباجاندا؛ فلا يمكن للأمين قراءة أو معرفة أي شيء آخر.

كذلك إحدى الطرائق الأكثر فعالية للبروباجاندا في آسيا كانت تأسيس "معلمين" لتعليم القراءة وتلقين الناس *في الوقت ذاته*. مكانة المثقف – "الموسوم

بأصبع الله" - سمحت للتصريحات السياسية أن تبدو حقائق. وفي نفس الوقت، أكدت هيبة الكلمة المطبوعة - التي تَعَلّمها الناس للفهم - صحة ما قاله المعلمون.

هذه الحقائق لا تدع مجالًا للشك أنّ التعليم الابتدائي شرط أساسي لتنظيم البروباجاندا، مع أنّ استنتاج مثل هذا قد يخالف تحيزات كثيرة، و(بال ريفيت) هو أفضل من عبر عنها عندما صرح بكلمات غير واقعية تمامًا: "إنّ الشخص الذي لا يستطيع قراءة الجريدة ليس حرًا." ونصل لأفضل طريقة لفهم الحاجة إلى مستوى ثقافي معين حتى يضعف الناس أمام البروباجاندا[1] إذا نظرنا إلى إحدى أدوات البروباجاندا الأبرز، وهي التلاعب بالرموز. كلما ينخرط الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه، سيتشبث بالرموز النمطية المعبرة عن الأفكار الجماعية لماضي جماعته ومستقبلها. وكلما زادت الصور النمطية في الثقافة، يسهل تشكيل الرأي العام. وكلما يشارك الفرد في تلك الثقافة، أصبح أكثر عرضة لتلاعب هذه الرموز. فهناك عدد مهول من حملات البروباجاندا في الغرب التي ترسخت أولًا في الأوساط المثقفة.

وهذا لا ينطبق على ملقن البروباجاندا فحسب، فهذه البروباجاندا تستند إلى أفعال دقيقة وأفعال على مستوى الناس الأكثر تطورًا الذين يدركون القيم

---

(1) كذلك علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنّه في المجتمع حيث تستوعب البروباجاندا - سواء أكانت مباشرة أو غير مباشرة، واعية أو غير واعية - كل وسائل الاتصال أو التعليم (كما هو الحال عمليًا في كل المجتمعات في 1960م)، تشكل البروباجاندا الثقافة، ومن منظور ما، البروباجاندا هي *نفسها* الثقافة. عندما يُستخدم الفيلم والرواية والجريدة والتلفاز كأدوات إما للبروباجاندا السياسية بالمعنى المحدود للكلمة وإما للعلاقات الإنسانية (البروباجاندا الاجتماعية) فتندمج الثقافة اندماجًا كاملًا فى البروباجاندا؛ وبالتالي كلما يُثقَّف الانسان، يتلقى البروباجاندا أكثر فأكثر. وهنا يمكن للمرء أن يرى أيضًا الوهم المثالي لهؤلاء الذين يتمنون أنّ يخلق الإعلام الجماهيري ثقافة جماهيرية. وهذه "الثقافة" ليست إلا مجرد طريقة لتدمير شخصية الفرد.

ويعرفون الكثير عن الحقائق السياسية، مثل البروباجاندا عن ظلم الرأسمالية، وعن الأزمات الاقتصادية، أو الاستعمار؛ ولا يعتبر هذا طبيعيًّا إلا إذا كان الناس الأكثر تعليمًا (المفكرون،) هم أول من يصل إليهم هذا النوع من البروباجاندا. وينطبق هذا أيضًا على أقسى نوع من البروباجاندا؛ مثلًا، الحملة عن السلام وحملة الحرب البكتريولوجية كانتا من أول الحملات الناجحة في البيئات المثقفة. في فرنسا، تماشى المفكرون بيسر مع بروباجاندا الحرب البكتريولوجية .

وكل هذا يخالف الأفكار الساذجة القائلة بإنّه لا يبتلع البروباجاندا إلا عامة الناس. طبعًا، الإنسان المتعلم لا يؤمن بالبروباجاندا؛ لا يعتد بها وهو مقتنع أنّ البروباجاندا ليس لها تأثير عليه. وهذا، بالفعل، أحد أكبر ضعفاته. ومروجو البروباجاندا يدركون جيدًا أنّ عليهم أولًا إقناع الفرد بأن البروباجاندا غير فعالة وغير بارعة جدًّا حتى يتمكنوا من التأثير عليه .

ولأنّ المفكر مقتنع بتفوقه، فهو أكثر عرضة بكثير من الآخرين لهذه الخطة مع أنّ الذكاء الحاد، والثقافة الواسعة، والممارسة المستمرة للملكات النقدية، والمعلومات الموضوعية الكاملة لا تزال بالأساس أفضل أسلحة ضد البروباجاندا. أدرك الناس هذا الخطر وعبروا عنه كثيرًا في الاتحاد السوفيتي حيث كان هناك أهمية كبيرة للتلقين السياسي والتعليم: نقاش لا ينتهي وعمق لا ينتهي لمجازفة عقيدية بواسطة خلق تيارات متفرقة والسماح للمفكر بالهروب من السيطرة الاجتماعية.

وأخيرًا، قد يكون للبروباجاندا أثرًا على الحشود الذين يفتقرون للثقافة. أمثلة على ذلك: البروباجاندا اللينينية التي تستهدف الفلاحين الروس، والبروباجاندا الماوية التي تستهدف الفلاحين الصينيين. لكن مناهج البروباجاندا هذه، هي أساسًا خليقة ردود الفعل المكيفة من ناحية، كما أنها الإنتاج البطيء للقاعدة الثقافية الضرورية من ناحية أخرى. ولنوضح معنى خلق ردود فعل مكيفة: بعد شهور عديدة من البروباجاندا في مقاطعة هونان في 1928م، كان الأطفال يسمون خصومهم في اللعب "إمبرياليين."

وكما ذكرنا سابقًا، يعتبر السكان الفقراء وغير المثقفين هدف مناسب للبروباجاندا التحريضية والتقويضية. فكلما كان الفرد بائسًا وجاهلًا، تَيَسّر دفعه نحو حركة تمردية. حتى نذهب إلى أبعد من هذا، لتحقيق مهمة أعمق للبروباجاندا تجاه الفرد، يجب تعليم هذا الفرد. وهذا يعكس الحاجة إلى "التعليم السياسي." وبالعكس، فرد من الطبقة الوسطى، من ثقافة عامة جيدة سيكون أقل عرضة للبروباجاندا التحريضية لكنه سيكون ضحية مثالية للبروباجاندا الاندماجية. وقد لاحظ (ليبسيت) هذا؛ فيعتقد أنّ الجهل بالسياسة والاقتصاد يجعل الصراعات في هذه المجالات أقل وضوحًا ومن ثم أقل شدة في عين المراقب، ولهذا السبب فالجهلاء أقل عرضة للبروباجاندا فيما يتعلق بهذه القضايا.

المعلومات

من المؤكد أن التعليم الأساسي لا يسمح بانتشار البروباجاندا فحسب، بل المعلومات بشكل عام. لكن، هنا نقابل شرط جديد للبروباجاندا. بخلاف التميز المبسط بين البروباجاندا والمعلومات، قد أظهرنا علاقة وثيقة بين الاثنين. في الحقيقة، يستحيل التميز الدقيق بين البروباجاندا والمعلومات. بجانب ذلك، فالمعلومات عنصر أساسي للبروباجاندا؛ وحتى تنجح البروباجاندا، من اللازم أن يكون الواقع السياسي أو الاقتصادي مرجعها. وليس هناك للحجة العقيدية أو التاريخية تأثير ملازم لها إلا في ثنايا البروباجاندا؛ وليس لها قوة إلا فيما يتصل بتفسير الأحداث.

ليس لها تأثير إلا عندما يكون الرأي مثار فعلًا، أو مضطرب، أو موجه إلى اتجاه معين بواسطة حدث سياسي أو اقتصادي. تزرع نفسها في واقع نفساني قائم بالفعل. وردود الفعل النفسانية من هذا النوع عمومًا تتسم بقصر المدة، ويجب أن تتجدد وتستمر بانتظام. وبسبب تجديدها وطول مدتها، ستؤسس "رأيًا مطلعًا." الرأي المطلع ضروري للبروباجاندا. فلا يمكن للبروباجاندا أن تنشأ إذا لم يكن لدينا رأي مطلع بشأن السياسة أو الاقتصاد. ولهذا السبب، في معظم البلاد

القديمة، كانت البروباجاندا محلية وتقتصر على تلك المجموعات التي كان لديها اتصال مباشر مع الحياة السياسية؛ فلم تكن مصممة للحشود التي لا تعبأ بمثل هذه القضايا - لا تبال لأنّها لم تكن مطلعة. لا يمكن للحشود أن تهتم بالمسائل السياسية والاقتصادية أو بالمناقشات الكبيرة القائمة عليها حتى ينشر الإعلام الجماهيري المعلومات للعوام.

ونعرف أنّ الفلاحين هم الأصعب في الوصول إليهم والتأثير عليهم لأسباب مختلفة قد أشرنا إليها بالفعل. ولكن سبب أساسي آخر هو أنهم غير مطلعين. دراسات البيئات الريفية قد أثبتت أنّ البروباجاندا تبدأ في "الاستحواذ" على الفلاحين في اللحظة ذاتها التي تنتشر فيها المعلومات هناك. عندما تُعرف الحقائق يُثار الانتباه لأسئلة معينة.

بديهي أنني إذا لم أعرف أنّ الحرب دائرة في كوريا، أو أنّ النظام في كوريا الشمالية والصين هو النظام الشيوعي، أو أنّ الولايات المتحدة تحتل كوريا الجنوبية وأنّها تمثل الأمم المتحدة في كوريا، فأي بروباجاندا شيوعية عن الحرب البيولوجية الأمريكية المزعومة لا تعني شيئًا لي. لا تعني البروباجاندا شيئًا فعلًا بدون معلومات أولية؛ ومن ثم، لا يمكن صنع بروباجاندا لمجموعات جاهلة سياسيًّا إلا إذا سبقها عمل معلوماتي عميق وجاد وواسع النطاق[1]. كلما اتسمت المعلومات بالموضوعية واتسع نطاقها، ستزداد فعالية البروباجاندا اللاحقة لها .

ومرَّة أخرى، لا تؤسس البروباجاندا نفسها على الأخطاء، بل الحقائق الدقيقة. حتى يبدو أنّه كلما كان الرأي العام أو الخاص أكثر اطلاعًا (لاحظ أنّي

(1) لهذا لا يمكن التمييز بين مهمات المعلومات والبروباجاندا في الاتحاد السوفيتي. المحرض موزع معلومات في المقام الأول. الإذاعة والصحافة هما إعلام البروباجاندا أكثر من كونهما أي شيء آخر. السيد (باجونوف)، مدير وكالة تاس، قال في 1956 م: "المعلومات لا يجب أن تكون تدريسية وتعليمية، ناهيك بالحقيقة أنّ المعلومات الخالصة وسيلة ممتازة للبروباجاندا؛ المعلومات المباشرة بدون شرح تستطيع أن تؤدي إلى قبول اتجاه كامل للبروباجاندا.

أقول "أكثر" وليس "أفضل")، ضعف هذا الرأي أمام البروباجاندا. كلما اتسعت معرفة شخص بالحقائق السياسية والاقتصادية، ضعفت حكمته وخارت. المفكرون هم الأسهل في توصل البروباجاندا لهم، ولاسيما إذا استخدمت الغموض.

القارئ لعدد من الصحف المعبرة عن مواقف متنوعة - فقط لأنّه أفضل اطلاعًا - يعتبر أكثر تعرضًا من كل الآخرين للبروباجاندا لدرجة لا يمكنه إدراكها، مع إنّه يدعي أنّه صان اختياره الحر عند اتقان كل هذه المعلومات. في الحقيقة، يُكيَّف ليستوعب كل البروباجاندا التي تُنَسّق وتشرح الحقائق التي يؤمن بأنه يتقنها. فالمعلومات لا تضع الأساس للبروباجاندا فحسب، بل تعطيها الوسيلة للفعل؛ فالمعلومات تولّد حقًّا المشكلات التي تستغلها البوباجاندا التي تتظاهر أنّها تقدم لها حلول. وبالفعل، لا يمكن لأي بروباجاندا أن تعمل حتى اللحظة التي تصبح فيها مجموعة من الحقائق *مشكلة* في عيون هؤلاء الذين يشكلون الرأي العام. في هذه اللحظة، تشرع مثل هذه المشكلات في مواجهة الرأي العام، وتبدأ البروباجاندا من جانب الحكومة، أو الحزب، أو الإنسان في التطور على نحو كامل عن طريق تعظيم تلك المشكلة من ناحية، وبالوعد بحلول لها من ناحية أخرى .

لكن، لا يمكن للبروباجاندا توليد مشكلة سياسية أو اقتصادية من لا شيء بسهولة. يجب أن يكون هناك سبب ما في الواقع. فليس لازمًا أن تنشأ مشكلة فعلًا، بل يجب أن يكون هناك سبب لاحتمالية وجودها. مثلًا، إذا أدى انتشار المعلومات اليومية بالإنسان إلى متاهة الحقائق الاقتصادية، سيجد هذه الحقائق المعقدة والمتنوعة عصية على الفهم، ومن ثم سيستنتج أنّ هناك بعض المشكلات ذات الطابع الاقتصادي. لكن هذا يتخذ جانبًا مختلفًا تمامًا وأكثر وضوحًا عندما يتصل هذا الرأي بالتجربة الشخصية بطريقة أو بأخرى.

لو كان جاهلًا بما حدث في الوطن والعالم، وإذا كان مصدره الوحيد للمعلومات هو جيران غير مطلعين مثله تمامًا؛ في تلك الحالة ستستحيل

البروباجاندا، حتى وإن كان ذلك الإنسان يعاني بالفعل من صعوبات شخصية نتيجةً أوضاع سياسية أو اقتصادية معينة. لم يكن للبروباجاندا تأثير على الناس في القرن التاسع عشر، حتى عندما نهب جيش ما قرية، لأنّ الناس يستجيبون استجابةً عفويةً أو عن طريق ردود فعل جماعية في مواجهة التجارب الشخصية، لكنهم على أي حال لا يستجيبون إلا إلى أوضاع محلية ومحدودة. وسيشعرون أنه من الصعب تعميم الوضع. فالنظر إلى الموقف كظاهرة حقيقية وبناء استجابة معينة لمثل هذا التعميم سيتطلب قدرًا لا بأس به من الاجتهاد الفكري الطوعي. فلا تكون البروباجاندا ممكنة إلا إذا كان لدى الناس وعي بالمشكلات العامة واستجابات معينة لها.

وتشكيل استجابات من هذا النوع هو بالضبط ما يخلقه نشر المعلومات في الأفراد الذين ليس عندهم إلا اتصال شخصي محدود بالواقع الاجتماعي. وعبر المعلومات، يُوضع الفرد في سياق ويتعلم فهم حقيقة حاله فيما يتصل بالمجتمع ككل. هذا سيستدرجه لاحقًا إلى الفعل الاجتماعي والسياسي. فلنأخذ على سبيل المثال مشكلة مستوى المعيشة: العامل الذي لا يعرف شيئًا عن الأسعار أو الرواتب إلا من التجربة الشخصية (أو تجارب جيرانه)، قد يشعر، في حالة الاستياء الحاد، بمشاعر التمرد، وقد يتمرد ضد مشرفيه المباشرين في نهاية المطاف. ومن المعروف أنّ تمردًا مثل هذا لا يؤدي إلى أي نتيجة؛ وذلك كان الاكتشاف الكبير للقرن التاسع عشر. لكن المعلومات ستعلّم هذا العامل أنّه سيلقى نفس المصير الذي سيلقاه ملايين آخرون، وأنّه يمكن أن تتشابه بينهم الاهتمامات والأعمال .

كذلك تسمح له المعلومات بوضع حاله في السياق الاقتصادي العام وبفهم حالة الإدارة العامة. وأخيرًا، ستعلّمه المعلومات أن يقيّم وضعه الشخصي. هذا ما يقوده إلى الوعي الطبقي لعاملين القرن التاسع عشر، وهو العملية التي - كما كان الشيوعيون محقين في قولهم - كانت عملية للمعلومات أكثر منها للبروباجاندا. وفي تلك اللحظة بالذات (عندما يستوعب المعلومات) تتحول روح التمرد نفسها

إلى روح الثورة. وكنتيجة للمعلومات، يبدأ الأفراد يشعرون بأنّ مشكلاتهم الشخصية تحظى فعلًا بمكانة مشكلة اجتماعية عامة.

من اللحظة التي يحصل فيها على هذا النوع من المعلومات، تجد البروباجاندا الباب مفتوحًا. يستخدم بعض *الزعماء الشكل المبدئي للبروباجاندا* في مخاطبة بعض المتمردين، وتحل البروباجاندا الحديثة المعقدة محل هذا الشكل استنادًا إلى حركات جماهيرية، وإلى معرفة الحقائق السياسية-الاقتصادية الكبيرة، وإلى الانخراط في تيارات واسعة بعينها تُغذيها معلومات متطابقة في كل مكان[1].

ومن ثم، تمهد المعلومات الطريق للبروباجاندا. ستتشابه استجابات الأفراد حيث إنّ عددًا كبيرًا منهم يتلقون نفس المعلومات. وكنتيجة لذلك، ستتولد "مراكز اهتمام" متطابقة ثم ستصير كبرى القضايا في عصرنا - بعد أن يطرحها الإعلام والإذاعة على العامة، وستشكل آراء للجماعة التي ستؤسس قنوات اتصال بين أفرادها - إحدى العمليات الأساسية في تشكيل الرأي العام. علاوة على ذلك، فهذا يؤدي إلى تشكيل ردود فعل وتحيزات شائعة. ومن البديهي أن هناك منحرفين - أفراد لا يتبنون نفس الاستجابات لنفس المعلومات، لأن لديهم بالفعل تحيزات أخرى، ولأنهم "شخصيات قوية،" أو بسبب مجرد معارضة معتادة. لكن عددهم أصغر بكثير مما يعتقده كثيرون. ليس لهم أهمية. استقطاب الانتباه إلى قضايا بعينها وإلى جوانب بعينها لهذه القضايا (التي سلطت المعلومات الضوء عليها) سرعان ما يخلق ما سُمّيَ النفسية الجماهيرية - أحد الشروط الأساسية لوجود البروباجاندا.

---

(1) علاوة على ذلك، كلما كانت المشكلات المثارة جديدة، ضعف الإنسان أكثر. دور المعلومات هو تعريف الأفراد بحقائق جديدة ومشكلات. المتخصصون في أبحاث الرأي يعرفون جيدًا أنّه أسهل للبروباجاندا التأثير على الفرد عندما يكون في موقف جديد، عندما تكون الحلول المحتملة غير مألوفة له، وعندما لا يستطيع أن يدرك أنماط سابقة - عندما، باختصار، يكون الرأي "غير منظم." مهمة المعلومات هي أن تضع الفرد في حالة الرأي غير المنظم هذه وبالتالي أن تجعله أكثر عرضة للتأثر.

وأخيرًا، آخر شرط لنشوء البروباجاندا هو سواد الأساطير القوية والأيديولوجيات في المجتمع. وهنا نحتاج أن نتحدث قليلًا عن مصطلح الأيديولوجية. أولًا، نضم صوتنا لصوت (رايموند آرون) في تصريحه أنّ الأيديولوجية هي أية مجموعة من الأفكار المقبولة لدى الأفراد أو الشعوب، بدون الانتباه إلى أصلها أو قيمتها. بل ربما يجب أن نضيف لذلك، مع (كيو رايت)، (1) عنصر التقييم (الأفكار ذات المكانة الرفيعة)، (2) عنصر الواقع (الأفكار المتعلقة بالحاضر)، و(3) عنصر المعتقد (الأفكار التي آمن بها الناس عوضًا عن إثباتها).

وتختلف الأيديولوجية عن الأسطورة في ثلاث جوانب مهمة: أولًا، تتعمق الأسطورة أكثر بكثير في الروح، وتغوص جذورها في العمق، وهي أكثر ديمومة، وتزوّد الإنسان بصورة أصيلة لحالته وحالة العالم بوجه عام. ثانيًا، الأسطورة أقل "عقيدية"؛ إنّ الأيديولوجية (والتي ليست عقيدية لأنّ الناس يؤمنون بها ولا يثبتون صحتها) هي أولًا مجموعة من الأفكار، والتي تظل أفكارًا حتى وإن كانت غير منطقية.

فكريًا، الأسطورة أكثر انتشارًا؛ جزء منها انفعالي، وجزء استجابة عاطفية، وجزء آخر شعور مقدس، وهو الأكثر أهمية. ثالثًا، للأسطورة قوى أعظم للتفعيل، أمّا الأيديولوجية فهي أكثر سلبية (يمكن للمرء الإيمان بأيديولوجية ومع ذلك يظل سلبيًا ولا يشارك). لا تترك الأسطورة الإنسان سلبيًا؛ بل تدفعه إلى الفعل. ومع ذلك، إن المشترَك بين الأسطورة والأيديولوجية هو أنهما من الظواهر الجماعية وقوتها المقنعة تنبع من المشاركة الجماعية. ومن ثم، يمكننا التمييز: الأساطير الأصيلة في مجتمعنا هي أساطير العمل والتقدم والسعادة؛ والأيديولوجيات الأصيلة هي الوطنية، والديمقراطية، والاشتراكية.

وتتشابه الشيوعية في كلا العنصرين. فهي أيديولوجية بمعنى أنّها عقيدة أساسية، وأسطورة حيث إنّها تقدم تفسير لكل القضايا وصورة لعالم مستقبلي تُحل

فيه كل التناقضات. تواجدت الأساطير في كل المجتمعات، لكن الأيديولوجيات لم تكن موجودة طول الوقت. فكان القرن التاسع عشر أرضًا خصبة للأيديولوجية، واحتاجت البروباجاندا إلى بيئة أيديولوجية لتنشأ.

تتسم الأيديولوجية التي تخدم البروباجاندا بمرونة وميوعة بالغة. البروباجاندا التي دعمت الثورة الفرنسية، أو الحياة في الولايات المتحدة في العشرينيات، أو الحياة في الاتحاد السوفيتي في الأربعينيات، كلها يمكن إرجاعها إلى أيديولوجية الديمقراطية. هذه الأنواع والمفاهيم الثلاثة (المختلفة تمامًا) للبروباجاندا كلها تشير إلى نفس الأيديولوجية. ولكن، علينا ألا نظن، لهذا السبب، أنّ الأيديولوجية تحدد بروباجاندا معينة لمجرد أنها تقدم الموضوعات والمحتويات. تخدم الأيديولوجية البروباجاندا كوتد، كذريعة. تستحوذ البروباجاندا على ما يظهر تلقائيًّا وتعطيه شكلًا جديدًا، وبنية، وقناة فعالة، ويمكنها في النهاية تحويل الأيديولوجية إلى أسطورة. سنعود إلى للصلة بين الأيديولوجية والبروباجاندا لاحقًا.

الفصل

الثالث

3

ضرورة البروباجاندا

من الآراء الشائعة عن البروباجاندا هو أنّها صنيع بضع الأشرار والمخادعون والحكام المستبدون الذين يسعون إلى السيطرة على الشعب وإغواء الناس؛ وأنّها خادمة لقوى غير شرعية نوعًا ما. هذا الرأي دائمًا يَعتبِر البروباجاندا كأنّها مصنعة طوعًا؛ ويفترض أنّ الإنسان يقرر "أن يصنع البروباجاندا،" وأنّ الحكومة تؤسس وزارة للبروباجاندا، وأنّ الأشياء تتطور كنتيجة لذلك. وفقًا لهذا الرأي، عامة الناس مجرد شيء، حشد سلبي يمكن التلاعب به، والتأثير عليه، واستخدامه. لا يتبنى هذه الفكرة هؤلاء الذين يظنون أنّ المرء يمكنه التلاعب بالحشود فحسب، بل أيضًا هؤلاء الذين يعتقدون أنّ البروباجاندا ليست فعالة جدًّا ويمكن مقاومتها بسهولة.

بعبارة أخرى، يميز هذا الرأي بين عامل نشط - مروج البروباجاندا - وعامل سلبي - الحشد، الجماهير، الإنسان[1]. ومن هذه الزاوية، من السهل فهم عداوة الشخص الأخلاقي للبروباجاندا: الإنسان هو الضحية البريئة التي دفعها مروج البروباجاندا إلى طريق الشر، لا يُلام متلقي البروباجاندا تمامًا لأنّه مخدوع وقد وقع في الفخ. النازي والشيوعي المتشدد مجرد ضحية مسكين ويجب ألا

---

(1) وفقًا لهذا المفهوم، البروباجاندا هي اختراع شرير للطبقة العسكرية" أما في الحقيقة فهي تعبير المجتمع المعاصر ككل.

نقاتله، بل يجب تحريره من ذلك الفخ، وإعادة تكييفه مع الحرية، وإظهار الحقيقة له. على أي حال، يمكن رؤية متلقي البروباجاندا في دور الشيطان المسكين الذي لا حول له ولا قوة ولا يستطيع أن يساعد نفسه، ليس عنده أي وسيلة للدفاع ضد الطائر الجارح الذي ينقض عليه من السماوات. ويمكن إيجاد وجهة نظر مشابهة في دراسات عن الإعلانات التي تَعتبر المشتري ضحية وفريسة. وفي كل هذا، لا يُكلَّف متلقي البروباجاندا أبدًا بأدنى مسؤولية لظاهرة يُعتقد أنها نشأت تمامًا خارج ذاته.

يبدو هذا الرأي خطأ تمامًا بالنسبة إليّ. حقيقة بسيطة يجب أن ترشدنا على الأقل إلى الشك فيها: في هذه الأيام، تنتشر البروباجاندا في كل جوانب الحياة العامة. نعرف أنّ المؤثر النفساني، الذي يشمل التطويق، والاندماج في مجموعة، والمشاركة في الفعل، بالإضافة إلى الاعتقاد الشخصي، يتسم بالحسم.

رسم خطط لمنظمة ما، ونظام عمل، ومناهج سياسية، ومؤسسات لا يكفي؛ على الفرد المشاركة في كل هذا من أعماق القلب، وبكل سرور ورضا عميق. إذا كان هناك طلبًا على السوق المشتركة، يجب تأسيس وحدة لإعداد الناس نفسانيًا للسوق المشتركة؛ وهذا ضروري للغاية لأنّ المؤسسات لا تعني شيئًا بذاتها. حلف شمال الأطلسي أيضًا يحتاج البروباجاندا لأعضائه.

مقترح (جاسبيري) في 1956 لتأسيس "مكتب المعلومات الديمقراطية" الذي سيوازي "مكتب المعلومات الشيوعية" كان غاية في الأهمية. الحرب السياسية الحالية ناقصة جدًّا؛ من وجهة نظر اقتصادية يمكننا القول إنّ الركود كان تطورًا نفسانيًّا أكثر بكثير من كونه تقنيًّا أو اقتصاديًّا.[1] لضمان أنّ الإصلاحات ستكون قوية وفعالة، يجب إقناع الناس أولًا بأنّ الركود لم يحدث وأنّه لا يوجد ما يخشونه. وهذا ليس منهج (د. كو) لمناشدة الذات فحسب، بل المشاركة النشطة في تعافٍ فعال. وهنا مثال محدد: "إعادة البناء" الزراعي في فرنسا مشكلة نفسانية قبل أي شيء آخر. تُؤسَّس "خدمات الترويج"، التي لا تقدم مستشارين تقنيين فحسب، بل محرضين نفسانيين في المقام الأول، على نمط وكلاء المدن المشهورين في الولايات المتحدة أو المستشارين في إسكندنافيا.

إنّ جهود الترويج وغرس المعتقدات يحدثان بشكل متزامن. لا يزال الاتحاد السوفيتي أكثر تقدمًا في اتجاه البروباجاندا الزراعية مكتملة النمو عن طريق حملات البروباجاندا المثالية من الناحية التقنية وقت الحصاد، مئات الآلاف من وكلاء البروباجاندا المتجولين في القرى يتغنون بـ "الوطن الأم" و"الإنتاج،" النشرات الإذاعية والأفلام، والمنشور اليومي لنتائج الحصاد كما هو الحال في أواخر موسم مباريات كرة القاعدة. تلتحق الجرائد المحلية واتحاد (الكوموسولس) وأعضاء النقابات العمالية والاحتفالات والرقصات والأغاني الشعبية والمكافآت والأوسمة والتكريمات بهذه الحملات.

ويستعمل السوفييت نفس المناهج في عمل المصنع، والمعادلة التي تشرح الجهد الكامل على أفضل نحو هي: "الفهم التام من جهة العاملين هو العامل الحاسم في رفع الإنتاجية." ومن الضروري نيل ولاء العاملين لقضية الإنتاجية؛ يجب عليهم قبول الابتكارات والبحث عنها، وحب عملهم، ودعم منظمتهم،

---

(1) وحتى في فترة مبكرة في 1928م، قال (إدوارد برناز) إن "البروباجاندا هي الأداة الحديثة التي يستخدمها...الإنسان الذكي ليكافح من أجل غايات مفيدة وليساعد على استخراج نظام من الفوضى.

وفهــم قيمــة العمــل الجــاد. يتــأتى كــل هــذا عــن طريــق التلاعــب النفــساني، والبروباجاندا المنفَذة بدقة على مدار فترة طويلة من الزمن.

لتقنيات مثل هذه في الجيوش نفس الأهمية. وأفضل مثال هو الجيش الألماني الجديد؛ على الجندي الألماني أن يقتنع بصحة ما يدافع عنه، فلم تعد الوطنية تلتـزم المكان، بل الأيديولوجية. هذا المنهج النفـساني مـصمم ليعطـي الجنـود انـضباط شخصي، مع القدرة على اتخاذ القرار والاختيار؛ ولم تعد التقنيات العسكرية كافية. وكل هذا بروباجاندا خالصة، بما في ذلـك فكـرة القـرار الشخـصي، فبمجـرد أن يتشرب الفرد "الحقيقة" سيتصرف بالطريقة المنتظرة منه، مـن "عفويـة" ضـميره. كان هذا الهدف الرئيس للبروباجاندا في جـيش (هتلـر)، وقـدرة الجنـدي الألمـاني الفردي على المبادرة الشخصية في 1940م كانت فعلًا رائعة.

وهناك مثال أخير في مجال مختلـف: بالنـسبة للتعـداد الـسكاني في 1959م في الاتحاد السوفيتي، انطلقت حملة بروباجاندا ضـخمة، اعتمـدت الـسرعة المطلوبـة لإجراء التعداد ودقة النتائج على حسن النية عند المواطنين وصدقهم. وعلى ذلك، تم تعبئة الرأي للحصول على الـسرعة والدقـة. الـصحافة ككـل وكـل المـنظمات الجماهيرية انطلقت للعمل لكي تحـيط المـواطن بالبروباجانـدا، ويتجـول مروجـو البروباجاندا في كل أنحاء البلد ليشرحوا للناس مـا كـان يُخَطَّـط، وليخففـوا مـن تحيزاتهم وشكوكهم بخصوص الأسئلة التي سيُسألونها.

هذه هي كل الأمثلة لتطبيقات مختلفة تمامًا للبروباجاندا. لكـن، حتـى يتـسع نطاق البروباجاندا، يجب أن تعكس احتياج ما. والدولة عندها هذا الاحتياج: من الواضح أنّ البروباجاندا أداة ضرورية للدولة والسلطات. ومـع أنَّ هـذه الحقيقـة قد تبـدد مفهـوم مـروج البروباجانـدا كمجـرد فاعـل شر، لا تـزال تـترك فكـرة البروباجاندا كقوةً ناشطة في مقابل حشود سلبية. ونُصر على أنّ هذه الفكرة أيـضًا يجب تبديدها: لكي تنجح البروباجاندا، يجب أن تعكس احتياج الفرد لها. يمكـن أن تقود الحصان إلى مكان الماء لكن لا يمكنك أن تجعله يـشرب؛ لا يمكنـك مـن خلال البروباجاندا التوصل إلى الذين لا يحتاجون إلى ما تقدمه البروباجاندا.

متلقي البروباجاندا ليس مجرد ضحية بريئة بأي حال من الأحوال؛ إذ إنه يثير الفعل النفساني للبروباجاندا، ولا يكيف نفسه معها فحسب، بل يستمد الرضا والإشباع منها. بدون هذه الموافقة المسبقة والضمنية، وبدون هذا الاحتياج للبروباجاندا الذي يشعر به كل مواطن تقريبًا في العصر التكنولوجي، لا يمكن للبروباجاندا أن تنتشر. ليس هناك مجرد مروج البروباجاندا الخبيث الذي يعمل على تأسيس وسائل للإيقاع بالمواطن البريء، بل هناك مواطن يشتاق من أعماقه إلى البروباجاندا وإلى مروج البروباجاندا الذي يستجيب لهذا الاشتياق.

في الأساس، لن يتواجد مروجو البروباجاندا بدون وجود متلقي البروباجاندا المحتمل. من المهم أن نفهم أنّ البروباجاندا ليست مجرد خليقة مقصودة واستبدادية من قِبَل بعض الناس في سدة الحكم؛ فهي فعلًا ظاهرة اجتماعية، بمعنى أنّ لها جذور وأسباب، وهي في حاجة إلى الجماعة التي ستساهم في استمرارها. فنحن إذًا في مواجهة مع حاجة مزدوجة: حاجة الأنظمة إلى صنع البروباجاندا، وحاجة متلقي البروباجاندا. هذان الشرطان يعكسان ويكملان بعضهما البعض في تطوير البروباجاندا.



1 - ضرورة الدولة

معضلة الدولة الحديثة

البروباجاندا مطلوبة في ممارسة السلطة لسبب بسيط وهو أنّ الحشود قد شرعت في المشاركة في الشؤون السياسية. دعنا لا نسمي هذا ديمقراطية؛ هذا مجرد جانب واحد لها. أولًا، هناك الواقع الحقيقي والملموس للحشود. في بلد ذي كثافة سكانية منخفضة، يمكن لمجموعات صغيرة أن تصنع السياسة، منفصلين عن بعضهم البعض وعن الحشود التي لن تشكل رأيًا عامًّا وتبتعد عن مراكز القوة.

قرب الحشود من مقاعد السلطة له عظيم الأثر. (بريكليس) و(تيبيريوس) كانا على دراية جيدة بذلك، كما كان (لويس) الرابع عشر و(نابليون): أدخلا نفسيهما في الريف، بعيدًا عن الحشود، بغرض الإدارة في سلام، بعيدًا عن نطاق ضغط الحشود التي، حتى وإن لم ترد ذلك بوضوح، تؤثر على ظروف السلطة بمجرد قربها. تشرح هذه الحقيقة البسيطة لماذا لم تعد السياسة لعبة الأمراء والدبلوماسيين، ولماذا حلت الثورات الشعبية محل ثورات القصر.

لم يعد الحاكم يستطيع فصل نفسه عن الحشود هذه الأيام أو إجراء سياسة سرية بشكل أو بآخر؛ لم يعد عنده برج عاجي؛ فهو يواجه الجموع الغفيرة في كل مكان. لا يمكنه الفرار من الحشد لسبب بسيط وهو كثافة السكان الحالية - الحشد موجود في كل مكان. علاوة على ذلك، كنتيجة لوسائل النقل الحديثة، الحكومة ليست على اتصال دائم مع سكان العاصمة فحسب، بل أيضًا مع البلد كله .

في علاقاتهم بالسلطات الحاكمة، لا يكاد يكون هناك أي اختلاف الآن بين سكان العاصمة وأولئك في الريف. يعتبر هذا القرب الجسدي في حد ذاته عاملًا سياسيًّا. فضلًا عن أن الحشد يعرف حُكّامه من خلال الصحافة، والإذاعة، والتلفاز - رئيس الدولة على اتصال بالناس. لم يعد يستطيع أن يمنع الناس من

معرفة عدد معين من الحقائق السياسية. لم يكن هذا التطور نتيجة عقيدة تطبيقية؛ تطور هذه العلاقة بين الحشد والحكومة لم يحدث لأنّ العقيدة الديمقراطية تتطلب مشاركة الحشود في السلطة العامة. هذا مجرد واقع ونتيجة حتمية للتغيرات السكانية. ومن ثم، إذا أراد الحاكم أن يلعب اللعبة وحده ويتبع سياسات سرية، عليه أن يقدم طُعم للحشود. لا يمكنه الهرب من الحشد؛ لكنه يستطيع إسدال ستار خفي بينه وبين الحشد، حجاب يرى الحشد عليه سراب معروض لبعض السياسات، بينما تُصنَع السياسة الحقيقية خلفها.

باستثناء هذه الخدعة، الحكومة بالفعل تحت سيطرة الشعب - وليس الحكم القضائي. ولكن نوع السيطرة مستمدة من أنّ الناس مهتمون بالسياسة ويحاولون متابعتها وفهم العمل الحكومي، ويعلنون آرائهم أيضًا. ففي النهاية، الحشود تهتم بالسياسة.[1] وهذا أيضًا جديد. حتى هؤلاء الذين لا يقرأون الصحف بعناية يمقطون فكرة الرقابة، خصوصًا عندما يشعرون أنَّ الحكومة تريد أن تخفي شيئًا عنهم أو أن تجعلهم جهلاء. الآن تتعود الحشود على صناعة أحكام سياسية؛ وكنتيجة للعملية الديمقراطية، تتعود الحشود على أن يتم استشارتهم بشأن بدائل سياسية وعلى أن يتلقوا معلومات سياسية.

ليس هذا إلا عادة، لكنها ترسخت ترسخًا عميقًا الآن؛ ومحاولة إبطالها سيثير على الفور أحاسيس الإحباط وصرخات الظلم. اهتمام الحشود بالسياسة، سواء أكان عميقًا أو سطحيًا، هو واقع. وإلى جانب ذلك، هناك سبب بسيط جدًا يشرح هذا: اليوم، كما لم يكن من قبل في التاريخ، القرارات السياسية تؤثر على الجميع. قديمًا، أثرت الحرب على عدد صغير من الجنود ورقعة صغيرة من الأرض في البلد المحارب. أما اليوم، فالكل جنود، والشعب قاطبة والأرض بكل أنحائها ضالعة في الحرب. ومن ثم، يريد الكل أن يكون لهم رأي بشأن موضوع الحرب والسلام.

---

(1) تقوم الديمقراطية على الاعتقاد أنّ المواطن يستطيع اختيار الشخص المناسب والسياسة المناسبة. لأنّ هذا ليس الحال بالضبط، يتم ممارسة البروباجاندا على الحشد لدفعه على المشاركة. تحت هذه الظروف، كيف يمكن للحشد ألا يقتنع أنه مهتم جدًا؟

وبالمثل، قد ارتفعت الضرائب عشرة أضعاف على الأقل منذ القرن السابع عشر، وهؤلاء الذين يدفعونها طبعًا يريدون بعض السيطرة على استخدامها. التضحيات التي تتطلبها الحياة السياسية تظل في ازدياد وتؤثر على الجميع؛ ولذلك يريد الجميع المشاركة في هذه اللعبة، التي تؤثر عليهم تأثيرًا مباشرًا. لأنّ قرارات الدولة ستؤثر عليّ، أرغب في التأثير عليها. وكنتيجة لذلك، الحكومات لم تعد تستطيع أن تحكم بدون الحشود وتأثيرها، وحضورها، ومعرفتها، وضغطها. فكيف إذًا يمكن للحكومات أن تحكم؟

يعتبر حكم الرأي العام حقيقة بسيطة وطبيعية. وتعتبر الحكومة مُنتَج هذا الرأي الذي تستمد القوة منه. وتعبر عن الرأي العام. وهنا نقتبس كلمات نابليون الشهيرة: "تستند القوة إلى الرأي. ما هي الحكومة التي لا يدعمها الرأي؟ لا شيء." نظريًّا، الديمقراطية هي التعبير السياسي عن الرأي الجماهيري. معظم الناس يعتقدون أنّه من السهل ترجمة هذا الرأي إلى الفعل، ويرون أنّه واجب الحكومة أن تخضع إلى الإرادة الشعبية. للأسف، في الواقع كل هذا أقل وضوحًا وليس بهذه البساطة. ندرك أكثر فأكثر، على سبيل المثال، أنّ الرأي العام لا يعبر عن نفسه في الاستطلاعات وهو بعيد عن التعبير عن ذاته بجلاء في الاتجاهات السياسية. ونعرف أيضًا أنّ الرأي العام فعلًا غير مستقر، ومتقلب، وغير ثابت على الإطلاق. وعلاوة على ذلك، هذا الرأي ليس عقلانيًّا ويتطور بشكل غير متوقع. لا يتكون إطلاقًا من أغلبية القرارات العقلانية في مواجهة المشكلات السياسية، كما هو معتقد في الرؤى الساذجة. فلا يمكن أن تعكس أغلبية الأصوات الرأي العام الحقيقي. طبيعتها غير العاقلة بالأساس تَحِد من قدرتها على الحكم في النظام الديمقراطي لدرجة كبيرة. تقوم الديمقراطية على المفهوم أنّ الإنسان عاقل وقادر على أن يرى بوضوح ما يخدم مصالحه الشخصية، لكن دراسة الرأي العام تشير إلى أنّ هذه فرضية مشكوك فيها جدًّا. ومن يحمل الرأي العام عمومًا هو الإنسان الجماهيري، من الناحية النفسانية، وهذا يجعله غير مناسب على الإطلاق لممارسة حقه في المواطنة بشكل صحيح.

وهذا يؤدي بنا إلى الاعتبار التالي: من ناحية، لم تعد الحكومة تعمل خارج نطاق ضغط الحشود والرأي العام؛ ومن ناحية أخرى، لا يعبر الرأي العام عن نفسه في الشكل الديمقراطي للحكومة. للتأكيد، على الحكومة أن تعرف وتفحص الرأي العام باستمرار[1]. وعلى الدولة الحديثة دائمًا أن تقوم باستطلاعات للصحافة والرأي وتطالع الرأي العام بطرائق أخرى متنوعة. لكن السؤال الأساسي هو: هل الدولة إذًا تطيع ذلك الرأي وتعبر عنه وتتابعه؟ إجابتنا الواضحة هي أنّها لا تفعل ذلك حتى وإن كانت في دولة ديمقراطية. إجلال من هذا النوع مِن قِبَل الدولة للرأي العام مستحيل - أولًا، بسبب طبيعة الرأي العام نفسه، وثانيًا، بسبب طبيعة الأنشطة السياسية المعاصرة.

الرأي العام متغير ومتقلب إلى الحد أنّ الحكومة لن تستطيع أبدًا تأسيس مسار للعمل عليه. حالما أن تبدأ الحكومة في السعي وراء أهداف معينة محبذة في استطلاع رأي، فينقلب الرأي ضدها. يجب أن تواكب تغيرات السياسة تغيرات الرأي في سرعتها، وعلى العمل السياسي أن يعكس عدم العقلانية التي يتسم بها الرأي. وكما أن الرأي العام دائمًا في نهاية المطاف هو "رأي العاجزين،" فبالتالي ستُسلّم إليهم القرارات السياسية. وإلى جانب شبه استحالة مجرد اتباع الرأي العام، الحكومة عندها وظائف معينة - خصوصًا الوظائف ذات الطبيعة التقنية - خارج هذا الرأي تمامًا.

وبصدد مشروع يشتمل على مليارات ويستمر لأعوام، فهذا ليس أمر اتباع الرأي العام - إما في بدايته، قبل أن يتبلور، وإما لاحقًا، حين لا يمكن للمشروع

---

(1) الاتحاد السوفيتي، بالرغم من طابعه الاستبدادي وغياب استطلاعات الرأي، يبذل نفس القدر من الجهد لمتابعة الرأي العام - من خلال المحرضين (الذين يُطلِعون الحكومة على حالة الناس الذهنية) ومن خلال رسائل إلى الصحافة. الحكومة لا تأخذ الرأي بعين الاعتبار من أجل طاعته، بل لمعرفة مستواه ولتحديد أي عمل من أعمال البروباجاندا مطلوب للسيطرة على هذا الرأي. على الحزب ألا يستبق الرأي العام ولا يتخلف عنه أيضًا. ولتحديد إيقاع عمل الدولة، يجب أن تعرف الحالة الذهنية للحشود.

أن يرجع للوراء بعد أن تعدّى كل الحدود. في أمور مثل سياسة النفط الفرنسية في الصحراء الكبرى أو توفير الطاقة الكهربية في الاتحاد السوفيتي، لا يمكن للرأي العام أن يلعب أي دور على الإطلاق.

ويحدث نفس الشيء حتى عند تأميم المشروعات بغض النظر عن الرأي الاشتراكي الظاهر. في كثير من الحالات، يجب أن تُصنع القرارات السياسية لتلائم المشكلات الجديدة الناشئة تحديدًا من التكوينات السياسية الجديدة في عصرنا، ومشكلات مثل هذه لا تتوافق مع الصور النمطية وأنماط الرأي العام الثابتة. ولا يمكن للرأي العام أن يتبلور بين عشية وضحاها - والحكومة لا يمكنها تأجيل الأعمال والقرارات حتى تلتحم الصور الغامضة والأساطير في النهاية داخل الرأي. في عالم السياسة الحاضر، على الفعل أن يسبق الرأي في كل وقت.

حتى عندما يكتمل تشكيل الرأي بالفعل، قد يكون اتباعه كارثيًا. قد أظهرت دراسات أُجريت مؤخرًا الدور الكارثي للرأي العام في السياسة الخارجية. لا تقدر الحشود على حل الصراع بين الأخلاق وسياسة الدولة، أو على تصور سياسة خارجية على المدى الطويل. تدفع الحشود الحكومة نحو سياسة خارجية مفجعة، كما حدث مع سياسة (فرانكلين روزفيلت) تجاه الاتحاد السوفيتي، أو سياسة "زر التشغيل" لـ(جونسون). أكبر خطر بخصوص السياسة الخارجية هو الرأي العام الذي يتجلى في شكل صراع، وانفجار.

بديهي أنّ الرأي العام لا يعرف إلا القليل عن الشؤون الخارجية ولا يهتم بها على الإطلاق؛ تمزقه الرغبات المتناقضة، وينقسم أمام أسئلة أساسية، فيسمح للحكومة باتباع أي سياسة خارجية تراها أفضل. لكن - في لحظة ما - يتجمع الرأي العام دفعة واحدة ولأسباب متنوعة، ترتفع درجات الحرارة، ويصير الإنسان متحمسًا ويؤكد ذاته (مثلًا، بشأن قضية إعادة التسلح الألماني). وهل يجب اتباع هذا الرأي؟ بقدر ما يعبر الرأي عن نفسه بشكل متقطع ويتدفق على

نحو غير منتظم، يخالف الاستمرار الضروري للسياسة الخارجية ويميل إلى قلب اتفاقات سابقة وتحالفات قائمة. لأنّ هذا الرأي متشرذم ومتقطع، لا يمكن للحكومة اتباعه حتى إن أرادت ذلك.

إذًا: حتى في الديمقراطية، الحكومة الصادقة والجادّة والخيّرة التي تحترم الناخب لا يمكنها اتباع الرأي العام. وكذلك لا يمكنها الهرب منه - فالحشود موجودة ومهتمة بالسياسة. لا يمكن للحكومة التصرف بدونها. فماذا يمكنها أن تفعل؟ لا يوجد إلّا حل واحد: إذ إن الحكومة لا يمكنها اتباع الرأي، يجب على الرأي اتباع الحكومة. يجب إقناع هذا الحشد الحاضر والأخرق والحماسي أنّ قرارات الحكومة مشروعة وجيدة وأنّ سياستها الخارجية صائبة. الدولة الديمقراطية، تحديدًا لأنها تؤمن بتعبير الرأي العام ولا تُسْكِته، يجب أن توجه ذلك الرأي وتشكله إذا أرادت أن تكون واقعية ولا تمشي وراء حلم أيديولوجي. لا يمكن حل عقدة (جرديوس) بأي طريقة أخرى. طبعًا، الأحزاب السياسية لديها بالفعل دور تكييف الرأي العام مع رأي الحكومة.

وقد أظهرت دراسات عديدة أنّ الأحزاب السياسية في معظم الوقت لا تتفق مع ذلك الرأي، حيث إنّ الناخبين - وحتى أعضاء الأحزاب - لا يعرفون عادةً عقائد أحزابهم، وإنّ الناس ينتمون إلى أحزاب لأسباب غير أيديولوجية. لكن الأحزاب توجه رأي حر الحركة في شكل عبارات موجودة، وتجتذبه إلى الجوانب المضادة التي لا تعكس بالضرورة مبادئ أصيلة لذلك الرأي. تشوه الأحزاب الرأي العام وتمنعه من التشكل بشكل طبيعي حيث إنها متزمتة وتتصرف بدوافع سياسية بحتة ولا تتعامل إلا مع جزء واحد من أي قضية. لكن حتى خارج نطاق تأثير الأحزاب، وهو فعلًا تأثير البروباجاندا؛ يتواجد الفعل الحكومي بذاته وفي ذاته.

الدولة الأكثر خيرًا ستقول للناس ما تفعله.[1] من المنطقي أن تشرح

---

(1) على سبيل المثال، هل من العادي أن تكون "الخطة" في فرنسا تعبيرًا عن حكومة خبراء مغلقة، وألا يكون العوام ملمين فعلًا بها أبدًا إلمامًا صحيحًا؟

الحكومة كيف تتصرف، ولماذا تتصرف، وما المشكلات؛ لكن عندما تنشر هذه المعلومات، لا تستطيع الحكومة أن تظل موضوعية ببرود؛ فيجب أن تدافع عن قضيتها حتمًا، إن أرادت مواجهة البروباجاندا المضادة[1]. ولأن المعلومات وحدها غير فعالة، نشرها يؤدي بالضرورة إلى البروباجاندا، ولاسيما عندما تضطر الحكومة إلى الدفاع عن أفعالها أو عن حياة الوطن ضد الأعمال الحرة. تفرض الشركات العملاقة وجماعات الضغط مصالحها الخاصة، وتلجأ إلى التلاعب النفساني على نحو متزايد. هل يتوجب على الحكومة أن تسمح بذلك دون الاستجابة له؟ ولأنّ المعلومات النقية والبسيطة لا تستطيع ببساطة أن تتغلب على تقنيات البروباجاندا الحديثة، على الحكومة أيضا أن تتصرف من خلال البروباجاندا. في فرنسا، ظهرت هذه الحالة في 1954م، حين استخدم الجيش أفلامًا وكتيبات لتحدي بروباجاندا "مجتمع الدفاع الأوروبي" التابع للحكومة.

لكن، من اللحظة التي يستطيع الجندي فيها أن يصوت، يخضع للبروباجاندا من جماعات خارجية، وهو نفسه فرد من أفراد جماعة ضغط - ويا لها من جماعة! قد يكون الجيش نفسه جماعة ضغط مهيبة. ارتبطت الوعكة السياسية الشهيرة في فرنسا في جزء منها بجهود الحكومات المتعاقبة للتأثير على تلك الجماعة عن طريق وسائل نفسانية، وتفتيتها. كيف يمكننا أن ننكر حق الحكومة في فعل ما تفعله كل الجماعات الأخرى؟ كيف يمكننا مطالبة الدولة الحديثة بالتسامح مع جماعة مستقلة؟

تعتبر مطالبة (بليفين) في 1954م، ومفادها أنّه "لا يجب أن يكون هناك أي بروباجاندا في اتجاه أو آخر،" الأكثر إشباعًا من الناحية الأخلاقية، غير أنّها غير واقعية، ونظرية إلى أبعد حد. علاوة على ذلك، زعم أيضًا أنّ ما قد سُميَ بروباجاندا كان معلومات نشرتها الحكومة، فقط لا غير. هناك واقعان - المعلومات والبروباجاندا - لا يمكن تمييزهما عن بعضهما البعض إلى درجة أنّ

---

(1) سَنُمْعِن النظر في هذا في مكان آخر بتفصيل أكثر.

العدو لا يقول إلا البروباجاندا، أما نحن فلا نقول إلا المعلومات.[1]

ولكن هناك أكثر من ذلك: في الديمقراطية، يجب أن يرتبط المواطن بقرارات الحكومة. هذا هو الدور العظيم الذي على البروباجاندا أن تؤديه. يجب أن تعطي للناس الشعور- الذي يشتاقون له والذي يشبعهم - بأنهم أرادوا ما تفعله الحكومة، وبأنهم مسؤولين عن أفعالها، وأنهم منخرطين في الدفاع عن هذه القرارات وإنجاحها، "أن يكونوا معها"[2].

يرى الكاتب (ليو هامون) أنّ هذا هو المهمة الرئيسية للأحزاب السياسية، والاتحادات، والجمعيات. لكنه ليس الإجابة الكاملة. هناك حاجة لأعمال مثيرة للمشاعر ومباشرة أكثر من ذلك لربط الرأي، ليس بأي شيء، بل بأفعال السلطة السياسية. وقد قال الكاتب الأمريكي (برادفورد ويسترفيلد): "في الولايات المتحدة، تمارس الحكومة دائمًا تقريبًا سياستها الخارجية بمبادرتها الذاتية. لكن عندما يهتم عامة الناس بمسألة معينة، لا يمكن للحكومة مواصلة سياستها إلّا بالدعم الظاهر من قبل الأغلبية العظمى من الناس." ويشدد (ويسترفيلد) على أنّه يجب تقديم تنازلات أحيانًا إلى الناس، لكن "إذا وَجّه الرئيس الرأي فعلًا، وإذا قبل عامة الناس السياسة الخارجية للحكومة ككل، فلن يكون هناك ضرورة لتقديم أي تنازلات كبيرة لاستجلاب الدعم اللازم."[3] هنا، نجد التأكيد أنّ أي دولة حديثة، حتى إن كانت ديمقراطية، تتحمل عبء مهمة التصرف عبر

(1) من المعروف أنّ الرأي الفرنسي هو أن كل شيء يجيء من الدولة، حتى الأكثر صدقًا، سيسمى بروباجاندا تلقائيًا وبدون تمحيص؛ ولذا فالمواطن الفرنسي المعاصر تأثر بالبروباجاندا تأثرًا كبيرًا؛ فهو ليس حر ولا ناقد. هذا ما حدث إلى خطابات (منديس- فرانس) والإعلانات المتعلقة بالحرب في الجزائر.

(2) Leo Hamon: "Le Pouvoir et l'Opinion," *Le Monde*, April 1959.

(3) Bradford Westerfield: "Opinion and Parties in American Foreign Policy," (A.F.S.P., 1954).

البروباجاندا – لا يمكنها التصرف بدونها.[1]

لكن يجب إجراء نفس التحليل من نقطة انطلاق أخرى. لقد تتبعنا معضلة الدولة الحديثة. منذ القرن الثامن عشر، قد أعلنت الحركة الديمقراطية فكرة شرعية السلطة، وفي نهاية المطاف نشرتها بين الحشود؛ وبعد سلسلة من النظريات عن تلك الشرعية، قد وصلنا الآن إلى النظرية المشهورة لسيادة الشعب. تعتبر السلطة شرعية عندما تُستمد من سيادة الشعب، وتستند إلى الإرادة الشعبية، وتعبر عن هذه الإرادة وتتبعها.

يمكن مناقشة مدى صحة هذا المفهوم من الناحية النظرية إلى المنتهى؛ يمكننا دراسته عبر التاريخ وأن نسأل إذا كان هذا ما ظنه (روسو). على أي حال، هذه النظرية الفلسفية والتجريدية جدًّا قد صارت فكرة كاملة التطور وغير قابلة للدحض في ذهن الإنسان العادي. فبالنسبة إلى الشخص العادي في الغرب، إرادة الناس مقدسة، والحكومة التي تفشل في تمثيل هذه الإرادة استبدادية شائنة. كل مرة يعبر الناس عن رأيهم، ينبغي للحكومة أن تتماشى معهم؛ ليس هناك أي مصدر آخر للشرعية. هذه هي الصورة الأساسية، التحيز الجماعي الذي أصبح إيمانًا بديهيًّا ولم يعد مجرد عقيدة أو نظرية عقلانية. وقد انتشر هذا الإيمان بسرعة

---

(1) لم تعد الدولة تحكم بدون المشاركة المباشرة لمواطنيها في مشاريعها. قال (جوبلز) في 1934م إنّ أغلبية الألمان كانوا يدعمون (هتلر). لكن، هل كانوا ناشطين؟ هل كانوا سعداء بهذه المشاركة السياسية؟ وأخيرًا، هل كان من الممكن الطموح في استمرار الامتثال؟ البروباجاندا ضرورية لضمان هذا الامتثال. طبقًا لـ(ميجريت)، "التصرف النفساني في الديمقراطية ليس إلَّا هذا الخادم الخفي والحذر...للوظائف الكبيرة للدولة...وهو سبب نجاح أعمال الحكومة الشرعية عن طريق ولاء العقول."
هذه المشاركة اللازمة ليس بالضرورة عفوية. يتسم الأفراد الذين يزعمون أنّهم يسيطرون على السياسة بالسلبية البالغة في الوقت ذاته. من ناحية، لا يصدقون ما يُقال لهم؛ ومن ناحية أخرى، يميلون إلى وضع حياتهم الخاصة قبل كل شيء وإلى اللجوء إليها. على الدولة أن تفرض على الفرد المشاركة (في أدنى مستوى، يجب أن تجبره على التصويت).
ومن ثم، فالدور الرئيسي للبروباجاندا سيكون مكافحة المعارضة واللامبالاة.

فائقة في السنوات الثلاثين الأخيرة. نحن الآن نجد نفس الإيمان الثابت والمطلق في كل البلاد الشيوعية، وبدأنا نراه حتى في البلاد الإسلامية حيث يجب أن هذا يكون هذا النوع من الاعتقاد بعيدًا جدًّا عن المألوف. يبدو أن القوة المُعْدِية لهذا الإيمان لا ينضب.

وبالعكس، لا يمكن للحكومة أن تشعر بأنّها شرعية ولا يمكنها أن تدعي ذلك إلّا إذا استندت إلى سيادة الشعب وأثبتت أنّها تعبر عن إرادة الشعب؛ وإلّا سيُطاح بها على الفور. بسبب هذا الإيمان الروحاني بسيادة الشعب، يحاول كل المستبدين أن يظهروا أنّهم تعبيرًا عن السيادة. لوقت طويل، كان هناك ظن أن نظرية سيادة الشعب مرتبطة بمفهوم الديمقراطية. لكن، يجب أن نتذكر أنّه عندما تُطبّق تلك العقيدة للمرة الأولى، ستؤدي إلى نشوء الاستبدادية الأكثر صرامة – مثل تلك التي اتبعتها "جمعية اليعاقبة." ومن ثم، لا يمكننا أن نشكو عندما يتكلم المستبدون المعاصرون عن سيادة الشعب.

هذا الاعتقاد قوي جدًّا إلى درجة أنّه ليس من الممكن أن تتواجد أي حكومة بدون أن ترضيه أو أن تبدي الاقتناع به. انطلاقًا من هذا الإيمان، تأتي ضرورة انتخاب المستبدين عن طريق الاستفتاء. كان (هتلر)، و(ستالين)، و(تيتو)، و(موسوليني) كلهم قادرين على الزعم أنّهم نالوا سلطتهم من الشعب. وهذا ينطبق حتى على زعيم مثل (جومولكا) أو (راكوسي): كل استفتاء يظهر النتيجة الشهيرة التي تتذبذب بين 99.1 بالمئة و99.9 بالمئة من الأصوات. ومن الواضح للكل، بمن فيهم المُنتخَبين، أنّ هذا فقط من أجل المظهر، "استشارة" الشعب بدون أي أهمية – غير أنّه واضح بنفس الدرجة أنّه لا يمكن النجاح بدونها.

ويجب تكرار المراسم من وقت إلى آخر ليثبتوا أنّ الشرعية ما زالت موجودة، وأنّ الناس ما زالوا يتفقون اتفاقًا تامًّا مع ممثليهم. يتأقلم الناس مع هذا كله؛ ففي النهاية، لا يمكن إنكار أنّ المصوتين فعلًا يصوتون، وأنّهم يصوتون بالطريقة المفضلة لديهم – النتائج ليست مزورة وإنما امتثال. هل يمكن أن يكون هناك فعلًا

ما يُسمى سيادة الشعب؟ هل يمكننا أن نأمل أن ينبثق شكل دستوري حقيقي من الناس دون محاولات سابقة للتأثير عليهم؟ فرضية مثل هذه سخيفة. إن الواقع الوحيد هو العرض على الناس شيء يتفقون معه. لم نرَ حتى الآن مثالًا واحدًا لأُناس لا يمتثلون في النهاية لما عُرض عليهم. في استفتاء عام، الأصوات الموافقة دائمًا تتجاوز الأصوات المعارضة، وهنا نرى مرة أخرى الجهاز المستخدم للتأثير على الحشود هو البروباجاندا التي تستخدمها الحكومة لتعطي نفسها شرعية عبر الإذعان العام.

هذا يؤدي بنا إلى اعتبارين إضافيين: الأول، لا بد أن يتحقق الإذعان، ليس فقط لنظام الحكومة، بل لكل أفعالها المهمة. كما قال (دروين) بحنكة، "ليس هناك ما يغيظ الناس أكثر من إحساسهم بأنهم تحت إمرة المسؤولين (الماندرين) الذين يفرضون قرارات من أعالي السلطة." وعلى ذلك، هناك حاجة "لإعلام" الشعب بشكل أفضل.

"ضرورة حكمة القرارات لا تكفي؛ بل يجب إعطاء الأسباب. لكي يعمل المشروع عملًا جيدًا، من أفضل تفكيكه إلى أجزاء في العلن دون تعتيم على نقاط ضعفه ودون إخفاء تكاليفه... وتوضيح معنى التضحيات المطلوبة من الناس."[1] ولكن تستهدف المعلومات من هذا النوع حقًا الإذعان والمشاركة؛ فهي، بعبارة أخرى، البروباجاندا بمعناها الأعمق. ولكننا قد اعتدنا على رؤية حكوماتنا تتصرف بهذه الطريقة.

في 1957م، عندما دُعي الشعب السوفيتي إلى دراسة ومناقشة "أطروحات إعادة التنظيم الاقتصادي" التي قدمها (خروتشوف)، شهدنا عملية لافتة للنظر حقًا. كان الموضوع الأساسي وراء كل ذلك، بالطبع، هو أن الشعب هو مصدر كل القرارات. فكيف إذًا يمكن ألا يتفق الناس بعد ذلك؟ كيف يمكن ألا يتمكنوا من الإذعان التام لما قرروا في بادئ الأمر؟ تقدمت الأطروحات إلى

(1) "Sur le Régime de la V République," *Le Monde*, April 1959.

الشعب أولًا. وكان طبيعيًا أن يفسر اختصاصيو البروباجاندا التحريضية هذه الأطروحات لاحقًا في كل أروقة منظمات الحزب والمجلس السوفيتي المحلي واتحادات الكومسومول وفي النقابات والمصانع وغيرها.

ثم تجرى المناقشات. وبعد ذلك، تتيح صحيفة (*Pravda*) أعمدتها للجمهور، والعديد من المواطنين أرسلوا تعليقاتهم وعبروا عن آرائهم واقترحوا تعديلات. وماذا حدث بعد ذلك؟ أقر المجلس السوفيتي الأعلى البرنامج الحكومي بأكمله، بدون أدنى التعديلات. ورُفضت حتى التعديلات التي قدمها ودعمها نواب مختلفون، وكذلك التعديلات التي قدمها المواطنون؛ إذ إنها كانت مجرد آراء فردية "أقلية" وتافهة من وجه نظر الديمقراطية "الأغلبية." ولكن، استشارة الناس وإعطائهم فرصة للتناظر والجدل وطلب رأيهم وأخذها بعين الاعتبار (هكذا بدا الأمر لهم) أعطاهم شعورًا بالرضى الهائل.[1] هذا هو المظهر الديمقراطي الذي لا يمكن لأي حكومة استبدادية أن تستغني عنه.

باستثناء هذا، تؤدي ممارسات مثل هذه بالحكومة إلى تبني النهج المستمد منطقيًا من مبدأ الديمقراطية الشعبية، ولكن لا يمكنه أن يتطور إلا كنتيجة للبروباجاندا المعاصرة: الآن عادة الحكومة أن تعمل كوسيط بين الحشود بطريقتين. أولًا، تذهب الحكومة إلى الشعب أكثر فأكثر أملًا في التماس دعم لسياساتها. عندما يبدو أن قرارًا يلقى مقاومةً ولن يقبله الناس قبولًا تامًا، تخاطب البروباجاندا الحشود لكي تحرّكهم؛ حركة الحشد البسيطة تكفي لمنح صلاحية للقرار: ما هي إلا امتداد للاستفتاء.

عندما فَرَضت الديمقراطية الشعبية نفسها في تشيكوسلوفاكيا بعد انقلاب قامت به الشرطة، عقدت الطبقة العاملة اجتماعات حماسية جيدة التنظيم والإعداد وواسعة النطاق - لكي تبيّن أنّ الشعب كله قد أجمع على شيء واحد.

---

(1) صرح (جوبلز) بضرورة "الإفصاح عن أعمال الحكومة حتى يستطيع الناس أن يدركوا وحدهم ضرورة التدابير المتبعة."

عندما أراد (فيدال كاسترو) أن يُظهر أنّ سلطته قامت على نزعة ديمقراطية، نَظّم "يوم العدالة" ودعا الشعب كله خلال هذا اليوم للحكم على النظام البائد والتعبير عن مشاعرهم من خلال تظاهرات ضخمة.

كانت النية من وراء هذه التظاهرات هي "تقنين" أحكام الإعدام التي أصدرتها محاكم الدولة، وهكذا تمنح "موافقة ديمقراطية" للأحكام القضائية. وبذلك نال (كاسترو) ولاء الشعب وإخلاصه لأنه أشفى غليلهم ورغبتهم في الانتقام من النظام السابق وعطشهم للدم. وقد قام بربط الشعب بحكومته أشد الروابط وأوثقها: الجريمة الطقسية. كان "يوم العدالة" (21 يونيو/ حزيران 1959م) اكتشاف عظيم للبروباجاندا دون شك. وإذا شعر (كاسترو) قليلًا بالإحراج في الخارج، فكان بالتأكيد نجاحًا عظيمًا على أرضه. تجدر الإشارة إلى أن الحث على عمل شعبي من هذا النوع دائمًا يسهم في دعم العمل الحكومي. هذا ليس عملًا عفويًا بأي حال من الأحوال، ولا يمكن إطلاقًا أن يعبّر عن رغبة الشعب الغريزية: فهو يعبر فقط عن نداء البروباجاندا الحكومية عبر عدد غفير من حناجر الحشود.

ثانيًا – وهذه عملية أكثر دقة – تقترح البروباجاندا الحكومية أنّ الرأي العام يطلب هذا القرار أو ذاك، يثير إرادة الشعب الذي لن ينبس بكلمة من تلقاء نفسه، ولكن بمجرد أن تُثار وتتشكل وتتبلور على فكرة ما، ستصبح إرادة الشعب. وفي حين أن الحكومة في الواقع تتصرف وحدها، تتظاهر بأنها تطيع الرأي العام – بعد أن رسّخت الرأي العام هذا أولًا.

الهدف هو دفع الحشود على أن يطلبوا من الحكومة ما قررت أن تقوم به فعلًا. وإذا اتبعت الحكومة هذا الإجراء فلم يعد ممكنًا أن توصف الحكومة بأنها استبدادية، لأنّ مطالب إرادة الشعب تتحقق. وبهذه الطريقة، حين أجمع الرأي العام الألماني على طلب تحرير تشيكوسلوفاكيا، لم يكن أمام الحكومة الألمانية خيارًا إلا غزو هذا البلد طاعةً للشعب. أذعنت الحكومة لرأي فور أن أصبح هذا الرأي – من خلال بروباجاندا – قويًا بما يكفي ليظهر مؤثرًا على الحكومة.

كان "يوم العدالة" عند (كاسترو) من نفس العجين: أعدته حملة بروباجاندا ممتازة بالإضافة إلى هؤلاء الذين أُثيروا بعناية ثم طالبوا الحكومة بتنفيذ أحكام "عادلة." وهكذا لم تنل الحكومة فقط موافقة على أعمالها، بل طالب الشعب الحكومة بإجراءات عقابية شديدة. وقامت الحكومة الشعبية ببساطة بتلبية هذا الطلب الذي، طبعًا، صنعته البروباجاندا الحكومية .

هذا العمل الدائم للبروباجاندا يجعل الشعب يطالب بما تقرره سلفًا ويجعل الأمر يبدو كأنه تلقائي، ثم تقوم الحكومة الخيّرة والديمقراطية بتلبية رغبات الشعب الكامنة. هذا أفضل توصيف للعلاقة الحالية بين الحشد والحكومة. تم استخدام هذا النظام في الاتحاد السوفيتي خصيصًا، وفي هذا الصدد، لم يحرّر (نيكيتا خروتشوف) أي شيء على النقيض. ومع ذلك، كان نشوء هذه الظاهرة بعينها متوقعًا من اليوم الذي بدأ يترسخ فيه مبدأ سيادة الشعب. وكنتيجة، لا يمكن اعتبار تطور البروباجاندا على أنه انحراف أو حادثة.

الدولة ووظائفها

من وجه نظر الحكومة، يجب أن نتذكر عنصرين إضافيين - الوضع التنافسي الذي تجد الديمقراطية نفسها فيه في هذا العالم، وتفسخ الفضائل الوطنية والمدنية. من السهل لنا أن نفهم الأسباب وراء استخدام النظام الشمولي للبروباجاندا. أما الأنظمة الديمقراطية، إذا قررنا ألا نشكك في مصداقيتها، فتشعر بشيء من الندم والاشمئزاز من استخدام البروباجاندا. ولكن تحديات خارجية هي التي تدفع أنظمة ديمقراطية مثل هذه على استخدامها حتى تواكب هذه التحديات.

منذ عهد (هتلر)، تعرضت الديمقراطية إلى حرب نفسانية لا هوادة فيها. إذًا، السؤال المهم هو أي من النظامين سيسود إذ إن كلا النوعين يدعي أنه نافع ومناسب لكل مكان: وهذا يجبر كل منهما على العمل ضد الآخر. بينما يدعي النظام الشيوعي أنه نذير سعادة الشعب، لا خيار له إلا أن يدمر كل الأنظمة الأخرى ويحل محلها. ولكن الديمقراطيات الغربية تواجه نفس المشكلة: في

نظرها، يعتبر النظام الشيوعي استبدادية رهيبة، ولذلك يجب التدخل في شؤون جيرانها، من خلال البروباجاندا بالدرجة الأولى، ومن خلال الأحزاب الشيوعية في بلدان غير شيوعية، كما يظن الشيوعيون.

وهذا بدوره يجبر الأنظمة الديمقراطية على صناعة بروباجاندا داخلية: لو أرادت التغلب على الأحزاب الشيوعية وعلى الاتحاد السوفيتي، لا بد للتقدم الاقتصادي أن يتسارع. في الحقيقة، ستظهر المنافسة بين النظامين للعيان جزئيًّا في المجال الاقتصادي. كلنا نعرف التحدي الاقتصادي لـ(خروتشوف). يحتاج هذا تسارع للتنمية الاقتصادية إلى تنظيم وحشد القوى الكامنة في قلب هذه الأنظمة الديمقراطية التي تقتضي عملًا نفسانيًا وتدريبًا خاصًا وحملة بروباجاندا دائمة تركز على ضرورة زيادة الإنتاج. وهذه نتيجة واحدة للمنافسة بين النظامين.

ولكن، هذه المنافسة تحدث على مستوى أعلى أيضًا: لا يمكن لأي شخص في العالم أن يتجنب تأثيرات المنافسة بين النظامين. لسوء الحظ، هذا هو نتيجة التضامن العالمي الذي رحب به البعض: ولا يمكن لأي شعب أن يبتعد عن نطاق الصراع بين العملاقين. يشعر النظام الديمقراطي أن واجبه احتلال كل الدول الصغيرة والسيطرة عليها، وإلا ستسقط في المدار الشيوعي. وفي سعيه لهذا الغرض، يستخدم وسيلتان معًا: السلاح الاقتصادي والبروباجاندا. في أيام الإمبريالية الكلاسيكية، كان السلاح الاقتصادي كافيًا مع دعم عسكري موجز بين الحين والآخر. حاليًا، تثبت الإخفاقات المتتالية للولايات المتحدة أن السلاح الاقتصادي غير مؤثر بدون البروباجاندا. مثلًا، في 1960م، تبرعت الولايات المتحدة للبلدان النامية بثلاثة أضعاف ما تبرع به الاتحاد السوفيتي الذي - بفضل البروباجاندا - يُعتد فاعل خير ومتبرع عظيم يمكن الوثوق به.

لكي تنجح المساعدات الاقتصادية، والتي وحدها لا تأثير لها، يجب أسر قلوب الناس وعقولهم. بالمثل، لا تحقق البروباجاندا وحدها أي شيء؛ إذ يجب أن تصحبها أعمال اقتصادية مذهلة. بلا شك، خسرت الأنظمة الديمقراطية حتى

الآن في مباراة الفوز بالشعوب الإفريقية والآسيوية، والسبب الوحيد لهذا هو رداءة البروباجاندا لديها وإحجامها عن استخدامها. وبالتالي، تندفع الأنظمة الديمقراطية دون مقاومة نحو استخدام البروباجاندا من أجل تجنب هزيمة حاسمة. أصبحت الحرب النفسانية ضرورة لسياسة السلام، وبات الاحتلال النفساني لشعوب بأسرها ضرورة لا يمكن الفرار منها. ولم يعد هناك لزومًا لاتخاذ قرار بشأن استخدام سلاح البروباجاندا - فليس هناك اختيار.

هناك أسباب وجيهة لتحليل هذا الشكل الجديد من العدوان. أحل العدوان غير المباشر (الاقتصادي أو الأيديولوجي) محل العدوان العسكري. تُضعِف البروباجاندا قوة ضحاياها من الأنظمة عن طريق حرمانها من دعم الرأي العام في بلادها. أضعفت البروباجاندا النازية النمسا وتشيكوسلوفاكيا إلى درجة العجز قبل غزوهما؛ وتتعرض بلدان أخرى لهذا العدوان باستمرار بلا أي هدف توسعي، ولا يمكنها الدفاع عن نفسها إلا باستخدام نفس وسائل الحرب النفسانية، لأنه ليس هناك أي منظمة دولية أو محكمة لتحميها من هذا الشكل العدواني؛ فالعمل النفساني متغير للغاية ويصعب تحديده بدقة ولا يمكن مقاضاته.

وفوق كل شيء، عند الدفاع عن النفس ضد العدوان النفساني بطريقة قانونية، لا يجب أن ننكر أن حرية الرأي والتعبير يكفلها "ميثاق الحقوق." وهنا مربط الفرس. على كل دولة أن تتقبل عبء الدفاع عن النفس ضد عدوان البروباجاندا. وبمجرد أن يسير بلد في هذا الطريق، على كل البلاد الأخرى أن تحذو حذوه في النهاية وإلا سَيَعُمَّها الخراب.

بشكل عام، رداءة تنظيم الديمقراطية يمنعها من شن حرب نفسانية فعالة. قال اختصاصيون فرنسيون - وقولهم مبرر بعض الشيء - إن: " الجيش وحده قادر على الانخراط في الحرب النفسانية بسبب بنائه الهيكلي." ولكن، في مواجهة حاجة النظام الديمقراطي لممارسة البروباجاندا، قيل أيضًا إن "التفكير السياسي

الداخلي في عالم الحرب الباردة يجب أن يصبح استراتيجي."[1] وبالتالي، فإن المشكلة هي حل الانقسام بين ما هو سياسي وما هو عسكري، وتحديد الدور السياسي للجيش وتكامله. نظرًا لضرورة ممارسة البروباجاندا، تجد الديمقراطية نفسها مضطرة إلى تغيير نباءها الهيكلي. ولكن الحرب الباردة لا تتطلب عملًا ضد العدو الخارجي الذي يحاول أن يتدخّل فحسب؛ وإنما تتطلب أيضًا "إحكام قبضتها" على الشؤون الداخلية. يجب أن تتسلح الدولة بأسلحة نفسانية وأن تحمي وتدافع عن مواطنيها نفسانيًّا، بل يزداد الأمر إلحاحًا عندما يكون البناء الأيديولوجي للديمقراطية هشًّا.

وهنا نواجه مشكلة جديدة: في عالم اليوم، أكثر بكثير من الماضي، لا يمكن أن تنجو الدولة إلا حينما تكون قيمها آمنة ومواطنوها مخلصين وعلى قلب رجل واحد ويراعون الفضائل المدنية. ولكن، في الوقت الحالي، هناك أزمة في القيم الأساسية وتراخ في الفضائل المدنية في عدد من البلاد الديمقراطية في الغرب. وتضطر الحكومات إلى إعادة بناء أوطانها على نحو نفساني وأيديولوجي، وبدورها تبرر هذه الحاجة العمل النفساني.

في واقع الأمر، في هذه الصلة، لا أحد تقريبًا يعترض على مثل هذا العمل النفساني، ويبدو أن الجميع يرونها ضرورة ومبررة "ما دام الأمر مقصورًا على التعليم الأخلاقي للجنود ونشر الحقيقة." ومع ذلك، يعترض كثيرون على الضغط على عقول الناس. حتى وإن توفرت حسن النية؛ لا يستطيع المعترضون أن يروا العنصرين اللذين يحاولون فصلهما على الإطلاق - قول الحق وممارسة الضغط على العقول - فهذان الشيئان متطابقان في الحقيقة. كيف يمكن إعادة بناء الفضائل المدنية بسرعة، من أجل حصد الثمار، دون استخدام الضغط لتغيير وجهات نظر الناس؟

من اللحظة الأولى التي تشعر فيها الدولة بالحاجة لإعادة بناء الأمة على نحو

---

(1) T Albord, *Le Monde*, 1958

أيديولوجي، لا مفر من اتباع مناهج البروباجاندا النقية والبسيطة. وبالطبع، الأهداف التي تسعى لتحقيقها نقية أيضًا. فمثلًا يقول الجيش الفرنسي:

> ...بعيدًا عن الانخراط في العمل النفساني لاستعباد العقول، لا يستهدف أغلبية عقداء الجيش إلا ضمان حرية البشر... فهم يفهمون أنه لا يمكن لشخص حر أن يدع عقيدة ما تسيطر عليه وتختزله لمجرد شيء... إذ إنهم يعرفون أن أي حرب محتملة في المستقبل ستتضمن هجوم على العقل، أو بالأحرى، هجوم ضد إحدى وظائف العقل: الإرادة... لا يهدف العمل النفساني بالجيش إلا لتزويد الأفراد بالوسائل الكافية للدفاع على الحرية حيثما لا تزال موجودة. لهذه الغاية يكفي تعزيز إرادة المقاومة إذا تعرضت هذه الإرادة لهجوم. يجب تعليم المهددين أهدافنا ومهمتنا والوسائل لتحقيقها[1].

هنا يُقدَّم العمل النفساني في أفضل صورة ممكنة، ولا يمكننا حتى الاعتراض على هذا المنطق: فهو يعكس مشاعر غالبية الليبراليين. وهنا يُقدِم العمل النفساني نفسه كنوع من التعليم الوطني. وفقًا لكاتب فرنسي آخر، العمل النفساني "مصمم ليشكل ويطور ويحافظ على الروح المعنوية ويُكسِب المناعة للجند ضد هجمات العدو النفسانية." وهذا مُعَد لوقت الحرب، عندما تكون المهمة الأولى هي تشكيل الجيش الذي "يجب أن يحافظ على تماسكه الداخلي الروحاني السليم." وبالتالي يمكن وصف هذا على النحو التالي:

> "... تعليم مدني وأخلاقي للجميع تحت سيطرة العسكر، في سياق المعلومات الموضوعية، في مقابل البروباجاندا، والتي لم تُصمم إلا لتسليح المواطن روحانيًا في النظام الديمقراطي الحر... إن المناهج المتبعة هي التعليم والعلاقات الإنسانية؛ غايتها الرئيسية هي انخراط

---

(1) Colonel Villiers de L'Isle Adam, *Le Monde*, October, 1958.

تعاون الفرد المستهدف، والشرح له ومساعدته على فهم الجوانب المختلفة للمشكلات التي تواجهه."

بعبارة أخرى، إن الهدف هو التعليم المدني للجنود. يجب أن يتعلم الجندي قيم الحضارة والحقائق المدنية. وهذا ليس مشكلة فرنسية فقط، على سبيل المصادفة؛ نجد نفس التوجه بالضبط في ألمانيا. ولكن، من الجليّ أنه لا يمكن أن يقصر تعليم الجيش نفسه على الجنود. يصير عمل كهذا أسهل إذا كان المجندون الجدد قد تشربوا هذا التعليم بالفعل. من ناحية أخرى، لو كانت وظيفة الجيش وحده أن يحافظ على الفضائل المدينة سيشعر بالعزلة.

لكي يكون عمل من هذا النوع فعالًا، يجب أن تقوم به الأمة بأكملها. على هذا المنوال، قد يطمح الجيش في أن يكون معلم الأمة؛ ثم يصبح العمل النفساني على يد الدولة تجاه الأمة كلها ضرورة. صرح "الإعلان المؤقت للعمل النفساني" من عام 1957م أن سياسة الحياد من جهة الحكومة تدعو إلى التغيير الجذري للثقافة، ووضع الحكومة في موقف خطير؛ حيث إن غياب التعليم المدني يؤدي إلى انعدام الحس الوطني بين الشباب وإلى الأنانية الاجتماعية والعدمية.

وهذا يكشف النيات الحسنة والمخاوف المشروعة والأهداف الجادة وراء العمل النفساني كشفًا تامًا. ولكن، أليس هناك أوهام كثيرة في التمييز الصارم بين العمل النفساني والبروباجاندا، وبين مناهج العدو ومناهجنا؟ في الحقيقة، عند مواجهة حشد من الأفراد الذين يجب تشكيلهم وإشراكهم وإعطائهم ردود أفعال قومية معينة؛ فيجب تعريفهم بمقياس للقيم يستطيعون من خلاله الحكم على كل شيء. لو كان هناك الكثير من الوقت وعدد كبير من المعلمين النجباء والمؤسسات المستقرة والكثير من المال، ولو لم تشترك فرنسا في حرب أو منافسة دولية، لكان ممكنًا إعادة بناء الفضائل المدنية في النهاية من خلال المعلومات وعرض المثل الحسن.

ولكن الوضع هنا مختلف. يجب أن يكون العمل سريعًا وأن يقوم به القليل من المعلمين؛ وبالتالي ليس هناك إلا طريق واحد: استخدام الأدوات الأكثر فعالية

ومناهج البروباجاندا التي ثبت نجاحها. وعند تنافس أنواع البروباجاندا المختلفة، البروباجاندا الحقيقية هي الوحيدة القادرة على الاستجابة بسرعة وبفعالية. وكنتيجة لذلك، آثار البروباجاندا على شخصية الفرد هي نفس آثار بروباجاندا العدو (نقول هنا الآثار على الشخصية وليس على بضعة آراء بعينها). سنحلل هذه الآثار بالتفصيل لاحقًا. على أي حال، لا يمكن أن نقول: نعمل كي نحافظ على حرية الفرد لأن البروباجاندا - بغض النظر عن المصدر - تحطم شخصية الفرد وحريته.

لو قال أحدهم: "يجب هزيمة العدو، ولهذه الغاية جميع الوسائل خيرة،" لن نعترض. سيعني هذا اعتراف وقبول الواقع أن الديمقراطية، سواء أشاءت أو لم تشأ، تشارك في البروباجاندا. ولكن، يُعتبر وهم مشاركة الفرد في العمل النفساني للدفاع عن نفسه - بينما يحترم قيم الديمقراطية والشخصية البشرية - أكثر ضررًا من أي سخرية تنظر بصراحة على الوضع الحقيقي. تكشف دراسة دقيقة عن المعلومات والتعليم والعلاقات الإنسانية والبروباجاندا أنه لا يوجد أي اختلافات جوهرية بينها من الناحية العملية. أي تعليم بتوجه سياسي - يخلق "قيم خاصة" معينة - يُعتبر بروباجاندا. وإشارتنا لـ "القيم الخاصة" تؤدي بنا إلى اعتبار آخر: إدراج قيم خاصة كالوطنية في جهود إعادة البناء المدني يستبعد قيم أخرى مثل مبادئ الدولية واللاسلطوية والسلمية.

يفترض المرء أن قيم وطنه مُسلّم بها ومبررة بذاتها. وانطلاقًا من ذلك، يستنتج أنه لا يواجه إلا مشكلة التعليم لأنه لا يوجد قيم غير هذه القيم الوطنية. ولكن الوضع ليس كذلك. في الحقيقة، تأكيد قيم معينة نريد أن نغرسها في ذهن المستمعين ورفض قيم أخرى نريد أن نمحوها من عقولهم - هي بدقة عملية بروباجاندا. وهكذا، نصل لنفس الخلاصة، ولكن من طرقات مختلفة: الدولة الحديثة، سواء أكانت ليبرالية أو ديمقراطية أو إنسانية، تجد نفسها (موضوعيًا واجتماعيًا) في حالة يتوجب استخدام البروباجاندا فيها كوسيلة للحكم. لا يمكن عمل أي شيء خلاف ذلك.

2. ضرورة الفرد

إذا اعترفنا أن الحكومة ليس أمامها اختيار إلا صناعة البروباجاندا، ستظل في أذهاننا صورة الآلة السياسية الشمولية العدوانية التي تنقض على الضحية البريئة – الفرد. وبعد ذلك، سيظهر أن الفرد لا حول له ولا قوة، ويبدو أن القوى العملاقة قد سحقته. ولكن، أنا أعتقد أن البروباجاندا تسد حاجة الإنسان المعاصر – الحاجة التي تَخلِق بداخله رغبة لاشعورية في البروباجاندا. فهو في الموقف يحتاج فيه إلى مساعدة من الخارج حتى يتمكن من مواجهة الظروف. وهذه المساعدة هي البروباجاندا.

من الطبيعي أنه لن يقول: "أنا أريد البروباجاندا." بل على النقيض من ذلك، تمشيًا مع التصورات المسبقة، هو يمقت البروباجاندا، ويعتبر نفسه "حرّ وناضج." ولكن، في الحقيقة، يرغب في البروباجاندا ويناشدها لتساعده على درء هجمات بعينها وتخفف من توترات معينة. هذا يؤدي إلى اللغز التالي: "البروباجاندا بذاتها ليس لها سيطرة على الفرد، إذ إنها تحتاج إلى أعمدة دعم قائمة بالفعل لتتأسس عليها. فهي لا تخلق أي شيء، ومع ذلك لا يمكن إنكار فعالية البروباجاندا، حتى وإن بدا مستحيلًا تعريف أعمدة الدعم القائمة هذه تعريفًا دقيقًا."

والحل هو أن هذه الأعمدة هي حاجة الفرد للبروباجاندا. إن سر نجاح أو فشل البروباجاندا هو: هل سدت الحاجة اللاشعورية للفرد الذي تخاطبه أم لا؟ لا يمكن لأي نوع من أنواع البروباجاندا أن تكون مؤثرة إن لم يكن هناك حاجة إليها، حتى وإن ظهرت بشكل مختلف، ولكن ظلت لاشعورية[1]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن البروباجاندا موجودة في كل البلاد "المتحضرة" وتلازم كل "أشكال التقدم نحو الحضارة" في البلاد النامية، يبدو أن هذه الحاجة عالمية من

---

(1) في الاتحاد السوفيتي، يُقال بوضوح إن البروباجاندا تأتي نتيجة عملية بين أهداف الحزب وبين احتياجات الأفراد المتناقضة التي يوصلها المحرض المحلي للسلطات.

الناحية العملية؛ فهي جزء جوهري من المحيط الذي يجد الفرد نفسه فيه - في المجتمع التكنولوجي[1]. سنبحث أولًا الحالة الموضوعية للإنسان - الحالة التي تخلق هذه الحاجة للبروباجاندا، ثم حالته النفسانية.

الحالة الموضوعية

أكدنا أن الدولة لم تعد قادرة على الحكم بدون الحشود التي تنخرط انخراطًا مباشرًا في السياسة في الوقت الحاضر. ولكن هذه الحشود تتألف من أفراد، وفي نظرهم، تختلف المشكلة قليلًا: يهتمون بالسياسة ويعتبرون أنفسهم معنيين بالسياسة؛ حتى لو لم يُجبروا على المشاركة الفعالة لأنهم يعيشون في نظام ديمقراطي. ينشغلون بالسياسة فور أن يحاول أحد ما أن ينتزع النظام الديمقراطي منهم. ولكن هذا يضع أمامهم مشكلات تفوق قدرتهم على الفهم، حيث يجدون أمامهم اختيارات وقرارات تقتضي النضج والمعرفة وقدر من المعلومات لا يملكوه ولا يمكنهم أن يملكوه.

تقتصر الانتخابات على اختيار أفراد، وهذا يختزل مسألة المشاركة لأبسط صورها. ولكن الفرد يأمل في المشاركة بطرائق أخرى غير الانتخابات. فهو يريد أن يُلِم بالأمور الاقتصادية، وفي الحقيقة، حكومته تطلب منه ذلك. يريد أن يكوّن رأيًا عن السياسة الخارجية لكنه في الواقع لا يستطيع. وهو بذلك عالق بين رغبته وعجزه الذي يرفض أن يقبله لأنه لن يصدق أبدًا أنه غير قادر على تكوين آراء.

تكشف استطلاعات الرأي العام دائمًا أن الناس عندهم آراء حتى عن أكثر الأمور تعقيدًا، باستثناء أقلية صغيرة (عادةً هم الأكثر اطلاعًا والأكثر تأملًا). أما الأغلبية فتفضل التعبير عن أفكارهم الغبية على عدم التعبير عن أي رأي: وهذا

(1) يكشف انتشار الشائعات عن نشوء هذه الحاجة العامة. ولماذا تتواجد الشائعات؟ ومن ينشرها؟ فالشائعات تخلق الحاجة لتفسيرات في موقف ما، وتخفف التوتر العاطفي لأن الفرد يبحث فيها عن إجابات لما يزعجه. تعكس البروباجاندا نفس الاحتياجات بطريقة أكثر فعالية. ولكن الشائعات التلقائية تثبت وجود هذه الاحتياجات.

يعطيهم شعور المشاركة، ولهذا يحتاجون إلى أفكار بسيطة وتفسيرات بدائية، مثل "مفتاح" يسمح لهم باتخاذ موقف ما أو حتى تبني آراء جاهزة.

بينما يرغب أغلبية الناس في المشاركة، ولكن في نفس الوقت، يعجزون عنها، هم على استعداد أن يقبلوا البروباجاندا التي ستسمح لهم بالمشاركة وستخفي عجزهم تحت هذه التفسيرات والأحكام والأخبار، وتمكنهم من إرضاء رغباتهم دون التخلص من قصورهم. كلما تزداد الظواهر السياسية والاقتصادية تعقيدًا وتسارعًا وعمومية، يشعر الأفراد بالقلق أكثر وأكثر، وتزيد رغبتهم في المشاركة. وبمعنى ما، هذا هو مكسب الديمقراطية، ولكن هذا أيضًا يؤدي إلى المزيد من البروباجاندا. ولا يريد الفرد المعلومات، بل أحكام قيمية ومواقف مسبقة.

وهنا على المرء أن يضع في الاعتبار الكسل الذي يلعب دورًا حاسمًا في ظاهرة البروباجاندا بأسرها، واستحالة تنقل كل المعلومات بسرعة كافية لكي تواكب تطورات العالم الحديث. وفوق هذا، فهذه التطورات ليست فقط أعلى من إمكانيات الإنسان الفكرية، بل أيضًا تفوقه من حيث الشدة والمقدار؛ فهو لا يستطيع أبدًا أن يستوعب مشكلات العالم الاقتصادية والسياسية. ويشعر الإنسان بضعفه والتناقض داخله وعدم فعاليته عندما يواجه مثل هذه الأمور. ويدرك أنه يعتمد على قرارات خارج سيطرته، وإدراكه لهذا يؤدي به إلى اليأس.

لا يستطيع الإنسان أن يتحمل هذا الوضع لوقت طويل. فهو يحتاج إلى غطاء أيديولوجي لتغطية الواقع القاسي وبعض السلوان وسبب للوجود وفهم القيم. والبروباجاندا فقط هي التي تعطي الإنسان الدواء لوضع لا يطاق على الإطلاق. فضلًا عن ذلك، هناك تضحيات ضخمة مطلوبةً من الإنسان المعاصر، ومن المحتمل أن تتجاوز هذه التضحيات أي شيء عرفه في الماضي. أولًا، يضطلع العمل دورًا شائعًا للغاية في الحياة المعاصرة. لم يعمل الناس قط إلى هذا الحد بقدر ما يعملون في مجتمعنا. خلافًا لما يُقال عادةً، يعمل الإنسان هذه الأيام أكثر بكثير من القرن الثامن عشر مثلًا. لم يقل إلا ساعات العمل، ولكن مهام العمل

وواجباته وقيوده وظروف العمال الحقيقية وشدته التي لا تنتهي تثقل كاهله الآن أكثر بكثير من الماضي.

يعمل الإنسان المعاصر أكثر من العبد منذ عهد بعيد؛ تغيرت المعايير واتجهت إلى أسفل. ولكن بينما العبد كان يعمل لأنه كان مجبرًا على ذلك، الإنسان المعاصر - الذي يؤمن بالحرية والكرامة - يحتاج إلى أسباب ومبررات ليعطي لنفسه دافع للعمل. حتى الأطفال في الأمة الحديثة يقومون بقدر من العمل لم يُطلب من أي طفل أن يقوم به قبل بداية القرن التاسع عشر. وهنا كذلك المبررات مطلوبة. لا يمكن دفع الناس على العيش إلى الأبد في حالة من العمل الدؤوب الشديد الذي لا نهاية له دون تقديم أسباب مقبولة لهم وضرب أمثلة في فضيلة العمل، مثل الطبقة البرجوازية في القرن التاسع عشر أو أساطير التحرير من خلال العمل، مثلما فعل النازيون والشيوعيون. تفاني في العمل من هذا النوع لا يحدث بذاته أو تلقائيًّا، فصناعة هذا التفاني هو المهمة الأساسية للبروباجاندا التي تعطي الفرد أسبابًا نفسانية وأيديولوجية لوجوده أينما كان. لا يمكن أن نتوقع عملًا جيدًا ومنتظمًا من الإنسان فقط بالإشارة إلى الحاجة لهذا العمل أو حتى المكافأة المالية - يجب إعطائه رضا نفساني عالي الدرجة؛ فالإنسان يريد سبب عميق ومهم لما يفعل.

وإذ إن كل هذا يعد شأنًا جمعيًا، ستُقدم للإنسان عن طريق وسائل جمعية. وتقديم الدوافع الأيديولوجية الجمعية التي تقود الإنسان للفعل هو بالضبط مهمة البروباجاندا؛ فكل مرة كان الهدف هو زيادة إجمالي ساعات العمل الجاد، تحققت هذه الزيادة عن طريق البروباجاندا. كان الاتحاد السوفيتي مثالًا على ذلك باستخدام "الخطة الخمسية" والصين باستخدام "قفزات للأمام" كانت أيضًا مثالًا نموذجيًّا[1]. في فرنسا، اعتمدت الزيادة في الإنتاج كلها على حملة بروباجاندا

---

(1) ويؤدي هذا إلى مقارنة بين المحرض والعامل المتفاني في العمل (أودارنيك). وعلى المحرض - الذي يظل قوة سياسية - أن يكون عاملًا مثاليًا في نفس الوقت: عليه أنه يعرّف العمال الجدد على النظام الصناعي ويدفعهم نحو الالتزام بالمعايير والأعراف. كان التحريض =

هائلة. ولا يمكن حقًا أن يستمتع المواطن بعمله إذا لم يتلق دعمًا نفسانيًا عن طريق مجموعة من الوعود (مثل سنوات قليلة من العمل الجاد وألف سنة من السعادة) وقيمة الدوافع التي تُقدّم له.

تخلق ضرورات العمل والحياة الاقتصادية الحاجة للبروباجاندا في الإنسان؛ وهذا يظهر في صورة العلاقات الإنسانية في الولايات المتحدة. كثيرًا ما يقول الكُتّاب الأميركيون إنه لا يمكن أن نتوقع الدافع نحو الكفاءة أن يتطور بذاته. مَن يتعرض لمتطلبات الكفاءة سيسأل: "كفاءة لأي غرض؟" ومن ثم، يعتمد على البروباجاندا في الإجابة عن هذا السؤال.

لكن الإنسان المعاصر ليس مجبرًا على تضحيات في عمله فحسب، بل تثقله حكومته بتضحيات أخرى أيضًا مثل الضرائب المتزايدة دائمًا. على كل مواطن في الدولة الحديثة سداد ضرائب أكثر من أكثر ضرائب فُرضت على أي شعب في حقبة ما قبل نابليون. في تلك الحقبة، كان المواطن مُجبرًا على السداد بينما المواطن الحر اليوم عليه أن يدفع عن قناعة. ولن تأتي هذه القناعة تلقائيًا، وخصوصًا عندما تكون الضرائب باهظة جدًّا. ومن ثم، يجب صناعة القناعة وتحفيز المثل العليا لإعطاء أهمية ومعنى حقيقي "للتبرع للوطن." وهنا أيضًا البروباجاندا ضرورية. وهذا هو النقيض التام للحرية السياسية .

دعونا نتأمل الأخطر من بين كل التضحيات. مطلوب من المواطن المعاصر أن يشارك في حروب لم نشهد مثلها من قبل. على الجميع الإعداد للحرب، ولكنها حربًا مروعة في مدتها وضخامة عملياتها وخسائرها الهائلة وفظاعة ووحشية الوسائل المستخدمة فيها. وعلاوة على ذلك، لم تعد المشاركة في الحرب مقصورة

= على "الإنتاج" أهم بروباجاندا في الثلاثينات في الاتحاد السوفيتي. والصحافة نفسها شاركت في "التحريض على الإنتاج،" لأن الحكومة لم يكن أمامها أي وسائل لحل المشكلات الاقتصادية في أحايين كثيرة خلال "الفترة البطولية" إلا وسائل البروباجاندا لكي تحسن الإنتاجية والانضباط. ولكن، علينا ألا نظن أن هذا اقتصر على الثلاثينات – عادت نفس الحركة في الخمسينات مع عودة حركة (ستيكانوفايت) للعمل الشاق.

على فترة الحرب نفسها؛ وإنما فترة الإعداد للحرب والتي تصير أكثر كلفة وأكثر حدة على نحو متزايد. ثم نجد فترة لإصلاح ما دمرته وَيلات الحرب. يعيش الشعب حقًا في جو الحرب دائمًا، والحرب جبارة بكل معنى ممكن (إن مشقة "الصمود" في أيام نعيشها تحت القصف أكبر بكثير من مشقة يوم عادي في المعركة). الآن الجميع متأثرون بالحرب؛ والجميع يعيش تحت تهديدها.

من الطبيعي أن يكون هناك ضرورة دائمة لإعطاء الناس دوافع أيديولوجية وعاطفية لنقنعهم بالتخلي عن حياتهم. ولكن، في ظل الشكل المعاصر لحروبنا، لم يعد هناك وجود للحوافز التقليدية - مثل حماية العائلة والدفاع عن البلد والكراهية الشخصية تجاه عدو معروف. لا بد من قيم أخرى لتحل محلها. وكلما زادت المطالبات من الإنسان، وجب أن تكون هذه الحوافز أقوى وأقوى. والفرد الذي يُطلب منه مثل هذه التضحيات الضخمة يجد نفسه في وسط صراع عالمي متواصل، ويُدفع إلى أقاصي قدراته العقلية والعصبية على التحمل، ويبقى في حالة استعداد دائم للتضحية الأكبر. لا يمكن أن يعيش الفرد هكذا إذا لم تسانده دوافع قوية لن يجدها داخله ولن تظهر تلقائيًا. يجب أن يزوده المجتمع بهذه الدوافع ثم سيلبي حاجته التي ستنبثق من وضعه الفعلي.

من البديهي أن بعض "المعلومات" البسيطة عن الوضع الدولي أو عن الحاجة للدفاع عن الوطن لن تؤدي الغرض. يجب أن يكون الإنسان غارقًا في جو روحاني وأن يُقدَم له بواعث قوية بما يكفي، فضلًا عن أسباب مقنعة لتضحياته - وفي الوقت ذاته - يُقدَم له مخدرًا يصون أعصابه وروحه المعنوية. أما الوطنية فيجب أن تصير "أيديولوجية." البروباجاندا وحدها هي القادرة على تسليح الإنسان بالقوة العصبية التي ستساعده على مواجهة بلاء الحرب[1].

---

(1) عندما تغيب البروباجاندا عن المشهد، لا يشارك الناس حقًا في الحرب: على سبيل المثال، البروباجاندا السخيفة التي قامت بها الحكومة الفرنسية في 1939م، البروباجاندا التي استهدفت الهند الصينية (والذي بالغت للغاية)، والبروباجاندا حول الحرب الجزائرية (والتي كانت متسرعة وخرقاء بالمقارنة مع البروباجاندا عالية الجودة من اليسار وجبهة التحرير الوطنية).

بالرغم من كل هذه التضحيات، لا يتأقلم الإنسان تلقائيًا مع الأوضاع المعيشية المفروضة عليه من قِبَل المجتمع المعاصر. إن علماء النفس والاجتماع على دراية بالمشكلة الكبيرة بشأن تأقلم الإنسان العادي مع البيئة التكنولوجية - مع السرعة المتزايدة وساعات العمل والضوضاء والمدن المزدحمة وإيقاع العمل وقلة المساكن، إلى آخره. بعد ذلك، هناك صعوبة في قبول رتابة نمط الحياة اليومية التي لا تتغير، وغياب الإنجازات الشخصية والافتقار إلى معنى واضح للحياة وعدم الأمان العائلي - الذي أثارته الأوضاع المعيشية هذه - ومجهولية الفرد في المدن الكبيرة وفي مكان العمل. إن الفرد غير جاهز لمواجهة التأثيرات المقلقة والمكبِلة والصادمة هذه. وهنا أيضًا يحتاج إلى دعم نفساني؛ لكي يتحمل حياة مثل هذه؛ يحتاج إلى دوافع تعيد له توازنه. لا يجب أن يُترك الإنسان المعاصر وحده في موقف كهذا. ماذا يمكنه أن يفعل؟

يمكن إحاطة الإنسان بشبكة علاقات نفسانية (علاقات إنسانية) تخفف من مخاوفه تخفيفًا اصطناعيًا وتقلل من توتره وتضعه في سياق إنساني. أو يمكن دفع الإنسان ليعيش في أسطورة قوية بما يكفي للتعويض عن العيوب الحقيقية أو إضفاء بعض المعنى أو القيمة عليها حتى تكون مقبولة. ما يجعل الإنسان يتقبل حاله هو تجاوزه. وهذا هو ما فعلته البروباجاندا السوفيتية والصينية. وكان هناك تلاعب نفساني بالفرد في كلتا الحالتين - عملية يجب تصنيفها بوصفها بروباجاندا بالمعنى الواسع للكلمة. تتسم بروباجاندا مثل هذه بطابع "سياسي"، إذا استخدمنا مصطلح "سياسي" بمعناه الأوسع، كما هو الحال عند الإشارة إلى الحياة الجمعية في دولة المدينة .

وأخيرًا، فهم الحاجة للبروباجاندا (التي تنبثق من حالة الإنسان المعاصر) في الواقع يقتضي اعتبار الشخص الذي نتعامل معه واسع المعرفة. في ضوء ما حللناه في الفصل السابق عن الطريقة التي تدعم بها المعلومات البروباجاندا دعمًا فعليًا، يجب أن نتجه الآن إلى دَور نشر المعلومات في إعداد الإنسان على نحو نفساني ليصير متلق للبروباجاندا! إذا نظرنا إلى الإنسان العادي، وليس إلى حفنة من

المثقفين الذين يشتغلون بالمعرفة والاطلاع، ماذا نقصد بالضبط بقولنا إن هذا الشخص مطلع؟ نقصد أن هذا الشخص يقرأ الجريدة، أو بالأحرى، ينظر إلى العناوين العريضة ويلقي نظرة سريعة على بعض المقالات - بجانب قضاء ثماني ساعات في العمل وساعتين في المواصلات.

كذلك ربما يستمع إلى إذاعة الأخبار أو يشاهدها على التلفاز؛ وسيلقي نظرة على الصور في مجلة مصورة مرة في الأسبوع. وهذا هو الحال مع الشخص المطلع بدرجة معقولة، أي 98 بالمائة من الشعب. ماذا يحدث إلى الإنسان الذي يرغب في أن يكون مطلعًا وأن يتلقى قدرًا كبيرًا من الأخبار كل يوم؟ أولًا، التقارير الإخبارية المباشرة لا تعطيه أي شيء إلا تفاصيل عن حقائق؛ الحدث الكبير في اليوم ما هو دائمًا إلا مجرد جزء لأن الأخبار لا يمكن أبدًا أن تتعامل مع الصورة الكاملة.

نظريًا، يمكن للمراسل أن يربط هذه التفاصيل بتفاصيل أخرى، ويضعها في سياقها المناسب وحتى أن يعطي تفسيرات، ولكن بعد ذلك لن يكون هذا معلومات خالصة[1]. بجانب ذلك، لا يمكن لهذا أن يتم إلا مع الأحداث الأهم في حين أن أغلبية الأخبار تتناول أمور أقل أهمية. ولكن، لو أمطرتَ الجمهور بآلاف الأخبار التي تقع في أثناء اليوم أو الأسبوع، سيتذكر الإنسان العادي، حتى إن بذل جهدًا، آلاف الأخبار التي لا تعني له شيئًا. وسيحتاج إلى ذاكرة استثنائية لربط حدث ما بحدث آخر وقع منذ ثلاثة أسابيع أو ثلاثة شهور. وعلاوة على ذلك، إن التصنيفات محيرة - الاقتصاد والسياسة والجغرافية، إلخ - فالموضوعات والتصنيفات تتبدل كل يوم. بالتأكيد، بعض الأخبار الهامة، مثل الهند الصينية والمجر، أضحت تركيز التغطية المستمرة لأسابيع أو شهور طويلة، ولكن ذلك ليس عاديًا. عادةً، يظهر خبر عن تطورات خبر سابق ظهر منذ أسبوعين أو حتى

(1) عندي المقدرة أن أعرض مئات الأمثلة عن التشوه الكامل للحقائق على يد صحفيين أمناء وأكفاء والذين ينشرون مقالاتهم التأويلية في جرائد مهمة.

شهر في الماضي. من أجل الحصول على صورة متكاملة، يجب عمل البحث، ولكن الإنسان العادي ليس عنده الرغبة ولا الوقت ليقوم بذلك. وكنتيجة، يجد الإنسان نفسه داخل نوع من المشكال حيث يتتبع آلاف الصور المنفصلة عن بعضها البعض تتبعًا سريعًا.

يتشتت انتباهه باستمرار بسبب أمور جديدة ومراكز جديدة للاهتمام، ويتبعثر على آلاف الأشياء التي تتلاشى بين يوم وآخر. ويتحول العالم إلى عالم متغير وغامض بشكل ملحوظ؛ ومع ذلك يشعر كأنه في مركز الدوامة، ولا يستطيع أن يجد أي نقطة ثابتة أو استمرارية؛ هذا هو التأثير الأول الذي تتركه المعلومات على الإنسان. حتى مع الأحداث البارزة، هناك حاجة لجهود جبارة للحصول على رؤية واسعة وسليمة لآلاف الخطوط الصغيرة مع اختلافات الألوان والأبعاد والتركيزات التي تعطيها له صحيفته.

وهكذا يشبه العالم لوحة (بوانتاليست) القماشية - آلاف التفاصيل تشكل آلاف النقاط. وعلاوة على ذلك، تحُول النقاط الفارغة على اللوحة دون رؤية متناسقة أيضًا. ومن ثم، على القارئ أن يأخذ خطوة للوراء ويلقي نظرة بانورامية من بعيد. ولكن، قانون الأخبار هو أن هذا شأن يومي. لا يستطيع القارئ أن يرجع للوراء حتى يتمكن من إلقاء نظرة واسعة لأنه يتلقى على فور دفعة الأخبار الجديدة التي تبطل القديمة والتي تتطلب نقطة تركيز جديدة، لكن قارئنا ليس عنده وقت لها. من وجه النظر الإنسان العادي الذي يحاول أن يبقى على دراية، يظهر عالم غير متماسك وغير منطقي وسخيف لدرجة مدهشة.

يتغير هذا العالم دائمًا في نظره بسرعة لأسباب لا يستطيع أن يفهمها. ولأن القصة الإخبارية الأكثر شيوعًا تتناول حادثة أو مصيبة، يبني قارئنا نظرة كارثية للعالم حوله. وما يتعلمه حتمًا من الجرائد هو الحدث الذي يكدر نظام الأشياء. لا يقول له أحد عن المسار العادي للأحداث التي لا تثير الاهتمام، وإنما الكوارث الاستثنائية التي تعكر ذلك المسار. لا يقرأ عن آلاف القطارات التي تصل إلى مقاصدها بشكل طبيعي كل يوم، بل يتعلم كل تفاصيل حادثة القطار.

نفس الأمر ينطبق على مجال السياسة والاقتصاد. لا يتحدث الإعلام إلا عن العناء والخطر والمشاكل، ويعطي هذا للإنسان الفكرة أنه يعيش في عهد رهيب ومخيف وأنه يعيش بين الكوارث في عالم حيث يهدد كل شيء أمنه الشخصي. لا يمكنه تحمل ذلك؛ لا يستطيع أن يعيش في عالم عبثي وغير متسق ولا يستطيع قبول الفكرة أن المشاكل، التي تنمو من حوله في كل مكان، لا يمكن حلها، أو أنه كفرد ليس له قيمة وأنه مجرد دمية في يد الأحداث. ولهذا، يجب أنه يكون بطلًا. حتى الفيلسوف (كامو)، الذي آمن أن وجهة النظر هذه، وليس غيرها، صادقة، لكنه لم يستطع أن يلتزمها حقًا.

الإنسان الذي يظل مطلعًا يحتاج إلى إطار تنظم فيه كل المعلومات؛ يحتاج إلى شروح وإجابات شاملة للمشكلات العامة، ويحتاج إلى الاتساق. كما يحتاج إلى تأكيد قيمته. كل هذا من آثار المعلومات المباشرة. كلما تتعقد المشكلات، وجب أن تكون الشروح أكثر بساطة؛ وكلما تشرذمت اللوحة، بات النمط أكثر بساطة؛ وكلما صعب السؤال، صار الحل أكثر شمولية؛ وكلما زاد تهديد اضمحلال قيمته، كبرت الحاجة لتعزيز كبريائه. تستطيع البروباجاندا - البروباجاندا وحدها - أن تعطيه كل هذا. طبعًا، يستطيع شخص عظيم ذو ثقافة واسعة وذكاء حاد وطاقة استثنائية أن يجد أجوبه بنفسه ويخطط عمله ويتصالح مع العبثية. ولكننا لا نفكر هنا في شخص عظيم (الذي نتصور بطبيعة الحال أننا هو)، وإنما الشخص العادي[1].

بالتالي، يكشف تحليل البروباجاندا أنها تنجح في مقام الأول لأنها تعكس بالضبط احتياجات الحشود. دعونا نتذكر جانبين فقط لها: الحاجة للشروح والحاجة للقيم اللتان تنبثقان لدرجة كبيرة، ولكن ليس بالكامل، من انتشار

(1) أعرف، طبعًا، أنه من شائع اليوم إنكار وجود إنسان "متميز" و"متدن" و"عادي". هذه الحجة عامة مصطنعة، وحتى مؤيدي هذا الرأي يبرهنوه من خلال تحليل الحالة الاجتماعية-النفسانية للإنسان ويصفون سلوك بعينه على أنه "عادي" ويستخدمون المنهج الإحصائي.

الأخبار. تحتاج البروباجاندا الفعالة إلى أن تعطي للإنسان رؤية شاملة للعالم، رؤية عوضًا عن العقيدة. ستشتمل رؤية مثل هذا في بادئ الأمر على عرض عام للتاريخ والاقتصاد والسياسة. هذا العرض ذاته هو أساس سلطة البروباجاندا لأنه يقدم تبريرًا لأفعال هؤلاء الذين صنعوا البروباجاندا؛ إن الغرض هو إظهار الفرد مسافرًا في اتجاه التاريخ والتقدم. يسمح هذا العرض للفرد بتقديم التصنيف المناسب لكل الأخبار التي يتلقاها من أجل ممارسة الأحكام الناقدة وإبراز حقائق معينة بشدة، وطمس أخرى، حسب درجة تناسبها مع الإطار العملي. يعتبر هذا حماية ضرورية للفرد ضد إغراقه بالحقائق دون المقدرة على تأسيس منظور.

يجب على البروباجاندا أيضًا أن تقدم شرحًا لكل الأحداث ومفتاحًا لفهم أسباب التطورات الاقتصادية والسياسية. تفقد الأخبار طابعها المخيف حين تُقدّم معلومات أعد لها المستمع بالفعل شرحًا جاهزًا في ذهنه أو يستطيع بسهولة أن يعثر لها على تفسير.

تكمن قوة البروباجاندا الكبيرة في إعطاء الإنسان المعاصر شروح شاملة وبسيطة وأسباب عقيدية مهولة، ودونها لن يستطيع الإنسان أن يتعايش مع الأخبار. يطمئن الإنسان للبروباجاندا أكثر، أولًا لأنها تقول له الأسباب وراء التطورات الظاهرة للعيان، وثانيًا لأنها تَعِد بحلول لكل المشكلات الناشئة – والتي تبدو عصية على الحل بدون البروباجاندا. كما أن المعلومات ضرورية للوعي، وتعتبر البروباجاندا ضرورية من أجل منع هذا الوعي من أن يكون يائسًا.

الحالة الشخصية

تفسر بعض الخصائص النفسانية للإنسان المعاصر (النابعة في جزء منها من حالته الواقعية) حاجته الجامحة للبروباجاندا. معظم الدراسات حول البروباجاندا لا تفعل شيء إلا مجرد فحص طريقة مروج البروباجاندا في استغلال هذه الخصلة

أو ذاك النزعة للإنسان كي تؤثر فيه. ولكن، يبدو لنا أنه من الواجب التدقيق في سؤال سابق: لماذا يثير الإنسان عملية البروباجاندا إثارة تلقائية؟

دون الخوض في نظرية "إنسان الحشد" أو "إنسان التنظيم" وهي نظرية غير مثبتة ومختلف عليها، دعونا نتذكر بعض السمات التي تم تحليلها كثيرًا بشأن الإنسان الذي يعيش في العالم الغربي والغارق في كثافتها السكانية المرتفعة؛ لنقبل الركيزة القائلة إن هذا الإنسان أكثر ضعفًا أمام الإيحاء، وأكثر سذاجة، ويسهل إثارة حماسته. وفوق كل شيء، يعتبر ضحية الفراغ - فهو إنسان مجرد من المعنى. فهو مشغول جدًّا لكنه خال عاطفيًّا، ومنفتح على كل الدعوات، ويسعى إلى شيء واحد فقط - شيء يملأ فراغه الداخلي. وحتى يملأ هذا الفراغ، يذهب إلى السينما - مجرد علاج مؤقت جدًّا. يبحث عن شيء أعمق وذي جاذبية أكثر إرضاءً.

هذا الإنسان متاح وجاهز للاستماع إلى البروباجاندا. هذا الإنسان وحيد (الحشد الوحيد) وكلما كبر حجم الحشد الذي يعيش فيه، انعزل أكثر. ورغم المتعة التي قد يستمدها من عزلته، يعاني منها معاناة مريرة. يحس الإنسان بأشد احتياج للاندماج مرة أخرى في مجتمع صغير لتوفر بيئة محيطة ولممارسة التواصل العاطفي والأيديولوجي. هذه الوحدة داخل الحشد ربما المحنة الأصعب أمام الإنسان المعاصر؛ ففي هذه الوحدة لا يمكنه أن يشارك بشيء أو أن يتحدث مع أحد أو أن يتوقع شيء من أحد - هذه الوحدة تؤدي إلى اضطرابات شخصية حادة. ولذا، فالبروباجاندا - التي تشتمل على العلاقات الإنسانية - علاج فريد. فتعكس البروباجاندا الحاجة للمشاركة والرغبة في الانضمام لمجتمع ومحو الذات داخل الجماعة واحتضان الأيديولوجية الجماعية التي ستقضي على الوحدة. البروباجاندا هي العلاج الحقيقي للوحدة، وتعكس الاحتياجات العميقة الدائمة والمتطورة اليوم ربما أكثر من أي وقت مضى: الحاجة للاعتقاد والطاعة، والحاجة لخلق وسماع حكايات، والحاجة للتواصل بلغة الأساطير.

كما أن البروباجاندا تعكس الكسل العقلي عند الإنسان ورغبته في الأمن - تختلف خصائص الإنسان الحقيقي الجوهرية عن الإنسان النظري عند الوجوديين. كل هذا يَقلب الإنسان ضد المعلومات التي لا تستطيع أن ترضي أيًا من احتياجاته التي تدفعه إلى اشتهاء البروباجاندا التي تستطيع أن تلبي تلك الاحتياجات.

لهذه القضية جانب آخر. يندفع الإنسان في مجتمعنا أكثر وأكثر نحو السلبية، ويندفع إلى داخل منظمات شاسعة تعمل عملًا جماعيًا ويلعب فيها كل شخص دوره الصغير. ولكنه لا يستطيع أن يعمل بنفسه؛ لا يمكنه التصرف إلا كنتيجة لقرار شخص آخر. تم تدريبه أكثر فأكثر على المشاركة في حركات جماعية والتصرف بمجرد أن يتلقى إشارة، كما يتصرف بالطريقة التي تدرب عليها. هناك تدريب للأمور الكبيرة والصغيرة - تدريب لوظيفته ولقيادة السيارة وللمشي وللاستهلاك وللذهاب إلى السينما وإلى السكن في الشقة، إلى أخره. يتلقى المستهلك إشارته من المُعلِن بأن شراء منتج ما محبذ؛ ويتعلم السائق من الضوء الأخضر أنه يمكنه مواصلة السير. تتقلص قدرة الفرد على الفعل بنفسه أكثر وأكثر؛ فهو يحتاج إلى إشارات جماعية تدمج أفعاله في الآلية الكاملة.

تقنعنا الحياة المعاصرة بالانتظار حتى نتلقى الأمر بالتصرف. هنا، مجددًا، تأتي البروباجاندا إلى الإغاثة. تعتبر البروباجاندا إشارة التصرف وجسر من مجرد اهتمام الفرد بالسياسة إلى عمله السياسي إذ إن الحكومة لم تعد تعمل بدون الحشد (كما أثبتنا آنفًا). وتساعد البروباجاندا على التغلب على السلبية الجماعية، وتدخل في التيار المجتمعي العام الذي يُشكّل العديد من ردود الفعل المهيئة، والتي بدورها تصير إشارات للناس ليقوموا بدورهم في المجتمع.

في نفس الوقت، يشعر الإنسان أن حجمه يتضاءل. فمن ناحية، يحس بأنه تحت إشراف دائم ولا يقدر أبدًا أن يمارس مبادرته المستقلة؛ ومن ناحية أخرى، يعتقد أنه مدفوع دائمًا إلى مستوى أدنى. هو قاصر بمعنى أنه لا يستطيع أبدًا أن

يمارس سلطته الكاملة. وللتأكيد، نناقش الإنسان العادي؛ من البديهي أن رئيس شركة أو إداري رفيع المستوى أو شخص محترف لا يشعر بأن حجمه يتضاءل. ومع ذلك، لا تغير هذه الحقيقة الوضع العام. ينبع الشعور بانعدام الأهمية من ظروف العمل العامة مثل الميكنة والسيطرة الصارمة؛ من ظروف السكن (غرف صغيرة وضجة وغياب الخصوصية) ومن ظروف عائلية (ضياع السلطة على الأطفال) ومن حالة الخضوع لعدد متزايد من السلطات (التأثير الكارثي لكل الإدارات والوكالات على روح الإنسان يفوق الوصف)؛ - باختصار، من المشاركة في مجتمع الحشد. نعرف أن الفرد الغارق في الحشد يشعر بأنه تم إضعافه وتقليص حجمه؛ يخسر حقوق الإنسان ووسائل تلبية طموحاته، وتقهره الجموع من حوله وتعطيه وعيًا غير صحي بتفاهته. يغرق في الحشد ويقتنع أنه مجرد صفر وأنه حقًا لا يمكن أن يعتبره أحد بين هذه الجموع الغفيرة غير ذلك.

تعطي الحياة الحضرية للفرد شعورًا بالضعف والتواكل: يتكل على كل شيء - المواصلات العامة ومحصل الضرائب وضابط الشرطة ورب عمله والمرافق العامة في المدينة. لن تؤثر هذه العناصر عليه إذا كان كل منها على حدة، ولكن إذا كانت مجتمعة، فستخلق هذا الشعور بالصغر والنقص في الإنسان المعاصر.

ولكن، لا يستطيع الإنسان أن يحتمل كونه غير مهم؛ لا يستطيع قبول حالة الصفر، ويحتاج أن يثبت نفسه وأن يرى نفسه بطلًا. يحتاج أن يشعر بأن له شأن وأن يراه الآخرون هكذا. يحتاج أن يعبّر عن سلطته - الدافع وراء القوة والهيمنة الموجودة في كل إنسان. في ظل ظروفنا الحالية، تلك الغريزة مثبطة تمامًا. ورغم أن هناك بعض الطرقات للهروب، تقدم السينما للمشاهد فرصة ليعيش احترام الذات عند توحده مع البطل مثلًا - ولكن هذا لا يكفي. لا تقدم البروباجاندا شيئًا للفرد إلا إجابة مرضية تمامًا لحاجته الماسة.

كلما تزيد احتياجاته في المجتمع الجمعي، صار لزامًا على البروباجاندا أن تشعره أنه حر أكثر وأكثر. البروباجاندا وحدها تستطيع أن تخلق هذا الشعور

الذي بدوره يدمج الفرد في الحركات الجماعية ويزداد احترامه لذاته كنتيجة لذلك. وبالرغم من أنها أداة الحشد، إلا إنها تخاطب كل فرد. إنها تناشدني أنا، وتخاطب فطرتي ورغباتي، وتثير غيظي وسخطي، وتستحضر مشاعر العدالة لدي ورغبتي في الحرية. تعطيني مشاعر عنيفة تخرجني من رتابة الحياة اليومية. وبمجرد أنّ تسيمني البروباجاندا، أستطيع أن أنظر إلى التفاهات اليومية من أعلى الأعالي.

مديري - الذي لا يحمل نفس القناعات التي أحملها - مجرد أبله مسكين وفريسة لأوهام عالم شرير. وأنتقم منه عن طريق الاطلاع والتعلم؛ لقد فهمت الوضع وأعرف ما ينبغي فعله؛ فأنا أحمل المفتاح للأحداث، وأشارك في أنشطة خطيرة ومثيرة. سيقوى هذا الشعور بكثير عندما تناشد البروباجاندا قراري وتبدو مهتمة جدًّا بأفعالي: "كل شيء في براثن الشر. هناك مَخْرَج، ولكن الحل الوحيد هو أن يشارك الجميع. ينبغي لك المشاركة وإلا سيضيع كل شيء، وسيكون ذنبك." هذا هو الشعور الذي يجب على البروباجاندا أن تخلقه. رأيي، الذي ازدراه المجتمع قبل ذلك، سيصير الآن مهمًّا وحاسمًا. لا أهتم به فحسب، بل بشتى الشؤون السياسية والحيز الاجتماعي ككل. قد يشعر الناخب أن صوته غير ذي أهمية أو قيمة لكن البروباجاندا تبيّن أن النشاط الذي تدخلنا فيه ذا أهمية قصوى، وأن كل شيء يعتمد عليّ.

فتعزز البروباجاندا كبريائي عبر إعطائي شعور قوي بالمسؤولية؛ وتقودني إلى تقلد موقف السلطة بين أقراني، وتجعلني آخذ الأمور على محمل الجد عن طريق مناشدتي بنبرة حماسية وقناعة راسخة، وتعطيني شعورًا بأنه سؤال "إما كل شيء وإما لا شيء." وبفضل بروباجاندا مثل هذه، ينال الفرد المتصاغر الرضا الذي يحتاج إليه.

تستغل البروباجاندا في البلدان المستعمَرة نفس الاحتياج لتأكيد الذات عند الشعوب التي تلاشت أهميتها. يُعتبر الأفارقة أكثر ضعفًا أمام أي نوع من البروباجاندا تقريبًا لأنهم عاشوا تحت وصاية المستعمِر وتم اختزالهم في وضع

متدني. ولكن، لا ينبغي الاستنتاج أن شعور الدونية ليس موجودًا إلا بين المقهورين فقط؛ إنه الوضع الطبيعي لكل فرد تقريبًا في المجتمع الجماهيري. بالإضافة إلى ذلك، حيث إن الإنسان المعاصر بلا أهمية، يجد نفسه أمام حاجة دائمة تقريبًا للقمع. وتكبح القيود الاجتماعية معظم نزعاته الطبيعية.

نعيش في مجتمع منظم ومرتب على نحو متزايد، وهذا لا يسمح بالتعبير الحر والتلقائي لغرائز الإنسان العميقة (علينا أن نعترف أن هذه الغرائز ستكون غير اجتماعية إلى حد كبير لو أُطلق العنان لها تمامًا). يرتبط الإنسان المعاصر بإطار زمني، وقلما يستطيع أن يتصرف بعفوية؛ ينبغي له أن ينتبه دائمًا إلى ما يحدث حوله. لا يستطيع أن يصنع الضوضاء التي يريد أن يصنعها؛ يجب عليه أن يطيع قواعد متنوعة يزداد عددها يومًا بعد يوم؛ لا يستطيع أن يطلق العنان لغرائزه الجنسية أو نزعته للعنف. بالرغم من "فجور" هذا العصر - الفجور الذي يشتكي منه الناس - يتمتع الإنسان المعاصر بحرية أقل بكثير في هذه الأمور من الإنسان الذي عاش في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفي عالم السياسة، يواجه الإنسان المعاصر باستمرار عوائق تقمع نزعاته وغرائزه، ولكن يستحيل الحفاظ على الفرد في حالة كهذه لفترة طويلة.

الفرد الذي يشعر بأنه في صراع مع الجماعة التي تتسم بقيم شخصية مختلفة من قيم البيئة التي يعيش فيها الفرد الذي يحس بتوتر تجاه مجتمعه وحتى تجاه الجماعة التي يشارك فيها - يجد نفسه في وضع مأسوي في المجتمع الحديث. حتى وقت قريب، تمتع فرد مثل هذا بحرية ما واستقلالية تسمح له بالتنفيس عن التوتر من خلال أنشطة خارجية ومقبولة جدًا.

كان عنده مجموعة من الأنشطة الشخصية التي يستطيع من خلالها أن يعبر عن قيّمه وأن يعيش صراعاته. وكان هذا أحسن الطرائق للحفاظ على توازنه. ولكن، في المجتمع التكنولوجي، لم يعد عند الفرد الاستقلالية أو حرية اختيار الأنشطة الكفيلة بالتنفيس عن توتره بشكل مناسب؛ فيجد نفسه مجبرًا على كتم التوتر في نفسه، وفي ظل هذه الظروف، يتفاقم التوتر إلى أقصى حد ومن الممكن

أن يصيبه بالمرض. وفي تلك اللحظة ذاتها، تتدخل البروباجاندا كأداة (زائفة) لتخفيف هذا التوتر من خلال أنشطة خارجية[1]. من الخطير أن يتم سد كل المخارج وقمع الإنسان في كل المناطق. يحتاج الإنسان إلى التعبير عن رغباته وشغفه؛ ويمكن أن يكون للقمع الاجتماعي الجمعي نفس أثر القمع الفردي على الإنسان، وهو ما يخشاه المحللون النفسانيون.

من الضروري اللجوء إما إلى التسامي وإما التنفيس. على المستوى الجماعي، التنفيس أسهل من التسامي مع أن بعض المجموعات المقهورة للغاية هي المجموعات التي يسهل اقتيادها نحو أعمال بطولية وتضحيات لصالح الطغاة. وفي حاجتنا للتنفيس، نجد تعبيرًا عفويًا؛ بالتأكيد، موسيقى الجاز - وكذلك المظاهر العنيفة - وسيلة لكثير من الشباب للتنفيس عن البواعث المكبوتة (جامس دين، والسترات الجلدية السوداء، والتمرد في السويد في عام 1957م إلى آخره).

ولكن، في حين أن احتمالات التنفيس محدودة للغاية، تقدم البروباجاندا التنفيس على نطاق واسع. على سبيل المثال، ستسمح البروباجاندا بما مُنع حتى اللحظة، مثل الكراهية، وهو شعور خطير وهدام يكبحه المجتمع.

ولكن، عند الإنسان حاجة دائمة للكراهية كما أنه يُخفي في قلبه رغبة قوية في القتل. تُقدِم البروباجاندا له موضوعًا للكراهية حيث إن كل أنواع البروباجاندا تستهدف عدو ما[2]. والكراهية التي تقدمها له ليست مخزية، فهي كراهية شريرة

---

(1) من المعروف جيدًا إلى أية درجة يحتاج الإنسان الهروب؛ فالهروب ظاهرة عامة في حضارتنا لأن الإنسان ليس أمامه اختيار في خوض المعركة ضد الكثير من التناقضات والتوترات التي فرضتها عليه ظروف الحياة. يسعى إلى الفرار من هذه الصعوبات، وتشجعه أيديولوجية السعادة الحديثة على ذلك، وتقدم له البروباجاندا إمكانية استثنائية للهروب نحو التصرف.

(2) ومن ثم، تزيح البروباجاندا مشاعر العدوان وتحررها عن طريق تقديم أهدافًا محددة للكراهية للمواطنين. هذا عادة يكفي لتوجيه العاطفة.

يتوجب عليه إخفائها لكنها كراهية مشروعة يحق له أن يشعر بها. وعلاوة على ذلك، تكشف البروباجاندا الأعداء الذي ينبغي قتلهم، مما يحول الجريمة إلى عمل مشرف.

يشعر كل الناس تقريبًا برغبة في قتل جيرانهم لكن هذا ممنوع، وفي غالبية الحالات يمتنع الفرد عن ذلك بسبب خوفه من العواقب. ولكن البروباجاندا تفتح الباب له وتسمح له بقتل اليهود والبرجوازية والشيوعيين، وغيرهم، وحتى جريمة القتل هذه تصير إنجازًا.

وعلى نحو مشابه، في القرن التاسع عشر، عندما فكر الرجل في خيانة زوجته أو تطليقها، وجد أن هذا مستهجن. ولذلك، بنهاية هذا القرن، بدا أن البروباجاندا قد أجازت الخيانة والطلاق. وفي مثل هذه الحالات، يربط الفرد نفسه بمصدر البروباجاندا كهذه ربطًا شديدًا، وهذا، في نظره، يحرره. عندما يصبح التجاوز فضيلة، مَن يرفع الحظر يصير بطلًا ونصف إله، ونكرس أنفسنا لخدمته لأنه حرر بواعثنا المكبوتة. يمكننا أن نعزي قدر كبير من الولاء الشعبي للجمهورية وفشل المذهب الكاثوليكي في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر إلى هذه المعركة حول الزنا والطلاق. يمكن للبروباجاندا أيضًا أن تفسح المجال للتنفيس من خلال قنوات مخادعة.

تعلم الأنظمة الاستبدادية أن أي شعب في قبضة شديدة الإحكام يحتاج إلى تخفيف الضغط كما يحتاج إلى بعض صمامات الأمان. الحكومة نفسها تقدم كذلك، وتلعب الجرائد الساخرة هذا الدور عندما تهاجم السلطات، لكن الديكتاتور (كروكوديل مثلًا) يتسامح ويتساهل معها[1] كما يتسامح مع عطلة جامحة أعدت

---

(1) نقد الذات في الاتحاد السوفيتي معروف جيدًا. أستخدم هذا النوع من النقد لاستنكار أخطاء وعيوب الأفراد والمؤسسات كما أستخدم أيضًا كوسيلة للسيطرة على النظام البيروقراطي. لكنه يساهم تحديدًا في تخفيف التوتر وتوجيه النزعات العدوانية والرد على "الجلف المسكين" (الوضيع) الذي يخاطب الحكومة. وبهذا - عند التعبير عنه - يتوقف النقد عن تهديد الحكومة أو النظام الاجتماعي. يصير البيروقراطيون كبش فداء ويظل =

خصيصًا للاستخفاف بالنظام السياسي - الديكتاتور هو الذي تحمل تكاليف هذه العطلة. ("يوم الجمعة الحزين" في جواتيمالا، على سبيل المثال). من الجلي أن النظام يتحكم في مثل هذه الأدوات التي تؤدي غرض إعطاء الناس انطباع بأنهم أحرار كما تعمل على اختيار هؤلاء الذين أوشكت الحكومة على التخلص منهم لاقترافهم كل ما يمقته الناس.

وهكذا تعمل أدوات الانتقاد على دعم السلطة وتشبيث الناس أكثر وأكثر بالنظام عن طريق توفير التنفيس المصطنع للنزعات التي ينبغي للحكومة السيطرة عليها. وفي هذه المواقف، يمكن القول إن للبروباجاندا أثر علاجي وتعويضي.

يبرز هذا الدور أكثر في ضوء ظاهرة أخرى: القلق - ربما السمة النفسانية الأكثر انتشارًا في مجتمعنا. تشير دراسات كثيرة إلى أن الخوف يعتبر أحد أقوى المشاعر وأكثرها شيوعًا في مجتمعنا. وطبعًا، هناك أسباب وجيهة تدفع الإنسان إلى الخوف من التقويض الثقافي الشيوعي والثورة والفاشية والقنابل الهيدروجينية والصراع بين الشرق والغرب والبطالة والمرض.

من ناحية، يتزايد عدد الأخطار - وبسبب الإعلام الإخباري - يعي الفرد وجودها أكثر من ذي قبل؛ ومن ناحية أخرى، اختفت المعتقدات الدينية، التي أعطت الإنسان الفرصة لمواجهة الخوف تمامًا تقريبًا. يتجرد الإنسان من أسلحته أمام الأخطار التي تهدده وترعبه بشكل متزايد لأنه لا يكف عن القراءة عنها. مثلًا، إن المقالات الطبية الكثيرة عن الأمراض في الجرائد الكبرى تعتبر كارثية حيث إنها تجذب انتباه الإنسان لوجود المرض: تثير المعلومات مشاعر الخوف.

= الحزب بمنأى عن اللوم والتوبيخ. نجد نفس العملية عند استخدام رسائل القراء - أحد أفضل عمليات البروباجاندا: كلما اتسع المجال لانتقاد البيروقراطيين، زاد ارتباط المواطن بالحكومة. توسع (خروتشوف) في استخدام هذه العملية بشكل كبير. فهذا لا يتعلق بتحرير الفرد وإنما دمجه في المجتمع وتعزيز سلطة الدولة، وهذا هو نفس المنهج المستخدم في تقديم النصح والمشورة في ممارسات "العلاقات الإنسانية الأمريكية."

يشرح ذلك إلى حد كبير ارتباط المخاوف السائدة في مجتمعنا (المخاوف الاجتماعية) بالظواهر الجماعية العامة مثل الأوضاع السياسية السائدة أكثر بكثير من المخاوف الفردية مثل الموت أو الأشباح.

ومع ذلك، الخوف المتعلق بتهديد حقيقي ولدرجة تتناسب مع هذا التهديد - لا يعتبر قلق. كانت (كارن هومي) على حق عندما قالت إن الاختلاف الجوهري بين الخوف والقلق هو أن القلق رد فعل غير متكافئ مع الخطر الحقيقي أو أنه رد على خطر خيالي.

كانت أيضًا على حق في إشارتها إلى أن القلق حقًّا مرتبط بظروف حضارتنا رغم أن الأخطار التي يستجيب الفرد لها بالقلق قد تظل خفية أمامه. قد يتناسب هذا القلق مع الوضع، ولكن يمكن الشعور به لأسباب غير معروفة.

فيما يخص التهديدات الواعية الحقيقية، الاستجابة المتكررة هي المبالغة عن طريق خرافات وحكايات. يؤلف الأمريكيون حكايات عن الخطر الشيوعي كما يخلق الشيوعيون حكايات عن الخطر الفاشي - وفي تلك اللحظة، يبدأ القلق في الظهور. يتعلق هذا بالشائعات، وبالواقع أنه من المستحيل تقدير الوضع الحقيقي، وبمناخ من الخوف السائد، وانتقال الخوف من شخص لآخر.

على أي حال، القلق موجود ومنتشر. القلق غير عقلاني؛ وتفشل حتمًا كل محاولة لتهدئته باستخدام المنطق أو الحقائق. عندما نثبت بالحقائق - في مناخ من القلق - أن الخطر الذي نخشاه أصغر بكثير مما نعتقد، يزداد القلق؛ نستخدم المعلومات لنثبت أن هناك سببًا للخوف.

طبعًا، في علم التحليل النفساني، كثيرًا ما يعتبر القلق أصل الاضطرابات العصبية. ولكن، بينما نتمسك بوجهة النظر القائلة إن القلق ظاهرة جماعية تؤثر على عدد كبير جدًّا من الناس في مجتمعنا، لا نريد أن نقول إن كل هؤلاء الناس مصابين بالاضطرابات العصبية بالمعنى الطبي للكلمة. فنادرًا ما يتسبب القلق (الذي أثارته النزاعات الاجتماعية أو التهديدات السياسية) في الاضطرابات

العصبية. لكن مثل هذا التطور ليس مستحيلًا؛ يمكننا ببساطة أن نقول إن الأفراد يجدون أنفسهم في وضع الاضطرابات فيه محتملة دائمًا. ومن الممكن أن تصير الاضطرابات العصبية حقًا جماعية عندما يُلقي حدث ما بمجموعة كاملة من الناس في نوبة من القلق أو اعتبارات غير عقلانية.

يشعر الإنسان كذلك أنه فريسة للدوافع العدوانية لدى الآخرين، وهذا مصدر قلق آخر. وهو غارق في النزاعات المتأصلة في مجتمعنا التي تضعه في صراع مع ذاته، أو بالأحرى تضع تجاربه في صراع مع الضرورات الاجتماعية.

وصفت (كارن هورني) بعض هذه الصراعات، ولكن هناك أكثر بكثير مما وصفته. بجانب الصراع بين احترام الحكومة المعلن لاحتياجاتنا وإحباطها على أرض الواقع، وبين الحرية المعلنة والقيود الحقيقية، المجتمعات التي تعد للحرب تجل السلام، وتنشر الثقافة ما لا يمكن استيعابه، إلى آخره.

من المؤكد أن تجربة التناقضات تعتبر أحد التجارب الأكثر انتشارًا في مجتمعنا، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يحتمل التناقضات؛ النتيجة هي القلق، ويكافح الإنسان من أجل حل هذه التناقضات لكي يبدد قلقه.

أخيرًا، كنتيجة لكل التهديدات والتناقضات في المجتمع المعاصر، يشعر أنه مهتم ومذنب. لا يستطيع أن يشعر أنه على حق وأنه خيّر ما دام مُعرّضًا للتناقضات التي تضعه في صراع مع أي من قواعد جماعته بغض النظر عن الحل الذي يتبناه.

احتياج من أكبر الاحتياجات الداخلية لدى الإنسان هو الاحتياج بأن يشعر أنه على حق، وهذا الاحتياج يتخذ أشكالًا مختلفة. أولًا، يحتاج الإنسان أن يرى نفسه على حق، ويجب أن يكون قادرًا على التأكيد أنه على حق، وأنه يفعل ما يجب عليه فعله، وأنه جدير بالاحترام. بعد ذلك، يحتاج الإنسان إلى أن يكون على حق في عيون مَن حوله وعائلته ومحيطه وزملائه وأصدقائه وبلده.

في النهاية، يشعر بالحاجة للانتهاء إلى جماعة يعتبرها على حق ويستطيع أن يعلن أنها عادلة وشريفة وخيّرة. ولكن، هذا الصلاح ليس مطلقًا وليس عدالة أصيلة حقيقية. ما يهم ليس كون الإنسان عادلًا ولا أن يتصرف بالعدل، ولا أن تكون الجماعة الذي ينتمي إليها عادلة، وإنما أن يبدو عادلًا، وأن يجد أسبابًا للتأكيد على أنه عادل وأن يتبنى الجمهور الأسباب ذاتها.

يعكس هذا رفض الإنسان لرؤية الواقع - واقعه أولًا، كما هو، وذلك لأنه لا يطاق؛ يعكس هذا أيضًا رفضه للاعتراف بأنه قد يخطئ. فهو يحاول أن يدافع عن قضيته أمام نفسه وأمام الآخرين طوال الوقت، ويعمل من أجل إيجاد أسباب جيدة لما يفعل أو لما قام به بالفعل. وطبعًا العملية كلها غير واعية.[1] يعكس هذا التبرير - على الأقل جزئيًا - ما يُطلِق عليه علماء النفس الأمريكيون "العقلنة" أو بمعنى آخر، البحث عن الأسباب الوجيهة. ولكن العقلنة تغطي أرضًا أصغر من التبرير.

تحدث العقلنة حين يقع الفرد فريسة صعوبات الحياة الاجتماعية. يثير الصدام بين شتى المجموعات والأفراد الآخرين مشاعر التوتر والصراعات والإحباط والفشل والقلق التي لا يتمتع الفرد بالقدرة على احتمالها.

يحاول أن يتجنب كل ذلك لكنه لا يستطيع. ومن ثم، يعطي نفسه أعذارًا وأسبابًا وجيهة لتجنب العواقب المزعجة لهذه الصراعات أو يختلق استنتاجًا يفسر فشله ويعطيه مظهر النجاح (الحصرم)؛ أو يبرر كل شيء من خلال خلق كبش فداء أو يبرر سلوكه من خلال إظهار أن الطرف الآخر مذنب (التحيز العنصري)، إلى آخره.

من الواضح أن الفرد يؤمن بالأسباب التي يقدمها، وخصوصًا لأن هذه الأسباب "الوجيهة" يؤمن بها الكثير من الناس إن لم يكن الكل. دائمًا ما يواجه

---

(1) يعيد الفرد تشكيل ماضيه ليثبت أن ما فعله كان صحيحًا لكن هذا تبرير، وليس تفسير لتصرفه. ولذا يعيش الفرد فيما يبدو خيالًا معقولًا.

الفرد الذي يبرر نفسه فضائح إذا قيل له إن الأسباب التي يقدمها لسلوكه زائفة، وإنه يتصرف على هذا النحو لأسباب أخرى، وإن تفسيراته لم تكن إلا زخرفة لتجعل سلوكه مقبولًا ولينال مديحًا عليه.

يبدو أن هذا الاحتياج غير عادي. على المستوى الفردي، كثيرًا ما يُعتبر هذا الاحتياج مَرَضي لأنه يعبر عن انفصال عن الذات. لكن في الواقع نصرف نظرنا عن هذا الحكم بسبب مضامينه الأخلاقية؛ فالعملية المستخدمة ليست إلا نفاق. ومن ثم، خلصنا إلى أنه ليس هناك أي شيء مَرَضي في هذا الاحتياج لسببين. السبب الأول هو عالمية الظاهرة.

من العملي أن يبرر الأشخاص أنفسهم طوال الوقت - لأنفسهم ولجماعتهم؛ فمن الصعب أن نَصِف موقفًا عامًا بأنه مَرَضيًّا. السبب الثاني هو فائدة العملية: المعتقد العام هذه الأيام هو أن الإنسان في حياته النفسانية يجد تلقائيًّا ما ينفعه ويسمح له بممارسة "الاقتصادات." لا شك أن التبرير مفيد. يدافع الإنسان عن نفسه ضد المخاوف والتوترات ويُحَوّل الفشل إلى نجاح من خلال التبرير، وكذلك يؤكد إحساسه وإدراكه بالصواب والخطأ، والعدل والظلم. في كثير من الأحيان، لا تنكشف معتقدات الإنسان الحقيقية إلا من خلال هذه القناة (التبرير).

لهذا النوع من النفاق فائدة أخرى: يسمح للإنسان بالتخلص من شعوره بالكبت دون الحاجة إلى أن يصرح في العلن بمعتقدات غير أخلاقية وغير اجتماعية. وفي حين أن السلوك المكبوت ضار للمجتمع، فإن الإعلان الصاخب عن معتقدات غير أخلاقية وغير اجتماعية له ضرر كذلك. وهنا نواجه مشكلة قديمة: هل من الأفضل أن نتصرف بسوء، ونخفي ما نفعل، كما حدث في 1900م، أو أن نتصرف بسوء ونجاهر به، كما كان الحال في 1960م (مع الأخذ في الاعتبار أن الإنسان في 1960م كان يستخدم تبريرات مختلفة)؟ وهكذا نجد عملية التبرير في كل مكان بسبب فائدتها العظيمة.

على المستوى الجمعي، يمكننا القول إن معظم الأيديولوجيات والنظريات الاقتصادية أو السياسية تعتبر تبريرات. أثبتت دراسة أجراها (م. روبل)[1] أن عقيدة (ماركس) المتشددة المتصلبة كانت على ما يبدو أحد التبريرات الفكرية العملاقة للمواقف العفوية والعاطفية التي تبناها في شبابه.

من الصعب - إن لم يكن مستحيلًا - أن نقبل الواقع كما هو، وأن نعترف بالأسباب الحقيقية لسلوكنا، أو أن نرى بوضوح دوافع الجماعة التي ننتمي إليها. إذا مارسنا مهنة ما، لا يمكننا أن نحصر أنفسنا في مكافآتها المالية؛ فعلينا أيضًا أن نصبغها بتبرير أخلاقي أو مثالي. فتصير رسالتنا في الحياة، ولن نتسامح مع التشكيك فيها. حتى المجموعات الأكثر نفعية - مثل النازيون - تحاول أن تعطي تبريرًا اجتماعيًا أو أخلاقيًا لأفعالها: مثلًا، الاهتمام بالاحتفاظ بتفوق العرق الآري برر سادية معسكرات الاعتقال. حتى أعظم المجموعات المادية، مثل الشيوعيون، تسعى إلى أن تبرر نفسها عن طريق المثل العليا: على سبيل المثال، ستبرر مصالح المذهب الخيري نهج ما.

في الصراع بين الضرورة والواجبات الأخلاقية أو الدينية، يغطي الكل أنفسهم بعباءة العقلنة للتأكيد على أنه ليس هناك أي صراع. وعندما يطيع الفرد الضرورة، يريد أن يثبت أن الأمر ليس هكذا وأنه حقًا يمتثل لضميره. عندما تم الإعلان عن التعبئة العامة، اكتشف الجميع حبهم الجم لوطنهم. عندما تحالف (ستالين) مع (هتلر)، اكتشف الشيوعيون عظمة الاشتراكية الألمانية. وعندما أجبرت الحكومة المجرية الكنيسة على صنع بروباجاندا السلام، اكتشفت الكنيسة بمحض إرادتها أن السلام فضيلة مسيحية.

من البديهي أن عالمية التبرير الإعجازية تجعله في غاية الفعالية: الشخص الذي يبرر نفسه ويشارك في هذه التمثيلية لا يصدق ذلك التبرير فحسب، بل يحتاج الآخرين أيضًا أن يصدقوه. وفي الحقيقة، الآخرون فعلًا يصدقون لأنهم

(1) Karl Marx, *Essai de biographie intellectuelle*, 1957

يستخدمون نفس العقلنة ويتواطئون في اللعبة التي يشاركون في التمثيل فيها. ينال التبرير فعاليته من قاعدة التواطؤ المنتشرة هذه إلى درجة أنه حتى هؤلاء الذين وقعوا ضحية التبرير يتماشون معه. على سبيل المثال، الشخص العنصري يبرر تحيزه بالقول إن الجماعة "المتدنية" كسولة وغير أخلاقية وغير اجتماعية ومتدنية من الناحية البيولوجية، وفي كثير من الأحيان سيقبل أعضاء الجماعة الموصومة هذه الأحكام وسيشعرون بالدونية التي ستبرر التمييز في عيونهم. وهذا لأنهم أيضًا يستخدمون تبريرات على مستويات مختلفة.

ينبع التنوع الهائل لهذه التبريرات الشخصية والجماعية من ثلاثة مصادر: الأول، التفسيرات التقليدية التي انتقلت إلينا عن طريق الجماعة التي ننتمي إليها والتي زُرعت فينا في المدرسة وغيرها. مثلًا، انتقل حكم الطبقة البرجوازية (الذي يعود إلى عام 1815م) على العامل بعناية من جيل إلى جيل: "العامل كسول وهمجي وسِكّير،" أو استخدام مشروع فرنسا "لنشر الحضارة" لتبرير الاستعمار. ثانيًا، هناك أنماط من العقلنة يمكننا تزييفها بشكل تلقائي. تخاطب هذه العقلنة سلوكنا نحن عوضًا عن سلوك الجماعة.

أكثر ما يهمنا هنا هو النوع الثالث من العقلنة - وهو نوع فردي وجمعي كذلك - التي تتناول مواقف جديدة وضرورات غير متوقعة لا ينطبق عليها الحلول التقليدية. هذا النوع من العقلنة هو ثمرة البروباجاندا التي تربط نفسها بالإنسان وتفرض عليه المشاركة في لعبتها بسبب حاجته الطاغية إلى أن يكون على حق وأن يكون عادلًا. في كل المواقف، تقدم البروباجاندا له الدليل على أنه شخصيًا على حق وأن ما يُطلب منه عادلًا حتى إذا كان لديه شعور قوى وعميق أنه ليس كذلك. تخفف البروباجاندا من توتره وتحل صراعاته وتقدم له تبريرات جاهزة وسطحية وسهلة التصديق، انتقلت له عن طريق المجتمع. في الوقت ذاته، تتمتع البروباجاندا بالنضارة والتجديد - وهو ما يعكس مواقف جديدة ويعطي الإنسان انطباعًا أنه قد اخترع مُثُلًا جديدة. كما أنها تقدم له المثل العليا التي تسمح له بالاستسلام لعواطفه بينما يبدو أنه يحقق مشروعًا عظيمًا. وعندما تقدم

البروباجاندا للإنسان (الفرد والجماعة معًا) هذه التبريرات، تصير البروباجانـدا في أوج تأثيرها. هنا لا نتكلم عن تفسير بسيط وإنما عقلنة عميقة، بفضلها يجد الإنسان نفسه على اتفاق تام مع جماعته ومجتمعه، ويتكيف تمامًا مع بيئته وكذلك - في نفس الوقت - يكون قد تخلص من تأنيب الضمير وعدم اليقين الذي يشعر به.

الإنسان الذي يتوق إلى تبرير الذات يلقي نفسه في اتجاه البروباجانـدا التـي تبرر موقفه وبالتالي تقضي على أحد مصادر قلقه. تمحـو البروباجانـدا التناقـضات وتعيد له عالمًا مُتَّحِدًا تتماشى فيه المطالب مع الحقائق. فهي تدعوه دعـوة واضـحة وبسيطة نحو التصرف ذي الأولوية فوق أي شيء آخر. كما تسمح له بالمشاركة في العالم من حوله دون أن يتصارع معه لأن التصرف الـذي دُعِـي إليـه سـيزيل كـل العوائق من الطريق نحو إدراك المثل العليا المعلنة.

هنا تلعب البروباجاندا دورًا مثاليًّا تمامًا عن طريـق إشراك الفـرد (العـالق في عالم الواقع) ودفعه على العيش بالتوقعات في عالم قائم عـلى المبـادئ. وكنتيجـة، لم يعـد الفـرد يـرى التناقـضات خطـرًا عليـه أو تـشويهًا لشخـصيته: مـن خـلال البروباجاندا، تصبح التناقضات مصدرًا نشطًا للقتال والسيطرة. وعنـدما يحـاول أن ينهي صراعاته، لم يعد وحيدًا، بل مندفعًا داخل حشد في تقدم مـستمر و"عـلى مقربة" دائمًا من حل كل الصراعات، ويتم اقتياده وعالمه نحـو وحدانيـة مُرضِـية. دائمًا ما يكون المرء على حافة إنهاء الحرب - في الجزائر أو فيتنام أو الكونجو، وعلى مقربة من التفوق على الولايات المتحدة أو صد التهديد الشيوعي أو القـضاء عـلى كل الإحباطات.

في النهاية، تمحو البروباجاندا كذلك القلق النابع من المخاوف غير العقلانيـة والمبالغ فيها لأنها تعطي الإنسان شعورًا بالطمأنينة يُكافئ الشعور الذي وفـره لـه الدين في الماضي. تقدم له البروباجاندا تفسيرًا بسيطًا واضحًا للعـالم الـذي يعـيش فيه - طبعًا تفسير زائف بعيد كل البعد عن الواقع لكنـه مُـرضي وظـاهر للعيـان. تقدم له مفتاحًا يستطيع به أن يفتح كل الأبواب؛ فلـم يعـد هنـاك أي غمـوض -

يمكن شرح كل شيء بفضل البروباجاندا التي تمنحه نظارات خاصة يستطيع من خلالها أن ينظر على التاريخ المعاصر وأن يفهم معناه بوضوح. كما تقدم له إرشادات من خلالها يستدل على الصلة بين كل الأحداث غير المتسقة. والآن العالم قد توقف عن العدائية والتهديد.

يشعر متلقي البروباجاندا بالتفوق على العالم الفوضوي الشرير الذي يراه بوضوح وعقلانية لأن البروباجاندا تقدم له حلًّا لكل التهديدات ووضعية يتخذها في مواجهتها. تصاب الحشود بالجنون عندما لا يمكنهم معرفة الوضعية المناسبة التي يتوجب عليهم اتخاذها في مواجهة التهديد. تقدم البروباجاندا الوضعية المثلى التي تضع الخصم في موقف ضعف.

ليس هناك أي شك هنا بشأن طمأنة الناس أو إظهار حقيقة الوضع لهم؛ ليس هناك أي شيء يزعجهم أكثر من ذلك. الهدف هو تحميسهم وإثارة إحساسهم بالقوة ورغبتهم في تأكيد أنفسهم وتسليح أنفسهم نفسانيًّا حتى يستطيعوا أن يحسوا بتفوقهم على التهديد. والإنسان الذي يبحث عن مهرب من قلقه الخانق بأي وسيلة سيشعر بمعجزة النجاة بمجرد أن يتمكن من المشاركة في حملة نظمتها البروباجاندا، وبمجرد أن يغوص في هذا النشاط التحريري الذي يحل صراعاته الداخلية عندما تجعله يظن أنه يساهم في حل صراعات المجتمع.

وفي ضوء هذه الأسباب كلها، يحتاج الإنسان المعاصر البروباجاندا؛ فيطلبها، وفي الواقع، يثير ظهورها نوعًا ما. تطور البروباجاندا ليس صدفة. السياسي الذي يستخدمها ليس وحشًا؛ السياسي يلبي حاجة اجتماعية، ومتلقي البروباجاندا متواطئ على مقربة من مروجها. لا تستطيع البروباجاندا أن تؤدي وظيفتها إلا في ظل تواطؤ متلقيها غير الواعي - ولأن البروباجاندا تشبعه وترضيه - حتى إذا اعترض عليها من الناحية التجريدية أو اعتبر نفسه محصن منها - يسير في طريقها.

لقد أثبتنا أن البروباجاندا أبعد كل البعد عن كونها صدفة؛ فهي تؤدي وظيفة لا غنى عنها في المجتمع. يحاول المرء دائمًا أن يقدم البروباجاندا على أنها شيء

عَرَضي وغير معتاد واستثنائي ومرتبط بظروف غير عادية مثل الحروب. صحيح أنه في مثل هذه الحالات قد تصبح البروباجاندا أقوى وأكثر حدة وتصير متبلورة أكثر لكن جذور البروباجاندا أعمق من ذلك بكثير.

البروباجاندا نتيجة حتمية لمكونات المجتمع التكنولوجي المختلفة وتلعب دورًا محوريًا في حياة هذا المجتمع بحيث إنه لا يمكن لأي تطور سياسي أو اقتصادي أي يحدث دون تأثير قوتها العظيمة. العلاقات الإنسانية الاجتماعية والإعلانات أو الهندسة الإنسانية في الاقتصاد - كل هذا بروباجاندا. البروباجاندا بمعناها الحرفي في مجال السياسة هي الحاجة لتأثير نفساني يحث الناس على التصرف، والولاء هي العامل الحاسم في كل مكان الذي يطور المطالب ويبحث عنه الناس للنجاة من ذواتهم.

الفصل

الرابع

4

الآثار النفسانية للبروباجاندا

دعونا نبدأ بتأمل آثار عمليات البروباجانـدا النفـسانية عـلى الفـرد. بجانـب الآثار التي يبحث عنها مروج البروباجاندا مباشرةً - صوت الفرد في الانتخابـات مثلًا - التلاعب النفساني الذي يقـوم بـه يثـير قـوى في اللاوعـي ويـصدم الفـرد بطرائق مختلفة. الفرد المعرض للبروباجانـدا لـن يظـل سـلبيًا، وسيـصاب بـأذى: ستتغير آراءه ومواقفه واتجاهاته وكذلك ستتعدل بواعثه والأبنية الحسية والعقليـة لديه. أثر البروباجاندا خارجي جدًّا ويُنتج تغيرات عميقة.

علينا أيضًا أن نميز بين آثار مختلفة أنتجتها وسائل إعلامية مختلفة - لكل منها آثارهـا الخاصـة بهـا عـلى المواقـف والاتجاهـات أو الآراء، سـواء أثارهـا مـروج البروباجاندا عمدًا أو دون قـصد. عنـدما يـذهب الفـرد إلى دار عـرض الأفـلام، يتلقى انطباعات بعينها وتتغير حياتـه الداخليـة وحـدها دون تـدخل مـن جانـب البروباجاندا. مثل هذه الآثار النفسانية، وتغير الآراء، تنجم عن كـل وسـيلة مـن الوسائل الإعلاميـة التواصـلية، وتنـضم لتلـك التغـيرات الناتجـة عـن عمليـات البروباجاندا.

من الصعب جدًّا أن نحلل النقطـة الـذي تنتهـي فيهـا المجموعـة الأولى مـن الآثار وتبدأ فيهـا المجموعـة الثانيـة. إذا نظرنـا إلى حملـة بروباجانـدا عـن طريـق الإذاعة، يستحيل تقريبًا أن نقسم الآثار إلى تلك التي أنتجتها الحملة وتلـك التـي تنتجها الإذاعة بشكل عام.



كُتبت دراسات كثيرة عن الآثار الأساسية - بعيدًا عن البروباجاندا - للصحافة والإذاعة والتلفاز، لكن الآثار تتواجد أيضًا عندما تُستخدم هذه الوسائل الإعلامية بغرض البروباجاندا. لا يستطيع مروج البروباجاندا الفصل بين الآثار العامة والخاصة، وعندما يطلق حملة إذاعية يعرف أن آثار حملته وآثار الإذاعة بشكل عام ستندمج معًا. وحيث إن كل وسط إعلامي له آثار خاصة وآثار جزئية، سيميل مروج البروباجاندا إلى دمجها والجمع بينها لأنها تكمل بعضها البعض. وهكذا ينسق مروج البروباجاندا وينظم كل شيء.

لدراسة آثار البروباجاندا النفسانية، علينا أن ندرس آثار كل وسيلة إعلامية على حدة ثم ندرس آثار دمجها مع التقنيات الخاصة بالبروباجاندا. لا يمكننا أن نقوم بهذا هنا لكن على القارئ أن يتذكر دائمًا الطابع *التكميلي* للبروباجاندا.

التبلور النفساني

تحت تأثير البروباجاندا، تتسم بعض الدوافع بالغموض والضبابية وكثيرًا ما تصير قوية ومباشرة ودقيقة بغتةً دون أي هدف بعينه. تقدم البروباجاندا الأهداف وتنظم خصال شخصية الفرد داخل نظام ما وتجمده في قالب. على سبيل المثال، تقوى البروباجاندا وتعزز التحيزات التي تنشأ بشأن أي حدث - يُقال للفرد أنه كان على حق عندما تبنى هذه التحيزات؛ يكتشف أسباب وتبريرات للانحياز

عندما يرى كثيرين يتبنون نفس الانحياز ويجاهرون به.[1] وفضلًا عن ذلك، كلما احتدت الصراعات في المجتمع، احتدت التحيزات، والبروباجاندا التي تشعل الصراعات أكثر – في الوقت ذاته – تشعل التحيزات بنفس المنوال.

بمجرد أن تبدأ البروباجاندا في استخدام وتوجيه مشاعر الكراهية، لم يعد أمام الفرد فرصة للتراجع أو تحجيم عداواته أو السعي وراء تسويات مع خصومه. وعلاوة على ذلك، لديه الآن قدر من الأحكام الجاهزة بشأن الأمور التي لم يكن لديه إلا بعض الأفكار المبهمة عنها قبل أن تبدأ البروباجاندا في عملها. وتسمح له هذه التحيزات بمواجهة أي موقف. لن يكون عنده أي سبب بعد الآن لتغيير الأحكام التي سيعتبرها فيما بعد الحقيقة الوحيدة المطلقة.

على هذا النحو، تُنَمِّط البروباجاندا الأفكار الحالية[2] وتعزز الصور النمطية السائدة وتقدم أنماط فكرية في كل المجالات. وهكذا تقنن المعايير الأخلاقية والسياسية والاجتماعية.[3] من المؤكد أن الإنسان يحتاج إلى تأسيس مثل هذه

---

(1) والأكثر من ذلك أن تقوية وتعزيز تحيزات الفرد تسمح له بمقاومة الحقائق ومقاومة ضغط الأحداث المضادة.

(2) تقدم البروباجاندا للفرد صورًا نمطية لم يعد يكترث بصنعها لنفسه؛ وتقدمها له في شكل شعارات وأحكام جاهزة وتصنيفات ومسميات. كما تحول البروباجاندا الأفكار إلى شعارات، وتقنع الفرد أن عنده رأي عندما تعطي للفكرة "الكلمة."

(3) ترتبط الرموز بظاهرة نفسانية وهي الصور النمطية التي تعتبر حكمًا قيميًّا في ظاهره يكتسبه الفرد عن طريق الانتماء إلى جماعة دون أي مجهود عقلي – ويعيد إنتاج نفسه تلقائيًّا مع كل إثارة. تنبع الصور النمطية من مشاعر الفرد تجاه جماعته أو مشاعر عدائية تجاه الأفراد خارج الجماعة. يربط الفرد نفسه بقوة بالقيم التي تمثلها جماعته ويرفض العبارات المبتذلة التي يستخدمها الأفراد خارج جماعته. "الهدف الوحيد من تبني نفس تحيزات الجماعة هو إظهار التبعية للجماعة. تعكس الصور النمطية مواقف يمر بها الفرد في المجتمع كما تعكس الجماعات التي يتبعها وتعكس مهنته." يقول (ستوتزل) إن الصور النمطية "مجموعة صميمة... طريقة تفكير وتفسير التجارب والسلوك" لكنها تقوم فقط على ردة فعل عاطفية. =

= الصور النمطية محددة: تتعلق باسم معين أو صورة لا بد أن تكون دقيقة حتى تعمل الصورة النمطية.

(Jean Stoetzel: *Esquisse d'une, théorie des opinions* [Paris: Presses Universitaires de France; 1943], 311 صفحة)

الصور النمطية مستقرة وتساعد الإنسان على تفادي التفكير وعلى اتخاذ موقف ما وعلى تشكيل رأيه. يستجيب الإنسان باستمرار كما لو كانت استجابته ردة فعل في حضور مثير للصور النمطية. ردة الفعل هذه تعطيه الفرصة لينال رأيًا جاهزًا رغم أنه يبدو تلقائيًّا في كل موقف. في واقع الأمر، تعطيه الصور النمطية إحساسًا بالموقف، وفيما يخص المسائل الأخلاقية، الصور النمطية هي معيار القيم وعادة ما تتشكل داخل جماعة محدودة لكنها تميل إلى التطور وتمتد إلى عوام الناس. تتمتع الصور النمطية بالقدرة على التوسع؛ وعلاوة على ذلك، تنفصل تدريجيًّا عن الصور البدائية التي أظهرتها ثم تستقل تمامًا.

في البروباجاندا، تثير الرموز الصور النمطية الموجودة - تسمح الرموز بتشكيل استجابة ملائمة يمكن نقلها إلى أفراد وأشياء ترتبط بها. سؤال جماعة ما عن رأيهم في جملة كتبها (فيكتور هوجو) يؤدي إلى صورة نمطية عن (هوجو) - لكن سؤالهم عن رأيهم في الجملة دون الإفصاح عن كاتبها لن يثير أي صور نمطية، وسيؤدي إلى رأي مختلف تمامًا. في البيئة البرجوازية، يثير افتراض "الشيوعية تريد العدالة" ردة فعل غير مواتية لكن ردة الفعل ملائمة بين الأحزاب التي تشدد على العدالة. وهنا تسود الصورة النمطية "للعدالة"؛ وفي الحالة السابقة، الصورة النمطية "للشيوعية" هي التي غلبت.

إذا اتبعنا تحليل (لازويل)، يمكننا تقسيم الرموز إلى ثلاثة أقسام: هناك رموز *الطلب* التي تعبر عن طموح الجماعة التي تسعى إلى إنتاج الأحداث. ثم هناك رموز *التعريف* التي تُعرّف البطل الذي يعمل من أجلنا أو العدو الذي نناضل ضده. وأخيرًا، هناك رموز *التوقع* التي تمثل الحقائق على أنها أهداف اليوم والمستقبل لكن الحقائق في الواقع مجردة من ذاتها وصارت رموز بسيطة.

استخدام الرموز يقلب ضمير الفرد ضد نفسه. تستخدم البروباجاندا الفعالة رموز متعددة ذات صلة بطريقة تثير صور مألوفة وتناشد الضمير، في حين أن صور أخرى تنتهك الضمير وتميل إلى تدميره أو إنكاره. الرمز أداة فعالة لفصل الفرد تدريجيًّا عن بواعثه البدائية وعن اتجاهاته الطبيعية وذلك لخلق "اتجاهات مضادة" و"سلوكيات مضادة." عن طريق هذا الإجراء، تنجح البروباجاندا في إضعاف ضمير الفرد ووعيه وزعزعة اتجاهات الفرد خلال الفترة الانتقالية عند تزويدها بمحتوى جديد. مثلًا، لا يتم تدمير رموز =

المعايير والتصنيفات.[1] الفرق هو أن البروباجاندا تعطي العملية قوة غاشمة: لم يعد المرء يستطيع أن يُعدّل في أحكامه وأنماطه الفكرية. تنبثق هذه القوة من طابع الوسيلة الإعلامية المستخدمة (التي تعطي مظهر الموضوعية لدوافع ذاتية) من ناحية، ومن التزام الكل بنفس المعايير والتحيزات من ناحية أخرى.[2]

= السلطة بهدف إحلال اتجاه الاستقلال؛ وإنما تبديل رموز السلطة هذه برموز سلطة جديدة. ولكن، استخدام الرموز يفترض وجود بروباجاندا متقدمة للغاية. هذا ما نجده مثلًا في البروباجاندا الستالينية. وفي مرحلة أكثر ابتدائية، لكل الرموز غرض إثارة الصور النمطية - وظيفة مناسبة لأنها بطبيعتها توحد الحياة العقلية والعاطفية فعلًا.

تقوم الصور بهذا الدور إذ إن لها قوة خاصة في إثارة واقع الصور النمطية وفوريتها - فالصور النمطية نفسها صور تغذيها صور أخرى. يثير تمثال الحرية وقوس النصر ردود فعل فورية. تحمل الصورة معها خصائص الموقف الجوهرية التي تمثله، وبالتالي تعزز الصورة النمطية بينما تثيرها. رمز آخر يستحضر صور هو الشعار الذي يشتمل على مطالب وتوقعات وآمال الجماهير، وفي نفس الوقت، يعبر عن القيم الراسخة للجماعة. تحدد الشعارات بدقة عالية كل نوع من الجماعات التي يُوجّه نحوها الفرد - سواء أكان عضوًا فيها أو لم يكن.

وفوق كل هذا، يضمن الشعار استمرارية الصور النمطية الثابتة كوظيفة للماضي. لكن الفرد يجد نفسه دائمًا في مواجهة مع مواقف جديدة لا تسمح الصور النمطية وحدها للفرد بإتقانها. الشعار هو الصلة التي يستخدمها مروج البروباجاندا ليسمح للفرد بتطبيق الصور النمطية القديمة على مواقف جديدة. ينعش ذاكرته بشأن الصور ويكيفها؛ وفي الوقت ذاته يدمج مواقف جديدة في سياقات تقليدية - مألوفة وغير محيرة. ولهذا، يزدهر الشعار في وقت الأزمات والحروب والثورات، كما أن هذا يفسر جاذبية الشعار والتي بفضلها لا يشعر الفرد بالتيه العقلي. يميل للشعار ليس لأنه سهل الفهم والحفظ فحسب، بل أيضًا لأنه يعطيه الفرصة أن "يجد نفسه فيه." ثم تميل إلى إنتاج صور نمطية داخل الأفراد الذين لم يحملوا صورًا نمطية قبل حدوث الأزمة.

(1) يفهم الإنسان هذه التبسيطات تلقائيًا حتى يتجنب الجهد والخطأ والاختيارات الصعبة.

(2) ومن ثم، سنجد ما أطلق عليه (ألفريد سوفي) "خطأ بالقوة" أو "الخطأ المؤثر"؛ مع أن الرأي والحكم غير صحيحين، لا يرقى الشك إليهما بسبب قوة المعتقد الجمعي.

في الوقت ذاته، تصبح المعتقدات الجمعية (التي يدعي الفرد أنها معتقداته الخاصة) ومقاييس القيم والصور النمطية (التي لا تلعب إلا دورًا ضئيلًا في حياة الفرد الذي لم يتعرض للبروباجاندا) كبيرة ومهمة؛ وعن طريق عملية العقلنة، تبدأ هذه الصور في شغل وعي الفرد الكامل وإزاحة المشاعر والأحكام الأخرى. تتلاشى الأنشطة الشخصية، ولا يملأ الإنسان في النهاية إلا هذه التحيزات والمعتقدات التي يدور حولها كل شيء آخر. وفي نهاية المطاف، سيحكم الإنسان على كل شيء في حياته الشخصية عن طريق معايير متبلورة من هذا النوع.

ولنعود إلى (ستوتزل)، ينمو الرأي العام داخل الفرد بينما يصير متبلورًا من خلال آثار البروباجاندا، وفي الوقت نفسه يخفت رأيه الشخصي. جانب آخر من جوانب التبلور يتعلق بتبرير الذات والذي يحتاجه الإنسان أشد الحاجة كما رأينا في الفصل السابق. وحيث إن الإنسان في حاجة إلى التبريرات، تقدمها البروباجاندا له. لكن، في حين أن التبريرات العادية هشة ويمكن أن تكون محل شك طيلة الوقت، التبريرات التي تقدما البروباجاندا قوية ولا يمكن دحضها. يصدق الفرد هذه التبريرات ويعتبرها حقيقة أبدية. ويمكنه أن يتخلص من أي إحساس بالذنب؛ سيفقد أي إحساس بأذى قد يتسبب فيه[1]، وأي إحساس بالمسؤولية بخلاف المسؤولية التي تغرزها فيه البروباجاندا. وهكذا يتكيف الفرد تكيفًا كاملًا مع المواقف المطلوبة منه وليس هناك ما يمكن أن يخلق نزاع داخله.

من خلال مثل هذه العملية للعقلنة القوية، تبني البروباجاندا أفرادًا أحاديين وتمحو الصراعات الداخلية والتوترات والنقد الذاتي والشك في الذات. وبنفس الطريقة، تبني أيضًا كيانًا ذا بُعد واحد دون عمق أو مدى للاحتمالات. سيكون لدى فرد من هذا النوع عقلنة لأفعال الماضي وكذلك المستقبل، وسيسير قدمًا مع طمأنينة كاملة باستقامته ونزاهته. فهو قوي في توازنه وذلك لأن تبريراته عصية على الكسر. التجارب التي أجريت على السجناء النازيين برهنت على ذلك.

---

(1) على النقيض من ذلك، فيعزي نفس الأعمال الوحشية التي شرع في ارتكابها إلى عدوه.

دائمًا ما تشكل التوترات تهديدًا للفرد الذي يحاول بكل ما في وسعه الهرب بسبب نزعته للحفاظ على ذاته. من الطبيعي أن الفرد سيحاول أن يخفف من توتره بطريقته الخاصة لكن في مجتمعنا المعاصر الوضع العام هو الذي يخلق الكثير من هذه التوترات والتي يصعب تخفيفها أكثر من التوترات الأخرى. يمكن أن يقول البعض إن العلاجات الجمعية هي فقط التي تكفي للمشكلات الجمعية - وهنا تقدم البروباجاندا خدمة عظيمة: تجعل الإنسان يعيش في مناخ مألوف من الرأي، وتخفف من توتره عن طريق التلاعب بالرموز. تمحو البروباجاندا أحد أسباب التوتر عن طريق دفع الإنسان مباشرةً نحو مناخ الرأي هذا. وهذا يبسط حياته ويعطيه استقرارًا وأمنًا وإشباعًا أكثر.

في الوقت نفسه، يغلق التبلور عقله أمام كل الأفكار الجديدة. عند الفرد الآن مجموعة من التحيزات والمعتقدات وكذلك التبريرات الموضوعية. والآن تدور شخصيته كلها حول هذه العناصر. ومن ثم، كل فكرة جديدة ستكون متعبة لكيانه كله، وسيدافع عن نفسه لأن الفكرة الجديدة تهدد بتدمير يقينه. وهكذا سيصل إلى كراهية كل شيء يتعارض مع ما أكسبته له البروباجاندا[1] التي خلقت فيه نظامًا من الآراء والميول التي قد تتعرض للنقد. لا يترك هذا النظام مجالًا أمام الغموض أو تخفيف المشاعر؛ فالفرد قد تلقى يقينًا غير عقلاني من البروباجاندا - ولأن اليقين غير عقلاني، يبدو كأنه جزءًا من شخصيته. يشعر بأن هناك هجومًا عليه شخصيًّا عندما يكون هناك هجوم على هذا اليقين. هناك شعور هنا يشبه شيء مقدس. ويمنع هذا المحظور الأصيل الفرد من اعتبار أي فكرة جديدة قد تخلق غموضًا داخله.

وبالمناسبة، هذا الرفض للاستماع لأفكار جديدة عادةً ما يتخذ مظهرًا ساخرًا: الشخص الذي تعرض لبروباجاندا شديدة بنجاح سيصرح أن كل الأفكار الجديدة بروباجاندا. ونتيجة أن كل الصور النمطية والتحيزات

---

(1) ما أطلق عليه (سوفي) "ردود الفعل الدفاعية ضد المدمر" (ردود الفعل الأمن والأسطورة).

والتبريرات أتت من البروباجاندا، سيكون الإنسان مستعدًا لاعتبار كل الأفكار الأخرى كبروباجاندا كما سيكون مستعدًا لتأكيد عدم ثقته في البروباجاندا. يمكن الافتراض أن هؤلاء الذين يسمون كل فكرة لا يؤمنون بها "بروباجاندا" هم أنفسهم من إنتاج البروباجاندا. رفضهم للتفكير أو لتأمل أي أفكار تختلف عن أفكارهم يعتبر سمة من سمات حالتهم.

يمكن أن يغالي البعض ويقولون إن البروباجاندا تميل إلى أن تعطي الفرد شخصية دينية:[1] تُنَظِّم حياته النفسانية حول معتقد جمعي خارجي وغير عقلاني. يوفر هذا المعتقد مقياس للقيم وقواعد للسلوك ومبدأ للدمج الاجتماعي.

في مجتمع يمر بعملية العلمنة، تستجيب البروباجاندا للاحتياج الديني لكنها تُضفي تشددًا وتصلبًا فكريًا أكثر على الشخصية الدينية الناتجة بالمعنى السلبي للكلمة (كما وظفها الليبراليون في القرن التاسع عشر): الشخصية المحدودة المتشددة التي تطبق الأوامر الإلهية على نحو آلي لا تقدر أن تشارك في حوار إنساني، ولن تشكك أبدًا في القيم التي ترسخت في الشخصية. تنتج البروباجاندا كل هذا وتتظاهر بأنها لم تفقد أي من إنسانيتها وأنها تفعل ما يصنع خيرًا للبشرية وتمثل أرقى أنواع البشر. وفي هذا السياق، كل المذاهب الأرثوذكسية الصارمة كانت دائمًا متطابقة.

يمكننا الآن أن نسأل: إذا غيرت البروباجاندا الحياة النفسانية بهذه الطريقة، ألن تؤدي في النهاية إلى الاضطرابات العصبية؟ تستحق (كارن هورني)[2] التقدير على إثباتها أن الشخصية المصابة بالعصاب مرتبطة بثقافة وبناء اجتماعي (بالمعنى الأمريكي للكلمة)، وأن هناك خصائص أساسية مشتركة في بعض الأمراض العصبية – تنبثق هذه الخصائص مباشرةً من المشكلات الموجودة في مجتمعنا.

---

(1) من المؤكد أن الطابع الديني قد أكد كل هذا. تستخدم البروباجاندا هذا الطابع الذي يميل إلى خلق "هالة" حول الإنسان وأن تجعله يتقيد بقيم "مقدسة".

(2) The Neurotic Personality of Our Time (New York: W. W. Norton & Company; 1937), الفصل الأول

عند مواجهة المشكلات التي انتجها المجتمع، تبدو البروباجاندا وسيلة لعلاج العيوب الشخصية؛ وفي نفس الوقت تُغرق الفرد في حالة عصابية. يظهر هذا من الاستجابة القوية لمتلقي البروباجاندا وموقفه النمطي الذي يفتقر إلى الخيال وعجزه فيما يتعلق بالعملية السياسية-الاجتماعية وعدم مقدرته على التكيف مع مواقف تختلف عن تلك التي خلقتها البروباجاندا، وحاجته إلى تناقضات صارمة - أبيض وأسود، خير وشر - ومشاركته في صراعات غير حقيقية خلقتها البروباجاندا وفجرتها.

الخطأ في التمييز بين الصراع المصطنع والصراع الحقيقي يعتبر أحد سمات الاضطرابات العصبية. وهكذا تكون نزعة متلقي البروباجاندا لإعطاء تفسيره الضيق لكل شيء ولتجريد الحقائق من معناها الحقيقي لكي يدمجها في نظامه ويعطيها صبغة عاطفية لن ينسبها للحقائق إلا المصابون بالعصاب.

وعلى نفس الشاكلة، يبحث المصاب بالعصاب عن التقدير والمودة من عدد كبير من الناس كما أن متلقي البروباجاندا لا يستطيع أن يعيش إلا في وفاق مع رفاقه الذين يشترك معهم في نفس ردود الفعل والأحكام التي تبنتها جماعته (التي تعرضت لنفس البروباجاندا). لا ينحرف عن الطريق - ولا حتى قيد أنملة - لأن فصل ذاته عن عاطفة البيئة يعني معاناة مريرة، وهذه العاطفة ترتبط بسلوك خارجي بعينه وباستجابة مماثلة للبروباجاندا. من الطبيعي أن هذا يتوافق مع عداء المصاب بالعصاب ضد مَن يرفض صداقته وضد مَن يظل خارج جماعته؛ وهذا ينطبق على متلقي البروباجاندا.

داخل نفسية المصاب بالعصاب هناك حاجة هائلة لتبرير الذات (وهو ما نراه في الجميع ويؤدي إلى الرياء) وتعبر هذه الحاجة عن نفسها من خلال إظهار دوافع عدائية ضد العالم الخارجي؛ فيشعر أن البواعث المدمرة لا تصدر منه وإنما من شخص أو شيء في الخارج. لا يريد أن يستغل أو يستغفل الآخرين لكنهم يريدون أن يفعلوا ذلك به؛ وهذه هي الآلية التي تعيد البروباجاندا إنتاجها بحنكة.

فهو يريد أن يصنع حربًا لكنه يُسقط هذه النية على عدوه ثم تنتشر هذه النية وتنتقل إلى متلقي البروباجاندا الذي سيتم تعبئته وتحضيره للحرب لاحقًا وكذلك يتم إثارة عداواته في الوقت ذاته بينما يُسقط عدائيته على عدوه. وكما يحدث مع مريض العصاب، تشغل دائرة "الضحية-العدو-كبش الفداء" حيزًا هائلًا في عقل متلقي البروباجاندا حتى إذا اعترفنا أنه - بجانب هذه العملية - هناك دائمًا أسباب وجيهة لردود فعل من هذا النوع.

وباختصار، عندما نقرأ توصيف (كارين هورني) للدائرة العصابية التي تنبع من بيئة مصابي العصاب، يمكننا القراءة عن الدائرة المعتادة لمتلقي البروباجاندا:

> القلق، العدائية، نقص في احترام الذات...السعي وراء السلطة...تعزيز العدائية والقلق...الميل إلى التقهقر في مواجهة المنافسة المصحوبة بنزعات لتقليل قيمة الذات... الفشل والتفاوت بين القدرات والإنجازات...تعزيز مشاعر التفوق وعلو الشأن... تعزيز الأفكار العظيمة...زيادة الحساسية مع الميل نحو الانسحاب...زيادة العدائية والقلق...

استجابات مثل هذه من جانب مريض العصاب تتطابق مع تلك التي يصدرها متلقي البروباجاندا، حتى إن أخذنا في الاعتبار أن البروباجاندا في النهاية تمحو القلق الواعي وتهدئ متلقي البروباجاندا.

الاغتراب عبر البروباجاندا

الاغتراب يعني أنك تصير شخصًا آخر مختلف عن نفسك. يمكن أيضًا أن يعني الانتماء لشخص آخر. بمعنى أعمق، يعني حرمان الشخص من ذاته والتعرض إلى شخص آخر وحتى التوحد معه. من المؤكد أن هذا هو أثر البروباجاندا[1] التي تجرد الفرد وتسرق جزء من ذاته وتجعله يعيش حياة غريبة

---

(1) تذكر الدور الذي كلف الحزب الشيوعي البروباجاندا به: عليها أن تغيّر ضمير المواطن السوفيتي؛ وسنجد نفس الفكرة عند (ماو).

مصطنعة لدرجة أنه يصبح شخصًا آخر ويطيع بواعث غريبة عنه. فهو يطيع شخصًا آخر.[1]

مجددًا، حتى تنتج البروباجاندا هذا الأثر تحصر نفسها في استخدام وزيادة وتعزيز ميل الفرد لفقدان نفسه في شيء أكبر من ذاته وتبديد فرديته وتحرير الأنا من كل الشكوك والصراعات والمعاناة - عبر الانصهار مع الآخرين - لكي يكرس نفسه لقائد عظيم وقضية عظيمة. يشعر الإنسان بالوحدة مع الآخرين في المجموعات الكبيرة ومن ثم يحاول أن يحرر نفسه من نفسه عن طريق الاختلاط مع مجموعة كبيرة. في واقع الأمر، تقدم البروباجاندا هذه الإمكانية بطريقة متناهية السهولة والإشباع لكنها تدفع الفرد إلى داخل الحشد حتى يتلاشى تمامًا.

في البداية، ما الذي تخفيه البروباجاندا؟ كل شيء في شكل وطابع الحكم الشخصي والنقدي. بديهي أن البروباجاندا تحد من تطبيق الفكر وتحد من المجال الفكري لمتلقي البروباجاندا حتى تتمكن من تزويده بأفكار وصور نمطية جاهزة، وعلاوة على ذلك، غير حقيقية. توجهه نحو غايات محدودة جدًّا وتمنعه من استخدام عقله أو تجريب الأشياء بنفسه. كما تحدد الجوهر الذي يستقي منه كل أفكاره وينطلق منه نوع من مبدأ توجيهي لا يسمح بالنقد ولا الخيال. على نحو أكثر دقة، لن يؤدي خياله إلا إلى انحراف مؤقت من الاتجاه الثابت وإلى استجابات بدائية تقع في ثنايا الإطار العام. وبهذه الطريقة، نرى التقدميين يصنعون "المتغيرات" حول مبادئ البروباجاندا الأساسية للحزب الشيوعي، لكن مجال اختلافات كهذه محدود للغاية.

قبول هذا الاتجاه - وقبول هذه الحدود والقيود - يفترض مسبقًا قمع لكل حكم نقدي، والذي يُعتبر بدوره نتيجة بلورة الأفكار والمواقف وخلق المحظورات. أصاب (جولز مونيروت) عندما قال: تؤدي حماسة الفرد إلى قمع

---

(1) ولكن، كما ذكرنا مرارًا "الأشخاص الذين تعرضوا للبروباجاندا لا يعتبرون أنفسهم متأثرين بها. يظن الجميع أنهم وجدوا "الطريق نحو الحقيقة""

كل حكم نقدي يتعلق بموضوع هذه الحماسة. وفوق هذا، يتلاشى الحكم النقدي تمامًا في ثنايا الحماسة الجمعية التي خلقتها البروباجاندا لأنه ليس هناك أي طريقة يمكن بها للحكم النقدي أن ينشأ.

صار الإنسان عاجزًا عن "الفصل" وعن البصيرة (أتت كلمة *نقدي* من كلمة *Krino* اليونانية، بمعنى منفصل). لم يعد الفرد قادرًا على الحكم على الأمور بنفسه لأنه لا مناص له من ربط أفكاره بمجموعة متشابكة من القيم والتحيزات التي أستها البروباجاندا. بالنظر إلى المواقف السياسية، عدد من المؤيدين، وكلام الخبراء، يقدمون للفرد أحكامًا قيمية[1] جاهزة تتسم بقوة الحقيقة.

ليس هناك فرصة للفرد أن يصدر حكمًا على المسائل الأساسية أو افتراضاتها؛ وهذا سيؤدي إلى ضمور قدرة الفرد الذي لم يمارسها بسهولة تحت أي ظروف. لم يكن سهلًا قط أن يستعيد الفرد ما فقده - بمجرد أن تختفي أو تضعف قدرة الفرد النقدية وقدرته على إصدار الأحكام، لن تظهر مرة أخرى ببساطة عندما تُقمع البروباجاندا.

في الواقع، نتعامل هنا مع أحد تأثيرات البروباجاندا الأكثر ديمومة: سوف يحتاج الفرد سنوات من التعليم الروحاني والفكري كي يستعيد مثل هذه القدرات. متلقي البروباجاندا - إن حُرم من نوع من أنواع البروباجاندا - سيتبنى نوعًا آخر على الفور؛ وهذا سوف يعفيه من عناء إيجاد نفسه إزاء حادث ما بدون رأي جاهز، مجبرًا على الحكم على هذا الحدث بنفسه.[2] في نفس الوقت، تقدم البروباجاندا الحقائق والأحكام والقيم على نحو مربك للغاية وبواسطة مناهج كثيرة جدًّا بحيث يستحيل حقًّا للإنسان العادي أن يتصرف ببصيرة. ليس لديه

---

(1) أحداث وقعت مؤخرًا (1962م) أثبتت (للأسف) أن الطلاب والمثقفين المنصهرين في البروباجاندا ليسوا مزودين بأحكام قيمية أكثر من غيرهم.

(2) هذا أحد الأسباب وراء انفصال متلقي البروباجاندا أخلاقيًّا بمجرد أن ينفصل عن جماعته؛ فهو في حاجة إلى معنويات جماعية حتى يستطيع العيش.

القدرة الفكرية ولا مصدر المعلومات. وبناءً عليه، فهو مجبر إما على قبول وإما رفض كل شيء *تمامًا*.

لذا نصل إلى نفس النقطة عبر طرقات مختلفة: من ناحية، تدمر البروباجاندا القدرة على النقد؛ ومن ناحية أخرى، تقدم أهدافًا لا يمكن معها ممارسة هذه القدرة، ولذا تجعلها عديمة الفائدة. من الواضح أن كل هذا يؤدي إلى محو قدرة الفرد على إصدار الأحكام. ويحدث هذا بمجرد أن يقبل الفرد الرأي العام كما لو كان رأيه الشخصي. عندما يعبر عن الرأي العام في كلامه وإيماءاته، لم يعد يعبر عن نفسه، ولكن مجتمعه وجماعته. ومن المؤكد أن الفرد سيعبر دائمًا عن الجماعة. ولكن، في هذه الحالة، سيعبر عنها تعبيرًا كاملًا مستجيبًا لعملية ممنهجة.

وعلاوة على ذلك، عندما تنتج البروباجاندا رأيًا عامًا يفتقر إلى الشخصنة، يتسم هذا الرأي بالاصطناع، ولا يعكس أي شيء أصيل. ومع ذلك، هذا الرأي المصطنع هو بالضبط ما يمتصه الفرد. فيمتلئ به؛ وعندها لا يعبر عن أفكاره، بل أفكار جماعته تعبيرًا حماسيًّا - ومن شروط البروباجاندا المسبقة أن يؤكد الفرد هذه الأفكار تأكيدًا جازمًا وعن اقتناع. فيمتص الأحكام الجماعية، خليقة البروباجاندا؛ التي يمتصها كغذاء كما أصبحت في واقع الأمر. ويفسرها كأنها أفكاره هو. فيأخذ موقفًا ثابتًا ويشرع في معارضة الآخرين، ويثبت نفسه في نفس اللحظة التي ينفي فيها نفسه بدون أن يدرك ذلك.

عندما يردد درس البروباجاندا الذي تعلمه ويقول إنه صاحب أفكاره، وحين لا ترى عيونه شيئًا ولا ينطق فمه إلا بأصوات نُقشت في مخه سلفًا، وعندما يقول إنه فعلًا يعبر عن رأيه هو - فهو يثبت بالفعل أنه لم يعد يفكر بتاتًا وأبدًا، وأنه ليس كائنًا في الوجود كشخص. عندما يحاول متلقي البروباجاندا أن يثبت ذاته كواقع مُعاش، يثبت اغترابه الكامل في أوضح صورة ممكنة؛ لأنه يبين أنه لم يعد قادرًا حتى على التمييز بين ذاته والمجتمع. ثم يندمج اندماجًا كاملًا ويصبح هو نفسه الجماعة الاجتماعية، وليس هناك شيئًا في داخلة لا ينتمي للجماعة، وكل آراءه تصدر عن الجماعة. ما هو إلا ما علمّته البروباجاندا أن يكون.

وما هو إلا قناة تبتلع حقائق البروباجاندا وتنشرها عن قناعة ناتجة عن غيابه كشخص. تحت مثل هذه الظروف، لا يمكنه أن يأخذ خطوة واحدة للوراء لكي ينظر على الأحداث؛ لا يمكن أن يكون هناك مسافة من أي نوع بينه وبين البروباجاندا. تتماشى آلية الاغتراب عامةً مع إما الإسقاط على البطل والزعيم وإما التوحد معه، أو مع الانصهار مع الجمهور. لا تعتمد هاتان الآليتان على بعضهما البعض: عندما يُسقِط "تنظيم شباب هتلر" نفسه على الزعيم النازي، بمجرد القيام بهذا، يدخل في الجمهور الذي دمجته البروباجاندا. عندما سَلّم "اتحاد شباب الكومسومل" نفسه لـ "طائفة (ستالين)"، أصبح الاتحاد كله وقتئذ جزءًا من الجمهور. من المهم أن نذكر أنه عندما يظن متلقي البروباجاندا أنه يُعَبّر عن أعلى مُثُل الشخصية، فهو في أقل مستوى من الاغتراب.

ألم نسمع كثيرًا عن ادعاء الفاشية أنها استعادت الشخصية إلى مكانتها الرفيعة؟ ولكن، عبر قناة أو أخرى، انتجت البروباجاندا نفس الشعور بالاغتراب لأن خَلْق البطل يأتي كنتيجة للبروباجاندا مثل دمج الفرد في جمهور نشط. وعندما تجعل البروباجاندا الفرد يشارك في حركة جماعية، فهي لا تجعله يشارك في نشاط مصطنع فحسب، وإنما تستحضر فيه أيضًا نفسية المشاركة، "نفسية الحشد." وتنتج البروباجاندا هذا التغير الروحاني إنتاجًا منظمًا. يحدث هذا التغير تلقائيًّا في وجود مشاركين آخرين. وهذا هو خَلْق النفسية الجماهيرية عبر دمج نفسية الفرد في الحشد.

في عملية الاغتراب هذه، يفقد الفرد السيطرة، ويخضع لبواعث خارجية، وتفسح أذواقه وميوله الشخصية المجال للمشاركة في الأنشطة الجماعية - لكن البطل هو دائمًا أفضل مَن يمثل ويقولب الأنشطة الجماعية ويقدمها في صورتها المثلى. تُعتبر طائفة البطل مكملًا ضروريًّا للغاية لتحويل المجتمع إلى مجتمع جماهيري. نرى اختلاقًا تلقائيًا لهذه الطائفة فيما يتعلق بالرياضيين ونجوم الأفلام، وحتى الرموز المجردة مثل (دافي كروكت) في الولايات المتحدة وكندا في عام 1955م. تمجيد البطل بهذه الطريقة يثبت أننا نعيش في مجتمع جماهيري.

عندما تمنع الظروف الفرد من أن يكون شخصًا حقيقيًا بمعنى أنه لم يعد قادرًا على التعبير عن نفسه عبر أفكار أو أفعال شخصية ويجد أن طموحاته محبطة، سيُسقط على البطل كل ما كان يتمنى أن يكون. يعيش الفرد حياة خيالية ويجرب الأعمال الرياضية أو الغرامية أو المآثر العسكرية لإله يعيش معه في تكافل روحي. شبه مستحيل أن يتجنب فرد المجتمع الحديث الآلية التي اشتهرت باسم "التوحد مع نجوم الأفلام" إذ إنه يعجب بنفسه في شخص البطل. وهنا يبوح الفرد بالقدرات التي يحلم بها دون وعي، ويظهر رغباته ويتحد مع هذا النجاح وهذه المغامرة. ويصبح البطل قدوة وأب وسلطة وإدراك خيالي لكل ما لا يستطيع الفرد أن يحققه لذاته.[1]

تستخدم البروباجاندا كل هذه الآليات، بل وتقوم بأكثر من ذلك لتعززها وتنشرها ولتعمل على استقرارها. ينعزل متلقي البروباجاندا ويتحول إلى الشخص الذي تروج له البروباجاندا (الحملات الدعائية لنجوم الأفلام وحملات البروباجاندا متطابقة تقريبًا). ولذلك، بالمناسبة، ليس هناك حاجة لتنظيم شمولي - فهذا النوع من الاغتراب لا يحدث ببساطة في حالة نظام على شاكلة نظام (هتلر) أو (ستالين) فحسب، بل (خروتشوف) أو (كليمنصو) أو (كوولدج)، أو (تشرشل)، الخرافة حول (كوولدج) بارزة للغاية في هذا الصدد.

يجد متلقي البروباجاندا نفسه في وضع نفساني يتألف من الملامح التالية: يعيش الفرد حياة خيالية عبر وسيط ما، فيشعر ويفكر ويتصرف من خلال البطل، وتحت حماية ووصاية إلهه الحي. يقبل أن يكون طفلًا؛ يتوقف عن المدافعة عن مصالحه الشخصية إذ إنه يعرف أن بطله يحبه وأي شيء يقرره البطل سيكون في صالح متلقي البروباجاندا؛ وبالتالي يعوّض عن صعوبة التضحيات المفروضة عليه بهذا. لهذا السبب، على كل نظام سياسي مطالب بدرجة من البطولية أن يصنع بروباجاندا الإسقاط على البطل، الزعيم.

---

(1) في نفس الوقت، تصير مصالح البطل مصالح شخصية لدى متلقي البروباجاندا.

في هذه الصلة، يمكن بالفعل التحدث عن الاغتراب والارتداد إلى الحالة الطفولية التي أتت بها البروباجاندا. يعتقد (يونج) أن متلقي البروباجاندا لم يعد لديه قدرات فكرية، ولكنه يصير سجين نمط عصبي طفولي. ويترسخ الارتداد عندما يغوص الفرد في النفسية الجماهيرية. أكد (ستوتزل) هذا عندما قال إن البروباجاندا التي تدمر الفردية عن بكرة أبيها لا تقدر إلا على خلق شخصية جمعية، وهذا يمثل عائق أمام التطور الحر للشخصية. اغتراب واسع النطاق من هذا النوع ليس استثنائيًّا بأي حال من الأحوال. يمكن أن يظن القارئ أننا قد قمنا بوصف حالة متطرفة وشبه مَرَضية. للأسف، تنتمي حالة هذا الفرد إلى نمط شائع - حتى في حالته المستعصية.

في كل مكان هناك أشخاص يصرحون بما قرؤه في الجرائد منذ ساعة كأنه حقائق شخصية؛ معتقداتهم ليست سوى نتيجة للبروباجاندا القوية. ونجد أناسًا يثقون ثقة عمياء في حزب سياسي أو لواء أو نجم سينمائي أو بلد أو قضية ما، ولن يتسامحوا مع أدنى تحد لهذا الإله. في كل مكان، تجد مَن لم يعد قادرًا على التمييز الفكري والأخلاقي بين أبسط الأشياء ولم يعد قادرًا على اتباع أبسط قواعد المنطق إذ إن ما يملأه هو الوعي بالمصالح العليا التي يجب أن يخدمها حتى الموت. ومع ذلك، يتأتى كل هذا دون جهد أو خبرة أو تأمل أو نقد - عن طريق تأثير الصدمة المدمرة لبروباجاندا حسنة الصنيع. نقابل هذا الشخص المغترب في كل مكان، وربما نكون أنفسنا بالفعل مثله.

بصرف النظر عن الاغتراب الذي يحدث عندما يرتد الفرد العاقل إلى الجماعة غير العاقلة، هناك أشكال أخرى من الاغتراب - مثلًا، عبر الإشباع المصطنع للحاجات الحقيقية أو الإشباع الحقيقي للحاجات المصطنعة (الدعاية والإعلان). الحالة الأولى هي التي قد ناقشناها بالفعل وتنشأ فيها البروباجاندا من الوضع الاجتماعي المعاصر لكي تعطي الإنسان الإشباع الاصطناعي للحاجات الحقيقية. ولأن الإنسان محبط ومضطرب ولأنه لا يفهم أي شيء عن العالم الذي يعيش

ويتفاعل فيه، ولأنه مازال مطلوبًا منه تقديم تضحيات عظيمة وبذل جهود كبيرة، بسبب كل هذا، تنشأ البروباجاندا.[1]

فهي تشبع الإنسان لكنه إشباعًا زائفًا ووهميًا وتعطيه تفسيرات للعالم الذي يعيش فيه، ولكن هذه التفسيرات كاذبة وغير عاقلة. فهي تفسيرات تطمئن الإنسان أو تثيره، ولكن، طالما تفعل هذا في اللحظة الخطأ، وتجعله يرتجف من الخوف من حرب بيولوجية لم تحدث من قبل، وتجعله يؤمن بنوايا السلام لبلاد ليس لها رغبة في السلام. وتعطيه أسبابًا للتضحيات المطلوبة منه، ولكنها ليست الأسباب الحقيقية. ومن ثم، في 1914م، دعته ليقدم حياته لبلده، ولكنها ظلت صامته عن الأسباب الاقتصادية للحرب التي لم يكن ليحارب لأجلها بالطبع.

تشبع البروباجاندا حاجة الإنسان لليقين وكذلك حاجته للتنفيس؛ فتخفف من توتره وتعوضه عن إحباطه، ولكن عن طريق وسائل مصطنعة تمامًا. على سبيل المثال، إذا كان عند العامل أسبابه ليشعر أنه محبط ومغترب ومُستغَل - بأخذ وضعه الاقتصادي الحقيقي في الاعتبار، يمكن للبروباجاندا فعلًا أن "تحل" مشكلاته، كما فعلت في الاتحاد السوفيتي، وتعزله أكثر وأكثر عندما تجعله غافلًا عن إحباطه واغترابه وعندما تهدئه وترضيه. وعندما يتعرض الإنسان لظروف غير طبيعية في مدينة كبيرة أو ميدان المعركة، ولديه من الأسباب ما يجعله يخاف ويتوتر ويختلف مع الآخرين، البروباجاندا هي التي تكيفه على مثل هذه الظروف وتحل صراعاته حلًا مصطنعًا دون تغيير وضعه على الإطلاق. تتصف بروباجاندا بالخبث البيّن.

بالطبع تبدو كأنها علاج، ولكنها مثل علاج لن يشفي كبد مدمن الكحول بحيث إنه سيستمر في السكر دون أن يشعر بألم الكبد. ردود البروباجاندا

---

(1) صرح (جوبلز) تصريحًا واضحًا أن البروباجاندا يجب أن تخفف من مشاعر الإحباط وتحل المشكلات الحقيقية حلًا زائفًا وتشير إلى مشاعر الإحباط لتأتي عندما لا يمكن للفرد أن يتجنبها وهكذا.

المصطنعة وغير الحقيقية بشأن المعاناة النفسانية للإنسان المعاصر تعتبر بالضبط من هذا النوع: تسمح له بمواصلة العيش بطريقة غير طبيعية تحت الظروف التي يضعه المجتمع فيها. تخفي البروباجاندا إشارات التحذير بشأن مخاوفه وتمرده وعجزه عن التأقلم مع المجتمع ومطالبه التي قدمتها له في الماضي.

لكل هذا أيضًا أثر عندما تحرر البروباجاندا نوازعنا وبواعثنا الأعمق، مثل الشعور بالذنب والرغبة في السلطة والدوافع الشهوانية، ولكن مثل هذا التحرير لا يقدم إشباعًا حقيقيًا أو أصيلًا لهذه الدوافع وإنما يقدم مبررًا لمطالبنا واعتداءاتنا عن طريق السماح لنا بالشعور بالورع رغم تلك الدوافع. لم يعد الإنسان قادرًا على اختيار موضوع العدوان، بل عنده القدرة على إطلاق العنان لرغبته الشهوانية. يتصف الإشباع والتحرير الذي تقدمه البروباجاندا بأنهما بديلين، ويهدفان إلى تخفيف الضغط واستخدام تأثير الصدمة لهذه القوى الهائلة في مكان آخر - يُستخدمان لدعم أفعال تفتقر إلى الزخم. وهذا يُبيّن الطريقة التي تتبعها عملية البروباجاندا لتُجرّد الفرد من شخصيته الحقيقية.

يتوق الإنسان المعاصر توقًا عميقًا إلى الصداقة والثقة والعلاقات الشخصية الوثيقة[1] ولكنه غارق في عالم من المنافسة والعداء والمجهولية. يحتاج أن يقابل شخصًا يثق به ثقة تامة وأن يشعر بالصداقة النقية تجاهه وأن يشعر بأنه محل اهتمام صديقه كما يهتم هو به. من العسير أن يجد هذا في الحياة اليومية لكن يبدو أن الثقة في زعيم أو بطل أو نجم فيلم أو شخصية تلفزيونية أكثر إشباعًا. فمثلًا، يخلق التلفاز مشاعر الصداقة ونوعًا جديدًا من الحميمية وبالتالي، يشبع التلفاز هذه الاحتياجات. ولكن هذا الإشباع وهمي وزائف تمامًا لأنه ليس هناك صداقة حقيقية من أي نوع بين الشخص التليفزيوني والمشاهد الذي يشعر أن هذا الشخص صديقه. نجد هنا إشباعًا كاذبًا ونموذجيًا لاحتياج حقيقي. تستغل البروباجاندا ما ينتجه التلفاز تلقائيًا استغلالًا منهجيًا: "الأب الشاب" دائمًا موجود.

---

(1) هذا هو ما يعطي قيمة وفعالية إلى تقنيات البروباجاندا عن طريق الاتصالات الشخصية.

مثال آخر: في 1958م وعد (خروتشوف) بالانتقال إلى الشيوعية الاندماجية في الاتحاد السوفيتي؛ ولاحقًا أعلن أنه قاب قوسين أو أدنى من تحقق هذا الوعد. استندت حملة البروباجاندا غير العقلانية بأكملها إلى هذا الموضوع - الفكرة الرئيسة لهذه الحملة كانت تقول إن الشيوعية ستتحقق تحققًا كاملًا قريبًا لأن الاتحاد السوفيتي سيبلغ مستوى إنتاج الولايات المتحدة بحلول عام 1975م. وهذا سيعني أن الولايات المتحدة حينها ستكون مستعدة أن تحقق الشيوعية. وبالمناسبة، السنة التي حددها (خروتشوف) في 1958م لتحقيق هذه الظاهرة كانت 1975م، ولكن في إبريل/ نيسان 1960م السنة التي حددها هي 1980م. صُممت هذه الحملة لتشبع احتياجات الجماهير السوفيتية ولتستعيد ثقتهم وتلبي مطالبهم. ما نراه هنا هو إجابة نظرية بحتة، ولكنها مُرْضية لأن الجماهير تصدقها ثم تصير صحيحة وحقيقية عن طريق آلية البروباجاندا.

دعونا الآن ننظر إلى الوجه الآخر للعُملة. تخلق البروباجاندا احتياجات مصطنعة كما تخلق مشكلات سياسية لم تكن لتنشأ بذاتها[1] ولكن الرأي عام سيطالب بحل لها لاحقًا. كما تثير البروباجاندا فينا رغبات بعينها وتحيزات واحتياجات لم تكن ملحة من البداية بأي حال من الأحوال. ولا تصبح هكذا إلا كنتيجة للبروباجاندا التي تلعب هنا نفس الدور الذي تلعبه الإعلانات. فضلًا عن هذا، تستعين البروباجاندا بالإعلانات التي توجه وتغير الدوافع الفردية بينما توسع البروباجاندا تأثيرات الإعلانات عن طريق الوعد بالتخفيف النفساني للتوترات بشكل عام. تحت تأثير البروباجاندا، تحيزات بعينها (عِرقية أو اقتصادية) واحتياجات معينة (للمساواة أو النجاح) تصبح مشاعر مفترسة مدمرة تشغل نطاق وعي الفرد كله وتحل محل كل جوانب الحياة الأخرى وتطالب بأجوبة.

نتيجة البروباجاندا، ينتهي الحال بهذه النزعات السطحية بأن تصبح مرتبطة

---

(1) احتفظ بهذه الدراسة لعمل لاحق.

بأعمق احتياجاتنا، ويحدث خلط بينها وبين أعمق ما فينا وأكثره خصوصية. فسدت وضعفت الحاجة الأصيلة للحرية بهذه الطريقة بالضبط، فأصبحت خليطًا بغيضًا من الليبرالية تحت تأثير شتى أشكال البروباجاندا في القرنين التاسع عشر والعشرين. في ظل هذا الالتباس النفساني، الذي خلقته البروباجاندا، تعمل البروباجاندا وحدها على فرض النظام. كما أنها حقيقة أن الإعلام الجماهيري يخلق احتياجات جديدة (مثلًا، وجود التلفاز يخلق الحاجة لشرائه وتشغيله) وينطبق هذا أكثر على الوسائل التي تستخدمها البروباجاندا.

تعمل البروباجاندا لتخلق حاجات جديدة، وتخلق أيضًا الحاجة لحلول لها. عرضنا كيف تخفف البروباجاندا التوترات وتبددها. فمروج البروباجاندا هو الذي يثير هذه التوترات إثارة متعمدة ويقاوم علاجها في الوقت نفسه. فهو المسيطر على كلا من الإثارة والإشباع. ربما يقول أحدهم إنه إذا أثار مروج البروباجاندا توترًا ما، سيكون بغرض دفع الفرد على قبول علاج معين والمطالبة بفعل مناسب (من وجهة نظر مروج البروباجاندا) والخضوع لنظام يلطف من هذا التوتر. وبالتالي، يضع الفرد في عالم من الاحتياجات السياسية المصطنعة – فهذه الاحتياجات مصطنعة حتى إذا كانت جذورها أصيلة تمامًا في مرة من المرات.

على سبيل المثال، تضيف البروباجاندا توترًا يعكس بؤس العامل عن طريق خلق وعي طبقي في البروليتاريا. وبالمثل، تضيف البروباجاندا توترًا آخر لكل المطالب الطبيعية "لأفقر الفقراء" ولكنها تقدم تلقائيًّا وسائل لتقليص هذه التوترات. فتفتح بابًا للفرد، وقد رأينا أن هذا أحد أكثر أدوات البروباجاندا فعالية. الإشكال الوحيد هو أن كل ما تقدمه فعلًا هو العزلة العميقة: عندما يتفاعل الفرد مع هذه التوترات المثارة اصطناعيًّا أو عندما يستجيب إلى المثيرات المختلقة اصطناعيًّا أو عندما يُسلّم للتلاعبات التي تجعله يكبت بواعث شخصية معينة كي يفسح المجال لدوافع مجردة ويُحجّم هذه التوترات، فهو ليس أكثر مما

يكون عليه عندما يتفاعل تفاعلًا بيولوجيًّا مع مهدئ. سيتبين أن هذا علاج حقيقي، وهو فعلًا هكذا، ولكن لداء تم إظهاره عمدًا ليناسب الدواء.

كما أشرنا مرات عديدة، تحظى الاحتياجات المصطنعة هذه بأهمية كبيرة بسبب طبيعتها العالمية والوسائل (الإعلام الجماهيري) التي يتم الترويج للاحتياجات من خلالها، فتصبح أكثر إلزامًا وإلحاحًا للفرد من احتياجاته الخاصة وتدفعه إلى التضحية بما يشبعه شخصيًّا. في السياسة، كما هو الحال في الاقتصاد، يمحو التطور المطرد للاحتياجات المصطنعة الاحتياجات والميول الشخصية. وعليه، ما يحدث هو حقًّا طرد الفرد خارج ذاته - فيصل الفرد إلى قوى مجردة لآليات موجهة توجيه تقني.

على هذا المستوى، كلما اقتنع الفرد أنه يفكر ويشعر ويتصرف بنفسه، يزيد اغترابه. أثبت عالم النفس (بيدل) بالتفصيل أن الفرد المعرض للبروباجاندا يتصرف كما لو كانت ردود فعله تقوم على قراراته. فهو يطيع، ويرتعش من الخوف، ويتوسع أو ينكمش بأوامر، ولكن ليس هناك في هذه الطاعة أي شيء سلبي أو تلقائي، حتى وإن رضخ لاقتراح، فهو يفكر "لنفسه" ويعتقد أنه حر - في الواقع، كلما تعرض للبروباجاندا، ظن أنه يتمتع بحرية أكثر. يتسم بالنشاط ويختار أفعاله بنفسه. في الحقيقة، لكي تخفف التوتر التي خلقته في المقام الأول، تُقَدّم البروباجاندا للفرد مسارًا ممكنًا للفعل أو مسارين أو حتى ثلاثة، أما متلقي البروباجاندا فيعتبر نفسه مُنَظّمًا ولديه وعي كامل عندما يختار من بين هذه المسارات.

وبالطبع، هذا لا يتطلب إلا القليل من الجهد من جانبه. لا يحتاج متلقي البروباجاندا الكثير من الطاقة ليصنع القرار لأن هذا القرار يتناسب مع جماعته، في ضوء إيحاء وقوى اجتماعية. تحت تأثير البروباجاندا، طالما يختار الطريق اليسير، المسار الأقل مقاومة، حتى وإن كلفه حياته. ولكن، حتى عندما يهبط نحو منحدر، يدعي أنه يصعد إلى أعلى التل، ويقوم بعمل شخصي وبطولي. أثارت

البروباجاندا طاقته وشخصيته وإحساسه بالمسؤولية - أو بالأحرى الصور اللفظية - لأن البروباجاندا دمرت القوى ذاتها منذ وقت طويل. هذه الازدواجية هي عمل البروباجاندا الأكثر تدميرًا، وهذا يؤدي بنا إلى النظر في التأثير التالي للبروباجاندا: الانفصال النفساني.

تأثير الانفصال النفساني للبروباجاندا

قال (فيليب دي فليس)[1] إن البروباجاندا تخلق ميلًا إلى عصاب اضطراب ثنائي القطب (اضطراب المزاج الدوروي). من البديهي أن هذه مبالغة، ولكن صحيح أن البروباجاندا تُعرِّض الفرد لفترات متعاقبة من الاكتئاب والسعادة الغامرة عن طريق تعريضه لموضوعات متناوبة للبروباجاندا. لقد حللنا بالفعل ضرورة الموضوعات المتناوبة. مثلًا، تبديل موضوعات الإرهاب وتأكيد الذات. والنتيجة هي تناقض عاطفي مستمر يمكن أن يكون خطيرًا جدًّا لهؤلاء الذين يتعرضون له.[2] مثل صدمة البروباجاندا المتناقضة، يمكن لهذا أن يكون أحد أسباب الانفصال النفساني، مع أنه ليس ضروريًا أن يؤدي إلى مرض عقلي كما يقترح (فيليس).

وهنا، علينا أن ننحي جانبًا حالات الانفصال الجلية في متلقي البروباجاندا بين الرأي العام ورأيه الشخصي؛ لقد ذكرنا بالفعل أن البروباجاندا تنتج فصلًا عميقًا بين الإثنين.[3] عوضًا عن ذلك، علينا التركيز على الفصل بين الفكر

---

(1) *Foules en délire, extases collectives* (Paris: A. Michel; 1947), الفصل الرابع

(2) عنصر يجب أن نتذكره هو الإفراط في الحماس الذي تثيره البروباجاندا. تحث البروباجاندا متلقيها دائمًا على التصرف وكثيرًا ما تمنعه من تحقيق هذا التصرف. قناعاته مطلقة؛ وهذه القناعات التي تفرط حماسته وعدوانه المتجدد دائمًا تجاه رموز ثقافته (كما ظهر بين الفرنسيين الذين تعرضوا للبروباجاندا الموجهة ضد الحرب الجزائرية عام 1960م) تقوده بسرعة فائقة نحو الانفصال كنتيجة للمفارقات الشديدة بين الإفراط في الحماس وبيئته الاجتماعية.

(3) Evolution psychologique en U.S.S.R.," *Economie Contemporaine*, 1952

والفعل الذي يبدو لنا إحدى أكثر الحقائق المقلقة في وقتنا هذا. يتصرف الفرد في الوقت الحاضر بدون تفكير - وفكره بدوره لا يمكن أن يُترجم إلى فعل. أصبح التفكير ممارسة لا لزوم لها، دون الإشارة إلى الواقع؛ فالتفكير داخلي بكل ما في الكلمة من معنى، ولعبة من نوع ما دون أي قوة إلزامية. هذا هو مجال الأدب؛ فأنا لا أشير إلى الفكر "المعرفي" فحسب، ولكن إلى *كل* أنواع الفكر، سواء تعلق بالفعل أو السياسة أو الحياة العائلية. باختصار، أصبح الفكر والتأمل بدون جدوى على الإطلاق بسبب الظروف التي يعيش ويتصرف في ظلها الإنسان المعاصر. فهو لا يحتاج أن يفكر لكي يتصرف؛ الظروف الاجتماعية والتقنيات التي يستخدمها هي التي تحدد تصرفه. يتصرف دون أن يرغب في ذلك حقًّا، ودون أن يتأمل في معنى أو سبب هذه التصرفات. يعتبر هذا الوضع نتيجة التطور الكامل لمجتمعنا. هناك مسؤولية على عاتق المدارس والصحافة والنفعية الاجتماعية مثل مسؤولية البناء السياسي المعاصر والهوس بالإنتاجية وعلم النفس التطبيقي. ومع ذلك، العاملان الحاسمان هما آليات الفعل والبروباجاندا.

تستند آلية الفعل استنادًا كاملًا إلى الانفصال: هؤلاء الذين يفكرون، أو يؤسسون جداول، أو يحددون المقاييس لا يتصرفون أبدًا، وهؤلاء الذين

= مظهر من مظاهر الانفصال التي كان (ستوليباين) موفقًا في التشديد عليها هو تقسيم الوعي إلى ثلاثة أقسام مستقلة: *محازاة الوعي* - مصطلح استخدم كثيرًا في نظام (ستالين) - يشير إلى "المواطن الواعي في العهد الاشتراكي" الذي يعيش في الحقيقة الرسمية ويمارس فعلًا مستمرًّا ويتصرف وفق المبادئ الاشتراكية، لا غيرها. "محازاة الوعي" هي خليقة البروباجاندا، ولكن تحتها هناك *وعي مخطط له سلفًا* - المستوى الذي يشخصن المواطن فيه بيانات البروباجاندا ويقنع نفسه أن النظام جيد - المستوى الذي يصنع فيه التبريرات والقرارات للسلوك الذي سيتوافق مع المطالب الاجتماعية بحيث يكون أقل وعيًا بنيته السيئة. وفي النهاية، هناك *وعي سري* يتألف من مواقف رافضة واحتجاجات وأحكام ضد النظام بالإضافة إلى الميل نحو الشك أو الإيمان بالمسيحية. ولكن، هذا الوعي السري مكبوت كبت تام ومحاصر ومقيد ويناضل ضد معوقات غير مسبوقة مثل بواعث الفرد التلقائية.

يتصرفون عليهم فعل ذلك طبقًا لقواعد وأنماط وخطط فُرطت عليهم من الخارج. وفوق كل شيء، يجب ألا يفكروا مليًا في أفعالهم. فلا يستطيعون التفكير على أي حال بسبب السرعة التي يتصرفون بها. تبدو المثل العليا في العصر الحديث كأنها اختزال التصرف في تلقائية تامة. ويعتبر هذا فائدة عظيمة للعامل الذي يستطيع أن يحلم أو يفكر في "أشياء أخرى" بينما يقوم بالفعل. ولكن، هذا الانفصال الذي يستمر ثماني ساعات في اليوم، يجب بالضرورة أن يؤثر على كل ما يتبقى من سلوكه.

العنصر الآخر الذي يلعب دورًا حاسمًا في هذه الصلة هو البروباجاندا. تذكر أن البروباجاندا تسعى إلى دفع الفرد إلى التصرف والمشاركة والالتزام - بأقل قدر ممكن من التفكير.[1] وفقًا للبروباجاندا، يعتبر التفكير عديم الجدوى أو حتى مضر للإنسان - فالتفكير يمنعه من التصرف بالبساطة والنزاهة المطلوبة. يجب أن يأتي التصرف مباشرةً من أعماق اللاوعي؛ ويجب أن تُنَفِّس عن التوتر وأن تصير ردة فعل. يفترض هذا أن الفكر يبزغ على مستوى غير حقيقي على الإطلاق، وأنه لا يدخل في القرارات السياسية أبدًا. وهذا هو الحال في واقع الأمر. لا يمكن تطبيق أي فكر سياسي غير واضح المعالم وغير متسق على الإطلاق. ما يفكر فيه الإنسان إما عديم تأثير وإما يجب الصمت عنه. هذا هو الشرط الأساسي للتنظيم السياسي للعالم المعاصر، والبروباجاندا هي أداة للحصول على هذا التأثير. المثال الذي يبرز التقليص الجذري لقيمة الفكر هو تحول الكلمات في البروباجاندا، وهنا، تصير اللغة - وهي أداة العقل - "صوت خالص،" ورمز يثير المشاعر وردود الفعل إثارة مباشرة. هذه إحدى أخطر حالات الانفصال التي تسببها البروباجاندا. وهناك حالة أخرى من الانفصال: الانفصال بين العالم اللفظي الذي تجعلنا البروباجاندا نعيش فيه، والواقع.[2] في بعض الأحيان، تتعمد

---

(1) في هذه الصلة، مثلًا، هناك ظواهر الخصخصة وليونة التفكير المنطقي فضلًا عن التباعد بين الرأي والتصرف - وهذا ما بحثناه آنفًا.

(2) أنوي أن أبحث هذه الظاهرة المهمة في عملي القادم.

البروباجاندا فصل عالم الإنسان الحقيقي من العالم اللفظي الذي خلقته، وبعد ذلك تتجه لتدمير ضمير الإنسان.

فيما يتعلق بمشكلة الانفصال، يلزم علينا الآن أن نبحث حالة الفرد المعرض لنوعين متناقضين من البروباجاندا الشديدة، وكلاهما تقفان على مسافة واحدة منه. يمكن لمثل هذا الموقف أن يحدث في النظام الديمقراطي. يُقال في بعض الأحايين أن نوعين متنافرين من البروباجاندا يبطل كل منهما مفعول الآخر. ومع ذلك، إذا لم نعتبر البروباجاندا شيئًا مختلفًا عن مناظرة الأفكار أو نشر عقيدة ما، بل اعتبرناها تلاعبًا نفسانيًّا مصمم لإنتاج فعل ما، فسيُفهم إذًا أن هذين النوعين من البروباجاندا أبعد ما يمكن عن إبطال مفعول بعضهما البعض لأنهما متعارضين ولديهما تأثير تراكمي. الملاكم الذي يترنح إثر ضربة قوية على اليسار لا يعود إلى حالته الطبيعية عندما يتلقى ضربة أخرى على اليمين؛ بل يترنح أكثر. الآن، مروج البروباجاندا المعاصر يجب أن يتكلم عن "تأثير الصدمة" الذي يتركه على الآخرين.

إنها حقًّا صدمة نفسانية يعاني منها الفرد المعرض للبروباجاندا. ولكن، من المؤكد أن صدمة ثانية من زاوية أخرى لا تحيه.[1] وعلى النقيض، تنتج أنواع البروباجاندا المتعارضة ظاهرة ثانية لاحقًا: الفرد ذو آليات نفسانية انطلقت لتجعله يتصرف تصرفًا معينًا لكنه يتوقف بسبب صدمة ثانية تعمل بنفس الآليات لتنتج فعلًا آخر. الحقيقة أن هذا الفرد سيصوت في النهاية لأي شخص أيًّا كان – ليست قضية ذات أهمية. ما يهم هو أن عمليات الفرد النفسانية الطبيعية ستنحرف عن مسارها الطبيعي وستظل كذلك على نحو متواصل. ولكي يدافع الإنسان عن نفسه ضدها، سيستجيب استجابة عفوية بطريقة من اثنين:

---

(1) من معروف جيدًا أن تأثير الصدمة المزدوجة هذه يُستخدم كتقنية في نوع معين من البروباجاندا عن طريق استخدام إما الأخبار المتناقضة وإما البروباجاندا المهدئة المصممة لاسترضاء عامة الناس قبل إطلاق صدمة عظيمة يشعر بها الناس بشكل أكثر عنفًا، مثل صنع بروباجاندا للسلام قبل شن هجمة نفسانية عنيفة.

(أ) سيلجأ إلى القصور الذاتي[1] وفي هذه الحالة، يمكن أن تثير البروباجاندا رفضه. البروباجاندا المتصارعة للأحزاب المتنافرة هي أساسًا ما يؤدي إلى الامتناع عن المشاركة السياسية. ولكن، هذا ليس امتناع الروح الحرة التي تؤكد نفسها؛ هذه نتيجة الاعتزال، العَرَض الخارجي لسلسلة من الموانع. مثل هذا الفرد لم يقرر أن يمتنع، تحت أنواع مختلفة من الضغوط، وهو معرض لصدمات وتشوهات، لم يعد يستطيع (حتى إن أراد) أن يمارس عملًا سياسيًّا. ما يعد أكثر خطورة هو أن هذا الحاجز النفساني ليس سياسيًّا فحسب، بل يسيطر على كيانه كله تدريجيًّا ويؤدي إلى موقف استسلام عام. ما دامت أهمية المناظرات السياسية في انحدار وتناولت البروباجاندا الخاصة بالانتخابات موضوعات مرافق المياه أو تزويد الريف بالطاقة الكهربية، ردة فعل الهروب هذه لم تكن مؤثرة على حيوات الناس ككل. لكن، البروباجاندا تنمو في فعاليتها عندما تسبب موضوعاتها توترًا أكثر. واليوم، عندما نهتم بـ"صعود المستبدين واقتراب الحرب،" لا يستطيع الفرد أن يتجنب الشعور بأنه أكثر انخراطًا. لا يمكنه أن يبدي أنه لا يكترث فحسب، بل تجعله البروباجاندا سلبيًّا.

تجد الموقف ذاته عندما تأتي أنواع البروباجاندا المتعارضة واحدة تلو الأخرى. شك الشباب الألماني بعد 1945م، والذي قُتل بحثًا، في أن العبارة الشهيرة «بدوني» نشأت من صدمة مضادة لبروباجاندا مناهضة للبروباجاندا النازية. وبالمثل، بعد الثورة المجرية في أكتوبر/ تشرين الأول 1956م، ألقى الشباب أنفسهم في العدمية واللامبالاة والاهتمامات الشخصية. لا تبرز هذه الأمثلة عدم فعالية البروباجاندا وإنما -على النقيض -قوتها لتعكر صفو الحياة النفسانية.

---

(1) بنفس الطريقة يتم تفسير الهروب (إلى الحياة الخاصة والاغتراب الروحي و"المثاليات") على إنه وسيلة للفرار من تناقضات الحياة المعاصرة.

(ب) ردة الفعل الدفاعية الأخرى هي القفز إلى الانخراط. المشاركة السياسية شائعة اليوم لأن الإنسان لم يعد يستطيع أن يتحمل أن يبقى منعزلًا في ساحة من التنافس الشرس بين أنواع البروباجاندا. يصير الإنسان "منخرطًا" لأنه لم يعد قادرًا على مقاومة هذه الضغوط المضادة التي تصل إلى أعمق المستويات في شخصيته. ينضم إلى حزب ثم يربط نفسه به تمامًا وبعمق كما خططت البروباجاندا له. وستُحل مشكلته كنتيجة لذلك. فيهرب من التصادم المضاد لأنواع البروباجاندا؛ والآن، حيث إن كل ما يقوله الجانب الذي ينتمي إليه صحيح وحقيقي؛ كل ما يأتي من أي مكان آخر خطأ وزيف. وبالتالي، فنوع واحد من البروباجاندا يسلحه ضد الأنواع الأخرى. لا تعتبر هذه الازدواجية متناقضة تمامًا؛ يمكن أن تكون مكملة لها: ولنوضح هذا، في 1959م، رصد "المجلس الفرنسي للحركات الشبابية" أن الشباب لم يثقوا في كل الأعمال السياسية، ولكن في نفس الوقت مالوا إلى الحلول المتطرفة.

خلق الحاجة للبروباجاندا

الأثر النفساني النهائي للبروباجاندا هو ظهور الحاجة لها. الفرد المعرض للبروباجاندا لم يعد يستطيع أن يستغني عنها. هذا نوع من التطور السريع: كلما اشتدت البروباجاندا، اشتدت رغبة الناس فيها. ينطبق الشيء ذاته على الإعلانات التي قيل إنها "تتغذى على نجاحها." مثلًا، كان هناك اعتقاد أن الإعلانات على التلفاز ستحل محل إعلانات الجرائد، ولكن اكتشفنا، على النقيض، أن التلفاز تسبب حقًا في زيادة الحجم الكلّي من العمل الإعلاني. الحاجة إلى حجم متزايد للبروباجاندا يشتمل على ما يبدو ظاهرتين متعارضتين: *الميثراداتسية* *والتحسس*.[1]

---

(1) *الميثراداتسية* هي عملية "حقن سم مضاد للسمية" بواسطتها يتحصن الإنسان ضد السم عن طريق التقبل التدريجي لجرعات سمية تزيد تزايدًا تدريجيًا. أما *التحسس* فهو زيادة الحساسية أو الضعف.

الميثراداتسية. من المعروف أن الفرد ينغلق تدريجيًا تحت تأثير البروباجاندا. بسبب معاناة الفرد من الكثير جدًّا من صدمات البروباجاندا، يعتاد عليها ويتبلد إحساسه بها. فلم يعد ينظر إلى الملصقات؛ فهي مجرد بقع ملونة في نظره. ولم يعد يسمع خُطَب في الإذاعة؛ ما هي إلا صوت؛ ضوضاء في الخلفية بينما يقوم بنشاط ما. لم يعد يقرأ الجريدة، بل يتصفحها بانتباه مشتت. ومن ثم، ربما يميل أحدهم إلى القول: "هل ترى درجة إفراط البروباجاندا التي لم تعد تؤثر على هذا الرجل؟ فهو يتفاعل معها بحالة من اللامبالاة، يهرب منها، ويتحصن بالميثراداتسية ضدها."

بالرغم من ذلك، نفس الشخص يستمر في تشغيل المذياع أو شراء الجريدة. هو متحصن بالميثراداتسية، نعم، ولكن ضد ماذا؟ لا شيء سوى المحتوى الفكري والموضوعي للبروباجاندا. صحيح أنه أصبح غير مهتم بموضوع البروباجاندا وفكرتها ورأيها -وبأي شيء يمكن أن يشكل رأيه. لم يعد يحتاج إلى قراءة الصحيفة أو الاستماع إلى الخطب لأنه يعرف محتواها الأيديولوجي مقدمًا ويعرف أنه لن يغير أي من مواقفه. ولكن، رغم أنه صحيحًا أن الفرد لا يكترث بمحتوى البروباجاندا بعد فترة محددة من الوقت، هذا لا يعني أن إحساسه بها تبلد. إذا أدار وجهه بعيدًا عنها، هذا لا يعني أنه محصن ضدها. بل العكس صحيح؛ ليس فقط لأنه يستمر في شراء الجريدة، وإنما لأنه يستمر في اتباع التيار وطاعة القواعد، ويستمر في طاعة شعارات البروباجاندا رغم أنه لم يعد يستمع لها. ردود فعله لا تزال عاملة، بمعنى أنه لم يصبح مستقلًا عبر عملية الميثراداتسية. قد تشرب رموز البروباجاندا تشربًا عميقًا. يتم التلاعب به والسيطرة عليه على نحو تام. لم يعد يحتاج أن يرى أو يقرأ الملصق، فالبقعة الملونة تكفي لتوقظ فيه ردود الفعل المرادة. في الواقع، مع إنه محصن بالمثراداتسية ضد محتوى أيديولوجي، أصبح ضعيفًا أمام البروباجاندا ذاتها.

التحسس. كلما استحوذت البروباجاندا على الفرد، زاد ضعفه -ليس أمام محتواها وإنما الزخم الذي تقدمه له والإثارة التي تجعله يشعر بها. أقل قدر من

الإثارة وأضعف حافز يفعّل ردود فعله المهيئة ويوقظ الأسطورة وينتج الفعل الذي تتطلبه الأسطورة. حتى هذه النقطة، هناك ضرورة لقدر ضخم من التلاعب وجرعة كبيرة من الحافز الذي تم تنسيقه تنسيقًا ماهرًا حتى يتحقق ذلك داخله. لزم التوصل إلى الدوافع المحفزة لنفسيته ووجب فتح أبواب اللاوعي عنده وأصبح من الضروري كسر مواقفه واقتضى الأمر إقلاعه عن عاداته وتحديد سلوك جديد. وهذا يعني استخدام مناهج وتقنيات بدقة وبقوة في نفس الوقت.

لكن، بمجرد أن تملأ البروباجاندا الفرد وتعيد تشكيله، لم يعد هناك حاجة لعمل ما عن طريق مناهج كثيرة جدًّا. الجرعة الأصغر الآن ستكفي. "الإنعاش" يؤدي الغرض، بمعنى إعطاء "دفعة تشجيعية" لإعادة الطلاء، والفرد يطيع طاعة مدهشة -مثل سكير يثمل بعد كأس واحد من الخمر. لم يعد الفرد يقاوم البروباجاندا، وعلاوة على ذلك، توقف عن الإيمان بها إيمان واعٍ. ولم يعد يعير ما تقوله البروباجاندا اهتمامًا ولا أهدافها المعلنة، لكنه يتصرف حسب المحفزات المناسبة. وهنا نرى مرة أخرى الانفصال بين الفعل والفكر الذي تحدثنا عنه قبل قليل. يصبح الفرد سجين تفكيره المتبلور. تحدث الميثراداتسية في مجال الرأي هذا. أما تعبئته فتتم في ميدان الأفعال. يستجيب الفرد إلى مدخلات البروباجاندا المتغيرة؛ يتصرف عن يقين وبقوة وطبعًا في عجلة. فهو ناشط جاهز لكن تصرفه غير عاقل تمامًا. ذلك هو تأثير حساسيته للبروباجاندا.

لدى الفرد الذي يصل إلى هذه النقطة حاجة دائمة لا تُقاوم للبروباجاندا. ولا يستطيع أن يتحمل توقفها. من السهل علينا أن نفهم سبب ذلك عندما نفكر في حالته.

(أ) عاش في قلق، والبروباجاندا أعطته اليقين. قلقه الآن يتضاعف في اللحظة التي تتوقف فيها البروباجاندا. وأكثر من ذلك، في ظل هذا الصمت الرهيب الذي يحيط به بغتةً، لأنه -الذي سمح لنفسه بالانقياد - لم يعد يدري أين يذهب. ويسمع في كل مكان حوله الصخب واللغط العنيف من أنواع أخرى من البروباجاندا التي تسعى إلى التأثير عليه وغوايته، وهذا يزيد من ارتباكه.

(ب) أخرجته البروباجاندا من وضعه شبه البشري وأعطته شعورًا بأهمية الذات وسمحت له بتأكيد ذاته وأشبعت حاجته إلى مشاركة نشطة. وعندما تتوقف البروباجاندا، يجد نفسه عاجزًا أكثر من قبل، ويشتد شعوره بالعجز لأنه وصل إلى الإيمان بتأثير أفعاله. يندفع فجأةً إلى حالة من عدم الاكتراث وليس لديه طريقة شخصية للخروج منها. يكتسب القناعة بانعدام قيمته التي يشعر بها بقوة أكثر بكثير من الماضي لأنه قد آمن بقيمته لفترة من الزمن في الماضي.

(ت) وأخيرًا، تعطيه البروباجاندا التبرير. يحتاج الفرد إلى تجديد هذا التبرير باستمرار. ويحتاجه بشكل ما في كل خطوة ولكل فعل -كضمان أنه على طريق الصواب. عندما تتوقف البروباجاندا، يفقد تبريره؛ ولن يثق بنفسه بعد الآن وسيشعر بالذنب لأنه - تحت تأثير البروباجاندا - يمارس أعمالًا هو الآن يجزع منها أو يندم عليها. وعلى ذلك، فهو في أمس الحاجة إلى التبرير. ويجد نفسه في قنط عندما تكف البروباجاندا عن تقديم اليقين لدوافعه وعقلانيته.

عندما تتوقف البروباجاندا في جماعة كان لها فيها تأثير قوي، ماذا نرى؟ تفكك اجتماعي للجماعة، وفي المقابل تفكك داخلي للفرد في هذه الجماعة. فينطوي الفرد على نفسه ويرفض كل أشكال المشاركة في الحياة الاجتماعية أو السياسية - عبر عدم اليقين والخوف والتثبيط. ثم يبدأ في الإحساس أنه لا جدوى من أي شيء، وأنه لا حاجة لتكوين رأي أو المشاركة في الحياة السياسية. الآن لا يكترث تمامًا بما كان مركز حياته في الماضي. وفي نظره، كل شيء سيسير من الآن فصاعدًا "بدوني." جماعة مثل هذه تخسر قيمتها في عين الفرد، ومن هذا الموقف الذي يتبناه أفراد الجماعة يأتي التفكك. التمحور حول الذات هو الذي ينتج انقطاع البروباجاندا -إلى درجة يبدو أن علاجها يتعذر. أحيانًا تجد في هؤلاء الذين وقعوا تحت سيطرة البروباجاندا التي توقفت ليس فقط التمحور حول الذات لكن مشكلات عقلية وعصبية حقيقية مثل الفصام واضطراب الارتياب المرضي وعقد

الذنب أيضًا. على مثل هؤلاء التعويض عن غياب البروباجاندا بمعالجة نفسانية. يمكن رؤية هذه التأثيرات في بلاد توقفت فيها البروباجاندا فجأة، مثل ألمانيا في عهد (هتلر) عام 1945م أو في الولايات المتحدة عام 1946م حتى نكون قد أعطينا مثالين مختلفين تمامًا.

ردة الفعل التي وصفناها هنا تعكس جيدًا أثر الاغتراب الذي تركته البروباجاندا. يتضاءل حجم الإنسان؛ لم يعد يستطيع العيش بمفرده أو أخذ قراراته بنفسه أو أن يتحمل مسؤولية حياته بذاته؛ فهو في حاجة إلى وصي ومدير للضمير، ويشعر بالمرض في غيابهم.[1] وعليه، فتنشأ الحاجة للبروباجاندا – الحاجة التي لم يعد ممكنًا للتعليم أن يغيرها. من اللحظة التي تستحوذ فيها على الفرد، يحتاج إلى نصيبه من الغذاء الفكري الزائف والتحفيز العاطفي والعصبي والشعارات والاندماج الاجتماعي. ومن ثم، يجب ألا تتوقف البروباجاندا.

هذا يعود بنا إلى السؤال الذي طرحناه منذ قليل: الصمود النسبي لآثار البروباجاندا العميقة عبر خلق حاجة للبروباجاندا والتحولات النفسانية المطلوبة. ولكن، المحتوى المحدد للبروباجاندا -المادة التي تُستخدم في أي نقطة زمنية لإشباع هذه الحاجة وتخفيف التوترات -من البديهي أنه ليس له إلا الأثر المؤقت اللحظي، ولذلك يلزم إنعاشه وتجديده طيلة الوقت، ولاسيما أن المشبعات التي توفرها البروباجاندا تأتي دائمًا في اللحظة الآنية. ولهذا السبب فالبروباجاندا ليست معمرة جدًّا.

ولكن علينا وضع هذا التصريح في سياقه ومكانه الصحيح. لقد قلنا إن البروباجاندا لا يمكنها أن تسير ضد تيارات الزمن الراسخة وافتراضاته الجمعية. لكن عندما تتصرف البروباجاندا في اتجاه ولدعم هذه التيارات والافتراضات،

---

(1) في بعض الأوقات يعي هذا أكثر. ضرب (رايزمان) مثالًا عظيمًا على الأفراد الذين يشتكون أن خدماتهم النفسانية ليست نشطة بما يكفي، وأنه لم يتم التلاعب بهم بالطريقة التي تساعدهم على الاستمتاع بما أزعجهم في حياتهم.

يصبح تأثيرها معمر جدًّا على المستويين العاطفي والفكري. هذه الأيام، عندما تعادي البروباجاندا الدولة وتعارض "التقدم" ولن يكون أمامها فرصة للنجاح على الإطلاق. لكن إذا دعمت الدولة، ستخترق وعي الفرد اختراقًا عميقًا. إذًا فالحاجة للبروباجاندا تميل إلى أن تجعل هذا الاختراق دائمًا. وبالتالي، يؤدي استغراق البروباجاندا وديمومتها إلى أن تكون آثارها معمرة. عند إعادة إنتاج هذه الآثار، وتجديد تلك المحفزات على نحو مستمر، من الجلي أنها تؤثر على الفرد تأثيرًا عميقًا. يتعلم الفرد أن يتصرف ويتفاعل بطريقة معينة. (ومع ذلك، لم يمر بتغيير كامل ودائم في شخصيته.)

تهتم البروباجاندا بالواقع الأكثر إلحاحًا والأكثر بساطة في الوقت ذاته. وتقترح تصرفًا فوريًّا عاديًّا جدًّا.[1] وبالتالي يندفع الفرد إلى الحاضر المباشر الذي يأخذه من سيطرته على حياته وإحساسه بالوقت واستمرار أي تصرف أو فكرة. ثم يصير متلقي البروباجاندا إنسانًا بلا ماض أو مستقبل، إنسان يتلقى من البروباجاندا جزءًا من الفكر والفعل لليوم، ولا بد أن تُعطى شخصيته المتقطعة استمرارية من الخارج، وهذا يجعل الحاجة للبروباجاندا قوية جدًّا.

عندما يكف متلقي البروباجاندا عن تلقيها، يشعر بالانسلاخ عن ماضيه وبمواجهة مستقبل مبهم وبالانفصال عن العالم الذي يعيش فيه. ولأن البروباجاندا كانت قناته الوحيدة لإدراك العالم، يحس بأنه قد أُلقي - مقيد من هامة رأسه إلى أخمص قدمه - إلى مصير غير معلوم. ومن ثم، من اللحظة التي تبدأ فيها البروباجاندا، بمكينتها وتنظيمها، لا يمكن للفرد أن يوقفها. فليس أمامها إلا النمو وتحسين ذاتها لأن توقفها سيقتضي من متلقيها تضحية عظيمة لا يستطيع أن يبذلها -إعادة تشكيل ذاته كليًّا. وهذا أكثر مما هو مستعد لقبوله.

---

(1) وإلا لن تصبح بروباجاندا. ستصير عملًا أكاديميًّا دون تأثير. فهي شأن للأفكار العامة أقل من كونها أمر لتعريف العامل بالقرارات التطبيقية للحزب.

واحدة من الخصائص المضللة لبحث مثل الذي نقوم به تحت هذا العنوان هو درجة عظيمة من عدم اليقين التي ننقاد إليها في النهاية. لأننا ندرك أن البروباجاندا تستطيع أن تنتج نتائج نفسانيةً متناقضةً وتفعل هذا بالفعل. لقد أوضحنا هذا، ولكن يجب التشديد هنا مرة أخرى. ولذلك، علينا بحث أربعة أمثلة لهذه الآثار المتناقضة (بجانب الحقيقة -التي بحثناها بالفعل - أن البروباجاندا تشبع حاجات معينة بينما تثير حاجات أخرى). يمكن للبروباجاندا أن تخلق بعض التوترات وتخفف توترات أخرى في نفس الوقت. لقد عرضنا الطريقة التي تستجيب بها لحاجة الفرد في مجتمعنا -الفرد الذي يعيش في حالة توتر غير صحية؛ والطريقة التي تواسيه بها وتساعده على حل نزاعاته. ولكن علينا ألا ننسى أنها أيضًا تخلق قلقًا وتثير توترات. وخصوصًا عقب بروباجاندا الخوف أو الرعب، يُترك المستمع في حالة من التوتر العاطفي الذي لا يمكن حله بكلمات لطيفة أو ايحاءات. الفعل هو الوحيد الذي يمكنه حل النزاع الذي أُلقي فيه. وبنفس الطريقة، تسعى البروباجاندا الناقدة والسلبية تمامًا إلى أن تقوي الفرد ضد بيئته؛ تستغل المشاعر الغريزية للعدوان والإحباط وتثيرها. ولكن، حتى هنا يمكن لهذا الأثر أن يكون واحدًا من اثنين: إما سيصير الفرد أكثر عدوانية تجاه رموز السلطة في جماعته أو ثقافته، وإما سيسحقه التوتر ويختزله إلى حالة من السلبية لأنه لا يستطيع أن يتحمل الاختلاف والمعارضة.

على مروج البروباجاندا أن يحاول أن يجد الدرجة المثلى من التوتر والقلق. ذكر (جوبلز) هذه القاعدة بوضوح بين قواعد أخرى. وعليه، لا يمكننا القول إن التوتر أثر نفساني عَرَضي للبروباجاندا. مروج البروباجاندا يعرف جيدًا ما يفعله عندما يعمل بهذه الطريقة. كما حدد (جوبلز)، فالقلق سلاح ذو حدين. توتر أكثر من اللازم يمكن أن ينتج الهلع وانخفاض الروح المعنوية والاضطراب والأفعال المتهورة. وأقل مما يلزم من التوتر لا يدفع الناس على التصرف؛ سيظلون راضين وسيحاولون أن يكيفوا أنفسهم تكييفًا سلبيًا. ومن ثم، من الضروري تقوية القلق

في بعض الحالات (مثلًا، فيما يتعلق بآثار الهزيمة العسكرية)، وفي حالات أخرى، يجب تخفيف القلق الذي صار أقوى مما يستطيع الناس تحمله وحدهم (الخوف من الغارات الجوية على سبيل المثال).

ازدواجية البروباجاندا هذه تخلق التوتر في بعض الحالات وتخففه في حالات أخرى وتفسر نفسها إلى حد كبير، يبدو لنا هذا من خلال الفرق بين البروباجاندا التحريضية والبروباجاندا الاندماجية. على الأولى -التي تهدف إلى فعل سريع وعنيف -أن تثير مشاعر الإحباط والصراع والعدوانية، وهذا يدفع الفرد إلى الفعل. أما الأخرى -التي تسعى إلى امتثال الفرد لجماعته (بما في ذلك مشاركته في الفعل) -فترمي إلى تخفيف التوترات والتكيف مع البيئة وقبول رموز السلطة. فضلًا عن ذلك، يمكن للعاملين أن يتداخلا. مثلًا، حزب سياسي ثوري، مثل الحزب الشيوعي أو النازي، سيوظف بروباجاندا التوتر فيما يتعلق بالأشياء خارج الحزب، وبروباجاندا القبول فيما يخص الحزب ذاته. وهذا يشرح موقف القبول العام لكل ما يقال أو يحدث في الحزب، وموقف مضاد من التحدي والرفض العام لكل شيء خارجه.

أمر آخر ذو صلة هو التناقض الثاني الذي بواسطته تخلق البروباجاندا تبرير الذات والضمير المرتاح، والإحساس بالذنب وتأنيب الضمير في الوقت نفسه. لقد رأينا قوة البروباجاندا تنمو عندما توفر للفرد إحساس بالأمن والاستقامة. ولكن البروباجاندا تحفز أيضًا الإحساس بالذنب. في الواقع، إثارة مثل هذه الأحاسيس هو الهدف الرئيس عندما تخاطب البروباجاندا جماعة معادية. تحاول البروباجاندا أن تجرد العدو من الثقة في شرعية قضيته ووطنه وجيشه وجماعته، لأن الإنسان الذي يشعر بالذنب يفقد تأثيره ورغبته في القتال. إقناع الفرد أن الذين في صفه يرتكبون أفعالًا غير عادلة وغير أخلاقية، إذا لم يرتكب هو نفسه الأفعال ذاتها -وهذا يعني إقناعه بالعمل نحو تفكيك الجماعة التي ينتمي إليها.

يمكن صنع هذا النوع من البروباجاندا ضد الحكومة والجيش وأهداف

الحرب التي شنها البلد -وحتى القيم التي يدافع عنها الحزب أو الوطن الذي ينتمي إليه الفرد. ولكن، يمكن أيضًا صنعها فيما يتصل بالكفاءة فقط؛ نصل لنفس الأثر عن طريق إقناع الفرد بعدم صلاحية الوسائل المستخدمة في جماعته، أو عدم اليقين بشأن انتصار الجماعة، أو عجز القادة.

بالإضافة لذلك، يمكن للبروباجاندا أن تخلق تأنيب الضمير بنفس الطريقة، وإن بدا هذا غريبًا، على الأرجح نتيجة ارتباطها بالاعتقاد البدائي أن الله ينصر الخير على الشر وأن الشخص الأفضل هو الذي يفوز، وأن الجبروت يصنع الصواب، وأن ما يفتقد الفعالية ليس عادلًا ولا صحيحًا. وبالطبع، يختلف الأثر النفساني المرجو حسب الجمهور الذي تستهدفه البروباجاندا. على أي حال، تخلق البروباجاندا الضمير المرتاح بين أعضاء الأحزاب وتأنيب الضمير بين أعدائها.

الأثر الآخر بالتحديد سيكون قويًا في بلد أو جماعة فعلًا تحت تهديد الشك. نجحت بروباجاندا تأنيب الضمير نجاحًا مبهرًا في فرنسا في 1939م، بل ونجحت أكثر من ذلك في مطلع 1957م فيما يتعلق بالصراع الجزائري عندما خلقت شعورًا عامًا بالذنب الذي استمر عن طريق حملات عن التعذيب والاستعمار وظلم القضية الفرنسية. هذه حالة فرنسية بامتياز. هذا الشعور الذي خلقته البروباجاندا (شرعيًا في جزء منه) كان السبب الرئيس وراء انتصار جبهة التحرير الجزائرية -انتصار نفساني بحت -مما يؤكد مبادئ وأفكار (ماو).

ثالث تناقض: في حالات معينة، تعتبر البروباجاندا أداة الترابط بالجماعة وأداة التماسك، وفي حالات أخرى، تعتبر أداة التفكك والاضطراب. يمكنها تحويل رموز الجماعة إلى حقيقة مطلقة، ونفخ الإيمان إلى حد الانفجار، والتقدم نحو دولة جماعية، واستمالة الفرد على الخلط التام بين مصيره الشخصي ومصير الجماعة. كثيرًا ما يحدث هذا مع بروباجاندا الحرب التي تتطلب "وحدة وطنية." لكن يمكن للبروباجاندا أيضًا أن تحطم الجماعة وتفككها -مثلًا، عن طريق إثارة التناقضات بين الإحساس بالعدل والولاء، أو عن طريق تدمير الثقة في المصادر

المعتادة للمعلومات، أو عن طريق تغيير مقاييس الأحكام، أو عن طريق المغالاة في كل أزمة وصراع، أو عن طريق وضع كل جماعة في مواجهة ضد جماعة الأخرى.

فضلًا عن ذلك، من الممكن تقديم مراحل متعاقبة للفرد. يمكن للبروباجاندا أن تقدم عامل الغموض والشك والريبة وهو لا يزال عضوًا رصينًا في الجماعة. لكن الفرد يجد صعوبة بالغة في الاستمرار طويلًا في مثل هذا الموقف. الغموض مؤلم له، ويسعى إلى الفرار منه. لكنه لا يستطيع الفرار منه عن طريق العودة إلى ولاءاته الكاملة العمياء لجماعته السابقة وقناعاته اليقينية المنصرمة. هذا مستحيل لأن الشك المقدم له لم يعد يمكن تهدئته بينما يظل الفرد في السياق الأصلي للقيم والحقائق. ومن ثم، يهرب الإنسان من هذا الغموض عن طريق الانضمام إلى جماعة العدو ومطاوعة مصدر الغموض. ثم سيدخل في ولاء تام لحقيقة جماعة العدو، وامتثاله سيزداد تأصلًا، وسيصير انصهاره معها غير عقلاني أكثر فأكثر لأن هذا هروب من حقيقة أمس ولأنه يجب حمايته من العودة إلى ولاء الماضي أو تذكره أو الحنين له. ليس هناك عدو للمسيحية أو الشيوعية أعظم من هذا الذي كان يومًا يؤمن إيمانًا مطلقًا بها.

سنشدد على نوع أخير من التناقضات. حسب الظروف، تخلق البروباجاندا إما التسييس وإما ما يسميه علماء الاجتماع الأمريكيون "الخصوصية." أولًا، على البروباجاندا أن تقود الفرد إلى المشاركة في أنشطة سياسية وأن يكرس نفسه للمشكلات السياسية. لا يمكنها أن تكون مؤثرة إلا إذا أظهرت *المواطن* داخل الإنسان، وإذا أيقن هذا المواطن أن مصيره وحقيقته وشرعيته ترتبط بالنشاط السياسي -وأكثر من هذا أنه لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا في الدولة ومن خلالها، وأن تفسير مصيره لا يكمن إلا في السياسة. في هذه اللحظة، يقع الإنسان ضحية مثالية جاهزة للتسليم لكل هجمة تشنها البروباجاندا.

لكن نجاح البروباجاندا يتطلب كذلك أن يفقد الفرد الاهتمام بشؤونه الشخصية والعائلية فقدانًا تدريجيًا، فتصبح التضحية بزوجته وأبنائه من أجل قرار

سياسي قمة المثالية للزعيم السياسي، وأن هذه التضحية ستتبرر بالطبع على أنها الصالح العام للوطن أو رمز ما. ثم يمكن للمشكلات الشخصية أن تبدو تافهة وعادية وأنانية. على البروباجاندا دومًا أن تحارب ضد "الخصوصية،" الشعور الذي يقود الإنسان إلى اعتبار شؤونه الشخصية أهم شيء، وموقف الشك بأنشطة الدولة، وأيديولوجية "بدوني" مثل تلك التي كانت شائعة في ألمانيا بعد 1945م -القناعة أن كل شيء بلا جدوى، وأن التصويت لا يعني أي شيء، وأن "دانزيج لا تستحق الموت من أجلها." ليس للبروباجاندا أي تأثير على الإطلاق على هؤلاء الذين يشعرون بمثل هذه الريبة واللامبالاة. أحد أكبر الفروق بين البروباجاندا قبل وبعد 1940م كان أن الأخيرة اضطرت إلى مواجهة الأفراد المرتابين و"الخصوصيين" في البلاد الغربية.

لا يمكن للدولة الحديثة أن تعمل إلا إذا أعطاها المواطنون دعمهم، وأن هذا الدعم لا يمكن الحصول عليه إلا إذا محت الخصوصية، وإذا نجحت البروباجاندا في تسييس كل الأسئلة، وإثارة مشاعر الفرد تجاه المشكلات السياسية، وإقناع الناس بأن النشاط السياسي واجبهم. كثيرًا ما تشارك الكنائس في حملات (دون أن تفهم أنها بروباجاندا) صممت لتبين أن المشاركة في الأمور المدنية واجب ديني أصيل.

في الوقت نفسه، وبنفس القوة، تعتبر البروباجاندا أداة الخصوصية. فهي تقدم هذا التأثير أحيانًا دون النية في ذلك، وأحيانًا عن عمد. تحدث ردة فعل الخصوصية هذه في ظاهرة الانطواء والريبة عندما يعمل نوعان متعارضان من البروباجاندا على نفس الجماعة بنفس القدر تقريبًا من القوة، فتأثير الخصوصية هنا تلقائي. لكن، في حالات عديدة، تسعى البروباجاندا عن قصد إلى إنتاج الخصوصية. مثلًا، بروباجاندا الإرهاب تحاول أن تخلق تأثير الاكتئاب على الخصم وتقوده إلى تبني موقف قاتل.[1] يلزم دفع الفرد نحو التصديق أنه ليس هناك أي

---

(1) النشاط الإرهابي لتنظيم الجيش السري .O.A.S في 1962م كان من هذا النوع.

شيء يساعده وأن الحزب أو الجيش المعادي بالغ القوة بحيث أن المقاومة ليست ممكنة. وفي سياق متصل، يتم مناشدة قيمة الحياة الخاصة؛ الشعور المثار أن المرء أمام خطر موت ليس له معنى -فكرة حاسمة لبروباجاندا الخصوصية. مثل هذه الآراء مفيدة لتعجيز العدو ودفعه على التخلي عن النضال والتقهقر إلى الأنا. كلاهما صحيح في الصراع السياسي أو العسكري.

جانب من بروباجاندا الخصوصية من قِبَل الدولة يبدو لنا أكثر أهمية: عندما تخلق البروباجاندا موقفًا للدولة فيه تتمتع بمطلق الحرية لأن المواطنين لا يهتمون بالأمور السياسية على الإطلاق. أحد أعظم أسلحة الدولة السلطوية هو البروباجاندا التي تشل خصومها (أو الرأي العام قاطبة) وتحيدهم عن طريق التأكيد على مجموعة بسيطة من "الحقائق" مثل الحقيقة أن ممارسة السلطة السياسية في غاية التعقيد، وبالتالي يجب أن تُترك للسياسيين المحترفين، وأن المشاركة في الجدال السياسي خطير -ما الخير الذي تقوم به إذًا؟ ... لماذا يتوجب على الأفراد إدخال أنفسهم في المكان الذي تُمارس فيه السياسة باسم الجميع ومن أجل المصلحة العامة؟ ... يشعر الأفراد بالراحة والرفاه والأمن من الدولة -هي وحدها التي تستطيع أن تخطط وتنظم مقدمًا.

بروباجاندا من هذا النوع خصوصًا سهلة في النظام السلطوي لأن الخصوصية ردة فعل تلقائية للفرد عندما يكون هناك عداوة بينه وبين قائد الجماعة. يحمي الفرد نفسه عن طريق الخصوصية، ومن ثم تتبرر ريبته نحو الدولة في عينيه بسبب أفعال الدولة؛ لكن البروباجاندا هي التي تدعم موقف الخصوصية والريبة الذي يتبناه، مما يضع للحكومة الحبل على الغارب للتصرف بالطريقة التي تراها مناسبة.

الجاذبية "المعقولة" لهذا النوع من البروباجاندا ستلفت النظر بسهولة ملحوظة لأن الإنسان عمومًا لا يحب أن يتولى مسؤوليات. يكفي أن نتذكر نفس الصعداء في كل أنحاء فرنسا في 1852م عندما نشأت الإمبراطورية ومرة أخرى

في 1958م عندما أعطت دولة شبه سلطوية الفرنسيين الشعور بأنهم لم يعد واجبًا عليهم صنع القرارات لأنفسهم، وأن هذه القرارات ستأتي لهم الآن من أشخاص آخرين. وعليه، تحيّد الدولة - بطرائق مختلفة، عن طريق الإرهاب في ألمانيا في عهد (هتلر) وعن طريق التعليم السياسي في الاتحاد السوفيتي - الحشود وتجبرهم على السلبية وتدفعهم مرة أخرى لحياتهم الخاصة وسعادتهم الشخصية (منحهم فعلًا بعض الإشباع الضروري في هذا المستوى) لكي تترك الحرية لهؤلاء الذين في السلطة وللنشطاء والمتشددين. يوفر هذا المنهج مزايا عظيمة للغاية للدولة.

الفصل

الخامس

5

الآثار الاجتماعية - السياسية

1 - البروباجاندا والأيديولوجية

العلاقة التقليدية

لطالما كان هناك علاقة بين البروباجاندا والأيديولوجية. أصبح نمط هذه العلاقة مترسخًا تقريبًا قرب نهاية القرن التاسع عشر. لن أقدم هنا تعريفًا محددًا أو جديدًا للأيديولوجية، ولكنني فقط سأقول إن المجتمع يقوم على معتقدات معينة ولا يمكن لجماعة اجتماعية أن تنشأ بدون مثل هذه المعتقدات. يجب الحديث عن الأيديولوجية حيث إن أعضاء الجماعة يعزون شرعية فكرية إلى هذه المعتقدات. يمكننا كذلك النظر في عملية مختلفة تتشكل من خلالها الأيديولوجية: تبزغ الأيديولوجية في المكان الذي تتدهور فيه العقائد وتبتذل، وعندما يدخل ملمح المعتقد فيها. كان معروفًا منذ وقت طويل أن بعض الأيديولوجيات تتماشي - بأية طريقة كانت - مع السلوك السلبي، ولكن معظم السلوكيات نشطة - بمعنى أنها تدفع الناس إلى التصرف.

فضلًا عن ذلك، يتخذ أعضاء الجماعة دائمًا تقريبًا موقفًا عدوانيًا ويحاولون أن يفرضوا أيديولوجيتهم في أماكن أخرى عندما يؤمنون أن هذه الأيديولوجية تمثل الحقيقة. تصبح الأيديولوجية عازمة على الغزو في مثل هذه الحالات. يمكن أن

ينشأ الدافع نحو الغزو في المجتمع كصراع بين الجماعات (مثلًا، الأيديولوجية البروليتارية ضد أيديولوجيات أخرى في الوطن الواحد) أو يمكنها أن تحدد أهدافًا في الخارج، كما ستفعل الأيديولوجية القومية. يمكن أن يظهر توسع الأيديولوجية في أكثر من شكل: يمكن أن يصاحب الأيديولوجية ويتزامن معها توسع الجماعة وفرض نفسها على حشود تحتضنها الجماعة، كما حدث مع الأيديولوجية الجمهورية في 1793م أو الأيديولوجية الشيوعية عام 1945م، والتي صاحبت الجيوش.

أو أيديولوجية مثل تلك التي ظهرت في الطبقة العاملة في المجتمع البرجوازي يمكن أن تتسع عن طريق قوة الدفع الخاصة بها على مستوى نفساني خالص. في هذه الحالة، تتبنى الأيديولوجية موقف غير توسعي في حين أنها تخترق الجماعة التي تمثل مثل هذا الموقف. وبهذه الطريقة، ساعدت أيديولوجية العمال على صنع التوجه البرجوازي للمجتمع الغربي كله في القرن التاسع عشر.

وأخيرًا، يمكن للأيديولوجية أن تتوسع عن طريق وسائل أخرى، بدون القوة وبدون تحريك جماعة كاملة: في تلك النقطة، نجد البروباجاندا التي تظهر - تلقائيًا أو على نحو منظم - كوسيلة لنشر أيديولوجية وراء حدود الجماعة أو كوسيلة لتقويتها داخل الجماعة. يتضح في مثل هذه الحالات أن الأيديولوجية تلهم البروباجاندا إلهامًا مباشرًا من حيث الشكل والمضمون. يتضح كذلك بنفس

الدرجة أن ما يهم هو نشر مضمون هذه الأيديولوجية. لا تعيش البروباجاندا حياة خاصة بها، وإنما تظهر فقط ظهورًا متقطعًا – عندما تحاول الأيديولوجية أن تتوسع.

تنظم البروباجاندا نفسها بما يتوافق مع تلك الأيديولوجية ولذلك نجد للبروباجاندا على مر التاريخ أشكالًا غاية في الاختلاف، استنادًا إلى نوع المحتوى الأيديولوجي الذي كان مخطط نشره. وكذلك تقتصر البروباجاندا اقتصارًا صارمًا على هدفها. وعملياتها التشغيلية بسيطة نسبيًّا بمعنى أنها لا تسعى إلى الاستحواذ على الفرد أو السيطرة عليه من خلال وسائل ملتوية، ولكنها تحاول ببساطة أن تنشر معتقدات وأفكار معينة. هذه هي العلاقة الجارية بين البروباجاندا والأيديولوجية. ظل هذا النمط التقليدي موجودًا في القرن التاسع عشر – والكثير من المراقبين يعتبرونه حقيقة اليوم – لكنه لم يعد يسود؛ فالموقف خضع لتغير كبير.

وجد (لينين) و(هتلر) عالم ذا عملية توسع أيديولوجي ثابتة نوعًا ما. لكن تدخلهما في هذا الميدان سيماثل تدخلهما في كل الميادين الأخرى. ما كان حقًّا الابتكار العظيم لـ(لينين) و(هتلر) من بعده؟ كان الفهم أن العالم الحديث بالضرورة عالم "الوسائل؛" وأن الأهم هو استخدام كل الوسائل المتاحة، وأن غزارة الوسائل حولت الغايات والأهداف تحولًا كاملًا. الحقيقة أن الإنسان في القرن التاسع عشر ظل يبحث عن الغايات التي أدت به إلى تجاهل معظم الوسائل المتاحة. عمل (لينين) العبقري كان رؤيته أن الغايات، في الواقع، *في قرننا العشرين*، أصبحت ثانوية بالنسبة إلى الوسائل أو، في حالات متعددة، عديمة الأهمية. ما يهم بالأساس هو تشغيل كل الأدوات المتاحة ودفعها إلى أقصى إمكانياتها.

بالإضافة لذلك، سيطر على (لينين) الاعتقاد أن هذا الاستخدام المبالغ فيه لكل الوسائل – نظريًّا – سيؤدي إلى تأسيس مجتمع اشتراكي. وبالتالي، ستصبح

الغايات ركيزة نُسيت بسهولة. يتفق هذا الموقف اتفاقًا تامًا مع تطلعات الإنسان العادي ومع إيمانه الراسخ بالتقدم. ولهذا صمم (لينين) استراتيجية ونهج على المستوى السياسي. وهنا - كما هو الحال في أي مكان آخر - قد سمح للوسائل أن تشغل المكانة الأولى، ولكن هذا أدى به إلى تعديل عقيدة ماركس من ناحية، وإعطاء العقيدة ذاتها أهمية ثانوية بالنسبة للفعل من ناحية أخرى. فتصبح تكتيكات وتطوير الوسائل التي أصبحت لاحقًا الأهداف الرئيسية حتى للعلوم السياسية.

نجد مع (هتلر) نفس الميل بالضبط.، لكن مع فرقين: الأول، انعدام تام لضبط النفس. تصور (لينين) تطبيقًا لوسائل معدلة ومحدودة وتقدمية. أراد (هتلر) أن يطبق كل هذا وبدون تأخير. ثانيًا، الغاية والهدف والعقيدة التي حط (لينين) من قدرها إلى المركز الثاني واختفت تمامًا مع (هتلر) - الألفية الغامضة التي وعد بها ما كان ممكنًا أن تعتبر هدفًا كما أن معاداته للسامية لم تعتبر عقيدة. عوضًا عن ذلك، ننتقل هنا إلى مرحلة الفعل البحت، الفعل من أجل الفعل.

هذا حوّل العلاقات بين الأيديولوجية والبروباجاندا تحولًا كاملًا: لم يهتم (هتلر) و(لينين) بالأيديولوجية إلا عندما كانت تخدم فعل أو خطة أو نهج ما. فهي ليست موجودة عندما لا يمكن استخدامها. أو، إذا استخدمت فتستخدم لغرض البروباجاندا التي تصير حقيقة بارزة. وعندما يتعلق الأمر بها، تصبح الأيديولوجية مجرد أثر ثانوي. من ناحية أخرى، صار المحتوى الأيديولوجي أقل أهمية مما ظننا أنه ممكنًا. في أغلب الحالات، يمكن للبروباجاندا أن تغير أو تعدل هذا المحتوى ما دامت تتعامل مع هذه المظاهر الرسمية والمعتادة للأيديولوجية كصور ومفردات لها.

عدّل (هتلر) الأيديولوجية الاشتراكية القومية مرات عديدة وفقًا لمتطلبات البروباجاندا. وعليه، أسس (هتلر) و(لينين) علاقة جديدة تمامًا بين الأيديولوجية والبروباجاندا. ولكن، علينا ألا نظن أن هزيمة (هتلر) وضعت حدًّا لها. لقد

أصبحت منتشرة أكثر في واقع الأمر. مما لا شك فيه أن العَرْض كان آسرًا من حيث الفعالية. فضلًا عن ذلك، التيار الذي أطلقه (هتلر) و(لينين) أشار لكل الأيديولوجيات السائدة والموجودة الآن "فيما يتصل" بالبروباجاندا (بمعنى آخر: الحياة عبر البروباجاندا) سواء شاء الفرد أو أبى. العودة للوراء لم تعد ممكنة؛ التعديلات هي كل ما يمكن فعله.

العلاقة الجديدة

غيرت مناهج البروباجاندا الجديدة العلاقة بين الأيديولوجية والبروباجاندا تغيرًا تامًّا، وكنتيجة، تغير دور وقيمة الأيديولوجيات في العالم اليوم. تتقلص مهمة البروباجاندا في الترويج لأيديولوجيات باستمرار؛ فهي الآن تطيع قوانينها وتصير مستقلة. لم تعد البروباجاندا تطيع الأيديولوجية.[1] ليس مروج البروباجاندا "مؤمنًا" ولا يمكنه أن يكون كذلك. علاوة على ذلك، لا يستطيع أن يؤمن بأيديولوجية يجب عليه أن يستخدمها في البروباجاندا التي يروج لها. ما هو إلا رجل في خدمة حزب أو دولة أو أي منظمة أخرى. ومهمته هي ضمان كفاءة هذه المنظمة. ولا يحتاج بعد الآن إلى تبني أيديولوجية رسمية أكثر من حاجة محافظ قسم فرنسي أن يتبع العقائد السياسية للحكومة الوطنية.

إذا كان لدى مروج البرباجاندا معتقد سياسي، فعليه أنه ينحيه جانبًا حتى

---

(1) تلعب الأيديولوجية دورًا معينًا في البروباجاندا؛ فيمكنها أن تمنع البروباجاندا من التطور عندما تكون المراكز الحكومية نفسها هي موضع الأيديولوجية. سنرى لاحقًا الطريقة التي تسارع بها الأيديولوجية الديمقراطية توسع البروباجاندا. من ناحية أخرى، تبين كيف يمكن للمعتقد في عوالم مثالية معينة (حسن نية الناس وتناغم المصالح الدولية وغيرها) أن يكون كذلك عاملًا سلبيًا هنا، كما أن أيديولوجية النخب الديمقراطية مناسبة بدرجة أقل من أيديولوجية الأرستوقراطية كقاعدة لخطة البروباجاندا. وبالعكس، عندما يتسم معتقد النخب بالتقدمية، سيؤدي إلى بروباجاندا قوية. وبالتالي، تحدد الأيديولوجية جزئيًا سواء كان المناخ ملائمًا أو غير ملائم لخلق واستخدام البروباجاندا، ولكنها لم تعد العامل الحاسم.

يتمكن من استخدام أيديولوجية جماهيرية شعبية. لا يستطيع مروج البرباجاندا حتى أن يتبنى هذه الأيديولوجية لأن عليه أن يستخدمها كهدف وأن يتلاعب بها دون الاحترام الذي سيكنه لها إذا آمن بها. وسريعًا سيحتقر هذه الصور والمعتقدات الشعبية. وفي عمله، يجب عليه تغيير موضوعات البروباجاندا مرارًا وتكرارًا لدرجة أنه لا يستطيع أن يربط نفسه بأي جانب رسمي أو عاطفي أو سياسي أو أي جانب آخر للأيديولوجية. بل وأكثر من ذلك، يعتبر مروج البروباجاندا فني يستخدم لوحة مفاتيح من الإعلام المادي والتقنيات النفسانية. وفي خضم كل هذا، ليست الأيديولوجية إلا ترس من التروس العَرَضية والمتبادلة.

قيل كثيرًا إن مروج البروباجاندا يصل في النهاية إلى ازدراء العقائد والناس (ألبج ولازويل). علينا أن نضع هذا في سياقه مع الحقيقة القائلة، والتي حللناها آنفا، أن المنظمة التي تخدمها البروباجاندا لا تهتم أساسًا بنشر عقيدة أو إشاعة أيديولوجية أو خلق مذهب أرثوذوكسي. عوضًا عن ذلك، تسعى إلى أن توحيد أكبر عدد ممكن من الأفراد في ثناياها، وأن تحشدهم، وأن تحولهم إلى متشددين نشطين في خدمة العمل الصالح.

يعترض البعض أن الحركات العظيمة التي استخدمتها البروباجاندا، مثل الشيوعية أو النازية، كان لديها بالفعل أيديولوجية. أما أنا فأقول إن هذا لم يكن الهدف الرئيس، وإنما الأيديولوجية والعقيدة كانتا مجرد كماليات استخدمتها البروباجاندا لحشد الناس. الهدف كان قوة الحزب أو الدولة التي تدعمها الحشود. وانطلاقًا من هنا، لم تعد المشكلة سواء كانت الأيديولوجية السياسية صحيحة أو لا. لا يستطيع مروج البروباجاندا أن يسأل نفسه هذا السؤال. بالنسبة إليه، لا يجدي أن يتناظر حول مدى صحة الرأي الماركسي في التاريخ بالمقارنة بأي رأي آخر، أو إذا كانت العقيدة العنصرية سليمة. ليس لهذا أي أهمية في إطار عمل البروباجاندا.

المشكلة الوحيدة تتعلق بالفعالية والفائدة. الهدف ليس أن يسأل المرء نفسه إذا كانت عقيدة اقتصادية أو فكرية ما صحيحة، ولكن فقط إذا كان في مقدورها أن تقدم شعارات فعالة قادرة على حشد الجماهير *هنا والآن*. ومن ثم، على مروج البروباجاندا أن يسأل نفسه سؤالين عندما يواجه أيديولوجية نشأت بين الجماهير واقتضت قدر ما من الإيمان: الأول، هل الأيديولوجية القائمة عائق لفعل يجب القيام به؟ هل ستقود الناس إلى عصيان الدولة؟ هل ستجعلهم سلبيين؟ (السؤال الأخير هذا أساسي لمروجي البروباجاندا الذين يعملون في بيئات تأثرت بالبوذية مثلًا).

في حالات متعددة، ستكون مثل هذه الأيديولوجية فعلًا عائقًا للتصرف الأعمى، إذ إنها لا تثير إلا نشاطًا فكريًا، بصرف النظر عن مدى ضعفه، وتقدم معايير الحكم والفعل، بغض النظر عن تذبذبها. في هذه الحالة، على مروج البروباجاندا أن يتوخى الحذر ألا يصطدم مع الأيديولوجية السائدة. كل ما يستطيع أن يفعله هو دمجها في نظامه، واستخدام بعض أجزائها فيه، وتغيير اتجاهها، وهكذا.[٦] ثانيًا، يجب أن يسأل نفسه إذا أهّبت الفرد نفسانيًا للتسليم لمحفزات البروباجاندا.

في بلد عربي استعمره البيض، في نظر الأيديولوجية الإسلامية التي نشأت فيها كراهية للمسيحيين، ستظهر نزعة مثالية للبروباجاندا العربية الوطنية المعادية للاستعمار. سيستخدم مروج البروباجاندا الأيديولوجية مباشرةً، بغض الطرف عن مضمونها. ويمكن أن يصبح بطلًا متحمسًا للإسلام دون أن يؤمن بأي من معتقداتها الدينية. وبالمثل، يستطيع مروج البروباجاندا الشيوعي أن ينشر

---

(٦) لهذا السبب لا تقدر أيديولوجية ما أن تعمل كسلاح ضد أيديولوجية أخرى. لن تدعي البروباجاندا أبدًا تفوق أيديولوجية على أيديولوجية العدو، لأنها عندما تقوم بذلك تفشل *فورًا*. أمام أيديولوجية مضادة لا يمكننا إلا أن ننتظر ونتمنى، وكذلك نطرح أسئلة عن المستقبل الذي ستأتي به. ولذلك، عن طريق طرح أسئلة أيديولوجية عدائية محددة تتعلق بالمستقبل، يتبع مروج البروباجاندا طريقة ماركس في "التقدم من اللغة إلى الحياة."

أيديولوجية ديمقراطية أو قومية لأنها مفيدة وفعالة ومربحة، ولأنها في نظره متشكلة وجزء من الرأي العام، حتى إذا كان هو نفسه مناهض للقومية والديمقراطية. حقيقة تعزيزه لمعتقد ديمقراطي في عامة الناس لا تهم: نعرف الآن أن مثل هذه المعتقدات لا تمثل عائقًا أمام تأسيس دولة سلطوية. من خلال استخدام الأيديولوجية الديمقراطية التي تدعمها الشيوعية، ينال الحزب الشيوعي موافقة الجماهير على أفعاله، وهذا ما يمكّن التنظيم الشيوعي من السيطرة. وبالتالي، تُحْدِث البروباجاندا انتقالًا من المعتقدات الديمقراطية إلى شكل جديد من الديمقراطية.

الرأي العام غامض وغير واضح من حيث مضمون أيديولوجياته إذ إنه يتبع الفرد الذي يقول كلمات سحرية في حين أنه لا يدرك التناقضات بين التصريح بشعار ما والتصرف الذي يتلوه. بمجرد أن تُمْسِك "الماكينة" بزمام الأمور، لا يمكن أن يعترض عليها هؤلاء الذين التزموا أيديولوجية كانت سائدة في السابق والتي لطالما تبناها ونادى بها التنظيم الجديد في سدة الحكم. وبالتالي، يعيش الناس في حالة من الارتباك العقلي الذي تسعى البروباجاندا عمدًا إلى خلقه.

أمام الأيديولوجيات القائمة التي يمكن استخدامها، يستطيع مروج البروباجاندا أن يتخذ طريق واحد من اثنين: يمكنه إما أن يثير الأيديولوجيات وإما أن يصنع منها أسطورة. في واقع الأمر، تكيف الأيديولوجيات نفسها جيدًا مع كلا الطريقتين. من ناحية، يمكن التعبير عن الأيديولوجية في كلمة، في شعار. ويمكن اختزالها في فكرة بسيطة، ارتكزت بعمق في الوعي الشعبي. والرأي العام اعتاد على الاستجابة بشكل تلقائي لتعبيرات أيديولوجية سابقة ومقبولة: كلمات مثل *الديمقراطية والبلد والعدالة الاجتماعية* يمكن الآن أن تثير ردود فعل مرغوبًا فيها، وتم حصرها في مثيرات قادرة على نيل ردود فعل في الرأي العام، ويمكنها أن تنقلب من الافتتان إلى الكراهية دون عملية انتقال. فتثير أفعال وتطلعات سابقة. وللتأكيد، إذا كان هناك عبارة قادرة على الإثارة، يجب أن تعكس ردود

فعل مكيفة موجودة بالفعل وتشكلت تدريجيًا على مر التاريخ عن طريق الالتزام بالأيديولوجية.

يحصر مروج البروباجاندا نفسه في حدود ما هو موجود بالفعل. وكنتيجة لذلك، لا يستطيع أن يستخدم أي نوع من المحتوى الأيديولوجي في أي مكان أو زمان. سيتم تحديد الفروق في التطبيق حسب المعايير النفسانية التاريخية لضمان الاستفادة الأمثل من الأيديولوجية في ميدان الفعل. لقد قلت إن الأيديولوجية نظام معقد قادر على إثارة مظهر واحد بينما يهمل الآخر؛ قدرة مروج البروباجاندا ستتشكل بالضبط عند تحديد هذه الاختيارات.

من ناحية أخرى، يستطيع مروج البروباجاندا أن يستمر عبر تحويل الأيديولوجية إلى أسطورة. ويمكن لبعض الأيديولوجيات أن تعمل كنقطة انطلاق لخلق الأساطير على يد مروج البروباجاندا. نادرًا ما يحدث مثل هذا التحول تلقائيًا. عامةً، الأيديولوجية في غاية الغموض ولا تتمتع إلا بالقليل من القوة لدفع الإنسان للفعل ولا تستطيع أن تسيطر على وعي الفرد الكامل لكنها تقدم ملامح المضمون والمعتقد، وتتحد مع الأسطورة عن طريق خليط معقد من الأفكار والأحاسيس، ومن خلال إدخال اللاعقلاني في الملامح الاقتصادية والسياسية. تختلف الأيديولوجية اختلافًا جذريًا عن الأسطورة حيث إن ليس لها جذور أساسية ولا علاقة لها بأساطير البشرية البدائية العظيمة. لقد قُلتُ بالفعل إنه سيستحيل خلق أسطورة جديدة تمامًا من خلال البروباجاندا. ومع ذلك، يعتبر وجود الأيديولوجية في الجماعة أفضل أساس ممكن لإعداد الأسطورة. في كثير من الحالات، عملية دقيقة وصياغة أكثر فعالية وبصيرة ستؤدي الغرض. ما يساهم في هذا تلقائيًا هو أنه على وسائل الإعلام الجماهيرية أن تصوغ هذه الرسالة للاستخدام: الحقيقة أن المعتقد الشائع يتم التعبير عنه الآن في ثلث الكلمات ويهتف به ملايين مكبرات الصوت، يعطيها قوة جديدة وضرورة ملحة.

الطابع الغالب الذي تـوفره التقنيـات النفسـانية، قـوة التـأثير التـي يظهرهـا الدمج في التصرف، والطابع العام الذي يُنسب لبناء الكون الفكري الذي تمثل فيه الأيديولوجية حجر الزاوية - يمكن لمروج البروباجاندا تحقيق كـل هـذا. بطريقـة مثل هذه، تحولت الأيديولوجية الاشتراكية إلى أسطورة عبر البروباجاندا اللينينية، أيديولوجية قومية أصبحت أسـطورة وطنيـة، وتحولـت أيديولوجيـة الـسعادة إلى أسطورة في نهاية القرن التاسع عـشر. عـلى هـذا النحـو، كـذلك، بُنيـت أسـطورة التقـدم مـن مجموعـة مـن أنـواع البروباجانـدا التـي تقـوم عـلى الأيديولوجيـة البرجوازية.

وأخيرًا، يمكن لمروج البروباجاندا أن يستخدم أيديولوجية بغـرض التبريـر. لقد برهنت في أكثر من مناسـبة أن التبريـر وظيفـة أساسـية للبروباجانـدا. نـشوء أيديولوجية مقبولة قبول عام يعتبر أداة عظيمة لمنح الفـرد ضـمير مرتـاح. عنـدما يشير مروج البروباجاندا إلى معتقدات جماعية، سيشعر الإنـسان الـذي يحثـه عـلى التصرف وفق تلك المعتقدات بنوع من التبرير الذاتي الـذي لا يتزعـزع. التـصرف بموجب المعتقدات الجماعية يوفر الأمن والضمان أن الفرد يتصرف تصرفًا سليمًا.

تكشف البروباجاندا هذا الانسجام عند الفرد، وتجعل المعتقد الجماعي مدركًا وملموسًا وشخصيًّا له. فتمنحه ضميرًا مرتاحًا عن طريق جعلـه واعـي بجماعيـة المعتقدات. تضفي البروباجاندا على التبرير تفسيرًا منطقيًّا - التبرير الذي يكتـشفه الإنسان في الأيديولوجية السائدة، وتعطيه القوة للتعبير عن نفسه. ينطبق هذا مثلًا على أيديولوجية السلام التي استخدمها الحـزب الـشيوعي: بمجـرد أن تُـستخدم هذه الأيديولوجية، تبرر كل شيء، حتى الكراهية.

لوقت طويل، ألهمت الأيديولوجية أفعـال الإنـسان إلهامًـا جزئيًّـا كـما تلهـم مجموعة معينة مـن ردود فعلـه. تـتـصرف الجماهـير بـسبب معتقـد عفـوي، فكـرة مقتضبة يقبلها الجميع، أو تتصرف سعيًا وراء هدف حددتـه أيديولوجيـة تحديـدًا غامضًا نوعًا ما؛ أثارت الأيديولوجيـة الديمقراطيـة مثـل هـذا الـسلوك. ولكـن،

علاقة الأيديولوجية بالبروباجاندا قد غيرت هذا تمامًا. داخل الجماعة التي تُصنع فيها البروباجاندا الحديثة، لم يعد يتصرف الإنسان وفق أيديولوجية عفوية، لكن فقط من خلال بواعث تأتي له من هذه البروباجاندا. الجهلاء فقط هم الذين لا زالوا يعتقدون أن الأفكار والعقائد والمعتقدات يمكن أن تدفع الإنسان إلى التصرف دون استخدام المناهج الاجتماعية-النفسانية. فالأيديولوجية التي لا تستخدمها البروباجاندا ليست فعالة ولا تؤخذ على محمل الجد. لم تعد الأيديولوجية الإنسانوية تثير استجابات: عند مواجهة البروباجاندا الحديثة، فقد المفكرون أسلحتهم تمامًا ولم يعد عندهم القدرة على إثارة قيمة الإنسانوية.

يقبل الرأي العام تعذيب (الأعداء السياسيين) قبولًا ضمنيًّا؛ فلا يعبر الرأي العام عن فزعه إلا بالكلام، وليس الفعل. بخصوص الحرب في الجزائر، معروف جيدًا أن أكثر المدافعين عن (بي أتش سايمون)[1] حماسًا قد دافعوا عنه بالكلام فقط وعندما كانت العواقب تُحتمل: فور أن تنشب المعركة، ويندفعون إلى الفعل، تنحدر مثل هذه "الأفكار" إلى مستوى ثانوي، وتمسك جبهة التحرير الجزائرية والبروباجاندا العسكرية بزمام الأمور مرة أخرى. فتتهم الجبهة والبروباجاندا العسكرية - على كلا الجانبين - العدو بالتعذيب، وبالتالي تبرر أفعالها هي. ينطبق الشيء ذاته على الأيديولوجية المسيحية التي لم تعد تلهم الناس بالفعل: يَعْلَق المسيحيون في آلية اجتماعية-نفسانية تكيفهم مع ممارسات بعينها رغم ارتباطهم بأفكار أخرى. تظل هذه الأفكار أيديولوجية خالصة لأن البروباجاندا لم تسيطر على هذه الأفكار التي لا يمكن استخدامها. على هذا النحو، تفقد أيديولوجية من هذا النوع واقعها وتصير تجريد. تفقد كل فعاليتها بالمقارنة بأيديولوجيات أخرى تستخدمها البروباجاندا.

علاوة على ذلك، في هذه العلاقة بين الأيديولوجية والفعل، نؤكد أن الفعل هذه الأيام يخلق الأيديولوجية، وليس العكس، كما يحب المثاليون (الذين يربطون

---

(1) (ب. أتش سايمون) هو ملازم شاب فضح ممارسة التعذيب خلال هذه الحرب.

الحاضر بمواقف سابقة) أن يعتقدوا حتى الآن. عبر الفعل، نتعلم أن نؤمن "بحقيقة ما" كما نقوم بصياغتها. اليوم، تَبْني الأيديولوجية نفسها تدريجيًا حول أفعال أقرتها البروباجاندا. (مثلًا، خُلقت أيديولوجية كاملة ومعقدة لتبرير أفعال بعينها في الجزائر.) ومن ثم، تفقد الأيديولوجية أهميتها على نحو متزايد في العالم المعاصر بطرائق مختلفة - وكل هذا نتيجة البروباجاندا كلها. لا يهم سواء كانت البروباجاندا تستخدمها أو لا؛ في الحالة اللاحقة، لأنها تكشف عدم جدواها ولا يمكنها أن تسود ضد المنافسة؛ وفي الحالة السابقة، لأنها تتفكك عندما تُستخدم: بعض مظاهرها تُستخدم وبعضها تُنحى جانبًا.

ينطبق الشيء ذاته على الأيديولوجية فيما يتعلق بالعقيدة؛ عندما تستخدمها البروباجاندا، تدمرها. من المعروف جيدًا أن بروباجاندا (لينين) في البداية ثم (ستالين) حولت العقيدة الماركسية تحولًا جذريًا. تفسر أعمال مثل تلك التي كتبها (بي تشامبر) و(دي لافيفر) و(لوكاس) تجريد البروباجاندا العقيدة من معناها تفسيرًا جيدًا جدًّا. لقد روجت البروباجاندا لكل ما هو مصدَّق ومعروف ومقبول. والشيء ذاته حدث مع الأيديولوجية التي تعتبر مجرد اشتقاق شعبي وعاطفي من العقيدة. لم يعد ممكنًا تأسيس أي شيء على الإطلاق على أيديولوجيات صادقة في جماعات اجتماعية؛ لم يعد ممكنًا الأمل في إيجاد نقطة دعم قوية لتصحيح مسار الإنسان أو المجتمع في أيديولوجيات من هذا النوع. لقد أصبحت الأيديولوجية جزءًا من نظام البروباجاندا وتعتمد عليه.[1]

(1) يمكن أن يكون لهذا عواقب حاسمة لأنه لا يجب أن ننسى أن هذا هو الطريق الذي يمكن أن يحدث فيه تغير في "الثقافة" (بالمعنى الأمريكي للكلمة)، بمعنى التغير الحقيقي للحضارة والتي دعمها استقرار الأيديولوجيات و"التفكير المتسلسل."

2- التأثيرات على بنية الرأي العام

لن أبحث في مسألة العلاقة بين البروباجاندا والرأي كلها. بالرغم من ذلك، من الجلي أن لتأثيرات البروباجاندا على حياة الفرد النفسانية (والتي وصفتها وصفًا مبدئيًّا في فصل سابق) عواقب جماعية، تأثيرات جماهيرية، لأن الجمهور يتألف من أفراد ولأن البروباجاندا التي صُممت لتؤثر على الجمهور في نفس الوقت تُغيّر الأفراد الذين يمثلون جزءًا من هذا الجمهور.

يتأثر الناس وتحيط بهم المؤثرات؛ وهذا يؤدي بالضرورة إلى تحولات في الرأي العام. ولكن ما نعتقد أنه أكثر أهمية بكثير من مجرد تغيرات في مضمون الرأي العام (مثلًا، تحول رأي سلبي عن الزنوج إلى رأي إيجابي) هو بنائه الفعلي.[1]

التعديل في العناصر المكونة للرأي العام[2]

بادئ ذي بدء، تعتبر عوامل تغير معينة سهلة للفهم. قيل كثيرًا إن الرأي العام يُشكّل نفسه عن طريق تبادل الآراء بشأن قضية جدلية، ويُشكّل نفسه من خلال تفاعل وجهات النظر المختلفة. ولكن، البحث في تأثيرات البروباجاندا لا بد أن يقضي على منظور تشكيل الرأي العام قضاءً جذريًّا. من ناحية، كما أوضحت بالفعل، القضايا التي تتولاها البروباجاندا لم تعد جدلية: "الحقائق" واضحة بحيث إنها لا تقبل النقاش؛ إما تصدقها وإما لا تصدقها، وهذا كل ما في

---

(1) يتماشى هذا مع الحقيقة المعروفة أن هناك علاقة بين بنية الرأي العام وحجم وتنظيم الجماعات. في الوقت ذاته، تعدل البروباجاندا بنية الرأي وبنية الجماعة حيث يتشكل هذا الرأي.

(2) بخصوص هذا الموضوع، لن أكرر ما أثبته (جان ستوتزل) بالفعل:

(*Eaquisse d'une théorie des opinions* [Paris: Presses Universitaires de France; 1943])

ولكن عملي يعتمد على ما كتبه.

الأمـر. وفي نفـس الوقـت، ينقطـع التواصـل بـين الأفـراد. في البيئـة المعرضـة للبروباجاندا، لم تعد أنماط التواصـل المبـاشر بـين الأفـراد موجـودة، وإنـما أنـماط أسسها تنظيم البروباجاندا. هناك فعل لكن لـيس هنـاك تفاعـل. وكـما بَيّنـت، لا يستطيع متلقي البروباجاندا أن يتناقش مع مَن لم يتعرض للبروباجاندا: ليس ممكنًا أن تجد تواصلًا أو محادثة مقبولة نفسـانيًّا بينهما.

وأخيرًا، في المجتمعات الكبيرة التي تنشط فيهـا البروباجانـدا، لم يعـد الـرأي يستطيع أن يُشكّل نفسه إلا عبر وسـائط المعلومـات المركزيـة. "لـيس للـرأي أي عواقـب إذا لم يـصل أولًا للجماهـير عـن طريـق وسـائط الانتـشار الـشاسعة والبروباجاندا، وإذا لم يكـن مقبـولًا عـلى نطـاق واسـع." وهنـا نواجـه تغـيرات هيكلية.

لنفهم إلى أي درجة يمكن للبروباجاندا أن تُعَدِّل في بنية الرأي العـام، يكفـي أن ننظر إلى "قوانين" تشكيل الرأي العام وفقًا لـ (ليونـارد دبليـو دوب)[1] الـذي رفض لفظة "قوانين." من الـسهل أن نرى أن البروباجاندا تلعب بالـضبط الـدور الذي أسنده (دوب) للرأي العام لتخفيف الإحباط، والتوتر، ومـا إلى ذلـك، وأن البروباجاندا تخلق الرأي العام مباشرةً عن طريـق خلـق الامتثـال وتجـسيد الآراء الباطنة في نهاية المطاف. لكنني سأمضي في طريق آخر.

أول تأثير سأحاول أن أحلله هو تعبير غامض: بلورة الـرأي العـام. بـالطبع، كان (ستوتزل) على حق عندما قال إن العملية ليـست بـسيطة كـما تبـدو، حـسب التحليلات الأمريكية. كثيرًا ما يُقال إن بضع الآراء المتفرقـة تتحـد فجـأةً وتُكـوّن الرأي العام عبر عملية مبهمة. ومن ثم، يُقال إن أحـد ملامـح هـذه العمليـة هـو البروباجاندا. أثبت (ستوتزل) أن الأشياء لا تحدث بهذه الطريقة. لا ينبثـق الـرأي العام من الآراء الشخصية: هنا نواجه مشكلتين ذاتـا خـواص متغـيرة. لا يمكننـا

(1) *Public Opinion and Propaganda* (New York: Henry Holt & Company; 1948) الفصل الخامس

الحديث عن بلورة الآراء الشخصية، بل رأي كامن وغير متسق وغير منظم وغامض - والذي يمكن تسميته "رأي خام" - تحوله البروباجاندا إلى رأي صريح عن طريق عملية بلورة حقيقية.

ما الافتراض الضمني هنا؟ من الآن فصاعدًا، سنكون في حضرة رأي منظم له بنية وهيكل معين. ليس هناك أي تقدم على الإطلاق من حالة الرأي الشخصي إلى حالة الرأي العام، لكن هناك فقط تقدم من حالة الرأي العام إلى حالة أخرى للرأي العام نفسه. يصير الرأي المتغير المرن ثابتًا ويصطبغ بصبغة توجه صارم؛ تحدد البروباجاندا أهداف هذا الرأي بدقة وترسم خطوطه العريضة رسمًا دقيقًا. بهذه الطريقة، تؤثر البروباجاندا كذلك على الفرد؛ تقلص مجاله الفكري وزاوية رؤيته بواسطة خلق الصور النمطية.

ما كان يمثل ميول مبهمة فحسب حتى لحظة تدخل البروباجاندا، اتخذ الآن شكل الأفكار. ويعتبر هذا ملحوظًا بدرجة أكبر لأن البروباجاندا، كما رأينا، تتصرف عن طريق صدمة عاطفية أكثر من قناعة ذات صلة. ومع ذلك، عن طريق هذه الصدمة، تنتج تفسيرًا أيديولوجيًا يضفي استقرارًا ودقة عالية على الرأي الناتج. لكن تقوية الرأي ليست كاملة ولا منطقية؛ ولهذا نتكلم عن "الهيكل."[1] يتم التبلور في نقاط بعينها. لا تنتج البروباجاندا أفكارًا عامة غير مميزة وإنما آراء محددة للغاية. لا يمكن تطبيق هذه الآراء في أي مكان بشكل مطلق. تعتمد درجة فعالية البروباجاندا تحديدًا على اختيارها لنقاط البلورة. إذا استطاع المرء تقوية رأي بشأن نقطة مفتاحية معينة، إذًا فسيتمكن من السيطرة الكاملة على قطاع كامل من الرأي كنتيجة.

---

(1) يبدوا هذا أكثر معقولية إذا اعتبرنا أن عملية البروباجاندا تتألف أساسًا من خلق مجموعات مصغرة، نوى عالية التنظيم تتمتع بقناعات عظيمة القوة. مقدر لهذه المجموعات أن تبلور الرأي وتساعده على التشكل، وبالتالي، تلعب دورًا في الهيكل. كانت هذه نظرية (لينين).

بعد قليل، تصلب الرأي يجعله محصنًا ضد المنطق والدليل والحقيقة المضادة. تبنى (مكدول) هذه الفكرة: البروباجاندا التي تستغل الرأي، تؤثر على الآراء دون تقديم دليل؛ الرأي الكامن المعرض لمثل هذه البروباجاندا (إذا أُحسن صنيعها) سيستوعب كل شيء ويصدق كل شيء، دون تفريق. وهذا سيدفع الرأي إلى الانتقال إلى مرحلة التبلور، ومن هذه اللحظة فصاعدًا، لن يتقبل الرأي أي شيء مختلف. لقد برهنتُ بالفعل أنه حتى الحقيقة المثبتة ليس لها أية فعالية أمام الرأي المتبلور.

تنظيم رأي من هذا النوع يميل دائمًا إلى توحد من نوع ما. سيشرع الرأي في محو تناقضاته وسيؤسس نفسه كوظيفة الشعارات المتماثلة التي سيكون لها حتمًا أثر موحد. بالإضافة لذلك، في ذات اللحظة، تتغير كذلك الآراء الشخصية لأن تصلب الرأي العام يدمر أصالتها، وتختفي التفاصيل والفروق الدقيقة. وكلما نشطت البروباجاندا، زادت أحادية الرأي وقلت شخصنته.

مثال جيد على هذه العملية هو عملية تشكيل الوعي الطبقي عن طريق البروباجاندا الماركسية. وبعد خلق الوعي الطبقي من خلال نشر المعلومات (التي تحدثت عنها آنفًا) يأتي تحول الوعي الطبقي - على يد البروباجاندا - إلى نظام، معيار حُكمي، معتقد، وصورة نمطية. ويتم اقتياد البروباجاندا إلى القضاء على كل الأفكار المنحرفة، وفي النهاية تجعل رأي العمال مبهم لكل هؤلاء الذين لم يمتثلوا للنمط الأولي. يعتبر الوعي الطبقي في الوقت الراهن مُنْتَج نموذجي للبروباجاندا. يقودنا الطابع الموحد إلى تأثير ثاني للبروباجاندا على الرأي العام: عن طريق عملية التبسيط، تجعل البروباجاندا الرأي العام يتشكل بسرعة أعلى. وبدون التبسيط، ليس ممكنًا للرأي العام أن ينشأ على أي حال؛ وكلما تعقدت المشكلات والأحكام والمعايير، اتسع انتشار الرأي. تمنع الفروق الدقيقة والتغيرات الصغيرة الرأي العام من التشكل؛ وكلما تَعقّد، طالت مدة تشكله حتى يصل إلى شكل ثابت. ومع ذلك، في حالة انتشار مثل هذه، تتدخل البروباجاندا بقوة التبسيط.

تُختزل المواقف إلى اثنين: إيجابي وسلبي. عندما تتضح الرؤية، ستضع البروباجاندا ببساطة أي شخص يحمل آراء متباينة في مجموعة أو أخرى. على سبيل المثال، الشخص الذي لا يميل ميلاً تامًّا نحو الشيوعية تلقيه البروباجاندا داخل الزمرة الفاشية حتى إذا حاول أن يفكر فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية، وحتى إذا رفض الرأسمالية. دون أن يكون حليف للبرجوازية الإمبريالية، يصير كذلك في عيون الجميع.

تصبح المشكلات بسيطة. كتب (جوبلز): "عن طريق تبسيط أفكار الجماهير واختزالها إلى أنماط بدائية، استطاعت البروباجاندا أن تقدم العملية المعقدة للحياة السياسية والاقتصادية بأبسط الألفاظ الممكنة... لقد أخذنا أمور متاحة للخبراء وعدد صغير من الاختصاصيين فقط في الماضي، وحَمَلناها للشارع وددناها مرارًا وتكرارًا في مخ الرجل البسيط."[1]

حلول المشكلات واضحة وضوح الشمس، أبيض وأسود. تحت مثل هذه الظروف، يتكون الرأي العام تكونًا سريعًا، ويتفكك فجأةً، ويعبر عن نفسه بقوة. ثم يحمل الرأي العام (في مجراه الذي لا يُقاوم) آراء عادية ومتباينة، والتي ظهرت بعد فوات الأوان؛ فلا يمكن شمولها في عملية بلورة الرأي.

لقد رأينا بالفعل - من وجهة النظر النفسانية - الطريقة التي تعزز - أو حتى تخلق - بها البروباجاندا الصور النمطية والتحيزات. ومع هذا، ليس الانحياز - ولا يمكن أن يكون - جزءًا من علم النفس الفردي وحده. فالفرد بصلته مع الآخرين له تحيزات، وتبلورها يقود إلى تحول بنية الرأي العام. وطبعًا، تظهر التحيزات ظهورًا تلقائيًّا؛ لكن البروباجاندا تستخدمها لتكوين الرأي العام، والذي بدوره يصبح مبسطًا وجامدًا وصبيانيًّا وغير حقيقي. يفقد الرأي العام الذي تشكله البروباجاندا كل أصالته.

---

(1) Wesen und Gestalt des Nationalsozialismus (Berlin: Junker und Dünnhaupt; 1935).

آخر أثر للبروباجاندا نريد أن نقتفيه في هذا الصدد هو الفصل بين الفرد والرأي العام والذي أثبته (ستوتزل) بتروي: "الفرق بين الآراء النمطية والمواقف العميقة يعود بنا إلى الفرق بين الرأي العام والخاص. تندرج الصور النمطية تحت الرأي العام. ومن ناحية أخرى، تتواجد المواقف العميقة حيث يعيش الناس بموجب قوانين الآراء الشخصية."

بين هذين، هناك اختلاف طبيعي، ويمكن لهذين النوعين من الرأي أن يتعايشا دون تأثير مشترك أو تقاطع. "وبالتالي، نحن نفكر بطريقتين: كأعضاء لجسم اجتماعي، وكأفراد. في الحالة الأولى، يمكن القول إننا نترك أنفسنا إلى فكرة لا تخصنا، وليس هناك سبب يجعل آراء متنوعة من هذا النوع منطقية أو موحدة في نظام (هذا عمل البروباجاندا) ... لكن عندنا كذلك آراؤنا الشخصية..."

أثر البروباجاندا هو فصل نوعي الرأي أكثر فأكثر. من العادي أن يستمر بعض التفاعل بين القطاعين. لكن عندما نتجاوز هذا، تتذبذب العلاقات - عندما تسيطر البروباجاندا على الرأي العام. في تلك اللحظة، عندما يكتسب الرأي العام كثافة وصلابة يستحيل معها التعبير عن الرأي الفردي، وأكثر من ذلك، يغلق الطريق أمامه من كل جانب.

تقل قيمة الرأي الشخصي على نحو واضح عندما تنظم البروباجاندا الرأي العام. كلما نحرز تقدمًا، تنحصر الفرصة أمام الرأي الشخصي في أن يعبر عن نفسه عبر الإعلام؛ قلل تطور الإذاعة والصحافة من عدد الناس الذين يستطيعون التعبير عن آرائهم وأفكارهم في العلن إلى حد كبير. لا تخدم هذه الوسائط الإعلامية سوى الرأي "العام" الذي لم يعد يتغذى على الرأي الشخصي على الإطلاق، وبالتالي فهي أبعد ما يكون عن السماح للرأي الشخصي بالتعبير عن ذاته. ليس للرأي الفردي قيمة أو أهمية في البيئة أو حتى داخل الفرد نفسه حيث إن الرأي العام يشغل سلطة أكبر ويمارس قوة أعظم.

وكنتيجة لذلك، لم يعد الرأي الشخصي يستوعب الملامح المختلفة للرأي العام لكي يعيد التفكير فيها ويدمجها. مع البروباجاندا، يستحيل أن يدمج الفرد الرأي العام في رأيه الفردي؛ فلا يمكنه أي يفعل أي شيء سوى اتباع التيار تبعية فاترة - التيار الذي يندفع داخله. وكلما اتسعت رقعة الرأي العام وعَبّر عن نفسه في منعطف "عادي،" تشرذمت الآراء الشخصية. على المستوى الجمعي، تعبر عن نفسها بطريقة بالغة التشتت بحيث ينكشف عدم اليقين في جوهرها. وبهذه الطريقة، تنفصل العملية النفسانية للإنسان إلى عنصرين ليس بينهما صلة.

من الرأي إلى الفعل

قد قلتُ في عدة مناسبات إن البروباجاندا تهدف إلى تعديل الآراء الشخصية بدرجة أقل من دفع الناس إلى الفعل. من الجلي أن هذا هو نتيجتها الأكثر إذهالًا: عندما تتدخل البروباجاندا في الرأي العام، تحول الرأي العام إلى حشد فاعل أو، بالأحرى، إلى حشد مشارك. *كثيرًا ما* تترجم البروباجاندا نفسها فقط إلى "فعل لفظي" (هذا سوف نبحثه لاحقًا) لكن ما يهم هو أن الحشد يمر من مجرد حالة مشاهدين يغمرهم الرأي إلى حالة المشاركين.

حتى إذا "انجذب" المشاهد إلى الفيلم، يظل سلبيًّا؛ لديه رأي شخصي عن الصورة التي يراها. وقريبًا، سيشارك برأيه عن هذه الصورة في الرأي العام لكنه يظل في الخارج. مشاهد مصارعة الثيران في موقف مختلف نوعًا ما؛ فمشاركته في طقس القتل يعتبر سلبيًّا في بعض الأحيان، لكن نشيطًا في أحايين أخرى - عندما يقتحم الحلبة. تذهب البروباجاندا إلى أبعد من ذلك وتطالب بقبول يختلف عن قبول المشاهد؛ فتطالب بدعمه على أقل تقدير، ومشاركته على أقصى تقدير.[1]

---

(1) بخصوص موضوع الالتزام السلبي، مثال أخير ولافت للنظر مذكور في كراسة تنظيم الجيش السري .O.A.S (10 فبراير/ شباط 1962م) والذي قال إننا لا نطلب من الضباط الانضمام إلى صفوفنا، بل نطلب منهم ببساطة ألا يُظهروا أي حماسة عندما يطبقون تعليمات الحكومة."

يتضح أن البروباجاندا تلعب دورها عندما لا يؤدي التطور العادي الطبيعي للرأي إلى مثل هذا الفعل، بل يترجم نفسه إلى مواقف خاصة غير جماعية وليس أكثر. يندر جدًّا أن نرى رأيًا يقود ذاته للفعل من تلقاء نفسه. إنجاز البروباجاندا العظيم هو التسبب في التقدم من الفكر إلى الفعل بشكل مصطنع.

كثيرًا ما قيل إن البروباجاندا لا تخلق مواقفًا، بل تستخدمه فحسب. لا بد أن أتفق مع ذلك إذا أخذنا اللفظ بمعناه في علم النفس الاجتماعي، لكن الحقيقة أنه ليس بهذه البساطة. من الواضح أن البروباجاندا نفسها لا تُعدِّل المواقف. ومع هذا، عندما تؤدي البروباجاندا إلى الفعل، تُعدِّل أولًا الاستجابة وإلا ستكون - الاستجابة - نتيجة مباشرة للموقف الأساسي: الفرد الذي يُعبِّر عن موقفه لن يفعل شيئًا، لكن، تحت تأثير البروباجاندا، سيفعل بالتأكيد. في هذه اللحظة، لا يمكننا إغفال انحراف مواقفه، وهذا - كما يُقال كثيرًا - ما سيغير نمطه السلوكي. فضلًا عن هذا، عندما يشارك الفرد في الفعل الذي حركته البروباجاندا، لا يمكنه الهروب من الضربات المضادة - توجه مختلف من ذاك "التحضير للفعل" والذي سيصبح موقفًا لأن الفعل الذي يشارك فيه الفرد والسياق الاجتماعي هما اللذان سيحددان هذا الموقف. مما لا شك فيه أن الفعل التلقائي والمستمر (الذي تُلقي البروباجاندا الفرد فيه) يخلق مواقف تحدد أفعال لاحقة.

كيف لهذا التقدم من الرأي للفعل عبر قناة البروباجاندا أن يحدث؟ (دوب) واحد من قلة حاولوا أن يصفوه. "تؤثر المواقف على السلوك الخارجي إذا كانت قوتها عظيمة جدًّا إلى درجة أنه لا يمكن تقليصها إلا بالفعل. هذه القوة - التي يمكن أن تكون قوية أو ضعيفة في البداية - تتراكم عندما يشعر الفرد بضرورة الفعل، وعندما يُقدَّم له الفعل الذي قد يشارك فيه، وعندما يظن أن مثل هذا الفعل سيكون مفيدًا وسيُجازى عليه. باختصار، انجاز الاستجابة المُعدّة ليست سوى آخر مرحلة في سلسلة من المراحل التمهيدية والتي لا تضمن حدوث الفعل النهائي رغم ضرورتها لحدوثه."

نرى في هذا المنظور أن الفعل هو نتيجة عدد معين من المؤثرات المنسقة التي خلقتها البروباجاندا.[1] تستطيع البروباجاندا أن تجعل الفرد يشعر بضرورة وإلحاح فعل ما - هذا هو طابعها الفريد. وفي الوقت ذاته، تُبيّن له البروباجاندا ما يجب عليه فعله. الفرد الذي تحرقه الرغبة في القيام بالفعل لكنه لا يعرف ما يفعل هو نوع شائع في مجتمعنا. فهو يريد أن يتصرف من أجل العدالة والسلام والتقدم لكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك. إذا استطاعت البروباجاندا أن تُبيّن له "كيف،" فقد فازت باللعبة؛ ومن المؤكد أن يأتي الفعل بعد ذلك.

وكذلك على الفرد أن يقتنع بنجاح فعله أو الإشباع أو المكافأة المحتملة التي سيتلقاها منه. سيتصرف الإنسان عندما يشعر أن هناك نتيجة معينة يحتاج أن يحققها، وأن هذه الحاجة ضرورية. الإعلان يُظهر ذلك للفرد في المجال التجاري، والبروباجاندا تثبتها له في السياسة. وأخيرًا، النموذج والفعل المشابه من حوله في كل مكان سيساعده في ذلك التقدم نحو الفعل. لكن فعل مشابه من هذا النوع لن يتأتى لانتباهه إلا من خلال وسيط البروباجاندا.

مما لا شك فيه أن هذا هو النمط الصحيح في عدة مظاهر. لكن عنصر واحد تم إغفاله هنا يعتبر جوهري في رأيي:[2] عنصر الجمهور أو الحشد أو الجماعة. لن يتصرف الإنسان المعرض للبروباجاندا إذا كان وحده. حلل (دوب) الإنسان وحده رغم أن الآليات التي يكشفها لا تعمل إلا مع الإنسان الجماعي. لن يشعر الفرد بإلحاح فعل ما إلا إذا كان هذا الفعل مؤثرًا لأن هناك الكثير من الناس يقومون بنفس الفعل؛ فلا يمكنه أن يقوم بفعل ما إلا إذا كان مع الآخرين. هذا

---

(1) لا بد من تقديم مهمة محددة وواضحة بسيطة للفرد ليقوم بها في لحظة معينة. من اللحظة التي تنجح فيها البروباجاندا في شخصنة جاذبيتها، يوضع الفرد الذي يشعر أنه مَعْنِي - في موقف يقتضي قرارًا. حقق (ماو) هذا تحقيقًا تامًّا بواسطة البروباجاندا الأفقية.

(2) يمكن لهذا النمط أن يكتمل في عدة نقاط: مثلًا، مكانة الشخص (الذي يفصح عن المعلومات) تدفع المستمع نحو الفعل.

يعني أنّه إذا أرادت البروباجاندا أن تؤدي إلى فعل ما، يجب أيضًا أن يكون لها تأثير جماعي. وهذا التأثير يتألف من عاملين:

1. تدمج البروباجاندا الجماعة دمجًا قويًا، وفي نفس الوقت، تُفعّل ما يُشغِل هذه الجماعة. تحث وسائل الإعلام الأفراد على المشاركة القوية في حياة الجماعة وفي الأنشطة الجماعية؛ كما تقدم شعورًا قويًّا بالجماعية. في مجتمعنا، لا يتواصل الفرد مع الجماعة إلا من خلال وسائل الإعلام. وهذه الوسائط الإعلامية هي الوحيدة التي تُنتِج الاتصال النفساني - الذي لا غنى عنه - بين أفراد الجماعة لأن الأفراد يميلون إلى التباعد عن بعضهم البعض أكثر وأكثر في المجتمعات الجماهيرية. ولا تتسم العلاقات بين هؤلاء الأفراد إلا بالاصطناع إذ إنها مُنتَج وسائل الإعلام . أما العلاقات الطبيعية العفوية فتُغير الشخصية عندما تتسم بالتنظيم والمنهجية والتعمد؛ وعندئذ عادةً ما تخلق العلاقات الشخصية الإجماع بين الأفراد بالمعنى الحرفي للكلمة، ودائمًا ما يوظف هذا الإجماع قوة التوسع.

عندما يتوافر قدر من الإجماع في الجماعة، لا مفر من أن تواجه الحاجة إلى الشروع في فعل ما. في تلك اللحظة، الاتصال النفساني والتواصل لا يخلق مشاعر الجماعية فحسب، بل يخلق حقيقة الجماعية أيضًا. وإذا تناولت هذه "الحقيقة" وقائع أبدية فلن تدفع الجماعة نحو الفعل .

ولكن - في الوقت ذاته - بينما تقوم وسائل الإعلام بدمج الجماعة، تضعها في اتصال مع الحاضر. ففي الأساس، محتوى الصحافة والإذاعة ليس سوى أخبار الحاضر. لكن الأمر يتجاوز هذا عندما تُستخدم وسائل الإعلام عمدًا بغرض البروباجاندا. كان (ستوتزيل) موفقًا في قوله إن "صور البروباجاندا النمطية تبدو على الفور كأنها تتمتع بثقل الواقعية."

الواقع الذي أصبح قويًّا وخصيبًا هو واقع الحاضر. فالجماعة التي تتصف بالإجماع النفساني وتجد نفسها في مواجهة مباشرة مع هذا النوع من الواقع المنظم

- تشعر بقلق بالغ. ما هذا الواقع؟ هو بالضبط العالم الذي تعيش فيه الجماعة نفسها، ومصيرها في شك، وفيه تسنح الفرصة للجماعة أن تنشط.

عندما تدمج البروباجاندا جماعة ما في واقع ما، بالضرورة تؤدي بها إلى أن تتصرف في ذلك الواقع. لا تستطيع الجماعة أن تبقى سلبية وراضية بأن يكون لها رأي عن ذلك الواقع فحسب. لكي نفهم هذه الآلية، يجب أن نتذكر أنّ هذه الجماعة ليس لها أي إطار مرجعي مختلف يُمَكِّنها من اتخاذ موقف مختلف. بعبارة أخرى، ليس للجماعة إلا وجهة نظر واحدة تجاه هذا الواقع. ومن ثم، لا تستطيع الجماعة أن تعتبر وجهة نظرها حقيقة مطلقة لأن نفس البروباجاندا التي توحد الجماعة في الواقع، في المقام الأول، هي التي تقدم إطارها المرجعي.

الجماعة غير قادرة على تقييم موقفها؛ فهي لا تقدر إلا على التصرف. في تلك اللحظة، المشاركة في أي جماعة تعني الاستسلام للواقع، وتعني أن الإنسان سيصبح بلا ماضي وبلا مستقبل، ولن يهتم إلا بالتصرف، ولن يتبنى معتقدًا إلا الذي نشرته البروباجاندا بشأن الحاضر.

2. الجانب الآخر للتقدم نحو الفعل هو القوة العظيمة التي تُنْعِم بها البروباجاندا على الرأي. هذا الرأي لم يعد اعتقادًا لا يتسم بالموثوقية أحيانًا وينتشر ببطء من كلام الناس، ومن الصعب على استطلاعات الرأي أن تكشفه.

ينعكس هذا الرأي خارج نفسه، ويلتقي بنفسه ويسمع نفسه بقوة وعظمة وروعة على الشاشة وموجات الهواء. يتعلم هذا الرأي الثقة بنفسه، متيقنًا الآن أنه "حقيقة" لأنّه قد رأى نفسه يظهر ويتنشر في كل مكان عبر إعلام قوي. تكشف البروباجاندا رأيًا عامًّا مثل هذا في ظل حاجة للتعبير عن الذات.

وعلى ذلك، يمكن القول دون مبالغة إن البروباجاندا تأخذ مكان قائد الجماعة. هذا ليس الزعم التافه أنّ البروباجاندا آلة القائد في الجماعة أو أنّ البروباجاندا تساهم في تشكيل القائد. هذا يعني أنّه في جماعة معرّضة للبروباجاندا لكن بلا قائد، الآثار الاجتماعية والنفسانية هي نفس الآثار التي نراها كما لو كان

هناك قائد. إذًا، البروباجاندا بديل للقائد. إذا تذكرنا الأدوار العديدة التي يقوم بها قائد الجماعة، يمكننا أن نلخصها كما فعل (كيمبل يونج):[1] قائد الجماعة هو أوّل من يحدد مسار الفعل. وفي نفس الوقت، هو الذي يعبر عن أحاسيس الجمهور ويبلورها.

في النهاية، الجماعة التي تعرضت للبروباجاندا لن تحتاج إلى قائد لكنها ستتصرف كأنّ لها قائد. هذا الإحلال يساعد على تفسير تقلص دور القادة المحليين والشخصية المجردة للقائد الوطني.

حتى في القيادة أو "مبدأ الزعيم" في الرايخ الثالث، ليس الرئيس أكثر من انعكاس: فهو ليس القائد الحقيقي للجماعة. المسؤول المحلي - مثل مسؤول في الحزب الشيوعي في الصين الشعبية - ليس إلا نائب وإداري. هؤلاء ليسوا رؤساء للجماعة. القائد الحقيقي الوحيد هو الذي ينشأ من خلال الجماعة ولا ينتمي إليها - وهذا غريب جدًّا من الناحية الاجتماعية - لكنه يستعيض بالبروباجاندا. من أين تأتي إمكانية حضور الرئيس وهو غائب؟ يكفي وجود مجرد دمية اندمجت في دوائر أنواع مختلفة من البروباجاندا. صور (هتلر) و(ستالين) و(ماو) و(روسيفيلت) لعبت دورًا مجردًا لكن وافٍ لأن الآثار المتوقعة من وجود القائد يمكن تحقيقها عوضًا من خلال البروباجاندا. القائد هو الذي يقود جماعته نحو الفعل. وهذا هو العامل الثاني للتقدم من الرأي إلى الفعل المباشر.

(1) Social Psychology (New York: F. S. Crofts; 1947)

3 . البروباجاندا وتشكيل الجماعات

قد اخترت هذا العنوان الغامض جدًّا لأنني لا أستطيع أن آخذ على عاتقي دراسة كاملة لتأثيرات البروباجاندا على الجماعات والمجتمعات كافة. لكي أقوم بذلك سأحتاج إلى علم اجتماع نظري وتجريبي مكتمل. وفوق ذلك، بالنسبة إلى تأثير البروباجاندا، يجب التمييز بين الجماعات التي تصنعها والجماعات المتعرضة لها. كثيرًا ما يرتبط هذان العاملان ارتباطًا وثيقًا. هذه الدراسة ستحلل ثلاثة أمثلة: الأحزاب السياسية، والنقابات العمالية، والكنائس.

تقسيم الجماعات

على كل أنواع البروباجاندا أن تميّز جماعاتها عن كل الجماعات الأخرى. وهنا نجد مرة أخرى طبيعة مخادعة للإعلام (الصحافة والإذاعة) الذي يقسم الناس أكثر وأكثر بدلًا توحيدهم وتقريبهم من بعضهم البعض.

عندما تحدثتُ عن الرأي العام، أكدتُ أنّ الكل عرضةً لبروباجاندا الجماعة التي ينتمي إليها. فيستمع إليها ويُقنع نفسه بها ويرضى بها. ولكن، هؤلاء الذين ينتمون لبيئة اجتماعية أخرى يتجاهلونها. حسب استطلاع أجراه المعهد الفرنسي للرأي العام (رقم 1 لسنة 1954م)، الكل راض بالبروباجاندا التي يتعرضون لها.

وبالمثل، نَوّه (لازرسفيلد)[1] في دراسته عن البرامج الإذاعية عن حالة البرامج التي صُممت لتُعرّف الجمهور الأمريكي بقيمة كل أقلية من الأقليات العِرقية في الشعب الأمريكي. كان الهدف إبراز مساهمات كل مجموعة لتعزيز التسامح والتفاهم المشترك. كشفت الدراسة أن كل برنامج استمعت له مجموعة

---

(1) "The Effects of Radio on Public Opinion," *in Print, Radio and Film in a Democracy* (Chicago: University of Chicago Press; 1942)

عرقية معينة (مثلًا، تَابَع الجمهور الأيرلندي برنامج عن الأيرلنديين)، ونادرًا ما استمع إليه أي شخص من عرقية أخرى. وكذلك قرأ المصوتون الشيوعيون الصحافة الشيوعية كما اقرأ البروتستانت الصحافة البروتستانتية.

ماذا حدث؟ هؤلاء الذين يقرؤون صحافة جماعتهم ويستمعون لإذاعتها يتعزز ولائهم باستمرار. فيدركون أكثر وأكثر أنّ جماعتهم على حق، وأفعالها مبررة؛ ومن ثم تقوى معتقداتهم .

في نفس الوقت، تحتوي هذه البروباجاندا على ملامح النقد والدحض تجاه جماعات أخرى، ولكن لن يقرأ ولا يسمع أحد من جماعة أخرى هذا النقد أو الدحض. لم يؤثر تنديد الشيوعيين بسياسات (بيدو) على حزبه حتى وإن استند هذا التنديد إلى حجج قوية لأنّ مؤيدي "بيدو" لم يقرأوا صحيفة (*L'Humanité*).

في الصحيفة البورجوازية (*Le Figaro*)، هناك نقد في محله وحقائق دقيقة عن الاستبداد في الاتحاد السوفيتي، لكن لن يصل أي منها أبدًا إلى الشيوعيين. مع ذلك، نقد هذا الجار - النقد الذي لن يسمعه الجار - معروف داخل الجماعة التي أصدرته وعبرت عنه. مَن يناهض الشيوعية ستزداد قناعته باستمرار بأن الشيوعيين أشرار والعكس صحيح. وكنتيجة لذلك، يتجاهل الناس بعضهم البعض أكثر وأكثر، ويكفون كليًّا عن قبول تبادل وجهات النظر والحجج والأسباب.

هذا الهجوم المزدوج مِن قِبَل البروباجاندا يثبت تميز الجماعة بين أفرادها وشر الجماعات الأخرى. وهذا يؤدي إلى انقسام مجتمعنا انقسامًا شديدًا على نحو متزايد. يحدث هذا الانقسام على مستويات مختلفة: انقسام النقابات العمالية، وانقسام الأحزاب السياسية أو الطبقات، وانقسام ديني. وأبعد من ذلك، هناك انقسام الأوطان، وفي القمة، انقسام الكتل الدولية.

ومع ذلك، تنوع المستويات والأهداف لا يغير بأي شكل من الأشكال

القانون الأساسي القائل بإن الانقسام يَزيد كلما تزداد البروباجاندا. فالبروباجاندا تقمع المناقشة، والرجل ذو الرأي الآخر لم يعد محاورًا لكن عدو. وإذ إنه يرفض ذلك الدور، يصبح الآخر مغمورًا وكلامه لم يعد مفهوم.

وبذلك، نرى أمامنا الطريقة التي يؤسس بها عالم العقول المغلقة نفسه، وفي هذا العالم يتكلم الفرد مع نفسه، ودائمًا يراجع ثقته بنفسه والأخطاء التي ارتكبها الآخرون تجاهه - لا يستمع أحد لأحد في عالم مثل هذا؛ الكل يتكلم، ولكن لا حد يسمع. وكلما يتكلم الفرد، يعزل نفسه أكثر لأنه يتهم الآخرين ويبرر نفسه أكثر وأكثر. وبالمناسبة، علينا ألا نظن أنّ مثل هذا الانقسام يتعارض مع تشكيل الرأي العام. رغم أنّ البروباجاندا تقسّم المجتمع، فإنها تؤثر على الرأي وتتجاوز الجماعات التي تنشط فيها.

بدايةً، تحافظ البروباجاندا على فعاليتها تجاه الجمهور المتردد الذي لم ينتمِ لجماعة بعد. وبالتالي، يمكن كذلك التأثير على هؤلاء الذين ينتمون لجماعة من نوع مختلف: مثلًا، البروباجاندا الشيوعية التي لن تؤثر على الاشتراكيين المتشددين قد تؤثر على البروتستانت، والبروباجاندا الأمريكية التي لن تؤثر على المواطن الفرنسي في خصاله كفرنسي قد تؤثر على موقفه تجاه الرأسمالية والنظام الليبرالي.

لهذا أهمية خاصة لأن هناك فرق بين مستويات الجماعات. مثلًا، تفضي البروباجاندا القومية إلى تشييد حاجز ضد الأمم الأخرى؛ لكن - داخليًا - تحترم عزلة الجماعات الدنيا، مع أنها لا تزال تؤثر عليها عن طريق دفعها للانضمام إلى حركة جماعية مشتركة. هذه هي العملية التي تتشابه مع ما حدث في القرون الوسطى عندما توسعت الأيديولوجية المسيحية في المجتمع لكنها لم تؤثر بأي طريقة على الأرستقراطية أو الطبقات الدينية.

البروباجاندا القومية فعالة للغاية داخل الأمة وتغير الرأي العام في حين أن البروباجاندا الحزبية أو الدينية فعالة في ميدان آخر - لكل نوع قدرة على التأثير على الرأي العام على مستوى معين وعلى صنع انقسام اجتماعي على مستوى آخر.

لكن الجماعة العليا هي الوحيدة القادرة على التأثير على الجماعات الأخرى. لذلك - بالنسبة إلى كتلتي القوة في العالم حاليًا - الشرق والغرب - حيث لا يعلو أي جانب على الآخر، يقتصر تأثير البروباجاندا على فصلها بشكل متزايد.

تعمل البروباجاندا (جيدة التنظيم) مع كل هذه العوامل المختلفة. وهذا يفسر ازدواجية بعض أنواع البروباجاندا. على سبيل المثال، من ناحية، في الجرائد ذات الانتشار الواسع أو في الإذاعة في الاتحاد السوفيتي، لا تلاحظ إلا مديح وإطراء للنظام أو نقد غامض له صُمّم لإرضاء الجمهور لكن بدون أساس في الواقع.

من ناحية أخرى، نجد نقدًا عنيفًا جدًّا ومحددًا وعميقًا في بعض الدوريات المتخصصة –في المجلات الطبية أو مجلات التخطيط العمراني مثلًا. إذا أردتَ فعلًا أن تعرف وتفهم نقائص النظام السوفيتي، يمكنك أن تجد مَنْجَمًا من المعلومات الدقيقة والمحايدة في هذه المجلات.

كيف يمكن التسامح مع هذه الازدواجية؟ لا يمكن تفسير ذلك إلا عن طريق الانقسام. يجب أن نتكلم مع عامة الناس عن عظمة النظام وتميز الاتحاد السوفيتي. ضروري أن نجعل العامة يفهمون هذا - حتى في ظل تجاربهم الشخصية المناقضة - لكي نفصلهم عن هذه التجارب أو نقنعهم أن تجاربهم الشخصية ليست مهمة وليست ذات صلة بالواقع السوفيتي ككل. التجربة الشخصية المخيبة للأمل هي مجرد صدفة لا معنى لها. هذا النوع من البروباجاندا (الذي يستهدف الجماهير) لا بد أن يكون إيجابي.

وفي المقابل، البروباجاندا لاذعة النقد، التي تُخاطب الفنيين في الدوريات المتخصصة، ترمي إلى إبراز يقظة الحزب ومعرفته بالتفاصيل وسيطرته المركزية ومطالبته بالكمال الشيوعي. تستهدف جمهور الفنيين المنقسمين إلى مجموعات من الاختصاصيين. تدعي هذه البروباجاندا تفوق النظام، وأن كل الخدمات تسير على ما يُرام باستثناء... الخدمة التي نحن بصددها - الخدمات الطبية بالنسبة إلى الأطباء، إلخ .

كيف أصبحت هذه الازدواجية ممكنة؟ بسبب انقسام المجتمع - وهو نتيجة عمل البروباجاندا إلى حد بعيد. نعرف أن الطبيب لن يقرأ مجلة عن التخطيط العمراني، ونعرف أن الجمهور بشكل عام لن يقرأ أية مجلة متخصصة، ونعرف أن الأوكرانيين لن يقرأوا جرائد من جورجيا، ولهذا من الممكن - حسب الحاجة - إطلاق ادعاءات متناقضة في أية أو كل منها.

من الواضح أن هذا الإجراء يُزيد من الانفصال لأن الجميع يتوقفون عن استخدام لغة الآخر، ولن يبقى أية وسيلة للتواصل. تُقدَّم حقائق مختلفة لمجموعات مختلفة من الناس، وتتباين أساسات الآراء، وكذلك تسير التوجهات عكس بعضها البعض، ولم يعد هناك نقطة التقاء بين أسوار نفس النوع من البروباجاندا لأن هذه البروباجاندا تخلق (ليس تلقائيًّا كما هو الحال مع الحالة التي حللناها سلفًا) حدودًا فارقة على نحو علمي، وتؤسس انفصالات نفسانية بين المجموعات، وتقوم بكل ذلك تحت عباءة جماعية عامة من اللاواقع والخيال اللفظي.

التأثيرات على الأحزاب السياسية

عندما يتوقف حزب سياسي عن التصرف بعشوائية نوعًا ما، هل يبدأ في عمل بروباجاندا منهجية ويبدأ في حشد الرأي العام على نحو أكثر ديمومة بدلًا من المحاولة لنيل الأصوات في وقت الانتخابات؟ في الواقع، في البلاد الديمقراطية، لم يحاول أي حزب عمليًا فعل ذلك. لكننا نرى بزوغ أحزاب تتحد مع أحزاب قديمة أو تحل محلها. ولهذه الأحزاب الجديدة أهداف لم تسعَ وراءها الأحزاب التي أسلفتها. يحدث تحول في الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد استمرت في صنع البروباجاندا منهجية لسنوات لكن الوقت ما زال مبكرًا لتحديد ماهية التحول الذي تشهده الأحزاب نفسها. وعليه، فسنناقش هذه الأحزاب التي تصنع البروباجاندا فيما يميزها عن الأحزاب التي لا تقوم بالشيء ذاته، وسنعتبر بنيتها المنبثقة في جزء منها من حاجتها إلى صنع البروباجاندا.

أولًا، ينبغي للحزب الذي يصنع البروباجاندا أن يتمتع بالوسائل للتعبير عنها بقوة. من الضروري أن يقدم الحزب نفسه على أنه مجتمع فيه وظيفة ثابتة لكل فرد، وأن أعضائه في الأساس منظمون جدًّا ومطيعون طاعة صارمة. إذا كانت هناك رغبة في اتصال بالرأي العام باستمرار، فيجب الاستعانة بقطاعات وأقسام؛ نظام اللجان التي تعبر عن نفسها تعبيرًا ضعيفًا ولا تقود إلا لفعل متقطع وغير مكتمل.

بالإضافة لذلك، تتطلب البروباجاندا تنسيقًا عموديًّا بين منظمات الحزب. يسمح هذا التنسيق العمودي بكل من تجانس البروباجاندا وسرعة التطبيق؛ وقد رأينا أن سرعة الفعل أو ردة الفعل ضرورية للبروباجاندا. وبالعكس، إذا أخذنا في الاعتبار أثر البروباجاندا في خلق مجموعات محلية واجتماعية معزولة، فأي تنسيق أفقي داخل الحزب سيكون كارثيًّا. وهؤلاء في قاعدة الحزب لن يفهموا السبب وراء صنع هذا النوع من البروباجاندا في هذا المكان وصنع نوع آخر في مكان آخر. وعلى النقيض، يجب أن يعكس التقسيم عن طريق البروباجاندا التقسيم داخل الحزب، ومن اللازم أن يكون نظام التنسيق العمودي هو نظام التنسيق الوحيد.

لا يزال نظام الفرق التنفيذية المتخصصة أكثر أهمية. ومن البداية، يُنْتِج هذا شقاق بين الفرق المتخصصة والمصوتين أو المناصرين، ويعكس بدقة الانفصال بين الفاعل والمفعول. تجعل البروباجاندا مِن ممثلها تابعًا يصنع قرارات ويستخدم هذه الأنظمة التي ينبغي أن تأتي بهذه النتائج. لكن الممثل ينظر إلى حشد المصوتين المحتملين أو المتعاطفين على أنهم أشياء. فيتلاعب بهم ويستغلهم ويختبرهم ويغيرهم تغييرًا نفسانيًّا أو سياسيًّا. لم يعد لديهم أي أهمية شخصية، ولاسيما عندما ندرك أن البروباجاندا الجيدة ينبغي أن تكون موضوعية ومجهولة. أما الحشود فتعتبر مجرد أداة لنيل هدف ما. يتم التعامل معهم على هذا النحو؛ هذا أحد ملامح الاحتقار العميق الذي يحمله هؤلاء الذين يصنعون البروباجاندا الحقيقية تجاه هؤلاء في الخارج، حتى (وكثيرًا ما يكون بالأخص) تجاه المتعاطفين معهم.

تُبْرِز البروباجاندا هذا الانفصال بين المتلاعبين والمتعاطفين، حتى عندما تميل إلى شخصنة القوة داخل الحزب. لا يمكن للبروباجاندا الجيدة تجاهل نزعة الحشود إلى الإعجاب بالقوة الشخصية: كل ما يمكنها فعله هو السير وراء هذه القوة واستغلالها - فإهمالها يعني إهدار عنصر سهل ونشط للبروباجاندا. وبالتالي، تُقوّي البروباجاندا هذه النزعة عن طريق خلق صورة قائد وصبغها بسمتي كلي الوجود وكلي المعرفة، وعن طريق دعم ما شعر به وتوقعه الوعي العام، ولا شيء غير ذلك. ويتم هذا الدعم من خلال دليل نشط. أي حزب يتجنب شخصنة القوة هذه يفقد على الأرجح ورقة حاسمة. رأينا هذا في الانتخابات الأمريكية عام 1952م مع (أيزنهاور).

في معظم الحالات، ترتبط هذه القوة المشخصنة ارتباطًا وثيقًا بتنظيم البروباجاندا ذاتها. وفيما يتعلق بأحزاب بعينها، تحدث (دوفرجر) عن "قوة ثانية،" قوة مبهمة تسيطر أحيانًا على اتجاه الحزب. تتكون هذه القوة الثانية أحيانًا من رجال ذوي نفوذ في صحيفة ذات توزيع يضمن قوة الحزب. نحتاج إلى تعميم هذه الحقيقة: في الأحزاب المعاصرة، من المحتمل أن تتألف القوة الثانية من فيلق من مروجي البروباجاندا. (ينطبق الأمر نفسه على الدولة ذاتها.) تميل أدوات البروباجاندا إلى شغل الموقف الغالب، ليس بدون نزاعات قوية بين الحين والآخر، لأنها في نفس الوقت مركز للحزب كله وسبب وجوده. هذه هي الآثار الأساسية لتبني البروباجاندا الحديثة على بنية الحزب السياسي.

فيما يتعلق بالأثر النسبي على التفاعل بين الأحزاب في النسيج الوطني، العنصر الحاسم هو التكلفة العالية للبروباجاندا - تصير البروباجاندا باهظة الثمن أكثر وأكثر نظرًا للمقدار المطلوب والأدوات المطلوبة. قد تتقيد كل الأحزاب بالبروباجاندا التقليدية ذات المستوى المنخفض (الملصقات والجرائد) وتلجأ للحكومة من أجل البروباجاندا عالية الثمن (الإذاعة والتلفاز). هذا هو الحال في فرنسا. تحت مثل هذه الظروف، هناك حالة من التوازن، لكنها حالة متزعزعة.

هذا الوضع في الحقيقة غير مستقر؛ إذا لجأ حزب واحد للبروباجاندا، سينهار الصرح بأكمله.

فرضيتنا الأولى: يتخذ حزب واحد عمل بروباجاندا كبير بينما لا تتمكن الأحزاب الأخرى من إعادة التجمع أو استخدام الجهاز الأساسي الكبير لأنها تفتقر إلى المال والأفراد والتنظيم. كنتيجة لذلك، نرى حزب مثل هذا يصعد كالصاروخ، كما حدث مع حزب (هتلر) في ألمانيا في 1932م، أو الأحزاب الشيوعية في فرنسا وإيطاليا في 1945م. هذا بوضوح تهديد للديمقراطية؛ فنحن في مواجهة مباشرة مع حزب ذي قوة عاتية في طريقه إلى السيطرة على الحكومة. ستستمر قوة هذا الحزب في النمو بينما يزداد ثرائها وتزداد قوة ورسوخ أسس البروباجاندا التي تتخذها. هذا بالفعل يُعرِّض النظام الديمقراطي للخطر، حتى إن لم يكن له أي طموحات سلطوية، لأن الأحزاب الأخرى غير قادرة على استخدام البروباجاندا الكبيرة وغير قادرة على معاودة السيطرة على المترددين نوعًا ما والذين يمثلون 75 بالمئة من الشعب.

يمكن بالطبع تغيير تطور من هذا النوع عن طريق مؤثرات خارجية: حدث هذا في فرنسا وإيطاليا عندما انتهى تطور الأحزاب الشيوعية بعد 1948م مع انحسار البروباجاندا التي كانت تتبعها، والتي لم تكن السبب وراء أخطائها السابقة بأي حال من الأحوال.

الفرضية الثانية: تجد أحزاب المعارضة ردًا على البروباجاندا الكبيرة، لكن هذا لم يكن ممكنًا إلا من خلال إعادة تجميع القوى، وهو ما يصعب تحقيقه لأن المشاجرات الداخلية أقوى من الحاجة إلى بروباجاندا مضادة مشتركة (كما حدث في فرنسا في الفترة بين 1949م و1953م) أو عن طريق مناشدة الحكومة التي تضع وسائل الاتصال والأموال تحت تصرف الحزب ليقاوم البروباجاندا الشمولية. هذا ما حدث في بلجيكا فيما يتعلق ببروباجاندا (ركس) المضادة.

الفرضية الثالثة: يبدأ الحزب (أو كتلة من الأحزاب)، والذي يقترب في قوته من قوة الحزب الطريد المحتمل، في شن بروباجاندا كبيرة قبل أن تنغلق أمامه كل الطرقات. كان هذا الوضع في الولايات المتحدة، وربما في فرنسا لو استقر إعادة تجميع "اليمين." في ذلك الوضع، سيختزل المرء الديمقراطية بالضرورة في حزبين لأسباب مالية، حيث إنه لا يمكن تصور أن عدد كبير من الأحزاب ستتمتع بوسائل كافية لصنع مثل هذه البروباجاندا. سيؤدي هذا إلى بنية ثنائية، ليس لأسباب لها علاقة بالعقيدة أو التقليد، وإنما لأسباب تتعلق بالبروباجاندا التقنية. يشير هذا ضمنيًّا إلى استبعاد الأحزاب الجديدة في المستقبل. فيتم تدريجيًا محو الأحزاب الثانوية، بل ويستحيل أيضًا تنظيم مجموعات سياسية مسموعة الصوت؛ وفي خضم القوة الجمعية للقوى النشطة، تزداد صعوبة تأسيس برنامج جديد.

من ناحية أخرى، من البداية، ستحتاج مجموعة من هذا النوع إلى مبلغ كبير من المال وعدد كبير من الأعضاء وقوة عظيمة. في ظل هذه الظروف، لن يولد الحزب الجديد إلا على شاكلة أثينا؛ الناشئة نشأة مكتملة النمو من جبهة زيوس. يحتاج الكائن السياسي إلى جمع المال مقدمًا ولفترة طويلة وإلى شراء أدوات البروباجاندا وتوحيد أعضائها قبل ظهوره كحزب قادر على مقاومة ضغوط هؤلاء الذين يملكون "الإعلام."

لا تكمن الصعوبة المتزايدة فقط في مجرد تنظيم حزب جديد وإنما أيضًا في التعبير عن فكرة أو عقيدة سياسية جديدة. لم تعد الأفكار موجودة إلا من خلال إعلام المعلومات. وعندما يقع الأخير في أيادي الأحزاب القائمة، لن يكون هناك أي فرصة أمام أي عقيدة جديدة أو ثورية في التعبير عن نفسها بحق، أي ليس أمامها فرصة في الوجود. ومع ذلك، كان الابتكار إحدى السمات الأساسية للديمقراطية، ولكن لم يعد أحد يريد هذه السمة الآن ولذلك بدأت تتوارى.

يمكننا أن نقول إن البروباجاندا حتمًا (تقريبًا) تؤدي إلى نظام الحزبين. فسيكون في منتهى الصعوبة على كثير من الأحزاب أن تكون ثرية لدرجة تكفي

لدعم حملات البروباجاندا الغالية من هذا النوع، لكن البروباجانـدا كـذلك تميـل إلى تنظيم الرأي العـام. عنـدما نجـد بروباجانـدا، نجـد عـددًا أقـل مـن الفـروق والتغيرات الدقيقة بين التفاصيل أو العقائد. عوضًا عن ذلك، فالآراء أكثر حـدة؛ فليس هناك إلا أبيض أو أسود، نعم أو لا. تـؤدي هـذه الحالـة مـن الـرأي العـام مباشرةً إلى نظام الحزبين وتلاشي نظام تعدد الأحزاب.

يمكن النظر أيضًا إلى آثار البروباجاندا بوضوح في ضوء ما سماه (دوفرجـر) الحزب مع تفويض الأغلبية والحزب بدون هذا التفويض. بديهي أن الحزب الذي يتمتع بتفويض الأغلبية هو الذي خلقتـه البروباجانـدا، فهـذا هـو الحـزب الـذي ينبغي أن يسيطر عـلى الأكثريـة المطلقـة في مجلـس الـشعب. ثـم تنـسحب أبـواق البروباجاندا من أيادي الأحزاب الأخرى التي لا يمكنها أن تفعل أي شيء إلا أن تصنع بروباجاندا انفعالية، أي بروباجاندا زائفة مصطنعة مئة بالمئة، مـع الأخـذ في الاعتبار ما قلناه عن العلاقة بين البروباجاندا والواقـع. (بعبـارة أخـرى، الحـزب خارج السلطة عليه أن يختار قضية مصطنعة.)

في هذه الحالـة، نجـد أنفـسنا في مواجهـة مـع نـوعين متعارضـين تمامًـا مـن البروباجاندا. من ناحية، البروباجاندا القوية في الإعلام والتقنيات لكنهـا محـدودة في غاياتها وطرائق تعبيرها، فهي مندمجة بشدة في جماعة اجتماعيـة معينـة، دولانيـة ومتماثلة. من ناحية أخرى، البروباجاندا التي تتسم بالضعف فيما يتعلق بـالإعلام والتقنيات لكنها غزيرة في غاياتهـا وتعبيراتهـا؛ تـستهدف النظـام القـائم والدولـة ومعايير الجماعة السائدة.

بالرغم من ذلك، لا يمكننا أبدًا أن ننسى أن الحـزب الـذي يتمتـع بتفـويض الأغلبية أيضًا من صنع البروباجاندا التي تسلمه التفويض في بيئة ما ولفترة زمنيـة محددة. هذا الحـزب يكيـف البروباجانـدا التـي يـستخدمها لهـذا التفـويض، بـل ويـستخدم التفويض كهدف للبروباجاندا.

في النهاية، كلمة أخيرة عن المشكلات المالية وآثارها: غير مرجح أن التبرعات وحدها قادرة على مساعدة الحزب على دفع تكاليف إعلام البروباجاندا الباهظة. وبالتالي، تضطر الأحزاب إلى البحث عن إعانة إما من الرأسماليين (وعليه يربطون أنفسهم بحكم أقلية الثروة) وإما من الحكومة (وطنية أو أجنبية). في الحالة الثانية، تأتي الدولة على مقربة من الاستيلاء على الأدوات. ثم تقدم الدولة هذه الأدوات إلى الذين يطلبونها - وهذا ديمقراطي جدًا وبالتالي، يعطي الفرصة للأحزاب الثانوية في العيش؛ لكن هذا يؤدي إلى وضع غير مستقر، وكما قلتُ قبل قليل، تضطر الدولة أكثر وأكثر إلى ممارسة الرقابة على ما يُقال عبر هذه الأدوات. تزداد هذه الرقابة في الصرامة بينما تجد الدولة نفسها مجبرة على صنع بروباجاندا أكثر وأكثر.

يؤدي هذا بنا إلى تأمل الفرضية القائلة إن الدولة تتوقف عن كونها محايدة في المجال الأيديولوجي وتتبنى عقيدة أو أيديولوجية خاصة بها. في هذه اللحظة، تفرض الدولة البروباجاندا على كل الأحزاب. وللتأكيد، لا زلنا نتعامل مع البروباجاندا. لقد رأينا في العقود المنصرمة - فيما يتعلق بكل "ديانات الدولة" - أنه من الضروري استخدام القوة أولًا لتشكيل الرأي العام، الذي بدونه لا يمكن لهذه الديانات أن تشتغل. ومن ثم، في بدايات الدولة النازية، أو الديمقراطيات الشعبية، تستمر منافسة من نوع ما بين بروباجاندا الدولة وبروباجاندا الأحزاب خارج الحكم. ومع ذلك، في مثل هذه المنافسة، تظهر الدولة بالضرورة منتصرة إذ إنها تنكر باستمرار استخدام وسائل الاتصال الجماهيرية ضد أحزاب المعارضة، وتعمل على الرأي العام حتى اللحظة التي تستطيع فيها بسهولة قمع أحزاب المعارضة بلا خوف. لكن الدولة لا يمكنها العمل على الرأي العام إلا من خلال وساطة حزب. هذا تأثير آخر للبروباجاندا. يمكننا أن نتصور دولة تقمع *كل* الأحزاب وتعيش وحدها: كان هذا النمط التقليدي للأنظمة السلطوية، ولكنه لم يعد ممكنًا.

بمجرد أن يُثار الرأي العام وينتبه إلى المشكلات السياسية، يجب أن يؤخذ في الاعتبار. لا يمكن لآلية بروباجاندا الدولة أن تعمل كوحدة إدارية: لا يمكنها أن تنال الواقع والفعالية إلا من خلال إعلام حزب الدولة. من المستحيل تخيل أن دولة حديثة يمكنها أن تنال القبول دون العمل من خلال حزب يؤسِّس تواصلًا بين هؤلاء في سدة الحكم والرأي العام. دور الحزب الأساسي هو صنع البروباجاندا للحكومة، أي البروباجاندا التي تتمناها الحكومة. وبالمناسبة، نجد هنا بمعنى أو بآخر صورة حزب في أنقى صوره لأن كل حزب في نهاية المطاف ماكينة بروباجاندا. لكن هذا مستتر في أنظمة أخرى حيث لا يزال هناك مناقشات واختلافات. أما في الأنظمة السلطوية، لم يعد الحزب يخدم أي وظيفة سياسية أو أيديولوجية، ولم يعد يعبر عن أي اهتمامات اجتماعية، إلخ. إنه عضو مُصَمّم لترويض وتدريب الرأي العام، ووجوده ليس ممكنًا إلا في ظل حاجة الدولة له. وبمجرد أن تتلاشى هذه الحاجة، يتلاشى أيضًا دور ومكانة الحزب. حدث ذلك في ألمانيا النازية في 1938م[1]، وفي الاتحاد السوفيتي بعد "التطهير" عام 1936م. لكن، بمجرد أن تصير البروباجاندا ذات أهمية مرة أخرى، يستعيد الحزب دوره.

من الجلي أن البروباجاندا تعطي اتجاه لحياة الأحزاب السياسية وتفرض أنماطًا وقواعد معينة عليها، وتقودها في طرقات بعينها، وفي النهاية تحدد حياتها ومماتها حتى يتوسع النظام لدرجة ينصهر فيها الحزب والبروباجاندا معًا انصهارًا تامًّا.

عندما أوضحتُ دور البروباجاندا من هذه الزاوية، لم أكن أحاول القول إن البروباجاندا هي العامل الوحيد في تطور الأحزاب؛ فهي بالطبع تجتمع مع عناصر أخرى، التي رغم ذلك يمكننا القول إنها إما أقل أهمية من البروباجاندا وإما مرتبطة بها.

---

(1) بعد تركز كل القوة في يد الزعيم.

التأثيرات على عالم العمل

نواجه الآن إحدى أكثر المشكلات مصيرية في العالم الحديث: عالم العمل، أي حالة العامل الذي خلقته التطورات التكنولوجية واستخدمته الرأسمالية في البداية وتستخدمه الاشتراكية الآن. زعمت الاشتراكية أن حالة العامل كانت ثمرة الرأسمالية ونتاج استغلال رأس المال للعمال. هذا يشرح إلى حد ما حالة اكتئاب العامل وكذلك - بلا شك - النضال الطبقي وبعض ملامحه. لكن هذا ليس العنصر الأهم. تتأتى ظروف العمل من العلاقة بين الإنسان والماكينة، وكذلك تعتبر هذه الظروف عاقبة التطورات التكنولوجية بمعناها الأوسع.

التمدن والتحشيد والترشيد والميكنة واختفاء فكرة "العمل"، وغيرها - ساهمت كل هذه في ظروف العمل أكثر من وسائل الإنتاج ذات الملكية الخاصة. الحقيقة الأخيرة هذه تؤدي إلى البروليتارية وفقًا للنظرية الماركسية. لكن ليست البروليتارية إلا جانب واحد من جوانب المشكلة. بمجرد أن تأخذ الاشتراكية وسائل الإنتاج من أيادي القطاع الخاص، بالمعنى القانوني، لن تكون الطبقة العاملة بعدها، بالمعنى المجرد، بروليتاريا لكنها تظل تحت تأثير نفس المشكلات الملموسة.

مما لا شك فيه أنه يمكن حل مشكلة الفقر لكن ليس هناك ما يشير إلى أن الحل عن طريق الاشتراكية أسهل من الرأسمالية. عدد قليل من العمال (باستثناء المزارعين) في الولايات المتحدة يعيشون في فقر لكننا لا نستطيع أن نقول إن مشكلة العمال قد تم حلها حتى هناك.

إذا نظرنا إلى وضع العمال في البلاد الاشتراكية، سنرى أن العامل لا يزال تابعًا للماكينة، وأنه لا يتمتع بحياة شخصية، وأنه غارق في الحشد، وأنه فريسة لمشكلات تتعلق بالعمل الميكانيكي والملل والأيام التي تحسب عليه زيفًا والانفصال عن عمله والثقافة الزائفة والجهل بالبيئة والانفصال عن الطبيعة والحياة المصطنعة وما إلى ذلك. لكننا كذلك نرى أن مشكلة الأرباح لم يتم حلها،

وأن العامل لا يزال يتقاضى أجرًا بخس. الفرق الوحيد هو أن الدولة - وليس الأفراد - هي التي صنعت الربح.

فضلًا عن ذلك، نرى في البلاد الاشتراكية أن معظم التشريعات الاجتماعية، مع إنها تضاهي في تقدمها تشريعات البلاد الرأسمالية من الناحية الأمنية ومخصصات العائلة والإجازات وكل أنواع المكافآت المالية، قد تراجعت فيما يخص النقابية والحق في الإضرابات وطرائق فرض النظام في العمل. وفي النهاية، نرى أن العامل لا يشارك في حياة المصنع مشاركة جوهرية بأي حال من الأحوال. في البلاد الاشتراكية، قد يقوم مجلس العمال بتقديم مقترحات لكن ما يتعلق بالأمور الثانوية فقط؛ أما الأمور الهامة فلا يفعل المجلس شيئًا إلا التصديق على قرارات "الخطة الخمسية."

بالإضافة لذلك، ليست الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج إلا خيال خالص. لا يملك العمال شيئًا، وحالهم حال الماكينات تحت النظام الرأسمالي. سواء أكانت دولة أو عوام الناس (الذين ينبغي تمثيلهم بالضرورة عن طريق منظمة ما)، فالمالك ليس له أية علاقة بالعامل في المصنع. فكرة الملكية المشتركة هذه تعكس - على المستوى الاقتصادي - الفكرة القديمة لسيادة الشعب على المستوى السياسي. نعرف حجم الضرر الذي أوقعته هذه الفكرة وهذا الخيال وهذا التجريد على الديمقراطية وسلطة الشعب. لا أستطيعُ أن أواصل في الحديث عن هذه النقطة لكنني أستطيع أن أوكد أن وضع العمال لم يتغير حقًا كنتيجة للاشتراكية. *وبالرغم من ذلك، ينبغي لنا أن نعترف أن موقف العمال قد اختلف.*

باستثناء الحالات النادرة، تعطي الطبقة العاملة دعمها للأنظمة السياسية في البلاد الشيوعية. فلم تعد طبقة في المعارضة بعد ذلك، لكنها حقًّا منسجمة مع الأنظمة، والوضع الملموس يبدو كأنه لم يعد هناك أي موقف تمردي. يضع العمال قلوبهم في عملهم، بل ويتخلون عن ذواتهم من أجل عملهم، ولم يعد عندهم رغبة في المشاركة في إضرابات أو احتجاجات عمالية. هذا هو الحال مهما أنكره المعادون للشيوعية.

لا شك أن شيئًا ما قد تغير فيما يتعلق بوضع العمال في البلاد الشيوعية لأن العمال لم يتم دمجهم بالقوة. ما تغير في البداية هو المناخ الاجتماعي. لم يعد العامل يتعرض للإقصاء من المجتمع. العامل في المجتمع الرأسمالي هو الذي يشعر بالإقصاء من المجتمع شعورًا قويًا. فهو منبوذ وغريب ودخيل. يطيع المجتمع معاييرًا بعينها ويتسم بأبنية أساسية خاصة، لكن العامل ليس جزءًا منها. مشكلة الملكية الخاصة ليست إلا رمزًا لهذا الإقصاء الذي يُنتِج بدوره البروليتاريا. لكن، في المجتمع الاشتراكي، يقع العامل في مركز عالم قيد البناء. فهو في مركز مُشَرِّف، ويتشرف المجتمع بالطبقة العاملة - يُقال هذا طول الوقت، ويتجلى بطرائق اقتصادية وسياسية وثقافية متنوعة. غَيَّر هذا المناخ رد فعل العامل؛ فهو الآن مقتنع بأهميته وكذلك مقتنع أن المجتمع ليس ضده، بل في صفه. وهو أيضًا مقتنع أن هذا المجتمع هو الإنجاز الذي حققه وأنه قد مُنح أو سوف يُمنح المكانة التي يستحقها بسبب أهمية عمله. وبالتالي، تملأه القناعة الإيجابية التي تسمح له بالنسيان أو تجاهل الواقع خارج وضعه الشخصي. لم يعد العامل في العالم الشيوعي ينظر إلى وضعه بنفس طريقة الماضي؛ فالآن يغمره الأمل.

يأمل أن العالم الآتي سيتسم بالعدل، أو بدقة أكثر - عالم يشغل فيه العامل المكانة الأعلى بالتأكيد. عنده كذلك القناعة والأمل أن كل جزء من العمل وكل يوم من العمل له غرض في عينيه: تأسيس مجتمع اشتراكي في حين أن البلاد الرأسمالية لا يساهم العمل فيها إلا في إنتاج راتب ولا يربح فيها إلا صاحب رأس المال. وفي هذه الحالة، يشعر العامل بالإحباط؛ وتحت الاشتراكية يشعر بالإنجاز.

التغيرات التي طرأت على وضع العمال ليست تغيرات حقيقية، وإنما تغيرات خاصة بمنظور مختلف ومفهوم مختلف للحياة والمعتقد والأمل. وهذا في الحقيقة هو الابتكار الأصيل الوحيد للاشتراكية، لكن التحول فعال - يؤدي العمال عملهم على نحو أفضل وأكثر ويقومون بعملهم بكل ما أوتوا من قوة ويقبلون الانضباط الصارم بقناعة.(1)

---

(1) في مؤتمر في موسكو في 1960م صرح (ليونيد إلشيف) - رئيس قسم البروباجاندا والإثارة - أن التعليم الأيديولوجي ينبغي أن يهدف إلى رفع الإنتاجية ومعايير للعمال =

يذكرني هذا بما قاله (م. ج. فريدمان) بشأن أهمية العنصر النفساني في ظروف العمل والإنتاجية. يعتقد أنه لا يمكن تلبية الضرورات النفسانية إلا من منظور اشتراكي. في النظام الاشتراكي، وليس غيره، يستطيع العامل (الذي تخلص من عُقَده ومشاعر الاستياء داخله) أن ينال الحرية النفسانية التي تسمح له بتكريس نفسه لعمله.

لكن لا شيء يشير إلى أن هذا هو الحل الوحيد. حتى الحقائق بخصوص العلاقات العامة في الولايات المتحدة تميل إلى أن تبدي أن الوسائل النفسانية تُغيِّر المناخ العام لحد كبير وتُغيِّر القناعة داخل كل عامل وتدمجه أكثر في مشروعه. لكن هذا التغيير لم يصل إلى كامل نموه بعد، وينبغي لنا أن ننتظر لنرى إذا كان التحول العميق في الطبقة العاملة عن طريق العلاقات العامة ممكنًا.

هذا المنعطف الطويل يؤدي بنا إلى القول إن مشكلة العمال تنبع إلى حد ما من الوضع المادي ونوعًا ما من العناصر النفسانية. إذا أردنا أن نكون صادقين فعلينا أن نعترف أنه ليس هناك حل متاح للوضع المادي في أية نظرية اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية. وبالطبع، يمكن إسعاد العامل وإعطاؤه الإحساس بالأمن. خليط من المسكنات (المعروفة بالفعل وبعضها مستخدم) يمكن أن تبدل *عواقب* وضعه لكن ليس الوضع ذاته. وعلينا أن ندرك أنه ليس هناك حل للمشكلات الملموسة بدون محاولة وضع ضباب الغموض حول الطبقة العاملة.

ومع ذلك، هناك حل نفساني. التعديل الذي وصل إليه علم النفس الاشتراكي يمكن الوصول إليه بوسائل أخرى وأشكال أخرى من الاندماج وقناعات وآمال أخرى.[1] من اللحظة التي نعرف فيها أنه، للأسف، ليس

= والتضحيات الشخصية. لقد قلت بالفعل إن الوظيفة الأساسية للبروباجاندا في الاتحاد السوفيتي هي المساعدة على تحقيق "الخطة الخمسية" والإسراع في العمل، أي زيادة جهود العمال.

(1) حسب عبارة (فينس باكارد) الساخرة: "اجعلهم يعملون ويحبون ما يعملون."

للاشتراكية إلا أجوبة نفسانية، نضطر إلى القول بإن الأمر هنا يتعلق بحقيقة البروباجاندا البسيطة. تخدع الطبقة البرجوازية الطبقة العاملة كما تخدعها الشيوعية بطرائق مختلفة. وكما عَلَّمَت الشيوعية حكومات الطبقة البرجوازية استخدام البروباجاندا على المستوى السياسي، تُعَلِّمها الآن استخدامها على المستوى الاجتماعي وعلى مشكلات العمال. في هذه الأيام، نرى تجاهل كامل لمشكلة العمال ونرى ستار حول أية مشكلة لا يمكن حلها.

كما في كل أنواع البروباجاندا، الهدف هو جعل الإنسان يصمد ويتحمل - بمساعدة المخدرات النفسانية - ما لا يستطيع تحمله بشكل طبيعي، أو إعطاؤه - بشكل مصطنع - أسبابًا للاستمرار في العمل وليؤدي عمله على نحو حسن. هذه مهمة البروباجاندا، وليس هناك شك أنها سوف تجعل اندماج الطبقة العاملة ممكنًا وتجعلها تتقبل حالها بسرور - إذا قامت بمهمتها على نحو جيد. بطريقة أو بأخرى، تُستدعى البروباجاندا "لحل" مشكلة العمال، حيث إن المشكلة تصير عنصرًا سياسيًّا ويتم التعامل معها هكذا في آلية العالم الحديث.

هؤلاء الذين لا يعرفون قدرات البروباجاندا الحديثة - وليس غيرهم - يمكنهم الشك في إمكانية إتمام حل مثل هذا. وبالطبع، إنجاح مثل هذه البروباجاندا الاندماجية لطبقة العمال يتطلب تحقق كثير من الظروف. أولًا، ينبغي تحسن الظروف المادية للعمل. لطالما أكدتُ الرابط بين البروباجاندا والإصلاحات الحقيقية لكن هذا لا يكفي على الإطلاق. على النقيض من ذلك، تحسن الظروف المادية للعامل يمكن أن تصبح نقطة انطلاق لتحريض ثوري أفضل، كما يثبت لنا التاريخ. هناك حاجة لتطور بعينه في التعليم *التقني* والمعلومات: كلما صار العامل تقنيًّا أكثر، أصبح ممتثلًا. في نفس الوقت، إذا قدمنا للعامل قاعدة أوسع من المعلومات، سيصبح أكثر ضعفًا أمام البروباجاندا، طبقًا للآلية التي تم تحليلها قبل قليل.

في النهاية، هناك حاجة لوحدة العمل النفساني. ما دام العامل محاط بمنظمات مثل الأحزاب أو النقابات التي تعرضه للبروباجاندا التي تعوق اندماجه في

المجتمع، يحدث التقسيم الذي تحدثنا عنه سابقًا. أحد أهم العوامل في هذه الصلة هو أن النقابات في البلاد الاشتراكية أصبحت منظمات منسجمة مع المجتمع وتصنع نفس البروباجاندا. ينطبق هذا الكلام على الولايات المتحدة؛ فالنقابات – رغم إنها تدافع عن أعضائها – تعتبر جزءًا من المجتمع ولا تشكك في الطريقة الأمريكية للحياة على الإطلاق. كنتيجة لذلك، للبروباجاندا التي صنعتها النقابات أهمية في دمج العمال، لكن مثل هذه البروباجاندا وحدها تغير النقابات تغيرًا جذريًا.

على غرار الأحزاب السياسية، شعرت النقابات بضرورة صنع البروباجاندا. يمكن القول إن – من ناحية – أكثرية آثار البروباجاندا التي تم بحثها بالفعل فيما يخص الأحزاب السياسية تنطبق على النقابات أيضًا. لكن هناك مؤثرات أخرى تنبثق من الحقيقة القائلة إن النقابات بطبيعتها جزء من الهجوم والدفاع الذي يمثل بشكل أو بآخر عناصر دخيلة على المجتمع، وهذا لا ريب فيه. للنقابة معركتها سواء أكان المجتمع رأسماليًا أو لا، وهذا جزء أصيل في بنية النقابات وفكرها. لكن، من الحظة التي تريد فيها النقابة أن تشارك في البروباجاندا، تسرع مباشرةً إلى ضرورة استخدام الإعلام الجماهيري للاتصال.

من المؤكد أن بروباجاندا النقابات لها شخصيتها الخاصة: فهي "إنسانية" أكثر بكثير وتكاليفها أقل وتستغل تفاني أعضاء النقابة وقربهم من بعضهم البعض عند تواصلهم، وما إلى ذلك. لكنها لا تساعد على استخدام الإعلام العظيم للبروباجاندا الحديثة، ولاسيما الجرائد والملصقات، إذ إن المشكلة لم تعد مجرد جلب الناس على حضور اجتماعات وإنما الترويج لمواقف بشأن سياسة ما وإعداد عقلية العمل الحقيقية. في ذلك افتراض بوجود رشاقة فكرية لا يمتلكها مناضلو العمل.

من اللحظة التي تشرع فيها النقابات في استخدام الجرائد والملصقات، تواجه مشكلات مالية. وكلما تسعى البروباجاندا إلى الوصول إلى الأفراد، أصبح

استخدام الإعلام المهم ذا ضرورة قصوى - وأعلى ثمنًا. لا تنحسر المشكلات المادية عندما يكبر حجم النقابات؛ تزيد تكاليف البروباجاندا بسرعة أكبر من الأرباح (باستثناء الولايات المتحدة). وهذا يؤدي بالنقابات إما إلى امتلاك أدواتها الخاصة للبروباجاندا وإما البحث عن إعانة مادية ذي طابع مريب ومُقَيِّد نوعًا ما.[1]

تتمكن النقابات من الوصول إلى الرأي العام عندما تستخدم بروباجاندا ناجحة، وتسيطر على هذا الرأي لصالح قضية العمال، وتنبه الرأي بمشكلات الظلم الاجتماعي وتحشد الناس من أجل قضية ما أو ضدها. شئنا أو أبينا، هذا هو الهدف الأساسي للبروباجاندا. سيؤدي حشد الرأي العام إلى أثر البروباجاندا بطريقة من اثنين: أولًا، ستنمو عضوية النقابة: من الجلي أن البروباجاندا تؤدي إلى زيادة عدد الأعضاء. لكننا نرى هنا أثر الحشد المعروف: كلما نمت النقابة، صارت أقل ثورية وأقل نشاطًا وأقل نضالًا. يضفي الحشد وزنًا أكثر على مطالب النقابة، لكن هذه المطالب تصير أقل حسمًا وأقل أصولية. وتصير نقابة الحشد بيروقراطية ومسالمة؛ وتصير تحركاتها أقل عفوية؛ تنفلق فجوة بين أعضائها والعاملين فيها. وهذه هي أول نتائج تنبيه الرأي العام من خلال البروباجاندا.

---

(1) يمكن ضرب مَثَل النقابات الأمريكية وهي الأقوى في العالم وتغيرت كثيرًا من خلال نفس البروباجاندا التي ساعدتها على الحصول على السلطة. طبعت النقابات مئات الآلاف من النسخ لعدد قليل من المنشورات النقابية، وكذلك استخدمت الأفلام أو التلفاز؛ قامت النقابات بالبث الإذاعي أكثر من مئتين مرة في اليوم في الولايات المتحدة. المحطة الإذاعية في مدينة شيكاجو تابعة للنقابة. وهنا، التبرعات هي التي غطت التكاليف الكبيرة لكن هذا يتوقف على اتفاق بين النقابات وأصحاب العمل: وافق أصحاب العمل على تعيين عمال النقابة فقط (وهذا إجباري) وعلى جمع هذه التبرعات عن طريق اقتطاعها من رواتب الموظفين. هذا يعني أن كل هذه البروباجاندا الضخمة لا يمكنها أن تُعَرِّض القوى الاقتصادية في الولايات المتحدة للخطر.

تأتي النتيجة الثانية من الحقيقة القائلة إن الحكومة ستتأثر بهذا التطور عاجلًا أو آجلًا. ثم ستميل إلى شرعنة وتقنين مثل هذا الفعل العمالي بطريقة أو بأخرى؛ هذا أيضًا أثر البروباجاندا. لكن، عندما تقنن الحكومة نقابة، تبزغ علاقة بين النقابة والحكومة، التي لا تهدف إلى الصراع. التقنين يدفع النقابة إلى تكييف نفسها نوعًا ما مع حالتها القانونية وإلى ممارسة نضالها الاجتماعي على المستوى القانوني. ومن ثم، المهم هو الحصول على تنازلات قانونية جديدة من الدولة. لكن هذا طريق طويل من الأهداف الأصلية للنقابة.

وعلى ذلك، تقود البروباجاندا النقابة إلى أن تكون منظمة "ثرية" عوضًا عن "الفقر" وإلى أن تقدم نفسها على أنها عضو مؤسس في المجتمع، وإلى لعب اللعبة الاجتماعية. هذا اندماج حقيقي في المجتمع، وكنتيجة، لن تعود النقابة إلى سابق عهدها في المعارضة: ليست معارضتها إلا شيء ظاهري وخيالي تمامًا. وكنتيجة لذلك، سواء أصبحت جزءًا من مجتمع رأسمالي - كما في الولايات المتحدة - أو مجتمع اشتراكي - كما في الاتحاد السوفيتي، فهذا لا يهم على الإطلاق؛ فالنتيجة واحدة.

لا تستطيع النقابة كسب الرأي العام بدون تكييف نفسها معه وقبول ركائز المجتمع الأساسية حيث إنها تستهدف العوام - الجمهور والداعمين - في هذا المجتمع. هنا، مرة أخرى، نجد أثر الامتثال المستمد من البروباجاندا، والذي قمت بتحليله بالفعل.

التأثيرات على الكنائس

بديهي أن أعضاء الكنيسة عالقون في شبكة البروباجاندا ويتفاعلون معها مثل أي شخص آخر تقريبًا. وكنتيجة لذلك، يحدث انفصال شبه كامل بين ديانتهم المسيحية وسلوكهم. يظل معتقدهم المسيحي روحانيًا وشيئًا داخليًا تمامًا لكن أشياء مختلفة هي التي تحدد سلوكهم، ولاسيما البروباجاندا. بالطبع، هناك دائمًا هوة بين "المثل العليا" و"الأفعال" لكن هذه الهوة اليوم أصبحت عامة

وشاملة ومتعمدة. اتساع الهوة - ولاسيما الاتساع المنهجي - هو ثمرة البروباجاندا في المجال السياسي أو الاقتصادي، وثمرة الإعلانات في المجال الخاص.

لا يستطيع المسيحيون أن يروا ما قد يفعلونه ليصنعوا تأثيرًا وفي نفس الوقت يعبرون عن ديانتهم المسيحية، وذلك لأن هناك أنواعًا مختلفة من البروباجاندا تغمرهم. ولهذا يحصرون أنفسهم في مسار عَرَضَته البروباجاندا عليهم مع حوافز مختلفة وحالة من وخز الضمير في غالب الأمر. وكذلك يلقون نظرة شاملة على أنواع مختلفة من البروباجاندا بدلًا من عيش الواقع السياسي، ولا يرون المكان الذي يمكنهم فيه أن يقحموا ديانتهم المسيحية في هذه النظرة الخيالية. ومن ثم، يتعثرون مثل كل الآخرين، وهذا يزيل أي ثقل تمتع به معتقدهم.

في نفس الوقت، بسبب آثارها النفسانية، أصبح ترويج البروباجاندا للمسيحية أكثر صعوبة. البنية النفسانية التي شيدتها البروباجاندا ليست مواتية للمعتقدات المسيحية. ينطبق هذا أيضًا على المستوى الاجتماعي حيث إن البروباجاندا تواجه الكنيسة بالمعضلة التالية:

إما لا تصنع بروباجاندا - لكن بعد ذلك، تفوز الكنائس بالإنسان للمسيحية ببطء وبحرس، بينما يحشد الإعلام الجماهير بسرعة كبيرة، ولذلك سيشعر رجال الكنيسة بانطباع أنهم "خارج المسار التقليدي" وعلى هامش التاريخ وبلا قوة لتغيير أي شيء.

وإما تصنع بروباجاندا - المعضلة هذه بالطبع واحدة من المعضلات الأكثر قسوة التي تواجهها الكنيسة اليوم لأنه يبدو أن الناس الذين تلاعبت بهم البروباجاندا يصيرون أكثر مقاومة وحصانة ضد الوقائع الروحية، ويصيرون أقل ملائمة لاستقلالية الحياة المسيحية.

نرى تحولًا دينيًا كبيرًا تمتص من خلاله البروباجاندا العنصر الديني شيئًا فشيء عبر وسيلة الأسطورة، ويصير أحد فئاتها. لكن ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا عما سيحدث إذا استسلمت الكنيسة ولجأت للبروباجاندا.

أكدنا بالفعل الطبيعة الشاملة للبروباجاندا. يزعم المسيحيون كثيرًا أنهم يستطيعون فصل الأدوات المادية عن تقنيات البروباجاندا، أي كسر النظام. على سبيل المثال، يظنون أنهم يستخدمون الصحافة والإذاعة دون استخدام مبادئ أو تقنيات نفسانية تتطلبها وسائل الإعلام، أو أنهم يستطيعون استخدام وسائل الإعلام دون الحاجة للجوء إلى ردود الفعل المكيفة والأساطير وغيرها، أو أنهم يستطيعون استخدامها من وقت لآخر، بعناية وحذر.

الإجابة الوحيدة التي يمكن إعطائها لهذه الأرواح الرعديدة هي أن قَيْد من هذا النوع سيؤدي إلى فقدان تام للتأثير أو الفعالية. إذا أرادت الكنيسة استخدام البروباجاندا حتى تكون فعالة، مثل الجميع، فسينبغي لها أن تستخدم النظام بأكمله بكل موارده. لا يمكنها أن تنتقي ما تحب لأن مثل هذه الفروق ستدمر نفس الفعالية التي كانت الكنيسة تصنع البروباجاندا من أجلها في المقام الأول. البروباجاندا هي نظام شامل علينا أن نقبله أو نرفضه في مجمله.

إذا قبلته الكنيسة، فسيكون هناك نتيجتان مهمتان لذلك: أولًا، المسيحية التي انتشرت عن طريق مثل هذه الوسائل ليست المسيحية الحقيقية. لقد رأينا بالفعل أثر البروباجاندا على الأيديولوجية. في الحقيقة، ما يحدث بمجرد أن تستغل الكنيسة البروباجاندا هو اختزال المسيحية إلى مستوى كل الأيديولوجيات أو الديانات العلمانية.

يمكننا رؤية هذا على مر التاريخ. كل مرة تحاول فيها الكنيسة أن تتصرف من خلال أدوات البروباجاندا التي قبلها العصر، ينحط قدر حقيقة المسيحية وأصالتها. حدث هذا في القرنين الرابع والتاسع والسابع عشر (بالتأكيد، هذا لا يعني أنه لن يتبقى أي مسيحيين بعد ذلك).

في مثل هذه اللحظات (عند التصرف عبر البروباجاندا)، تتوقف المسيحية عن كونها قوة ساحقة ومغامرة روحية، وتصير مؤسسية في كل تعبيراتها وتتقوض في كل أفعالها. تخدم الجميع كأيديولوجية بسهولة ويسر، وتميل إلى أن تكون بدعة.

في مثـل هـذه الأوقـات، يبـدو أن هنـاك عمليـات تعـد ولا تحـصى مـن التـأقلم والتجميل التي تبدل طبيعة المسيحية من خلال تكييفها مع محيطها.

ومن ثم، بعد اختزالها إلى مجرد أيديولوجية، سيتعامل مروج البروباجاندا مـع المسيحية على هذا النحو. وفي العالم الحديث، فيما يتعلق بهذه الأيديولوجية بعينها، يمكننا تكرار ما قلناه بالفعل بشأن موضوع الأيديولوجيات بشكل عام. ما يحدث هــو أن الكنيســة ســتتمكن مــن تحريـك الحـشود وتحويـل آلاف النـاس إلى أيديولوجيتها. لكن هذه الأيديولوجيـة لم تعـد المـسيحية؛ فـستكون مجـرد عقيـدة أخرى، مع أنها لا تزال تشتمل على بعض المبادئ الأصلية ومفردات المسيحية.

العاقبة الأخرى تؤثر على الكنيسة نفسها. تـنجح الكنيـسة عنـدما تـستخدم البروباجاندا، مثل كل المنظمات الأخرى؛ تصل للحشود وتؤثر على الرأي الجمعي وتقود حركات اجتماعيـة ويمكنهـا حتـى أن تجعـل النـاس يقبلـون مـا يبـدو أنـه المسيحية. لكن، عند فعل ذلك تصير الكنيسة زائفة، وتكتسب قوة وتأثير من هـذا العالم، ومن خلال هذه القوة وهذا التأثير تدمج نفسها في هذا العالم.

من اللحظة التي تُعَرِّض الكنيسة فيها نفسها للصراع بـين محـددات اجتماعيـة وإلهام مضاد يأتي من الله ويتجه إليه - من اللحظـة التـي تـستخدم فيهـا الكنيـسة البروباجاندا وتستخدمها بنجـاح، تـصير منظمـة اجتماعيـة خالـصة دائـمًا وأبـدًا. وتفقد الجـزء الروحـي لأنهـا الآن لا تنـشر إلا مـسيحية زائفـة، وتُخْضِع جـوهر وجودها للحتمية الاجتماعية؛ وتَرْضَخ لقوانين الفعالية كي تـصبح قـوة في العـالم. وفي الواقع، تنجح: بالفعل تصبح قوة كبيرة. في هذه اللحظة، قـد اختـارت القـوة على حساب الحقيقة.

تحاول الكنيسة دائمًا أن تبرر نفسها بطريقتين عنـدما تـستخدم البروباجانـدا. الطريقة الأولى هي أنها أولًا ستقول إنها تضع الإعلام الفعال هذا في خدمة يـسوع المسيح. لكن، إذا تأملنا للحظة، سندرك أن هذا لا يعني أي شيء. ما يخـدم يـسوع المسيح يتلقى طابعه وفعاليته من يسوع المسيح. الإعـلام الـذي يمتلـك في داخلـه

كل الفعالية ويشتمل على كل الافتراضات المسبقة والغايات لا يمكن أن يُوضع في خدمة يسوع المسيح. يطيع هذا الإعلام قوانينه الخاصة، وهذا لا يمكن تغييره على الإطلاق عن طريق المنطق اللاهوتي أو المحتوى المذاع، رغم ما يمكن للمنطق المبسط أن يجعل بعض الناس أن يؤمنوا به. في واقع الأمر، تصريح من الكنيسة يقول إنها تضع الإعلام في خدمة المسيح ليس شرحًا أخلاقيًّا أو منطقيًّا وإنما عبارة دينية فارغة من المحتوى.

نحاول الفرار من هذا الفخ عن طريق القول إننا لا نستطيع رؤية السبب وراء منع الكنيسة من استخدام مثل هذه الأداة للانتشار أو للقوة شريطة أنها لا تضع ثقتها في مثل هذه الأدوات: لأننا نتذكر من الكتاب المقدس أن الثقة مشجوبة إذا كانت بأي شيء غير الله. لكن، هنا يكفي أن نسأل أنفسنا: إذا كنا فعلًا لا نؤمن بهذه الأدوات وحقًّا لا نضع ثقتنا بها، فلماذا إذًا نستخدمها؟ إذا استخدمناها، فهذا يعني أننا نؤمن بقيمتها وفعاليتها؛ وإنكار هذا ليس إلا نفاق. بكل تأكيد، فيما يتعلق بكل هذا، نفكر في البروباجاندا الحقيقية وليس في استخدام محدود للصحافة أو الإذاعة لبث قداس أو طقس ديني.

في نهاية هذا التحليل المقتضب، يمكننا أن نخلص إلى أن البروباجاندا أحد أقوى عوامل فصل العالم عن المسيحية عبر التغيرات النفسانية التي تؤثر عليها البروباجاندا، ومن خلال مستنقع أيديولوجي غمرت به وعي الحشود، وبواسطة اختزال المسيحية إلى مستوى الأيديولوجية، وعن طريق إغواء لا ينتهي تقاومه الكنيسة. كل هذا خليقة عالم عقلي غريب عن الكنيسة. وفصل الكنيسة هذا يتأتى عن طريق آثار أداة واحدة - البروباجاندا، وهي أقوى بكثير من المعتقدات المعادية للمسيحية.



4. البروباجاندا والديمقراطية

حاجة الديمقراطية للبروباجاندا

لا يمكن الجدال حول أحد العوامل: حاجة الديمقراطية - في حالتها الراهنة - "لصنع البروباجاندا."[1] ينبغي لنا أن نفهم كذلك أن البروباجاندا الخاصة، حتى أكثر من البروباجاندا الحكومية، ترتبط حقًا بالديمقراطية. تاريخيًا، من اللحظة التي يؤسس فيها النظام الديمقراطي نفسه، تؤسس البروباجاندا نفسها بجانبه بأشكال مختلفة. هذا أمر حتمي إذ إن الديمقراطية تعتمد على الرأي العام والمنافسة بين الأحزاب السياسية. لكي تصل الأحزاب للسلطة، تصنع بروباجاندا لتفوز بالمصوتين.

دعونا نتذكر أن قدوم الحشود من خلال تطور الأنظمة الديمقراطية قد أثار استخدام البروباجاندا، وأن هذا بالضبط هو أحد الآراء المدافعة عن الدولة الديمقراطية - إنها تجتذب الناس الذين حشدتهم البروباجاندا؛ وتدافع عن نفسها ضد المصالح الخاصة أو الأحزاب غير الديمقراطية. الحقيقة اللافتة للنظر والجديرة بالانتباه هي أن البروباجاندا الحديثة كان يجب أن تبدأ في الدول الديمقراطية. إبان الحرب العالمية الأولى، رأينا استخدام شامل للإعلام الجماهيري

---

(1) اتفق الكُتّاب الواعون على أن الدولة الديمقراطية - بدون البروباجاندا - قد فقدت تأثيرها داخل حدودها (بالمقارنة مع الأحزاب) وفي الخارج كنتيجة "للتحدي" الشهير الذي يضع الدول الديمقراطية والشمولية في مواجهة بعضها البعض. ولكن ينبغي ألا نغفل الانتكاسات العديدة التي عانت منها الأنظمة الديمقراطية بسبب غياب البروباجاندا. أوضح (موريس ميجرت) في (*L'Action psychologique* Paris: A. Fayard; 1959) أن الأزمة التي وجد الجيش الفرنسي نفسه فيها منذ عام 1950م كانت في جزء كبير منها بسبب غياب العمل النفساني من جانب الحكومة، وأثبت أن "الخطة" لم تكن ناجحة جدًا لنفس الأسباب. وأخيرًا، علينا أن نتذكر أنه إذا حُرِمَت الدولة من حقها في صنع البروباجاندا فإن هذه البروباجاندا ستظهر في شكل علاقات عامة على حساب الدولة، وأن هذا كله أخطر لأنه متنكر.

للمرة الأولى؛ وتطبيق طرائق الدعاية والإعلان على الشؤون السياسية، والبحث عن المناهج النفسانية الأكثر فعالية. ولكن، في تلك الأيام، كانت البروباجاندا الألمانية ضعيفة: أطلقت الأنظمة الديمقراطية الفرنسية والإنجليزية والأمريكية حملات بروباجاندا كبيرة. وبالمثل، مما لا شك فيه أن الحركة اللينينية كانت ديمقراطية في البداية ثم طورت واتقنت كل مناهج البروباجاندا.

بخلاف معتقد ما، لم تكن الأنظمة السلطوية الأولى في لجوئها إلى هذا النوع من التصرف، مع أنها استخدمتها إلى أبعد حد في نهاية المطاف. هذه العبارة تجعلنا نفكر في العلاقة بين البروباجاندا والديمقراطية. من الواضح أن هناك صراعًا بين مبادئ الديمقراطية (وبخاصة مفهوم الفرد) وعمليات البروباجاندا. فكرة الإنسان العاقل القادر على التفكير وممارسة الحياة وفقًا للمنطق والقادر على التحكم في مشاعره والعيش طبقًا لأنماط علمية والقادر على الاختيار بحرية بين الخير والشر - يبدو كل ذلك في تعارض مع المؤثرات السرية وحشد الأساطير والانجذاب السريع للاعقلاني - وهو سمة أصيلة في البروباجاندا.مكتبة

لكن يمكن فهم هذا التطور في إطار العمل الديمقراطي بوضوح إذا نظرنا إليه من مستوى المواقف الحقيقية وليس من مستوى المبادئ. إذا خلصنا - حتى الآن - إلى أن البروباجاندا شيء عادي ولا غنى عنها داخل النظام الديمقراطي، أو حتى شيء جوهري في النظام، وأن هناك نوع واحد أو أكثر من البروباجاندا في المشهد، لا شيء يبدو كأنه يجعل البروباجاندا إجبارية في العلاقات *الخارجية*. الوضع هنا مختلف جدًّا؛ سترغب الدولة الديمقراطية في تقديم نفسها كناقل للرأي العام كله، وسترغب الأمة الديمقراطية في أن تقدم نفسها ككينونة كاملة متماسكة. لكن هذا يخلق بعض الصعوبة لأن مثل هذه الرغبة لا تعكس الصورة الحقيقية والدقيقة للديمقراطية. علاوة على ذلك، هذا يشير ضمنيًّا إلى مرض مزمن، حالة حرب دائمة.

لكن، في حين أنه من السهل إثبات أن الحروب الدائمة أسست نفسها في نفس وقت تأسيس الأنظمة الديمقراطية، سيكون أسهل أن نثبت أن هذه الأنظمة

تعبر عن رغبة قوية في السلام ولا تُحَضِّر للحرب تحضيرًا منهجيًا. وبذلك أعني أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية للأنظمة الديمقراطية قد تثير نزاعات عامة لكن النظام على حاله ليس مرتبطًا بالحرب ارتباط أصيل، وإنما يُقاد في طريق الحرب على مضض، ولا يتأقلم بشكل جيد مع وضع الحرب الباردة، وهي أساسًا حرب نفسانية.

ظرف آخر يحبس الديمقراطية في طريق البروباجاندا: ثبات ودوام بعض خصائص الأيديولوجية الديمقراطية. الإيمان بالقوة التي لا تقهر للحقيقة يرتبط بفكرة التقدم وهو جزء من هذه الأيديولوجية. تمت تغذية الأنظمة الديمقراطية فكرة تقول إن الحقيقة ممكن أن تكون خفية لفترة من الزمن لكنها ستنتصر في النهاية، وأن الحقيقة في ذاتها تحمل قوة متفجرة، قوة الإثارة التي ستؤدي بالضرورة إلى نهاية الأكاذيب والظهور الساطع للحقيقة. كانت هذه الحقيقة الجوهر الكامن للعقيدة الديمقراطية.

علاوة على ذلك، ينبغي التأكيد على أن هذا في حد ذاته كان حقيقة ذات طبيعة أيديولوجية صَنَعَت تاريخًا في النهاية لأنها فرضت نفسها على التاريخ. اشتمل هذا الموقف على بذور الاتجاه الماركسي الحالي الذي يقول إن التاريخ هو الحقيقة. يجدر القول إن هذا الموقف كان - ولا يزال - في الوقت نفسه يتضمن أيضًا بذور اتجاه مضاد للاتجاه الماركسي. هذه الأيام، يعتبر الدليل التاريخي دليلًا مطلقًا. ويعتبر الشخص الذي يكون التاريخ في صفه على حق. لكن، ماذا تعني "على حق" عندما نتكلم عن التاريخ؟ تعني النجاح والنجاة، أي أن تكون الأقوى. هذا يعني أن الأقوى والأكثر فعالية هذه الأيام هو مَن يمتلك الحقيقة التي - كنتيجة لذلك - ليس لها محتوى خاص بها لكنها لا تتواجد إلا عندما ينتجها التاريخ. فالحقيقة تتلقى الواقع من خلال التاريخ.

يسهل رؤية العلاقة بين الاتجاهين وكيفية الانتقال بسهولة من واحد لآخر: إذا امتلكت الحقيقة قوة خارقة تمكنها، بذاتها، من الانتصار، يصير منطقيًا - عن

طريق خطوة بسيطة لكن خطيرة - أن الانتصار هو الحقيقة. لكن - وهذا مخيف - تابعات الاتجاهين تختلف كل الاختلاف.

الرأي القائل إن الديمقراطية ينبغي أن تنتصر لأنها الحقيقة يقود الإنسان إلى أن يكون ديمقراطيًا وأن يظن أنه عندما تتعارض الأنظمة الديمقراطية مع أنظمة القهر، سيكون سموها واضحًا من الوهلة الأولى أمام الحكم الصائب للإنسان والتاريخ. وبالتالي الاختيار مؤكد.

يبدي الديمقراطيون - ولاسيما الديمقراطيون الأنجلو ساكسونيون - دهشة عارمة مرارًا وتكرارًا عندما يرون أن شخص يختار شيئًا مختلفًا، وأن التاريخ ليس حاسمًا. في مثل هذه الحالات، يقررون استخدام المعلومات. "اختار الناس اختيارًا سيئًا لأن الواقع الديمقراطي لم يكن معروفًا" هكذا يقولون، وحتى في هذا السياق نجد نفس الإيمان بقوة الحقيقة. لكن الواقع لا يثبت ذلك. من المؤكد أننا لن نؤسس قانونًا عامًا هنا لكننا سنقول إنه ليس قانونًا عامًّا أن الحقيقة تنتصر بشكل تلقائي مع أنه يمكن أن تنتصر في فترات معينة من التاريخ أو فيما يخص مبادئ بعينها. لا يمكننا التعميم هنا بتاتًا. أثبتَ التاريخ أن الحقيقة البسيطة الواضحة يمكن طمسها حتى تتلاشى وتندثر، وتنال الكذبة قوة عارمة في فترات بعينها.

حتى عندما تنتصر الحقيقة، هل تنتصر بذاتها (لأنها الحقيقة)؟ ففي النهاية، في نظر التاريخ، المبادئ الأبدية التي دافعت عنها (أنتيجون) سترضخ إلى (كريون) حتى لو لم يكتب (سوفوكليس) القصة. لكن في عصرنا هذا، يتعارض الإيمان بالديمقراطية وزعمها بأنها تُعَلِّم الناس تعارضًا شديدًا مع الحقيقة القائلة إن البروباجاندا تتبع آلية مختلفة تمامًا وتمارس وظيفة مختلفة جدًّا عن وظيفة المعلومات وأن الحقائق هذه الأيام لا تفترض الواقع في عيون الناس إلا إذا تأسست هذه الحقائق عن طريق البروباجاندا التي تخلق بالفعل الحقيقة بمعنى أنها تخلق داخل الناس المُعَرَّضين للبروباجاندا كل العلامات والدلالات التي يتميز بها المؤمنون الصادقون.

بالنسبة للإنسان المعاصر، تخلق البروباجاندا الحقيقة فعلًا. هذا يعني أن الحقيقة لا قوة لها بدون البروباجاندا. وبالنظر إلى التحدي الذي تواجهه الأنظمة الديمقراطية، فإنه في غاية الأهمية أن تتخلى هذه الأنظمة عن ثقتها بالحقيقة كذلك وأن تكيف نفسها مع مناهج البروباجاندا. إذا لم تفعل ذلك، باعتبار نزعات الحضارة الآنية، ستخسر الأمم الديمقراطية الحرب التي أدارتها في هذ المجال.

البروباجاندا الديمقراطية

باحثو هذه المسألة اقتنعوا بضرورة استخدام وسائل البروباجاندا ووجدوا أنفسهم أمام المشكلة التالية: استخدمت الدول الشمولية البروباجاندا إلى أقصى حد على أراضيها لكي تخلق امتثالًا ولتتلاعب بالرأي العام وتكيفه مع قرارات الحكومة، وفي الخارج، لكي تدير الحرب الباردة وتقوض الرأي العام في الأمم التي تعتبرها أعداء وتحولها إلى ضحايا راغبة. يبدو أن بنية الديمقراطية صُممت خصيصًا لأجل استخدام هذه الأدوات. لكن إذا استخدمت الدول السلطوية خصوصًا هذه الأدوات، ولم تستخدمها الأنظمة الديمقراطية، هل يمكن للأنظمة الديمقراطية أن تستخدمها الآن؟ أعني هنا أن البروباجاندا التي تستخدمها الدولة السلطوية لها سمات خاصة لا يمكن فصلها عن هذه الدولة. هل يجب على البروباجاندا الديمقراطية أن تمتلك سمات تختلف عن هذه؟ هل من الممكن صنع بروباجاندا ديمقراطية؟

دعونا نصرف نظرنا سريعًا عن الفكرة التي تقول إن فرقًا صغيرًا في المحتوى يعني فرق في الطابع. "من اللحظة التي تُستخدم فيها البروباجاندا للترويج لأفكار ديمقراطية، فهي خيرة. وإذا كانت شريرة، فهذا لسبب واحد وهو المحتوى السلطوي." اتجاه مثل هذا غالى في المثالية وأهمل الشرط الأهم في العالم المعاصر: أسبقية الوسائل على الغايات. لكن يمكن القول – وهذا أمر يستحق التأمل – إن الديمقراطية ذاتها ليست "هدف خيري" للبروباجاندا. من الناحية العملية، فشلت كل جهود البروباجاندا في نشر الديمقراطية. في واقع الأمر،

ينبغي تعديل مفهوم الديمقراطية بأكمله حتى نصنع هدف جيد للبروباجاندا، لكن هذا ليس موجودًا في الوقت الحالي.

بالمناسبة، سأذكر الفكرة التالية: "من اللحظة التي تستخدم فيها الديمقراطية هذه الأداة (البروباجاندا)، تصير البروباجاندا ديمقراطية." لا يتحدث الناس كثيرًا عن هذه الفكرة بكل وضوح وقوة، لكنها فكرة مسكوت عنها عند معظم الكُتَّاب الأمريكيين. لا يمكن لشيء أن يمس الديمقراطية: على النقيض، تفرض البروباجاندا شخصيتها على كل شيء تضع يدها عليه. اعتبار هذا الانحياز مهم لفهم أسطورة الديمقراطية الأمريكية وتبني أنظمة ديمقراطية شعبية لهذا المبدأ مؤقتًا.

مثل هذه المواقف ظاهرية ونائية للغاية عن الوضع الحقيقي الذي لا يحتاجون أن يناقشوه. فضلًا عن ذلك، تأتي عادة من الصحفيين والمعلقين وليس من الذين درسوا قضية البروباجاندا وآثارها دراسة جادة. مع أن حتى أغلبية هؤلاء يتبنون الاعتقاد أن الإنسان يستطيع تأسيس نظام بروباجاندا يعبر عن الطابع الديمقراطي ولا يغير في عمل الديمقراطية. هذه مطالبة مزدوجة من البروباجاندا في النظام الديمقراطي.

هناك رأي يقول إن تلبية الشرط الأول ستتم عن طريق غياب احتكار وسائل البروباجاندا (في النظام الديمقراطي)، وعن طريق التفاعل الحر بين أنواع مختلفة من البروباجاندا. بالمقارنة مع احتكار الدولة واتحاد البروباجاندا في الدول الشمولية، صحيح أننا نجد تنوع كبير في الصحافة والإذاعة في البلاد الديمقراطية. لكن لا ينبغي المبالغة في التركيز على هذه الحقيقة: بالرغم من أنه ليس هناك احتكار قانوني أو احتكار للدولة، فهناك فعلًا احتكار خاص. حتى في الأماكن التي نجد فيها الكثير من ناشري الجرائد، من المعروف أن هناك تكتلات مؤسسة كنتيجة للملكية المنفردة لجرائد متعددة واحتكار وكالات الأنباء والتوزيع، وما إلى ذلك. في ميدان الإذاعة أو الأفلام، يسود نفس الوضع: بديهي

أنه ليس كل شخص قادر على امتلاك إعلام البروباجاندا. في الولايات المتحدة، شركات الإذاعة والأفلام كبيرة جدًّا، والشركات الأخرى ثانوية وغير قادرة على المنافسة، ولا تزال المركزية مستمرة. يتدفق التيار في كل مكان في اتجاه قلة قليلة، شركات قوية جدًّا تتحكم في كل وسائل إعلام البروباجاندا. هل ما زالت خاصة؟ على أي حال، كما رأينا بالفعل، على الدولة أن تصنع البروباجاندا *الخاصة بها*، في حالة واحدة: عندما تكون البروباجاندا في صورة نشر المعلومات.

بافتراض أن المعلومات عنصر من العناصر التي لا غنى عنها في الديمقراطية، من الضروري أن تتسم المعلومات التي روجت لها الدولة بالموثوقية، وبدون الموثوقية، ستفشل. لكن ماذا يحدث عندما يقوم تنظيم البروباجاندا الخاصة القوية بإنكار الحقائق وتزييف المعلومات؟ مَن يستطيع أن يحدد مصدر الحقيقة؟ على مَن يعتمد المواطن في الحكم على النقاش؟ يحدث الحوار الحقيقي في هذا المستوى. إذًا، السؤال هو ما إذا كانت الدولة ستدعم منافس خاص يسيطر على وسائل إعلامية مساوية لوسائلها الإعلامية أو متفوقة عليها، أو ستصنع بروباجاندا مختلفة. قد يكون شرعيًّا تمامًا للدولة أن تقهر مثل هذا المنافس أو أن تضمه لصفوفها.

بعض الناس سيقولون: "حرية التعبير هي الديمقراطية؛ ويعتبر منع البروباجاندا انتهاك للديمقراطية." بكل تأكيد، علينا أن نتذكر أن حرية التعبير لشركة أو شركتين قويتين لا تعبر عن أفكار الفرد أو مجموعات صغيرة، لكنها تعبر عن مصالح رأسمالية أو نظام كامل، لا تعكس بالضبط ما سُمي حرية التعبير من قرن مضى. علينا أن نتذكر أيضًا أن حرية التعبير لشخص يؤلف خطابًا لجمهور محدود ليس نفس حرية التعبير التي يتمتع بها خطيب يستحوذ على كل أجهزة المذياع في البلد. والأكثر من ذلك أن علم البروباجاندا يعطي لهذه الأدوات تأثير الصدمة الذي لا يمكن أن تضاهيه الأدوات التي لم تُستخدم بعد.

في هذه الصلة، أشير إلى دراسة متميزة أجراها (ريفيرو)[1] الذي أبرز الفرق الكبير بين القرنين التاسع عشر والعشرين في هذا الصدد:

في القرن التاسع عشر، كانت مسألة تشكيل الرأي من خلال التعبير عن الفكر أساسًا أمر تتعلق بالتواصل بين الدولة والفرد، أمر يتعلق *باكتساب الحرية*. لكن اليوم، بفضل الإعلام الجماهيري، يجد الفرد نفسه خارج المعركة... أصبح النقاش بين الدولة والجماعات القوية... لم تعد حرية التعبير عن الأفكار محور هذا النقاش... ما نراه هو هيمنة وسيطرة تفرضها الدولة أو جماعات قوية على الإعلام التقني كله لتشكيل الرأي... لا يستطيع الفرد أن يستخدمه...لم يعد يشارك في هذه المعركة لحرية التعبير عن الأفكار: فهو الغنيمة. المهم بالنسبة إليه هو أي صوت سيُسمح له بأن يسمعه وأية كلمات ستتمتع بالقوة للاستحواذ عليه...

في ضوء هذا التحليل المتقن، علينا أن نسأل أنفسنا عن المعني الذي لا تزال الحرية تحمله في النظام الديمقراطي. لكن، حتى إذا أمسكت الدولة بكل أدوات البروباجاندا (يصير هذا مرجح أكثر لأسباب مالية واقتصادية وسياسية - وبخاصة فيما يتعلق بالتلفاز[2])، ما يميز الديمقراطية هو أنها تسمح بالتعبير عن أنواع مختلفة من البروباجاندا. هذا صحيح. لكن من المستحيل السماح للتعبير عن كل الآراء. بالنسبة إلى الآراء البغيضة غير الأخلاقية، فمن المنطقي أنها معرضة للرقابة. يتم بالضرورة إقصاء الآراء الشخصية الخالصة وأكثر منها بعض الميول السياسية. "أعداء الحرية لا يستحقون الحرية" هو الشعار إذًا. ومن ثم، تخلق الأنظمة الديمقراطية لنفسها مشكلة الدرجة والحد. مَن إذًا سيستبعد أدوات بروباجاندا معينة؟ بالنسبة إلى الفاشيين، الشيوعيون هم أعداء الحقيقة. وبالنسبة

(1) "Technique de formation de l'opinion publique," *L'Opinion Publique* (1957).

(2) في فرنسا

إلى الشيوعيين، أعضاء الطبقة البرجوازية والفاشيون والعالميون هم أعداء الحرية. وبالنسبة إلى الديمقراطية؟ طبعًا كل أعداء الديمقراطية.

قد يكون الأمر أكثر خطورة من ذلك. في وقت الحرب، يتفق الجميع على أن الأخبار ينبغي أن تكون محدودة وتحت السيطرة وأنه يجب حظر أي بروباجاندا لا تخدم المصلحة الوطنية. وتنمو بروباجاندا موحدة من هذه الحقيقة. المشكلة التي تنبثق الآن من هذا هي: لقد تحدثنا عن الحرب الباردة لكن يبدو أن الأنظمة الديمقراطية لم تتعلم حتى الآن أن الحرب الباردة لم تعد حالة استثنائية، حالة تشبه الحرب الساخنة (المؤقتة)، وإنما تصير حالة دائمة ومتوطنة.

هناك أسباب عديدة لهذا. سأذكر سبب واحد فقط: البروباجاندا ذاتها. البروباجاندا التي تستهدف أقاليم خارج حدودها تعتبر سلاح حرب. لا يتوقف هذا على إرادة هؤلاء الذين يستخدمونها أو على عقيدة ما لكنه نتيجة البيئة نفسها.

للبروباجاندا قدرة عظيمة على تحقيق تحول نفساني وتأثير هائل على جوهر الإنسان لدرجة أنها - لا محالة - تمتلك قوة عسكرية إذا استخدمتها الحكومة ووجهتها للخارج. ليس هناك استخدام "بسيط" للبروباجاندا؛ لا يقل نزاع البروباجاندا خطورة عن النزاع المسلح. إذًا، لا مناص من أننا سنجد في الحرب الباردة نفس الاتجاه الذي وجدناه في حالة الحرب الساخنة: الشعور بالحاجة لتوحيد البروباجاندا. هنا، الأنظمة الديمقراطية عالقة في حلقة مفرغة لا يبدو أنها قادرة على الفرار منها.

الجانب الرئيسي الآخر للبروباجاندا الديمقراطية هو أنها عُرْضة لقيم معينة. فهي ليست محررة، بل مغلولة[1]؛ فهي أداة للعقل وليست للعاطفة[2]. وعليه،

---

(1) بروباجاندا من هذا النوع محدودة في الأنظمة الديمقراطية بقوة القانون وفصل السلطات وما إلى ذلك.

(2) انظر، على سبيل المثال:

Kris, Ernest & Leites, Nathan. "Trends in Twentieth-Century Propaganda."

على البروباجاندا الديمقراطية خصوصًا أن تكون صادقة. لا يجب أن تنطق إلا بالحقيقة وأن تقوم على الحقائق. يمكن ملاحظة هذا في البروباجاندا الأمريكية: لا يمكن إنكار أن المعلومات والبروباجاندا الأمريكية صادقة. ولكن هذا لا يبدو لي أنه خصلة أصيلة في الديمقراطية. العبارة التي يعبر بها الأمريكيون عن موقفهم هي: "الحقيقة مربحة." وهذا يعني أن البروباجاندا التي تقوم على الحقيقة أكثر فعالية من أي بروباجاندا أخرى. فضلًا عن ذلك، تصريح (هتلر) الشهير عن الكذب ليس سمة نمطية للبروباجاندا. هناك تطور جلي هنا: يتضاءل استخدام الأكاذيب والتزييف أكثر وأكثر. لقد قلنا هذا بالفعل. صار استخدام الوقائع الدقيقة أكثر شيوعًا.

وبالعكس، يكشف استخدام الفروق الدقيقة والليونة موقفًا خاصًا بالديمقراطية. في الأصل هناك احترام للإنسان، ربما غير واع، وفي طريقه للوهن باستمرار، لكنه ما زال موجودًا. حتى أكثر الديمقراطيين ميكيافيلية يحترم ضمير مستمعه ولا يعامله بازدراء أو باستهتار. تقليد احترام الفرد لم يندثر حتى الآن، وهذا يؤدي إلى شتى العواقب، أولها أنه يحد من البروباجاندا. لا تستخدم الدولة الديمقراطية البروباجاندا إلا إذا دفعتها الظروف لذلك - مثلًا، تقليديًّا، بعد الحروب. لكن، في حين أن البروباجاندا المحلية والخاصة ثابتة ومستمرة في كل آثارها، تتبخر البروباجاندا الخارجية والحكومية بسهولة. بجانب ذلك، مثل هذه البروباجاندا ليست شاملة ولا تهدف إلى تطويق الحياة البشرية أو السيطرة على كل شكل من أشكال السلوك أو ربط نفسها في النهاية بشخصية الإنسان.

سمة ثالثة للبروباجاندا الديمقراطية هي أنها تنظر إلى وجهي العملة. كثيرًا ما يقترب الاتجاه الديمقراطي إلى اتجاه الجامعة: ليس هناك حقيقة مطلقة، وهناك اعتراف بأن الخصم حسن النية إلى حد ما ويتسم بشيء من العدل والمنطق. هذا

قارن (إرنست كريس) و(ناثان ليتيس) بين الميل للضمير واللاعقلانية على يد البروباجاندا السلطوية، والبروباجاندا الديمقراطية الموجهة نحو الأنا.

أمر يتعلق بالفروق الدقيقة، وليس هناك قاعدة صارمة - إلا في وقت الحرب - عن الخير في جانبنا والشر في الجانب الآخر.

أخيرًا، كثيرًا ما سيشعر مروج البروباجاندا الديمقراطي - أو الدولة الديمقراطية - بوخز الضمير عند استخدام البروباجاندا. سيتدخل الضمير الديمقراطي القديم ويعترض طريق مروج البروباجاندا ويثقل كاهله؛ عنده شعور مبهم بأنه متورط في شيء غير مشروع. وبالتالي، حتى يتمكن مروج البروباجاندا في النظام الديمقراطي من أن يلقي نفسه تمامًا في مهمته، من الضروري أن يؤمن، أي أن يشكل معتقداته الخاصة في نفس الوقت الذي يصنع فيه البروباجاندا.

ذكر (لازويل) فرقًا آخر بين البروباجاندا الديمقراطية والشمولية فيما يتعلق بتقنيات البروباجاندا ذاتها، كما ميز بين "التحريض المتناقض" و"التحريض الإيجابي." يتألف الأول من مثير تطلقه السلطات أو مَن يُجري التجربة لكي ينتج في الحشود أثرًا لا يشارك فيه مَن في السلطة. وفقًا لـ (لازويل)، هذا منهج معتاد للحكم المستبد والطغيان. وبالعكس، يعتبر التحريض الإيجابي، الذي يرمز لليد الأخوية الممدودة، مثيرًا نابعًا مما تشعر به القوى الموجودة وترغب السلطات أن تشارك فيه الحشود. فهذا فعل جماعي. وهذا التحليل دقيق إلى حد كبير.

يمثل كل هذا الوضع الذي تجد الأنظمة الديمقراطية نفسها فيه في مواجهة مع البروباجاندا، ويشير إلى الفرق بين مناهج البروباجاندا الديمقراطية والشمولية. ولكن عليّ الآن أن أصدر حكمًا مهمًا للغاية بشأن مثل هذا النشاط (البروباجاندا الديمقراطية): كل ما قمتُ بوصفه يدلل على بروباجاندا غير فعالة حيث إن مروج البروباجاندا يحتفظ باحترامه للفرد، ويمنع نفسه من التغلغل الذي يهدف إليه كل أنواع البروباجاندا في النهاية: تغلغل الفعل التحريضي دون تفكير مسبق. عندما يحترم الفروق الدقيقة، يهمل القانون الأساسي للبروباجاندا: كل مرة يُصر ويؤكد فيها شيئًا يجب أن يكون شاملًا وحادًّا. ولأنه يظل منحازًا،

يفشل في استخدام الألغاز التي لا يمكن الاستغناء عنها في البروباجاندا جيدة الصنع.

وبما إن مروج البروباجاندا الديمقراطي يشعر أن نيته سيئة، لا يستطيع أن يقوم بعمل جيد ولا يستطيع ذلك عندما يؤمن بالبروباجاندا الخاصة به. فيما يتصل بتفريق (لازويل)، تتطلب تقنية البروباجاندا شكلًا أو آخر حسب الظروف. على أي حال، دائمًا ما تخلق البروباجاندا شقًّا بين الحكومة والحشد. قمتُ بوصف هذا الشق ذاته في كتاب "المجتمع التكنولوجي." تثير كل التقنيات هذا الشق، ويمثل ممارسو هذه التقنيات نوعًا من نخبة التقنيين وهم مَن يعدلون بنية الدولة.

حسب تحليل (لازويل)، البروباجاندا التي تقوم على التحريض المتناقض تعبر عن الشق. أُفَضّل أن أقول إنها تعبر عن النخبة. لكن "الديمقراطية الجماهيرية" الشهيرة تعكس ذلك وهي كذلك في الأصل. في نهاية المطاف، حتى إذا حاولنا الحفاظ على الثقة والشراكة بين الحكومة والمحكومين، سينتهي الحال بكل أنواع البروباجاندا كوسيلة تتلاعب من خلالها القوى السائدة بالجماهير.

على مروج البروباجاندا الحقيقي أن يكون باردًا وواضحًا وحازمًا مثل الجراح. هناك فاعلون وهناك مفعول بهم. مروج البروباجاندا الذي يؤمن بما يقول ويسمح لنفسه بأن يصير ضحية اللعبة التي يلعبها سيكون عنده نفس الضعف الذي يعاني منه الجراح الذي يجري عملية على شخص يحبه أو قاض يترأس محاكمة فرد من أفراد عائلته. لكي نتمكن من استخدام أداة البروباجاندا هذه الأيام، علينا اتباع نهج علمي، ويمثل غياب هذا النهج الضعف الذي أصبح ظاهرًا في البروباجاندا النازية في سنواتها الأخيرة: من الواضح أنه يمكننا أن نرى من محتواها بعد 1943م أن (جوبلز) نفسه قد بدأ أن يصدقها.

ومن ثم، تشل بعض مظاهر الديمقراطية الأساسية عمل البروباجاندا. وعليه، فليس هناك بروباجاندا "ديمقراطية." البروباجاندا التي تصنعها الأنظمة

الديمقراطية مشلولة وضعيفة وغير فعالة. يمكننا قول الشيء ذاته عندما يكون هناك أنواع مختلفة من البروباجاندا: عندما يتسع المجال لأنواع مختلفة من البروباجاندا للتعبير عن نفسها، تصبح غير مؤثرة فيما يتعلق بهدفها المباشر. عدم الفعالية هذه (فيما يخص مواطني الديمقراطية) تحتاج تحليلًا أكثر. دعونا فقط نؤكد هنا أن بروباجاندا الدول الشمولية تفوقت على البروباجاندا التي نتحدث عنها هنا والتي لا تقوم بعملها المنوطة به. باعتبار التحدي الذي نواجهه، من اللازم أن تكون هذه البروباجاندا فعالة. ولذلك علينا أن نتخلى عن الخصائص الأصيلة في النظام الديمقراطي التي تُعجز البروباجاندا: مزيج من البروباجاندا المؤثرة واحترام الفرد يبدو مستحيلًا.

هناك عنصر أخير سأذكره باقتضاب. أثبت (جاك درينكورت) أن البروباجاندا في جوهرها شمولية لأنها تميل إلى امتصاص أي شيء وليس لأنها خادمة الدولة الشمولية. هذه النتيجة هي أفضل جزء في عمله[1]. هذا يعني أنه عندما نسير في هذا الاتجاه لا يمكن التوقف في وسط الطريق: علينا استخدام كل الأدوات وكل المناهج التي تجعل البروباجاندا فعالة ومؤثرة. كما أن علينا أن نتوقع أن الأنظمة الديمقراطية ستتخلى عن تدابيرها الوقائية وعن الفروق الدقيقة وستلقي بنفسها قلبًا وقالبًا في عمل البروباجاندا الفعال. التطورات التي حدثت على مدار العقد المنصرم تثبت ذلك. لكن، مثل هذا العمل لم يعد يتمتع بطابع ديمقراطي خاص.

الآن، علينا بحث الآثار التي يتركها صنع البروباجاندا على الديمقراطية. لقياس ذلك، ينبغي لنا التمييز بين البروباجاندا الخارجية والداخلية. لا ينبغي أن تتمسك بالوهم أن البروباجاندا ليست إلا أداة محايدة يمكن استخدامها دون التأثر بها. يمكن مقارنتها بالراديوم، وما يحدث إلى متخصصي الأشعة معروف جيدًا.

---

(1) *La Propaganda, nouvelle force politique* (Paris: A. Colin; 1950).

آثار البروباجاندا العالمية

في ميدان السياسة الخارجية والبروباجاندا التي تستهدف الخارج، ليس هناك من الناحية العملية أية بروباجاندا خاصة وليس هناك أنواع مختلفة من البروباجاندا. حتى الأحزاب التي ترتبط بحكومة أجنبية، وبالتالي تصنع بروباجاندا مختلفة عن تلك التي تصنعها حكومتها الوطنية، توجه البروباجاندا الخاصة بها إلى الداخل. لكن ما الطابع الذي يتخذه هذا الشكل الفريد من البروباجاندا (التي تستهدف الخارج)؟ ما التداعيات التي تتركها على النظام الديمقراطي الذي يمارسها؟ هل يمكن أن تنشأ حقًّا في ميدان المعلومات؟

لدينا دليل دامغ اليوم على أنه لا طائل على الإطلاق من المعلومات المباشرة الموجهة نحو بلد أجنبي[1]. تكمن المشكلة في التغلب على الكراهية القومية (والتي نراها حتى بين البلاد الصديقة)، والولاء لحكومة أخرى، ولعالم نفساني وتاريخي آخر، وأخيرًا للبروباجاندا مضادة، لا يجدي أن نتوقع أي شيء من المعلومات المباشرة: الواقع العاري (الحقيقة) لا يمكن أن يحقق أي شيء أمام مثل هذه العوائق. الحقائق لا تُصدَّق. غير الحالات الاستثنائية (احتلال عسكري وغيره)، يصدق الناس حكومتهم وليس الحكومة الأجنبية التي لا يصدق أحد حقائقها. في الواقع، لا تستطيع البروباجاندا أن تخترق وعي حشود بلد أجنبي إلا من خلال الأسطورة، فلا يمكنها أن تشتغل بواسطة آراء بسيطة مثل مع هذا أو ضده، فهي لا تخاطب مشاعر موجودة بالفعل لكن ينبغي لها أن تخلق صورة لتكون بمثابة قوة محفزة. يجب أن يكون لهذه الصورة طابع عاطفي يقود إلى إخلاص كينونة الفرد بدون تفكير. وهذا لا يمكن أن يكون أي شيء إلا الأسطورة.

لكن، بعد ذلك، تسلك الديمقراطية طريقًا يحتاج إلى ملاحظة. أولًا، تبدأ في المشاركة في اللعبة التي تقود الإنسان من العقلانية والوعي إلى أحضان

---

(1) نتحدث هنا أساسًا عن البروباجاندا التي استهدفت البلاد الشيوعية.

اللاعقلانية و"القوى الغامضة" لكننا نعرف بالفعل أن المؤمن في هذه اللعبة ليس المسيطر، وأن القوى التي أطلقت لها العنان نادرًا ما تعود تحت السيطرة مرة أخرى. بعبارة أخرى: لا تُحَضِّر البروباجاندا الديمقراطية الأسطورية المستمع لها إلى الديمقراطية بأي حال من الأحوال، لكنها تقوي الميول الشمولية لديه، وفي أفضل الأحوال، تقدم له اتجاهًا مختلفًا لهذه الميول. سنعود لهذا مرة أخرى. لكن، قبل كل شيء، علينا أن نسأل أنفسنا عن الأسطورة التي يجب على الديمقراطية أن تستخدمها. رأينا من خبرتنا أن الأنظمة الديمقراطية قد استخدمت أساطير السلام والحرية والعدل وغيرها.

كل هذا قد أُستخدم، لكنه غير مقبول إذ إن الجميع يستخدم هذه الكلمات. لكن، الأسطورة التي استخدمتها البروباجاندا ينبغي أن تكون محددة: أسطورة الدم والأرض كانت رائعة. ما الأساطير المحددة التي تبقت للديمقراطية؟ إما موضوعات لا يمكن أن تشكل محتوى أسطورة (مثل الرفاهية) وإما الحق في التصويت أو الديمقراطية ذاتها.

بعكس ما قد يظنه البعض، أسطورة الديمقراطية لم تُستهلك بعد، بل أمامها الكثير من الوقت، ويمكنها أن تقدم مادة جيدة للبروباجاندا. الحقيقة القائلة إن الأنظمة السلطوية الشيوعية اختارت أيضًا الديمقراطية كنقطة انطلاق للبروباجاندا - تثبت لنا قيمة الديمقراطية في عمل البروباجاندا. وعندما تُقدم الديمقراطية وتُنظم وتُبنى على أنها أسطورة، يمكنها أن تكون موضوعًا جيدًا للبروباجاندا. الديمقراطية تناشد المعتقد: تعيد بناء الدافع نحو "الفردوس المفقود" وتستخدم أهم خوف عند الإنسان. ومن هذا الجانب - وليس غيره - تسنح فرصة ما للبروباجاندا الديمقراطية أن تخترق بلاد أجنبية غير ديمقراطية، لكن علينا بعد ذلك أن نأخذ العواقب في الاعتبار.

العاقبة الأولى هي أن أية عملية تُحَوّل الديمقراطية إلى أسطورة تُحَوّل كذلك المثل الديمقراطية. لم يكن القصد من الديمقراطية أن تكون أسطورة. السؤال

طُرح مبكرًا - في 1971م في فرنسا. ونعرف أنه لم يمر وقتًا طويلًا بعد ذلك عندما خرجت "اليعقوبية" من رحم الديمقراطية الفرنسية. ينبغي لنا أن نفهم أن "اليعقوبية" قد أنقذت البلد. زعمتْ "اليعقوبية" أنها أنقذت الجمهورية، لكن من الجلي أنها لم تنقذ إلا النظام اليعقوبي عن طريق تدمير كل ما هو ديمقراطي. لا يمكننا هنا أن نستفيض في تحليل آثار الأسطورة على محو الديمقراطية خلال الفترة من 1793م وحتى 1795م. دعونا فقط نقول إن الديمقراطية لا يمكنها أن تكون موضوع للإيمان أو المعتقد: فهي تعبير عن الآراء. هناك فرق أساسي بين الأنظمة القائمة على الرأي والأنظمة القائمة على المعتقد.

صنع أسطورة الديمقراطية يعني تقديم نقيض الديمقراطية. علينا أن ندرك بوضوح أن استخدام الأساطير العتيقة وخلق أساطير جديدة يعني العودة إلى العقلية البدائية، بغض النظر عن التقدم المادي. يعتبر استحضار المشاعر الروحانية رفض للمشاعر الديمقراطية. تظهر مشكلات كبيرة في الولايات المتحدة بسبب مثل هذه الأساطير المتنوعة، مثل أخوية (كو كلوكس كلان) ومنظمة (الفيلق الأمريكي) و(الأب السماوي). هذه الأساطير تعادي الديمقراطية لكنها محلية وجزئية وخاصة. يزداد الأمر خطورة إلى أبعد حد عندما تصير الأسطورة عامة ومعممة ورسمية، وعندما يصبح المعادي للألغاز في حد ذاته لغز.

بالطبع، قد قلنا إن مثل هذه البروباجاندا الديمقراطية قد خُلقت للاستخدام الخارجي. لا يمكن الوصول للناس الذين قد تعرضوا للبروباجاندا الشمولية بالفعل إلا عبر الأسطورة، وحتى هذا لا يغير سلوكهم أو عقليتهم؛ كل ما تفعله هو أنها تدخل في القالب القائم وتخلق معتقدات جديدة فيه. لكن النظر للأمور بهذه الطريقة يفترض عاقبتين:

الأولى هي أننا نقبل الحقيقة القائلة إنه يجب على مثل هذه البروباجاندا الديمقراطية الخارجية أن تكون سلاحًا، وإننا تعامل هنا مع حرب نفسانية، وإننا نكيف أنفسنا مع حبل أفكار العدو، و(من هذا المنطلق) إن الناس الذين نعرضهم

للبروباجاندا ليسوا هؤلاء الذين نريد أن نراهم يصيرون ديمقراطيين لكنهم هؤلاء الذين نريد أن نهزمهم. إن استهدفنا حقًّا مثل هذه الأمة بمساعدة الأسطورة، سنؤكد الأسطورة في الحالة العقلية والسلوك ومفهوم الحياة المعادية للديمقراطية: لا نعدها لتصبح أمة ديمقراطية لأننا، من ناحية، نستمر في استخدام طرائق الحكومة السلطوية لذه الأمة ونعززها، ومن ناحية أخرى، لا نستطيع أن نعطي الناس - من خلال مثل هذه الوسائل - الرغبة في الالتزام بشيء آخر بطريقة أخرى. نطلب ببساطة نفس النوع من القبول لشيء آخر، لحكومة ذات شكل آخر. هل يكفي أن ندفع الناس على تغيير ولائهم؟ هذه هي مشكلة البروباجاندا الديمقراطية في ألمانيا واليابان.

في المكانة الثانية، تشير هذه الطرائق ضمنيًّا إلى أننا نعتبر الديمقراطية شيئًا مجردًا. إذا ظننا أن إقحام أفكار مختلفة في قالب البروباجاندا يكفي لتغيير طبيعة البروباجاندا، فنحن لا نصنع شيئًا إلا مجرد نظرية أو فكرة للديمقراطية. أيًّا كان محتواها، تميل البروباجاندا إلى خلق نفسية بعينها وسلوك محدد. ظاهريًّا، من الممكن أن يكون هناك اختلافات لكنها وهمية. مثلًا، إذا قلنا إن البروباجاندا الفاشية (والفاعل فيها كان الدولة) مختلفة عن البروباجاندا النازية (وموضوعها كان العرق) لأن محتوى كل منها كان مختلفًا سيعنى هذا أننا أصبحنا ضحايا لفروق أكاديمية وغير حقيقية. ومع ذلك، عند نشر "الفكرة الديمقراطية" عبر الوسائل التي تؤدي إلى سلوكيات غير ديمقراطية، لا تفعل شيئًا غير أنها تعزز الرجل الشمولي في قالبه.

هذا لا يأخذ في الاعتبار أن الكسوة الديمقراطية وأسطورة الديمقراطية كهدف للبروباجاندا يعتبر منظورًا هشًّا للغاية. في واقع الأمر، التكيف الدائم للمستهدفين من البروباجاندا مع أشكال البروباجاندا يعتبر أحد قوانين البروباجاندا الأساسية.

في هذا الميدان، كما في ميادين أخرى كثيرة في العالم الحديث، تفرض الوسيلة قوانينها. بعبارة أخرى، من المرجح أن تصير أهداف البروباجاندا شمولية لأن

البروباجاندا ذاتها شمولية. هذا بالضبط ما قلته عندما تحدثت عن ضرورة تحويل الديمقراطية إلى أسطورة.

ومن ثم، يمكن لهذا النوع من البروباجاندا أن يكون مؤثرًا كسلاح حربي لكن ينبغي لنا أن ندرك - عندما نستخدمه - أننا في نفس الوقت نقضي على احتمالية بناء ديمقراطية حقيقية. لقد قلت إن مثل هذه البروباجاندا صممت من أجل الاستخدام الخارجي، وأن الأسطورة كانت تستهدف الخارج. مع هذا، ليس مؤكدًا إذا كان ممكنًا فرض مثل هذا القيد. عندما تبني الحكومة صورة ديمقراطية بهذه الطريقة، لا يمكنها عزل الميدان الخارجي عن الميدان الداخلي. وعليه، ينبغي أيضًا لهؤلاء الذين يصنعون مثل هذه البروباجاندا في البلد أن يقتنعوا بتميز هذه الصورة. مجرد معرفتها لا تكفي، وإنما المهم هو اتباعها.

وبالمناسبة، هذا يضع حدًّا لدرجة كذب البروباجاندا؛ لا تستطيع الحكومة الديمقراطية أن تُقَدِّم للعالم الخارجي صورة غير دقيقة وكاذبة لسياساتها كما تفعل الحكومة الشمولية. لكن هناك تحفظان على هذه الفكرة: من ناحية، تقع الأمة الديمقراطية ذاتها في قبضة البروباجاندا إلى حد ما، وتتماشى مع الصورة المثالية للحكومة بسبب الفخر الوطني. ومن ناحية أخرى، حتى الحكومات الشمولية تعي أن الحقيقة مفيدة في البروباجاندا. كما صرحتُ، هذا يفسر الشكل النهائي للبروباجاندا الذي تبناه (جوبلز) في 1944م.

وكنتيجة لذلك، تصير الأسطورة التي خُلقت للاستخدام الخارجي معروفة في الداخل ولها تداعيات هناك؛ حتى إذا لم نحاول أن نؤثر على الناس عن طريق صنع البروباجاندا في الخارج، سيتفاعل الناس بشكل غير مباشر. ومن ثم، ينبغي تحليل التداعيات على الشعب الديمقراطي الذي يؤمن بأسطورة خلقتها الحكومة للاستخدام الخارجي. ستؤدي هذه التداعيات في المقام الأول إلى تأسيس الإجماع.

هذه تابعة أولية وبسيطة جدًّا. لا تستطيع الأسطورة (الصورة التي تستحضر المعتقد) أن تتحمل أي تخفيف أو تدابير غير حاسمة أو تناقضات. ليس أمام

الناس إلا أن يصدقوها أو لا يصدقوها. يجب على الأسطورة الديمقراطية أن تظهر بنفس الشكل - حاد ومتماسك - ويكون لها نفس طابع الأساطير الأخرى. لكي تكون الأسطورة فعالة في الخارج، يجب ألا يكون هناك ما يتعارض معها في الداخل. لا يجب أن يعلو أي صوت آخر في الداخل لدرجة تمس هدف البروباجاندا الخارجية أو تدمر الأسطورة.

هل هناك مَن يصدق أنه ممكنًا أن نصنع بروباجاندا فعالة تجاه الجزائر مثلًا إذا تلقت معارضة مباشرة هناك؟ كيف يمكن للجزائريين - أو أي أجانب آخرين - أن يأخذوا وعد قطعه اللواء (ديجول) باسم فرنسا على محمل الجد إذا أعلنت الصحافة مباشرةً أن جزءًا من فرنسا لا يتفق مع هذا الوعد؟[1] هذا سيقودنا إلى محو أي معارضة قد تبين أن الناس لا يُجْمِعون على الديمقراطية التي تجسدها الحكومة. يمكن لمثل هذه المعارضة أن تدمر فعالية البروباجاندا الديمقراطية تدميرًا كاملًا. فضلًا عن ذلك، تصنع الحكومة التي تدعمها الأغلبية هذا النوع من البروباجاندا. أما الأقلية - رغم إنها ديمقراطية أيضًا - ستميل إلى أن تكون ضد هذه البروباجاندا ليس لشيء إلا إنها تأتي من الحكومة (رأينا هذا في فرنسا بعد 1945م).

بناءً عليه، مع أنها تتماشى مع فكرة الديمقراطية، تقدم الأقلية نفسها على إنها معادية لأسطورة الديمقراطية. إذا أرادت الحكومة أن تكون البروباجاندا التي تستخدمها فعالة ستضطر إلى تحجيم إمكانية تعبير الأقلية عن نفسها، أي تصطدم بأحد خصائص الديمقراطية الأساسية وتدمرها؛ لقد اعتدنا بالفعل على هذا من أوقات الحرب وكذلك من الرقابة. وهنا نواجه الحقيقة التي ناقشناها آنفًا مواجهة مباشرة: البروباجاندا بذاتها تُعتبر حالة حرب إذ إنها تقتضي إقصاء التيارات

---

(1) عدم اتساق من هذا النوع كان السبب - من بين أسباب كثيرة - في سنوات من المفاوضات غير الناجحة، وأدى كذلك إلى عدم فعالية الأسطورة.

المضادة والأقليات - ربما ليس إقصاءً شاملًا أو رسميًّا وإنما على الأقل جزئي وغير مباشر.

إذا واصلنا في نفس الاتجاه الفكري، سيظهر عامل آخر: لكي يكون للأسطورة وزن حقيقي، عليها أن تستند إلى المعتقد الشائع. بعبارة أخرى، لا يمكن فرض الأسطورة ببساطة على الخارج حتى عن طريق وسائل مادية حديثة وقوية؛ لن يكون لصورة مثل هذه أي قوة إلا إذا كان الناس يصدقونها بالفعل. الأسطورة معدية لأن المعتقدات معدية. وبالتالي، لا غنى عن إيمان الديمقراطيين بالأسطورة الديمقراطية. وبالعكس، لا ينفع الحكومة نفسها أن تسلك نفس الطريق لكن على الحكومة أن تتأكد أن البروباجاندا التي تمارسها في الخارج مطابقة تمامًا للبروباجاندا التي تمارسها في الداخل، وأن تفهم أن البروباجاندا في الخارج لن تكون قوية إلا إذا صدقها الناس في الداخل. (فهمت الولايات المتحدة ذلك جيدًا في الفترة بين 1942م و1945م) وكلما بدت الأسطورة أنها تعبر عن معتقد الأمة بأكملها، زادت فعاليتها - فهي تفترض الإجماع.

لقد رأينا كيف شكلت البروباجاندا طائفة حول شخصية ما. ينطبق هذا بالتحديد على الديمقراطية حيث يمدح الناس الفرد الذي يرفض "الحشد" ويأبى المجهولية ويتحاشى الميكنة. يريد الفرد نظامًا بشريًّا فيه الأفراد بشر ويحتاج حكومة يقودها بشر. وعلى البروباجاندا أن تثبت له ما يريد أن يراه، وأن تخلق له هذه الشخصيات. وللتأكيد، الهدف في هذا المستوى ليس تأليه الأشخاص. لكن التأليه سيحدث لا محالة إذا نجحت البروباجاندا في مهمتها. لا يهم إذا كان هذا التأليه لرجل يرتدي زي عسكري تغطيه الأوسمة، أو قميص العمل وقبعة، أو بزة وقلنسوة. فهذه تكيفات البروباجاندا البسيطة مع مشاعر الحشد. سترفض الحشود الديمقراطية الزي العسكري لكنها ستعبد القلنسوة إذا تقدمت لها تقديمًا حسنًا. لا يمكن أن يكون هناك بروباجاندا بدون شخصية، زعيم سياسي. يعتبر (ماكارثر) و(دلادييه) و(كليمنصو) و(ديجول) و(تشرشل) و(روزفلت) أمثلة

واضحة على ذلك. بل، أكثر من ذلك، (خروتشوف) - بعد أن أدان الطائفة التي تلتف حول شخصية - قد انزلق إلى نفس الدور بطريقة مختلفة لكن بنفس السهولة، ممتثلًا للضرورة ذاتها. الإجماع في الأمة ضرورة، ويتجسد هذا الإجماع في شخصية واحدة يجد الجميع فيها أنفسهم، ولها كل شيء ممكن ومسموح به، وفيها يجد الجميع أملًا ويتصورون أنفسهم فيها.

بعض هؤلاء الذين درسوا مسألة البروباجاندا في الديمقراطية سلموا بالحاجة إلى الإجماع. زعم البعض أن هذا الإجماع يشير إلى الانتقال من الشكل القديم للديمقراطية إلى شكل جديد: "الديمقراطية الجماهيرية والتقدمية." بعبارة أخرى، ديمقراطية البيعة، نظام لكل الناس فيه نفس المعتقد، لكن المعتقد لا يبتعد عن المركز، أي معتقد يعبر عن ذاته بأشكال مختلفة ويعترف باحتمالية حدوث انحرافات متطرفة. سيقترب من المركز ويقاس معه كل شيء بواسطة نفس المقياس. وستعبر الديمقراطية عن نفسها بصوت واحد، وستذهب إلى أبعد من مجرد أشكال حتى تصل إلى الطقوس والشعائر.

من ناحية أخرى، فهي ديمقراطية المشاركة التي ينخرط فيها المواطن انخراطًا كاملًا. وستندمج حياته كلها وتحركاته في نظام اجتماعي معين. ضرب أحد الكُتّاب مثل مجلس حزب (نريمبرج)! ياله من مثال غريب للديمقراطية!

صحيح أن هذا الإجماع والمجتمع الأحادي فقط هو الذي يمكنه أن ينتج بروباجاندا فعالة خارج حدود المجتمع. لكن علينا أن نسأل أنفسنا إن كان هذا المجتمع ديمقراطي في هذه اللحظة. ما طبيعة الديمقراطية التي لم يعد فيها أي معارضة أو أقليات؟ ما دامت الديمقراطية تمثل مجرد تفاعل بين الأحزاب، يمكن أن يكون هناك معارضة. مع ذلك، عندما نسمع عن ديمقراطية جماهيرية فيها مراسم هائلة يشارك فيها الناس عندما تحثهم الدولة على ذلك، يدلل هذا أولًا على اللبس بين الحكومة والدولة، ويشير إلى أن أي شخص لا يشارك ليس في

المعارضة وحسب، وإنما يقصي نفسه من المجتمع الوطني الذي يعبر عن نفسه في هذه المشاركة. هذا حقًا تحول رائع للبناء الديمقراطي لأنه لم يعد هناك أي احترام للأقلية المعارضة للدولة - معارضة تفتقر إلى وسائل البروباجاندا أو، على الأقل، أي وسائل يمكن أن تنافس وسائل الدولة، ولم يعد لها صوت.

لن يُسمَع للأقلية صوت لأن آثار الأسطورة (التي ضخمتها البروباجاندا) لا تتغير أبدًا، ودائمًا ما تعادي الديمقراطية. أي شخص يشارك في مثل هذه الجماعة السياسية-الاجتماعية ويتشرب حقيقة الأسطورة، يصير بالضرورة طائفيًّا. تقوم البروباجاندا بتكرار هذه الحقيقة مرات عديدة وإدخالها في اللاوعي عند متلقيها بأشكال مختلفة حتى تصير حقيقة مطلقة لكل مشارك. لا يمكن مناقشة هذه الحقيقة دون كذب وتشويه وتحريف. لا يُستثنى الديمقراطيون مما يُسمى "الذهان" مع العلم أنها تسمية غامضة. لكن مثل هذه البروباجاندا، إذا كانت فعالة، تهيئ الناس للذهان أو حتى تتسبب فيه.

إذا لم يؤمن الناس بالأسطورة، لا يمكنها أن تساهم في منافسة البروباجاندا الشمولية. لكن إن صدقها الناس فعلًا، سيقعون ضحية لهذه الأساطير التي - رغم إنها ديمقراطية في ظاهرها -تتسم بكل خصال الأساطير الأخرى، ولاسيما استحالة شك المؤمنين فيها. يمكن لهذا أن يمحو الحقيقة المضادة تمامًا، ومباشرةً يطلق عليها "خطأ." بمجرد أن تصير الديمقراطية هدفًا للبروباجاندا، تصير كذلك شمولية وسلطوية ودكتاتورية من نوع خاص.

الحماس والسعادة الغامرة التي يشعر بها الناس الذين يميلون إلى الأسطورة تدفعهم بالضرورة إلى الطائفية والتشدد. نشأت أسطورة الديمقراطية مثلًا خلال فترة "المؤتمر" حيث كان هناك أشكالًا من الديمقراطية الجماهيرية ومراسم فخمة وجهود نحو إجماع الآراء. لكن، هل هذا لا يزال نظام ديمقراطي؟ أليس هناك أيضًا تغيرات في الأعراف في الولايات المتحدة عندما نصف أي شيء لا يمتثل

امتثالًا صارمًا على أنه غير أمريكي؟ هذا اللفظ، غير أمريكي، غير دقيق على الإطلاق بالنسبة إلى الفرنسيين لكنه دقيق في الولايات المتحدة لأنه أتى نتيجة الإيمان بالأسطورة. إثارة مثل هذا المعتقد ودفع الناس في طريق السعادة الغامرة - التي بدونها لا يمكن للبروباجاندا أن تنشأ - تعني إعطاء الناس مشاعر وردود أفعال لا تتناسب مع الحياة في النظام الديمقراطي.

وهذه حقًّا القضية الأساسية: الديمقراطية ليست مجرد شكل ما من التنظيم السياسي أو أيديولوجية، وإنما، في المقام الأول، رؤية للحياة ونمط سلوكي. لو كانت الديمقراطية شكلًا واحدًا من التنظيم السياسي، لن يكون هناك مشكلة: تستطيع البروباجاندا أن تتأقلم مع ذلك. وها هو الرأي المؤسسي: البروباجاندا ديمقراطية لأنه ليس هناك دولة أحادية تمركزت على يد البروباجاندا. ومن ثم، لو كنا في محضر أيديولوجية وحسب، لن يكون هناك مشكلة أيضًا: ستتمكن البروباجاندا من نشر أي أيديولوجية (في ضوء التحفظات التي ذكرناها آنفًا) وبالتالي، الأيديولوجية الديمقراطية أيضًا على سبيل المثال. ولكن، إذا كانت الديمقراطية طريقة حياة تتألف من التسامح والاحترام والمكانة والاختيار والتنوع وما إلى ذلك، ستحوّل البروباجاندا الإنسان إلى شخص لا يدعم النظام الديمقراطي لأنه لم يعد يمارس السلوك الديمقراطي. لهذه البروباجاندا تأثير على السلوك والمشاعر وتحولها تحولًا جذريًّا.

ومع ذلك، لا تستطيع البروباجاندا أن "تخلق" سلوكًا ديمقراطيًّا عن طريق الترويج لأسطورة - وهي الطريقة الوحيدة لعمل البروباجاندا في الخارج، لكنها أيضًا تعدل في سلوك الناس في الداخل. سنجد الشيء نفسه عند تأمل آثار بعينها للبروباجاندا المحلية.

آثار البروباجاندا الداخلية

حاولتُ أن أثبت في موضع آخر أن البروباجاندا قد أصبحت أيضًا ضرورة للحياة الداخلية للديمقراطية. تضطر الدولة هذه الأيام أن تقدم تعريفًا للحقيقة الرسمية، وهذا تَغَيُّر في غاية الخطورة. حتى إذا لم تتحفز الدولة لتفعل ذلك لأجل المكانة الاجتماعية أو اتخاذ موقف، تندفع إلى ذلك عندما تنجز وظيفة نشر المعلومات المنوطة بها.

رأينا كيف يؤدي نمو المعلومات حتمًا إلى الاحتياج للبروباجاندا. ينطبق هذا على النظام الديمقراطي أكثر من أي نظام آخر. سيقبل العوام الأخبار إذا تم ترتيبها بشكل مفهوم، وإذا لم تخاطب العقل، بل "القلب." هذا يعني بالضبط أن عامة الناس يريدون البروباجاندا. وإذا لم ترد الدولة أن تترك شأنها للحزب الذي سيقدم تفسيرًا لكل شيء لاحقًا (أي الحقيقة)، ينبغي لها هي أن تصنع البروباجاندا. ومن ثم، تصير الدولة الديمقراطية (حتى وإن لم ترد ذلك) دولة مروجة للبروباجاندا بسبب الحاجة لنشر المعلومات. هذا يقتضي تحولات دستورية وأيديولوجية عميقة. في الواقع، الدولة هي التي ينبغي لها أن تعلن الحقيقة الواضحة العامة والرسمية. لم تعد الدولة قادرة على أن تكون موضوعية أو ليبرالية لكنها مجبرة على تقديم أساسيات الفهم إلى هؤلاء الذين تلقوا قدرًا مفرطًا من المعلومات. لم يعد يمكنها أن تتسامح مع التنافس لأن أي دولة تتولى هذه المهمة لن يكون من حقها أن تقع في الخطأ، وإذا أخطأت فستصير أضحوكة المواطنين وستفقد معلوماتها تأثيرها كما ستفقد البروباجاندا التي تمارسها فعاليتها، لأن الناس لن يصدقوا المعلومات التي تنشرها إلا إذا صدقوا البروباجاندا أولًا.

على الحقيقة التي أعلنتها الدولة أن تكون شاملة: تصير الحقائق - موضوع المعلومات - معقدة أكثر وأكثر، وتغطي قطاعات أكبر من الحياة. وبالتالي، على

النظام الذي تُرتب فيه الحقائق أن يغطي كل جوانب الحياة. يجب أن يصبح هذا النظام إجابة كاملة عن كل الأسئلة في وجدان المواطنين. ومن ثم، على النظام أن يكون عامًّا وصالحًا عن كل مناحي الحياة: لا يمكن أن يكون فلسفة أو نظام غيبي - لأن مثل هذه الأنظمة تستميل عقل الأقلية. حتى نَصِف هذا النظام، علينا أن نعود إلى الفكرة البدائية العتيقة: أسطورة المسببات. في واقع الأمر، البروباجاندا التي تعكس جسد المعلومات في الدولة الديمقراطية، وتهدف إلى تخفيف هموم المواطنين، ينبغي أن تقدم لهم أسطورة المسببات.

لن يكون هذا ضروريًّا لو كان على المواطنين أن يعملوا ثلاث أو أربع ساعات فقط في اليوم وأن يكرسوا أربع ساعات يوميًّا للتأمل الشخصي والأنشطة الثقافية، ولو تشابه المستوى الثقافي بين كل المواطنين، ولو كان المجتمع في حالة من التوازن، ولم يكن تحت تهديد الغد، ولو مكّن التعليم الأخلاقي المواطنين من إحكام السيطرة على عواطفهم وأنانيتهم. ولكن إذا لم تتحقق هذه الشروط الأربعة، وإذا نمى حجم المعلومات نموًّا فائق السرعة، سنضطر إلى البحث عن تفسيرات "هنا والآن" وسنستعرضها بما يتناسب مع الرغبة الشعبية.

لكن خَلْق أسطورة المسببات يؤدي إلى التزام من جانب الديمقراطية أن تصبح دينية: فلم يعد يمكنها أن تكون علمانية لكن عليها أن تخلق دينها. فضلًا عن ذلك، يعتبر خَلْق الدين أحد العناصر التي لا غنى عنها في البروباجاندا الفعالة. لا يحظى محتوى هذا الدين بأهمية كبيرة؛ المهم هو إشباع المشاعر الدينية لدى الجماهير. من المعتاد أن هذه المشاعر تدمج الجماهير في الجماعة الوطنية. ينبغي ألا نضلل أنفسنا: عندما يتحدث أحدنا عن "الديمقراطية الجماهيرية" و"المشاركة الديمقراطية،" فهذه المصطلحات ليست إلا قناعًا يقف وراءه "الدين." لطالما اتسمت المجتمعات الدينية - وليس غيرها - بالمشاركة والإجماع. وهكذا، نسلك

طريقًا آخر لنعود لمشكلة التعصب وقمع الأقليات[1].

من ناحية أخرى، يفكر الناس أكثر وأكثر في الديمقراطية على أنها بناء سياسي خارجي بسيط عوضًا عن كونها مفهوم كامل للمجتمع وسلوك الإنسان. هذا المفهوم وطريقة الحياة هذه ترتبط بالديمقراطية السياسية. يتطلب نشوء الديمقراطية خصائصًا بعينها من جانب المواطنين. من السهل أن نرى أن الديمقراطية تريد أن تحافظ على هذا الكنز - سبب وجودها وطريقة نشوئها. ينبغي للحكومة أن تحافظ على طريقة الحياة هذه - والتي بدونها لن يكون وجود الديمقراطية ممكنًا. وهكذا، فمن المعقول والمناسب أنه تم وضع السجناء الأمريكيين العائدين من كوريا في حجر صحي وتلقيهم علاج نفساني وعقلي لإزالة سموم الشيوعية منهم. أجبروا على غسيل الدماغ الأمريكي (ما يقابل غسيل الدماغ الصيني) وعلى تكييفهم مع الحياة مرة أخرى وفقًا لطريقة الحياة الأمريكية.

لكن، ما الذي تبقى من الإنسان بعد ذلك؟ نفهم أن الديمقراطية تريد أن تتحكم في الحالة العقلية والنفسانية للناس الذين يخدمونها، حسب فكرة

(1) دعونا نتذكر أثر آخر لهذا النوع من هذه البروباجاندا على الديمقراطية: ستظهر فئة النخبة من الرجال، ولكن ليس هناك شيئًا مشتركًا بين هذه الفئة وبين الديمقراطية. يعتبر مروج البروباجاندا تقنيًا وواحد من نخبة التقنيين الذين يؤسسون أنفسهم فوق مؤسسات الديمقراطية ويتصرفون خارج معاييرها. بالإضافة لذلك، يؤدي توظيف البروباجاندا بمروجها إلى السخرية والشك في القيم وقيمة الآراء والتمرد على قانون الأرقام واحتقار متلقي البروباجاندا والممثلين المنتخبين: فهو يعرف الطريقة التي يتشكل بها الرأي. لا يمكن لمروج البروباجاندا أن يعرض نفسه للحكم الشعبي والديمقراطية. في النهاية، يطلع مروج البروباجاندا على كل أسرار الدولة وفي الوقت ذاته يتصرف ليشكل الآراء: فهو حقًا في موقع الاتجاه الرئيسي. اجتماع هذه العناصر الثلاثة يجعل مروج البروباجاندا من النخبة. لا يمكن لشيء غير ذلك أن يحدث: أي نظام ديمقراطي يطلق بروباجاندا يخلق عدوًا له في هذه البروباجاندا ومن خلالها، النخبة التي ستدمره.

"المخاطرة الأمنية." لا يمكن السماح لموظفي الخدمة العامة بالوقوع في أي سلوك غير أخلاقي أو غير قانوني أو الإفراط في استخدام الكحول أو إدمان المنشطات أو ما شابه. إذا وقع ذلك، سيبتعدون كل البعد عن فضائل المواطن الديمقراطي بحيث يصير بديهيًا أن تمارس البروباجاندا السيطرة والتعليم الجماهيري من أجل حياة ملائمة للديمقراطية. ستضمن الفضائل المدنية التي خلقها الإعلام الجماهيري صون الديمقراطية، لكن ما الذي تبقى من الحرية؟

أريد أن أتطرق إلى حقيقة أخرى: لقد حاولت في كتابي "المجتمع التكنولوجي" أن أثبت أن الأدوات التقنية الحديثة لها وزنها وتستطيع بذاتها أن تغير الأبنية السياسية. وهنا سأطرح سؤالًا وليس سواه: ما سيكون أثر استخدام التلفاز بغرض البروباجاندا على الديمقراطية؟

يمكننا أن نرى الآثار الأولية: يقربنا التلفاز من الديمقراطية المباشرة. نواب مجلس الشيوخ ومجلس الوزراء أصبحوا معروفين؛ صارت وجوههم وكلماتهم مألوفة، وهذا يقربهم من الناخب. يسمح التلفاز للتواصل السياسي بالامتداد والتوسع إلى أبعد من الحملات الانتخابية وإعلام الناس على نحو مباشر وبشكل يومي. وأكثر من ذلك، يمكن للتلفاز أن يصبح وسيلة للسيطرة على موظفي الخدمة العامة: بصفته مشاهد للتلفاز، يستطيع الناخب أن يتأكد من الطريقة التي يستخدم بها ممثليه التفويض الذي عهد به إليهم. أثبتت تجارب معينة أجريت في الولايات المتحدة أن إذاعة جلسات مجلس الشيوخ ساهمت في جديتها وكفاءتها وتبجيلها. ومع العلم أن الجلسات كانت مراقبة، بذل النواب قصارى جهدهم في أن يقوموا بعملهم. ولكن، لا يجب أن نتوقع الكثير في هذا الصدد[1]: ليس من

---

(1) أصاب (جون ألبج) عندما قال إن هذه "الشخصنة" من خلال التلفاز تعوق وتدمر التأمل التحليلي الشخصي وتُنَمِّط الصور الشخصية وتنقل "واقعًا زائفًا": جلسة متلفزة لمجلس الشيوخ أو مجلس الوزراء ليست جلسة حقيقية ولا يمكن أن تكون جلسة حقيقية. في مثل هذه الجلسات المتلفزة، "يرى عامة الناس مباشرةً حكومة تتحمل المسؤولية لكن في =

المرجح أن الجهات الحاكمة ستقبل هذه السيطرة. في الواقع، يتفهم رجال الدولة جيدًا كيفية استخدامها بغرض البروباجاندا التي يمارسونها، وهذا كل ما في الأمر. من المرجح أن التلفاز حقًا ساعد (أيزنهاور) على التغلب على (ستيفنسون) كما ساعد المحافظين في التفوق على حزب العمال[1]. تتعلق المسألة بالمال في المقام الأول ثم المهارة التقنية. لكن استخدام التلفاز كأداة للبروباجاندا الديمقراطية يستلزم مخاطرة التعديل العميق لـ "طريقة" الديمقراطية.

ما يمكن أن يكون غرض الديمقراطية من وراء استخدام بروباجاندا التلفاز؟ ليست الديمقراطية ملائمة تمامًا لها. حتى الآن، الأدوات التقنية مناسبة للأنشطة الديمقراطية: الديمقراطية تتحدث وتعبر عن كينونتها من خلال الكلمات (هذه العبارة ليست ساخرة؛ أنا أؤمن أن الكلام - في أقوى وأبغ صوره - يعتبر أحد أرفع وسائل الإنسان للتعبير). صُنعت أدوات البروباجاندا، ولاسيما الإذاعة والصحافة، خصيصًا للكلمات.

وبالعكس، البروباجاندا الديمقراطية التي صنعتها الأفلام تتسم بالضعف. ليست الديمقراطية شكلًا مرئيًا للحكومة. من حيث آثار البروباجاندا، ليس لتشريفة قوس النصر - إحدى أنجح الصور - كبير الأثر، مع أنها مذهلة. في واقع الأمر، عندما تريد الديمقراطية أن تستخدم الأفلام بغرض البروباجاندا، لا تستطيع أن تفكر في شيء إلا العروض العسكرية التي لا يمكن تقديمها كثيرًا. تحتاج البروباجاندا التكرار والتنوع معًا. حتى هذه اللحظة، لا يعتبر عجز الديمقراطية عن استخدام الأفلام شيء في منتهى الأهمية؛ فالأفلام ليست إلا

= صورة عرض سياسي قام به نجوم ذوو طبائع بشرية ويلعبون دورًا في مسرحية." يبدو أن هذا وصف ممتاز.

(1) شكك (أنجس كامبل) في هذا في ("Television and Election"). من ناحية أخرى، أعطى (كامبل) مؤشرات مهمة بشأن آثار التلفاز الحاسمة على الانتخابات.

ذراعًا ثانويًا. لكن، يبدو أن التلفاز تم إعداده ليصير الذراع الرئيس لأنه يستطيع أن يعبأ الفرد تعبئة كاملة دون أن يطلب منه أدنى جهد.

وصل التلفاز إلى الفرد في منزله، مثل المذياع الذي يصل إليه في محيطه وفي حياته الخاصة. لا يُطلب منه أن يتخذ قرارًا أو أن يشارك مشاركة نظرية أو أي أن يتصرف (مثل الذهاب إلى اجتماع). لكنه يمسك به مسكة قوية ولا يعطيه فرصة للمشاركة في أنشطة أخرى (في حين أن المذياع يترك جزءًا كبيرًا من الفرد بدون انشغال). علاوة على ذلك، يتمتع التلفاز بالتأثير الصادم للصورة - وهو ما يفوق تأثير الصوت بكثير.

يجب أن يكون لدينا شيء ما نعرضه إذا أردنا أن نستخدم هذا الذراع الرائع. ليس هناك ما يلفت النظر في خطاب يلقيه مسؤول حكومي. بالمقارنة مع ما تتيحه الأنظمة السلطوية، ليس للأنظمة الديمقراطية ما تعرضه. وإذا لم ترد الديمقراطية أن تتأخر وتتراجع في هذا الميدان، وهذا سيكون في غاية الخطورة، وسيكون عليها إذًا أن تجد مَشَاهِد بروباجاندا جاذبة لعرضها على التلفاز. ولكن، ليس هناك شيئًا أحسن من المراسم الحاشدة والمسيرات الشعبية -"تنظيم شباب هتلر" و"اتحاد كومسومول" - أو تجمع الشعب كله في حماسة لبناء سفن أو جامعات جديدة (كما حدث في يوجوسلافيا). متطلبات التلفاز تؤدي بالديمقراطية إلى المشاركة في مثل هذه التظاهرات التي ليس فيها من ملامح الديمقراطية إلا القليل.

والآن، وصلنا إلى المسألة الأهم. بحثت قبل قليل التحولات النفسانية التي يمر بها الفرد عندما يتعرض لبروباجاندا شديدة ومستمرة. لقد رأينا كذلك أن نشوء نوعين متعارضين من البروباجاندا ليس الحل على الإطلاق ولا يؤدي إلى حل "ديمقراطي." ليس الفرد مستقلًا إذا وجد نفسه أمام متحاربين اثنين وعليه أن يختار بينهما. فهو ليس مشاهدًا يقارن بين ملصقين ولا الحَكَم الأعلى عندما يقرر لصالح الملصق الأكثر إقناعًا أو صدقًا. النظر للأمور بهذه الطريقة ليس إلا

مثالية طفولية. يتم الاستحواذ على الفرد والتلاعب به والهجوم عليه من كل جانب. المتحاربون الذين ينتمون إلى نظامين مختلفين من البروباجاندا لا يحاربون بعضهما البعض لكن كل منها يحاول أن يقتنص الفرد. وكنتيجة، يعاني الفرد من الآثار والانحرافات النفسانية الأعمق.

الفرد الذي تغير بهذه الطريقة يطالب بحلول بسيطة، وشعارات، ويقينيات، واستمرارية، والتزام، وتفريق بسيط وواضح المعالم بين الخير والشر، والفعالية، ووحدة الفكر. لا يستطيع أن يتحمل الغموض ولا أن يرى خصمه يمثل الحق أو الخير بأي حال من الأحوال. أثر آخر لأنواع البروباجاندا المتناقضة هو أن الفرد سيلوذ بالفرار إما إلى السلبية وإما دعم كامل وغافل لأحد الجانبين.

من المدهش أن نرى كيف بدأ هذا الاتجاه (وهو نقطة انطلاق الأحزاب الشمولية) في الهيمنة في الولايات المتحدة. تعادي هاتان الاستجابتان المختلفتان - السلبية أو الالتزام الكامل -الديمقراطية إلى المنتهى لكنهما عاقبة بعض أنواع البروباجاندا الديمقراطية. وهنا مربط الفرس. لا تدمر البروباجاندا الأفكار الديمقراطية فحسب، بل السلوك الديمقراطي أيضًا - أساس النظام الديمقراطي، السمة التي لا يمكن للديمقراطية أن تنشأ بدونها.

القضية ليست رفض البروباجاندا باسم حرية الرأي العام الذي، كما نعرف جيدًا، لا يمكن أن نصفه بالنقاء، أو باسم حرية الرأي الفردي الذي تشكل من كل شيء ولا شيء، وإنما رفض البروباجاندا باسم الحقيقة العميقة ذاتها: إمكانية الاختيار والتمييز التي نعتبره إحدى السمات الأساسية للفرد في المجتمع الديمقراطي.

أيًا كانت العقيدة التي نشرتها البروباجاندا، فنتائجها النفسانية لا تتغير. ولنؤكد، تعتبر بعض العقائد موضوعات متسقة بالنسبة إلى البروباجاندا أكثر من عقائد أخرى، وتؤدي إلى بروباجاندا أكثر فعالية وإلحاحًا. عقائد أخرى -

ديمقراطية وجمهورية - ليست مناسبة بنفس الدرجة وتتسبب في إعاقة البروباجاندا إلى حد كبير. لكن النتيجة الوحيدة هي وهن متزايد للعقيدة عن طريق البروباجاندا.

وبالعكس، ما يعطي البروباجاندا طابعها التدميري ليس تفرد عقيدة تم الترويج لها، وإنما أداة البروباجاندا ذاتها. ومع أن البروباجاندا تتصرف بشكل مختلف، حسب نشرها لنظام مغلق أو لآراء متنوعة، فسيكون لها آثار عميقة ومدمرة.

ما الذي أقوله إذًا؟ أقول إن البروباجاندا يمكنها أن تنشر عقيدة ديمقراطية؟ بكل تأكيد. هل يمكن أن تستخدمها الحكومة التي انتخبتها أغلبية المصوتين؟ طبعًا. لكن هذا لا يضمن لنا أننا لا زلنا نتعامل مع نظام ديمقراطي. بمساعدة البروباجاندا، يمكننا نشر أفكار ديمقراطية كعقيدة وفي إطار أسطوري. بمساعدة البروباجاندا، يمكننا أن ندفع المواطنين نحو صناديق الاقتراع حيث يُفترض أنهم ينتخبون ممثليهم. لكن، إذا مثلت الديمقراطية نوعًا معينًا من الناس وسلوكًا فرديًا، إذًا ستدمر البروباجاندا نقطة انطلاق حياة الديمقراطية وتدمر أساساتها. فتخلق إنسانًا مناسبًا للمجتمع الشمولي ولا يشعر بالراحة إلا إذا اندمج مع الحشد كما يرفض الأحكام والاختيارات والفروق النقدية لأنه يميل إلى اليقين الواضح. هذا الإنسان قد تأقلم وتماثل مع جماعات متجانسة، وهو سعيد بذلك.

بمساعدة البروباجاندا، يمكن تحقيق أي شيء لكن بالطبع لا يمكن خلق سلوك إنسان حر أو، بدرجة أقل، خلق إنسان ديمقراطي. الإنسان الذي يعيش في مجتمع ديمقراطي ويتعرض للبروباجاندا - يُستنزف من المحتوى الديمقراطي، من طريقة الحياة الديمقراطية وتَفَهُّم موقف الآخرين واحترام الأقليات وغياب الجمود الفكري وإعادة النظر في الآراء الشخصية.

الوسائل المستخدمة لنشر الأفكار الديمقراطية تجعل المواطن إنسانًا شموليًا من الناحية النفسانية. الفرق الوحيد بينه وبين النازي هو أنه "إنسان شمولي يحمل معتقدات ديمقراطية" لكن هذه المعتقدات لا تغير سلوكه على الإطلاق. لا يشعر الإنسان بهذا التناقض أبدًا حيث أصبحت الديمقراطية بالنسبة له أسطورة ومجموعة من الواجبات الديمقراطية، مجرد مثيرات تُفَعِّل الاستجابات المكيفة. كلمة "ديمقراطية" لم تعد ترتبط بالسلوك الديمقراطي. ويمكن للمواطن أن يردد "عبارات الديمقراطية المقدسة" بينما يتصرف كأنه جندي مقاتل.

في نهاية المطاف، يتحقق هذا النجاح لأي ديمقراطية تروج لها البروباجاندا وتساعد على استمرارها. هذا النجاح في ذاته يعتبر نقيض لها فيما يتعلق بالفرد والحقيقة. ولكن، هل يمكن فعلًا لهذا أن يحدث؟ لقد قلت آنفًا - بشكل عام - إن هؤلاء الذين يميلون إلى إنكار فعالية البروباجاندا يتبنون - دون وعي - مفهوم القيمة الفطرية الأصيلة للفرد. أما هؤلاء الذي يسلمون بفعالية البروباجاندا يتبنون مفهومًا ماديًا. بالنسبة إليَّ، كنت أحبذ أن أتمكن من التشديد على أن الإنسان ليس ضعيفًا، وأن هناك عددًا قليلًا من المخاطر تحدق به في المجتمع المعاصر، وأن البروباجاندا لا تستطيع أن تؤذيه. مع الأسف، خبرتنا في نصف القرن الأخير لم تكن مبشرة في هذا الشأن. علاوة على ذلك، يبدو لي أن الإيمان بأن البروباجاندا لا تؤذي، وانتشار هذا الإيمان، لهما بالغ الضرر على الإنسان لأن إرادته في المقاومة تتلاشى عندما يطمأن في وجه الهجمات وعندما يؤمن بأنه محصن وبعدم فعالية الهجمات. لماذا نضيع وقتنا ونهدر جهودنا في الدفاع عن أنفسنا ضد البروباجاندا إذا كانت مجرد لعب أطفال وكلام فارغ لطغاة بلهاء؟ لماذا نبذل جهدًا في التفكير ونستنزف قوانا ونستنفد شخوصنا لو كانت التهديدات بلا أنياب، والمناهج عبثية، وحتى أكبر البلهاء يستطيع أن يهرب منها؟ لماذا علينا الحكمة في الاختيار إذا كانت البروباجاندا عاجزة عن تغيير أفعالنا؟ فالبروباجاندا لا تستخدم إلا ما هو متاح بالفعل وستقودنا في طرقات كنا سنسير فيها بدون

البروباجاندا على أي حال. إذا كان هذا موقف متلقي البروباجاندا فهـو في أفـضل وضع لطاعتها دون أن يعـي ذلـك. ينجـرف إلى رتابـة البروباجانـدا بيـنما يـدعي السمو والعلو.

الموقف الوحيد الجاد والمناسب هو إظهار الفعاليـة العاليـة لـسلاح يُستخدم ضد الإنسان وإثارته للدفاع عن نفسه عن طريق توعيتـه بـضعفه وهـشاشته بـدلًا من تهدئته بواسـطة الـوهم الأسـوأ - وهـم الأمـن الـذي لا تـسمح لـه تقنيـات البروباجاندا ولا الطبيعة البشرية بالتمتع به. تنبع جدية هذا الموقـف مـن خطـورة تدمير البروباجاندا للإنسان ومن أنه ليس هناك أي موقف مسؤول وجاد حقًا غير هذا الموقف.

يميل الإنسان إلى أن يعتقد أن الحرية والحقيقة لم تنهزم حتى الآن لكـن هنـاك احتمال كبير لهزيمتها - وفي هذه اللعبة لا شك أن البروباجاندا هي القـوة الأعتـى التي لا تسير إلا في اتجاه واحد (نحو دمـار الحريـة والحقيقـة)، بغـض النظـر عـن النيات الحسنة أو الإرادة الطيبة لهؤلاء الذين يتلاعبون بها.

الملحق الأول

فعالية البروباجاندا



عند الاقتراب من مسألة قياس نتائج البروباجاندا، علينا أن نفرق وبحرص بين الفعالية، والنتائج غير المقصودة. فمن ناحية، يرمي مروج البروباجاندا إلى تحقيق أهداف بعينها: يريد أن يغير في محتوى الآراء - يغير في آراء الأغلبية أو يدمر معنويات العدو. فيما يتعلق بمثل هذه الأهداف، نحن نتحدث عن الفعالية: إما أن يبلغ مروج البروباجاندا أهدافه وإما لا. هذا ما يدرسه الناس عادةً تحت مسمى "آثار البروباجاندا" لكن هذا مفهوم خطأ إذ إن هناك آثار أخرى أهم وأعمق بكثير حتى وإن كانت غير متعمدة. حاولت أن أحلل هذا في الفصلين الرابع والخامس.

في هذا الملحق، سيقتصر كلامي على بحث الفعالية المباشرة.

1. صعوبات قياس الفعالية

بمجرد أن نطرح مسألة الفعالية، نقترب من قضية الآثار وقياسها (في هذا الملحق سأستخدم الكلمة بمعناها العادي كما استخدمها دارسو البروباجاندا - بمعنى الآثار المرغوب فيها والتي يسعى إليها مروج البروباجاندا). هل يمكن لمروج البروباجاندا أن يغير رأيًا أم لا؟ هذا ما يحاول البعض أن يقيسوه (لأنه ليس هناك شيء مؤكد إلا بالأرقام - بما يتماشى مع التحيزات العلمية المعاصرة).

صعوبة الموضوع

دعوني أبدأ بالقول إن للبروباجاندا مجموعة متنوعة من الأهداف، وكثيرًا ما يصعب التفريق بينها. ربما يسعى مروج البروباجاندا إلى دعم معنويات قُوّاته أو تعزيز شجاعتهم أو إثارتهم أو دفعهم على التضحية بحياتهم. يستحيل معرفة وتسجيل نقطة البداية مع وجود أنواع أخرى من البروباجاندا ومع صعوبة قياسها – مثل درجة الحماس والإثارة وغيرها قبل وبعد عملية البروباجاندا. من المهم التأكيد بالتحديد على أن الأفراد الذين نتحدث عنهم لم يكونوا بمنأى عن البروباجاندا بشكل عام قبل إطلاق عملية ما – هذا بجانب صعوبة إيجاد طرائق اختبار موثوق بها. على سبيل المثال، قد تم بالفعل وضع القوات المحشودة تحت تأثير البروباجاندا إلى حد ما. لا يمكننا أن نجد نقطة "الصفر" التي نستطيع أن نبدأ منها – وهذا ليس فقط لأننا لسنا محصنين من البروباجاندا ولكن أيضًا لأن أنصار قضية ما قد صاروا كذلك عن طريق البروباجاندا. وكنتيجة لذلك، ليس هناك أهمية كبيرة لمجرد تعديلات تقع على عواقب حملة بروباجاندا .

ربما يسعى مروج البروباجاندا أيضًا إلى تحييد العدو عن طريق هدم معنوياته. لكن قياس فعالية مثل هذه البروباجاندا سيتطلب قياس الفرق بين نوعين من

البروباجانـدا لأن العـدو كـذلك معـرض لبروباجانـدا إيجابيـة مـن جانبـه. مـن المستحيل تقييم آثار نوعين من البروباجاندا في الوقـت ذاتـه. لـيس هنـاك أمـة أو منظمة تستطيع أن تقوم بتحليل مثل هذا في وقت حدوث عملية بروباجاندا. كـل ما يمكن عمله هو تحقيق بأثر رجعي، وسنرى لاحقًا أهمية هذه التحقيقات.

يمكن أن يستهدف مروج البروباجاندا التزامًا مؤقتًا وخارجيًا وشكليًّا - كـما في الحملات الانتخابية عن طريق إقنـاع المـصوتين المـترددين بالتـصويت لمرشـح معين. في هذه المرحلة، عامةً نواجه الرأي التقليدي القائل بإنه لأن هناك نوعين أو ثلاثة أنواع متعارضة من البروباجاندا، تقـضي كـل منهـا عـلى الأنـواع الأخـرى، ويتمتع المصوت بالحرية في اختياره. وفي سياق استفتاء عـام، هنـاك الكثـير مـن الآراء مع وضد موضوع الاستفتاء في كـل مكـان، وعليـه لـن تتغـير الآراء. هـذا صحيح فقط في جزء منه، ولا يمكن الوصول إلى استنتاجات حاسمة فـيما يتعلـق بفعالية البروباجاندا بصورة عامة عن طريق ذكر نجاح أو إخفـاق حملـة انتخابيـة. ليس لتحويل بعض الأصوات أي أهمية. في واقع الأمر، لا يمكـن حقًّـا الحـديث عن البروباجاندا عندما تتعلق بحملة انتخابية إذ إنهـا أبـسط شـكل للبروباجانـدا الحديثـة وأكثـره عيوبًـا - الأهـداف لا تكفـي والمنـاهج معيبـة والوقـت قـصير والبروباجاندا المسبقة غائبة وليس لمروج حملة البروباجاندا سيطرة على كل وسـائل الإعلام. ومن ثم، الحالة الوحيدة التي يـسهل فيهـا نـسبيًّا قيـاس الآثـار (تحويـل الأصوات) هي أيضًا الحالة الأقل أهمية بدرجة كبيرة.

يمكن أيضًا أن يرمي مروج البروباجاندا إلى أهداف أخرى كثيرة مثل تـدمير المجموعات المصغرة والنقابات العمالية والهيئات ومجموعات أخـرى، ويمكـن أن يسعى إلى فعل حاسم (إضراب أو مقاطعـة أو مجـزرة) بيـد مجموعـة تحـت تـأثيره بشكل مباشر نوعًا ما، ويمكن أن يسعى فقط وراء التأثير عـلى الـرأي العـام بغيـة تغيير المناخ أو إثارة جو من التعاطف أو الكراهية (وليس وراء أهـداف مباشرة). وأخيرًا، يمكنه ببساطة - إذا كان مروج للبروباجاندا التجارية - أن يحـاول إقنـاع الناس بشراء منتج ما.

أشرتُ إلى التنوع الكبير للأهداف المحتملة حتى أثبت أن فعالية البروباجاندا لا يمكن قياسها وفق نتائج تم الحصول عليها في أحد هذه الميادين. إذا نظرت إلى بروباجاندا صنعت في ثنايا جماعة كبيرة ووجدت أنها فشلت في إقناع الجماعة بفعل مقترح (الإضراب مثلًا)، سأجد نفسي ميال إلى الاستنتاج أنها غير فعالة. لكن، إذا وجدت أن حملة البروباجاندا ذاتها قد فككت بعض المجموعات المصغرة لدى الخصم أو خلقت شعورًا بالاستياء والعدوانية المحدودة في جزء من جماعة من المتشددين، ليس أمامي إلا أن أخلص إلى أن البروباجاندا قد أفلحت وتستطيع أن تقوم بدور في أعمال مستقبلية. إذا رأيت أن الحملة لم تكسب إلا أصواتًا قليلة وأنها أخفقت في الوصول إلى المترددين، سأميل إلى أن أرى ذلك على أنه فشل. ومع ذلك، يمكن للبروباجاندا ذاتها أن تثير جماعة المتشددين وتعزيز الحزب وإعطائه فرصة لتجريب طرائق جديدة أو أن تدفعه إلى التعاطف مع مجموعات مصغرة - نتائج لها نفس القدر من الأهمية.

ومن ثم، في ضوء تنوع الآثار التي تسعى وراءها البروباجاندا، لا يمكننا استنتاج أي شيء على الإطلاق بشأن فعالية البروباجاندا وأي من أهدافها. وعلاوة على ذلك، حتى لو أمكن فصل هدف واحد عن بقية الأهداف وإثبات أن مروج البروباجاندا قصد هذا الهدف وحده (الحصول على الأصوات في الاستفتاء مثلًا) يستحيل تطبيق هذه النتائج على مناحي أخرى للبروباجاندا. القيام بذلك سيكون طائشًا وفيه خطأ في فهم الفروق الأساسية. على سبيل المثال، أصبح جليًا أن طرائق دعائية بعينها غير فعالة في البروباجاندا السياسية. هناك اختلاف كبير بين إقناع الفرد بشراء سيارة وإقناعه بالالتزام بحركة سياسية ما. كما أن إقناع الفرد بالتصويت لجانب ما أو الترويج للبطولية في المعركة مختلف جدًّا كذلك. وقد ثبت بوضوح أن البروباجاندا الموجهة نحو بلاد أخرى تختلف عن البروباجاندا المحلية؛ تقنيات التأثير ستختلف كما ستختلف طرائق قياس الفعالية[1].

---

(1) يجب أن أزيد على ذلك أنه يستحيل قياس فعالية البروباجاندا "السوداء" أو البروباجاندا عبر قنوات غير تقليدية أو شائعات. وكذلك قياس البروباجاندا يستلزم معايير للفعالية=

بصرف النظر عن تعقيد المسألة ذاتها، يجب الأخذ في الاعتبار الصعوبة البالغة لتعريف الحقائق نفسها. حتى على أبسط المستويات، والتي يمكن ترجمتها إلى أرقام بكل سهولة، لا يمكن تحديد درجة دقة عدد الناس الذين تصل إليهم حملة البروباجاندا. نعرف الجهود التي بذلتها "الخدمات الأمريكية" بعد 1944م لتحديد عدد الجنود الألمان الذين قرأوا المنشورات الأمريكية لكن العدد ظل غير مؤكد. نعرف كذلك جهود (لازويل) لتحديد عدد الأشخاص الذين وصلت إليهم البروباجاندا الشيوعية في شيكاجو: رغم استخدامه لطرائق ومناهج غاية في التعقيد إلا أن النتائج لم تكن جديرة بالثقة على الإطلاق.[1] ينطبق الكلام هذا على إحصاءات (روزي) بشأن البروباجاندا الشيوعية في فرنسا. لكن، إذا لم نعرف أي شيء عن عدد الناس الذين تعرضوا إلى البروباجاندا (في أبسط المستويات، بحساب المتوسط - المنشورات أو الاجتماعات أو أعداد توزيع الصحف)، بالطبع لا يمكننا تقدير الأثر الكمي للبروباجاندا لأننا لا نستطيع معرفة النسبة المئوية من الناس الذين توصلت إليهم البروباجاندا بالمقارنة بالشعب كله أو النسبة المئوية من الناس الذين تأثروا بالبروباجاندا في مقابل عدد الناس الذين توصلت إليهم البروباجاندا. ومن ثم، فلن يكون لدينا أي أساس قوي للارتكاز عليه عند التقييم.

عندما نترك المجال الأكثر بساطة لمحاولة التقييم، نواجه صعوبات أكبر. تصير المسألة معقدة من أربع وجهات نظر: أولًا، تميل البروباجاندا إلى التأثير على الناس بعمق وليس فقط فيما يخص أفعال محدودة ومحددة. وعليه، كيف يمكننا قياس الوضع بأكمله ولاسيما إذا كانت الآثار كامنة؟

الصعوبة الثانية هي التأخر - لا تستغرق البروباجاندا نفس الفترة طوال

= الواضحة. حاول (دانيال ليرنر) أن يقوم بذلك دون جدوى. في النهاية، يجب تأسيس ارتباط مباشر بين الآثار والوسائل - وهو ما يستحيل القيام به أيضًا.

(1) Harold D. Lasswell and Dorothy Blumenstock: *World Revolutionary Propaganda* (New York: Alfred A. Knopf: 1939). الفصل الحادي عشر

الوقت - بين اللحظة التي يتصرف فيها مروج البروباجاندا واللحظة التي تبدأ فيها آثار معينة في الظهور. أصر (دوب) على أننا نرى هنا "فترة التردد." من الواضح أن عمل البروباجاندا هو تقصير فترة التردد قدر الإمكان، ولكن لا يمكن محوها. الطالب الذي يدرس آثار البروباجاندا يجب أن يضع هذا في الحسبان وأن يجيب عن السؤال التالي: "في أي وقت يمكن القول إن البروباجاندا قد أخفقت؟" أي "في أي مرحلة يجب على الرأي الذي انبثق من فترة التردد أن يتخذ اتجاهًا مختلفًا عن الاتجاه الذي اقترحته البروباجاندا؟ يصعب الإجابة عن هذا السؤال.

مشكلة ثالثة تتعلق بـ "التكاليف الباهظة." تصير البروباجاندا أكثر كلفة على نحو متزايد ومن ثم يظهر حتمًا السؤال التالي: هل تبرر النتائج التكاليف؟ هل العائد يستحق الانخراط في اللعبة؟ هل تؤدي التكاليف المتزايدة باستمرار إلى زيادة النتائج؟ ما المستوى الأمثل؟ هذه الأسئلة الثلاثة بشأن العائد من جهود البروباجاندا تستلزم إجابة لكننا أبعد ما يمكن عن أن نكون قادرين على الإجابة.[1]

رابع صعوبة تأتي من حاجة مروج البروباجاندا إلى توقع الآثار التي يجب قياسها مسبقًا بسبب وجوب توجيه البروباجاندا وتكييفها إذا كان الهدف تحقيق أعظم النتائج. لكننا بالكاد نقدر أن نرى الآثار *السابقة* والتي لم يعد ممكنًا القيام بأي شيء بشأنها. تزداد صعوبة الأمر لأن البروباجاندا تنطوي على إبقاء الحشود تحت سيطرة محكمة لتحريكهم في اتجاهات مختلفة. عندما نجد أن بروباجاندا ما تفشل على أساس الآثار السابقة - يعني هذا أنها بالفعل فشلت وأن الحشود التي لم تستجب قد فرت منها. لم تعد البروباجاندا قادرة على الإمساك بهم مرة أخرى. حدث هذا مع البروباجاندا الشيوعية في فرنسا بين 1949م و1952م؛ عزفت

(1) السؤال بشأن العائد طُرح في الاتحاد السوفيتي لكن في صورة مختلفة: كلفة البروباجاندا هناك اعتمدت على مساهمات إعلام البروباجاندا للإدارة الفعلية للبلد عن طريق الحزب. وكنتيجة، تقل أهمية مشكلة المال.

الحشود عن الطاعة وأتى النقد الذاتي للحزب بعد فوات الأوان. ينطبق الشيء نفسه على "الفعل النفساني" في الجزائر؛ لم يصبح فشله ظاهرًا إلا في 1960م.

تزداد صعوبة تقييم آثار البروباجاندا عبر التفاعلات الاجتماعية التي تتجلى فيها البروباجاندا. تلذذ واستمتع (دوب) بعدّها وذكرها. كان تعريفه لهذه التفاعلات كالتالي: يتأثر كل مروجي البروباجاندا بالرأي العام الذي يحاولون التأثير عليه. الاهتمام يثير البروباجاندا لكن البروباجاندا تثير الاهتمام أيضًا. تثير البروباجاندا استجابات اعتيادية تتعزز وتتغير عن طريق إثارة البروباجاندا لها - وهذه حقيقة بديهية. لا يدرك الفرد إلا البروباجاندا التي تسمح له شخصيته بإدراكها لكن شخصيته تتغير عن طريق هذه البروباجاندا.

يتأثر مروج البروباجاندا بالرأي العام وبعمل البروباجاندا السابق. تتأثر البروباجاندا بمروجها وبالرأي العام وبفهم وإدراك الفرد لهذه البروباجاندا. لكن الإدراك ذاته يتأثر بالبروباجاندا والرأي العام وشخصية الفرد الذي يدركها. يمكن لمثل هذه التفاعلات أن تتضاعف بسهولة ويسر. وهذه التفاعلات هي التي تجعل فصل أثر البروباجاندا عن الآثار الأخرى وعزله في حالته النقية مستحيلًا.

عند الاستمرار في نفس الاتجاه، علينا أن نفهم أنه من المستحيل الفصل بين أثر البروباجاندا عن الآثار الأخرى كما أشرت في الفصل الأول. لا يمكننا تحديد كل عامل من العوامل التي تعمل للتأثير على الفرد. وكذلك سيكون من الخطأ المحاولة لفعل ذلك لأن البروباجاندا ليست ظاهرة معزولة ذات حدود مرسومة بوضوح؛ فالبروباجاندا تندمج وتتحد وتنغمس في الكيان الاجتماعي كما ترتبط بالبنية الاجتماعية العامة، وهذا يعني أن المحاولة لفصلها واختزالها في حالتها البدائية سيؤدي إلى تجريدها من طبيعتها الحقيقية.

دعونا الآن ننظر في صعوبة أخيرة: من الناحية العملية يستحيل دراسة آثار البروباجاندا في مكان التي صنعت فيه بالضبط، وفي المجتمع الذي نشأت فيه. لا يستطيع عالم النفس أو عالم الاجتماع أن يعمل في البيئة المعاصرة المعاشة

لبروباجاندا شديدة لأن هذه البيئة مستقطبة ونشطة ومثارة للغاية لدرجة لا يمكن معها القيام بأي تحليل. كما لا يمكن القيام باستطلاعات رأي عام أو ملاحظات نفسانية معقدة خلال المعارك، ولذلك لا يمكن إجراءها في هذا النوع من الحرب النفسانية - وهي كل ما تنطوي عليه البروباجاندا. كان مستحيلًا بحث فعالية البروباجاندا في المجتمعات النازية والفاشية: مثل هذا البحث سيكون مشكوكًا فيه ولن تصل نتائجه إلى مرحلة النشر. اصطدمت هذه الجهود مع مقاومة السلطات وكذلك الأطراف المعنية التي إما لم تتأثر بالبروباجاندا وعليه تعادي النظام السياسي دون أن تتجرأ على قول ذلك خلال التحقيق النفساني، وإما أنصار الحزب الحاكم. كان هذا الوضع في كل البلاد التي صنعت فيها بروباجاندا حقيقية مثل الصين والاتحاد السوفيتي والجزائر وغيرها.

ومن ثم، يضطر الباحث إلى أن يحصر نفسه في تحليل الأوضاع الراهنة التي ليس فيها بروباجاندا حقيقية أو فيها بروباجاندا محدودة وعشوائية فيما يتعلق بحملة انتخابية أو استفتاء أو حزب أقلية يحاول أن يجتذب أعضاء. ومع ذلك، يمكن محاولة قياس الآثار بالاستنتاج لكن مثل هذا القياس غير دقيق بالضرورة[1]. في النهاية، يمكن القيام باختبارات وهذا ما سأناقشه بالتفصيل فيما يلي.

صعوبة المناهج

عند مواجهة البروباجاندا الشاملة، يتضح أن الاختبارات عديمة الفائدة؛ لا يمكن أبدًا محاكاة الواقع. لا يمكنك أن توقف شخص في ذروة اجتماع لتسأله عما يفكر. لا يمكنك قياس آثار فيلم بدقة لأنك لا تستطيع عزله عن مقالات الجريدة الحالية ونشرات الإذاعة عن نفس الموضوع. وأخيرًا، في بلد غارق في البروباجاندا، لا يمكنك أن تأخذ مجموعة مهمة من المؤيدين وقياس الآثار على مجموعات أخرى لشهادتهم على القضية: تشكلت كلا المجموعتين بالفعل عن

(1) مثلًا، لم يكن ممكنًا استجواب النازيين في ألمانيا، ولكن يمكن استجواب السجناء.

طريق بروباجاندا سابقة، والفرق بينهما لا يعني أي شيء. إذا نظرنا للبروباجاندا كما هي حقًا بكُلّيتها، ستستحيل الاختبارات.[1]

المسألة نفسها تتعارض مع التعريف. وكذلك المناهج المستخدمة في تحليل الآثار غير كافية بشكل عام. كثيرًا ما استخدم الباحثون الأمريكيون واحدًا من هذه المناهج: هدفه كان تحديد سواء أكانت أداة من أدوات البروباجاندا قادرة على تغيير آراء وتحيزات الجماعة. انقسم الطلاب إلى مجموعتين أو ثلاثة بما يشمل مجموعة واحدة تم أختيرت لتكون مجموعة التحكم والضبط - بعيدة عن مدار تأثير البروباجاندا. ثم تتأسس طبيعة رأيهم بشأن قضية مثل العرق. ثم تتعرض المجموعات المستهدفة إلى تلاعبات نفسانية مُعدة بحرص عن طريق المنشورات والأفلام والمؤتمرات وما إلى ذلك. بعد فترة من البروباجاندا، تتم محاولات لتقييم تغيرات في الآراء عن طريق مناهج عادية باستخدام مجموعة التحكم كأساس للمقارنة. يتم تقييم الرأي مرتان - مرة بعد التلاعبات مباشرةً ومرة بعد وقت، حتى نحقق ديمومة التغيرات. وصف العديد من الكُتّاب الأمريكيين هذه التجارب. بشكل عام، الخلاصة هي أن مثل هذه البروباجاندا لم يكن لها عظيم الأثر وأن الأنماط والصور النمطية لم تتغير كثيرًا وأن رأي المجموعة ظل كما هو. وعلاوة على ذلك، سرعان ما اختفت النتائج المتواضعة التي تم التوصل إليها.

أزعم أن نتائج مثل هذه لا تعني أي شيء، وذلك لأن المنهج معيب على الإطلاق وعيوبه متعددة. أولًا، المجرب هو الذي يختار القضية تحت التجريب - فالقضية ليست قضية ساخنة ملحة عاجلة متفجرة. ومع ذلك، أثبتُ أن

---

(1) في "Le Dynamisme de groups," *Revue d' Action Populaire* (1958) أكد (بادن) بملء الفم مشكلة "الاستمرارية النفسانية": استخدام المجموعات التجريبية يفترض وجود مجموعات لا علاقة لها بالتاريخ، دون ماضي ودون سياق. من استجابات المجموعات مثل هذه هل يمكن الوصول إلى استنتاجات تنطبق على مجموعات حقيقية لها تاريخ وترتبط بمختلف أنواع المؤسسات في مجتمعها؟

البروباجاندا لا تعمل إلا في وجه الفورية العاجلة. ثانيًا، مثل هذه الجهود للبروباجاندا دائمًا ما توظف وسائل متواضعة جدًّا (بعض المنشورات، فيلم أو اثنان) وليس لها تنظيم حقيقي ولا تستمر إلا لفترة قصيرة غير كافية.

من الواضح أننا لا نستطيع أن نمحو الانحياز العرقي في خلال أيام أو أسابيع من البروباجاندا مهما كانت جودة صنعها. فضلًا عن ذلك، تحدث مثل هذه التجارب في غياب أي سياق بمعنى أن الفرد الخاضع لها ينفصل عن بيئته الطبيعية. لا يمكن إعادة إنتاج الظروف الطبيعية التي تعمل فيها البروباجاندا. مثل هذه البروباجاندا لا تحدث في سياق اجتماعي. ومن ثم، ليس هناك تأثير الحشد ولا توتر نفساني ولا تفاعل بين الأفراد العالقين في هذا الحشد بحيث يثيرون بعضهم البعض - قلة قليلة فقط يشتركون في التجربة في جو مختبري. هذه الظروف تتعارض مع البروباجاندا تعارضًا تامًا. ليس هناك مشاركة في الفعل الجمعي ولا في الموقف الجمعي ولا في أنشطة الحزب. وليس هناك روابط مع أي منظمة. ليس هناك دعوة للفعل ولا أي فرصة للمشاركة في أي فعل - لكن هذه هي الملامح الأساسية للبروباجاندا. في النهاية، لا تعني هذه التجارب المختبرية أي شيء لأنها لا تعيد إنتاج الطبيعة الواقعية للبروباجاندا الحقيقية أو مناهجها. في أفضل الأحوال، قد نعتبرها محاولات لتأثير جزئي - وليس هناك أي جدوى من أي استنتاجات منها بخصوص فعالية البروباجاندا الحقيقية. تصديق أي شيء خلاف ذلك يكشف عن جهل بيّن بالظاهرة.

من ناحية أخرى، كان هناك محاولات تحليل الرأي العام. هنا يتعامل الباحث على الأقل مع مواقف حقيقية. تم استخدام مجموعة كاملة من الأدوات بغرض بحث من هذا النوع. لكن هذا البحث أجري بطريقة متقطعة ومبعثرة. بهذه الطريقة، قام الباحثون في الولايات المتحدة بتحليل الأصوات الانتخابية لجماعات ومحليات وطبقات، وقاموا بتحليل ممنهج للبريد الذي تلقته الجرائد بعد نشر مقال مهم جدًّا، وقاموا بإجراء استطلاعات في المسارح ودور عرض الأفلام فيما يخص أفلام البروباجاندا ولاسيما الأفلام الحربية. في الأمثلة التي ذكرتها للتو تم جمع

تعبيرات متعددة عن القبول والرفض جمعًا علميًا. لقد حاولوا حتى أن يقيسوا الضوضاء في المسارح باستخدام معدات خاصة (عدادات الضوضاء وعدادات التصفيق)، لكن ثبت فشلها لأن المتفرجين أدركوا سريعًا ما كان يحدث وغيروا ردود أفعالهم. من حيث المبدأ، من الضروري أن يختفي المحلل تمامًا وأن يكون محايدًا. وأخيرًا، تم تحليل كلمات بعينها والأهمية المرتبطة بهذه الكلمات قبل وبعد حملة البروباجاندا. من المؤكد أنه يجب القيام بمثل هذا التحليل في بيئات وأماكن في غاية التنوع. استخدام "الكلمات المفتاحية" في الحقيقة يكشف الكثير فيما يتعلق بالاستيعاب غير الواعي للبروباجاندا .

عند إجراء مثل هذه الاستطلاعات، من اللازم ألا يعرف الناس أن هناك بحث يُجرى. ومع ذلك، عند استخدام منهج "المشاركين،" يعي المتطوعون في التجربة أنهم تحت الملاحظة. من اللازم أن يعيش الملاحِظ المشارك داخل مجموعة معينة والتي يجب أن تكون محلية ولا يجب أن تعي وجوده قدر الإمكان، أما هو فيجب أن يندمج في المجموعة بشكل متسارع، فيتعلم كل شيء عنها ويصير جزءًا منها. ومهمته الأساسية هي ملاحظة الأحداث اليومية كأنه عالم أنثروبولوجيا يلاحظ البشر البدائيين. وهذه الحقائق التي تؤثر على السلوك ستسمح للباحث بتصنيف الآثار المتعاقبة للأشكال المختلفة للبروباجاندا. وهذا سيؤدي إلى نمط كامل من المواقف الفردية والتغيرات في هذه المواقف في ثنايا البنية الاجتماعية. من المرجح أن هذا أفضل وأدق منهج. من النتائج المحدودة التي تنتجها، نضمن خلاصات واستنتاجات معينة. لكن عقبة كبيرة تقف في الطريق: هناك حاجة لفرق مدربة من الملاحظين - علماء اجتماع حقيقيون - وليس حزبيين يهدفون إلى البروباجاندا. ويجب إعطاء هؤلاء رواتب عالية لفترة طويلة لفعل لا شيء (على ما يبدو). في واقع الأمر، الدولة وحدها قادرة على استخدام هذا المنهج.

وأخيرًا، هناك منهج أسهل وأسرع مثل استطلاعات (روبر) أو (جالوب). يمكن استخدام هذا المنهج كثيرًا مع ضمان نتائج سريعة مؤكدة إلى حد كبير. لكن هذا المنهج يفترض أن العوام قد تلقوا تعليمًا جيدًا. على عوام الناس أن يفهموا

معنى هذه الخدمات وأن يتكيفوا معها بدون خوف. لهذا السبب، تعتبر فائدة الاستطلاعات في تحديد آثار البروباجاندا محدودة؛ لا يمكن استخدام هذا المنهج في النظام الشمولي لأن الصلة بين صناع البروباجاندا والشرطة معروفة جيدًا في مثل هذه الأنظمة ولأن العوام لا يستطيعون أن يستجيبوا استجابة مناسبة للأسئلة المطروحة. وبالمثل، لا يمكن للاستطلاعات أن تقيس آثار بروباجاندا الإرهاب لأن عامة الناس سيشعرون بالخوف. وفي النهاية، لا يمكن استخدام الاستطلاعات على الأقليات التي تشعر بالقهر: طبقة البروليتاريا العاملة والزنوج وأقليات دينية وعرقية أخرى. وبالرغم من ذلك، يمكن للاستطلاعات أن تقيّم ما أسماه (فرانسس بوريكاد) ليونة البروباجاندا التي تشير بالتأكيد إلى فعاليتها.

ومن ثم، لا يمكن قياس قطاعات واسعة من البروباجاندا بالاستعانة بالاستطلاعات. بالإضافة إلى ذلك، تقدم الاستطلاعات نتائج أفضل بكثير فيما يتصل بالبروباجاندا "اللحظية" - أي خلال فترات البروباجاندا الشديدة (الانتخابات) أو الأزمات. لكنها تكشف نتائج أقل بكثير فيما يخص البروباجاندا الاجتماعية والأسطورية أو في فترات الهدوء. في حقيقة الأمر، على الاستطلاعات أن تطرح أسئلة دقيقة وأن تقدم اختيارات محدودة وأن تشير إلى خبرة محلية عامة.

لا تجدي الاستطلاعات بشيء في فترات الهدوء وفيما يتعلق بالأهداف العريضة للبروباجاندا: تستطيع الاستطلاعات في أفضل الأحوال أن تدرك ميولًا بعينها أو أن تحدد ما إذا كانت كلمة ما في عقول الناس (نوعًا ما) لكنها لا تستطيع اختراق الأسطورة التي لا يدرك العوام تأثيرها عليهم. وسيكون هناك حاجة لاستطلاعات التحليل النفساني، لكن مثل هذا البحث لا يمكن إجراؤه إلا على الأفراد.

وحتى من وجهة نظر أخرى، استطلاعات رأي مثل هذه، المصممة لكشف آثار البروباجاندا، لها نتائج غير مؤكدة لدرجة كبيرة. فهي تعتمد على فرضيات اعتبرها خلافية. الفرضية الأولى هي أن الهدف الرئيس للبروباجاندا هو أن يغيّر

الرأي العام ويحل محل تيار ما للرأي ويـؤثر في الآراء الفردية. ولكـن طبعًـا هـذا ليس دقيقًا. من الممكن أن يكون هناك آثار عميقة للبروباجاندا لا تـتجلى خارجيًـا عن طريق تغيرات الرأي العام بخصوص موضـوع مـا. الفرضـية الثانيـة هـي أن الاستطلاعات تكشف تكوين الـرأي العـام وأن مثـل هـذا التكـوين هـو الـشيء الوحيد الذي يجب أن نعتد به. لكن في الواقع هناك عنصر آخـر مـساو في الأهميـة نحتاج أن ندرسه: حدة الرأي. هذه الحـدة لا يمكـن رصـدها مـن خـلال تحليـل الرأي رغم كل المؤشرات الترجيحية وتعدد الأسئلة وتقاطعها وهكذا.

علينـا أن نتـذكر أن مجمـوعتين بـنفس الحجـم في المجتمـع يمكـن أن تكونـا مختلفتين تمامًا فيما يخص حدة الآراء ودرجة الاندماج في المجتمـع. لنعطـي أبـسط مثال ممكن على ذلك، في 1948م، ليس هناك معنى لقولنا إنه كان هناك 25 بالمئـة من الشيوعيين و25 بالمئة من معادي الشيوعية في فرنسا لأنـه، مـن ناحيـة، هنـاك متشددون جاهزون ليلقوا بأنفسهم في قلب الفعل والتضحية بأنفـسهم، والأهـم، أنهم منظمون بشكل جيد، في حين أن هنـاك، مـن ناحيـة أخـرى، مَـن لم يتمتعـوا بتنظيم مناسب وليس لديهم أي نية في الخروج من حالة السلبية الفردية. وعلينا أن نفهم أن البروباجاندا تعمل على نحو متزايد على المستوى الكيفـي، في مجـال الآراء الحادة.

البروباجاندا التي لم تُغَيِّر صوتًا واحدًا لكنها دفعت مجموعـة ثوريـة إلى حالـة الانفعال الشديد أو محـت قناعـة وإخـلاص مجموعـة أخـرى - هـي بروباجانـدا ناجحة دون الحاجة لتحليل رأي قادر على رصد هذا النجاح. وعلى العكس، مثـل هذا التحليل يمكن أن يسجل تغيرات الآراء - مـثلًا، بـين المـترددين - وهـو مـا يَظْهَـر عقـب بروباجانـدا "المـرة الواحـدة" لكنهـا في النهايـة تفـاجئ مـروج البروباجاندا عندما تخفق في الاستمرار.

في النهاية، يجب عليّ أن أطرح سؤالًا أخيرًا. تتعلق استطلاعات الرأي بالرأي العام ويجب أن تخاطب المجموعة كلها التي نستهدف تحليل رأيها. ولهـذا الـسبب،

تعمل الاستطلاعات مع عينات تمثيلية. ومع ذلك، لن تخاطب البروباجاندا العنيفة بالضرورة الرأي العام كله. لن ترى إلا مجموعة فرعية معينة أو نزعة أو جزءًا ما. ولأن للبروباجاندا أهدافًا دقيقة، لا تنشغل بكل من هب ودب. ولتحليل ما إذا كانت هذه البروباجاندا الانتقائية فعالة، سيلزم تحليل المجموعة المستهدفة فقط أو النزعة التي كان مخططًا لها أن تتغير. لكن، بشكل عام لن يكون معروفًا أي قطاع سيهاجمه مروج البروباجاندا، وعندما يصير معروفًا، سيحدث ذلك بعد فوات الأوان. وفي ضوء كل هذه الأسباب، مناهج استطلاع الرأي العام لا تكفي لقياس فعالية البروباجاندا.

تحليلات لحالات فردية تجرى بشأن أفراد تعرضوا للبروباجاندا. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، قام علماء النفس والاجتماع الأمريكيون والبريطانيون بعمل كبير: أجروا دراسات على الجنود الألمان الذين استسلموا في 1945م في محاولة منهم لتحديد مدى فعالية البروباجاندا الأمريكية التي كانت تهدف إلى إقناعهم بالاستسلام[1]، ودراسات على المدنيين الألمان في 1946م لتحديد ما إذا كانوا قد تأثروا بالبروباجاندا النازية [2] ودراسات على نخبة القوات التي أسرت في الولايات المتحدة وكندا في 1945م[3]، ودراسات على اللاجئين من الاتحاد السوفيتي لتحديد آثار البروباجاندا السوفيتية[4]. أجريت سلسلة من التحقيقات في الجيش الأمريكي في 1942م حتى 1943م لتحديد مدى وعي الجنود الأمريكيين بـ "أهداف الحرب" - يجب تضمين هذه التحقيقات في هذه المشروعات البحثية. أتى معظم هذه التحقيقات بنتائج سلبية بمعنى أنها أثبتت أن البروباجاندا لم يكن لها أثر حاسم، لكنني أشعر أن كل هذه الدراسات عانت من مناهج معيبة.

---

(1) دراسات عن سجناء الحرب الألمان على يد:

Shilz and Janowitz, Dicks, Gurfein & Janowitz

(2) Padover.

(3) Hicks.

(4) Inkeles.

أولًا، بخصوص الألمان الذين استجوبهم البريطانيون والأمريكيون - هل يمكن إعطاء أي مصداقية لتصريحات هؤلاء السجناء المتهمين المنهزمين الذين مروا بمحن ومصائب كبيرة، ويدلون بهذه التصريحات في حضور السادة المنتصرين والذين سيلعبون دور القاضي أمامهم في نهاية المطاف؟ من السذاجة أن نظن أن هؤلاء الرجال قالوا الحقيقة ليس لشيء إلا أنهم صدّقوا وعود بعدم الإفصاح عن هويتهم أو وعود بالعفو. بسبب معيشتهم في ظل النظام النازي، بل وقبولهم له أيضًا، لم يتمكنوا من تصديق مثل هذه الضمانات - النظام النازي كان قد استخدم نفس الاستراتيجيات لكشف الأعداء والقضاء عليهم. عاش هؤلاء السجناء بالضرورة في عالم من المعارك والأكاذيب والالتزام، في حين أن الباحثين وضعوا أنفسهم في عالم صريح ليبرالي متحرر وأرادوا أن يضعوا السجناء في نفس العالم: سوء الفهم هذا أفسد كل النتائج لهذه التحقيقات. بعيدًا عن التناقضات، يمكن القول إنه كلما أثبتت التحقيقات أن السجناء لم يتأثروا بالبروباجاندا، فهي في الواقع أثبتت أن هؤلاء الرجال ما زالوا يعيشون حياة متلقي البروباجاندا.

من ناحية أخرى، كيف يمكن تصديق الردود المتعلقة بمعتقدات نازية لدى شخص في ألمانيا بعد 1945م، عندما تم تجريم النازية والقضاء على النازيين في الإدارة الألمانية؟ فيما يتعلق بالسجناء، كيف يمكن إغفال الحقيقة أن أسير حرب لسنة أو سنتين (الذي لم يعد عُرْضة للبروباجاندا) لديه موقف يبطل كل الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من مثل هذه التحقيقات؟[1] لأن 25 بالمئة فقط يعبرون عن معتقدات نازية، و10 بالمئة يعبرون عن مشاعر متوافقة مع الفكر النازي، و50 بالمئة لا يبالون، و25 بالمئة يعادون هذه المعتقدات، الافتراض بأن حشد من الأفراد المعرضين لبروباجاندا (هتلر) لعشر سنوات قد احتفظوا

---

(1) بعض هؤلاء المؤلفين على دراية بعيوب هذا المنهج: مثلًا، قال (جرفن) إن منهج الاستطلاعات ليس مألوفًا للسجناء الألمان وإن الفترة الطويلة من القهر التي تعرضوا لها في ألمانيا قد ثبطتهم، وهكذا. ومع ذلك، هؤلاء المؤلفون ظلوا يستخدمون هذه المناهج ويستخلصون استنتاجات من نتائجها.

بقدراتهم النقدية في مواجهة النظام السياسي يعني استخلاص استنتاجات غير مؤكدة بالمرة، رغم الجهود العظيمة المبذولة.

الخطأ الأكبر في كل هذه التحقيقات يبدو كالتالي: يتمسكون بفكرة قديمة تقول إن أثر البروباجاندا يتجلى في الآراء الواضحة الواعية وأن متلقي البروباجاندا سيستجيب بشكل محدد وفقًا لشعارات مروج البروباجاندا. تبدو هذه الفكرة أقل منطقية. وعلينا أن نفهم أنه كما أن هناك انفصالًا بين الرأي العام والخاص، وهناك انفصال بين الرأي والفعل. تعمل البروباجاندا في هذا الاتجاه. لن يتصرف الفرد لخدمة النظام النازي أو الشيوعي لمجرد أنه يحمل معتقدات نازية أو شيوعية واضحة المعالم. وعلى النقيض من ذلك، هناك فهم شائع أن هؤلاء الذين يحملون معتقدات واعية وواضحة يُعتبرون المهرطقين المحتملين الذين يناقشون الفعل في ضوء العقيدة. وبالعكس، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعبر عن أهداف الحرب تعبيرًا واضحًا لا يعني أنه لن يتصرف بشكل جيد في أرض المعركة إذا لم تكيفه البروباجاندا تكييفًا مناسبًا - أو أن يفشل في إبادة اليهود لأنه ليس عنصريًّا بليغ الكلام[1] أو أن يفشل في أن يكون متشددًا مكرسًا لأنه لا يستطيع صياغة عقيدة الكفاح الطبقي. ما يهم مروج البروباجاندا هو وجود جندي جيد، متشدد مكرس، مرتكب المذبحة. وعلى ذلك، عند الإعلان أن 50 بالمئة من أسرى الحرب الألمان لا يكترثون بالنازية بسبب استجابتهم السلبية للأسئلة الخداعية - فهذا يعني إغفال القضية الهامة. ما يهم هو معرفة ما فعلوه.

---

(1) فيما يلي مثال جيد على مثل هذه التناقضات: فيما يتعلق بمحاكمة متهم يهودي (بوريكي). كتب الكثير من المؤرخين القضائيين تقارير معادية للسامية كما أوضحت السيدة (هيس) (*Evidences,* 1959) ولكن لم يكن أي من هؤلاء الكُتّاب عنصريًا. بل على العكس، قد كانوا ضد النازية وأكدوا صداقاتهم مع اليهود. ومع ذلك، كانت تقاريرهم على ما كانت عليه. بينما كانوا يكتبون هذه التقارير ويحاولون شرح تصرفات المتهم على أساس أصله، كانوا يتقيدون حقًا بصور نمطية وتحيزات بروباجاندا معادية للسامية والتي ظلت غير واعية تمامًا لكنها تحكمت في أفعالهم، مع أنهم على مستوى الوعي لم يكونوا معادين للسامية. وعندما أصبحوا واعين بما فعلوه، أصروا على أنهم لم يقصدوا قول هذا قط.

هل شاركوا في اصطياد اليهود وهدم الأحياء اليهودية وإعدام المدنيين وقصف المدن ونسف المستشفيات العائمة لإغراقها وهكذا؟ إذا قاموا بهذه الأفعال، فقد قاموا بها لأن دافعهم كان أقوى بكثير من آرائهم - وهذا لا ينكشف في استطلاع من هذا النوع.

وبالمثل، ليس منطقيًا ولا واقعيًا أن نصدق الاستنتاج القائل إن البروباجاندا لم يكن لها تأثير كبير على الجنود الألمان وأنها تركتهم في مستوى فردي خاص فقط لأنهم كانوا مهتمين أكثر بمصير عائلاتهم أكثر من أي شيء آخر. عند الاستحواذ على المتشدد العادي يكون بعيدًا عن مجال الفعل وبعيدًا عن تأثير البروباجاندا، ومن البديهي إذًا أن يعود لمشكلاته الشخصية. هذا لا يعني أنه لم يكن تحت تأثير البروباجاندا عندما كان غارقًا في حقل الفعل. وعلى النقيض من ذلك، كما أوضحتُ، توقف البروباجاندا يؤدي بمتلقيها إلى "الخصخصة".

التحقيقات التي أجريت على الجنود الأمريكيين اتسمت بالعيوب ذاتها. من السطحية في التفكير تصديق الخلاصة القائلة إن هناك تعارض بين بروباجاندا الحرب والرأي الفردي لأن 25 بالمئة من الجنود يمكنهم التعرف على أهداف الحرب المعلنة رسميًا وأن أقل من 10 بالمئة يعرفون النقاط الأساسية لميثاق الأطلسي وأن أكثر من 50 بالمئة يعرّفون أهداف حربهم بطريقة شخصية خالصة لأن هدف البروباجاندا كان بوضوح وجود جنود شجعان بواسل وأكفاء وليس بالضرورة الجنود الملهمين بمُثُل أخلاقية.

لعبت البروباجاندا على الدوافع الأكثر بدائية لتجعل الإنسان يشارك بكل جوارحه في المعركة. وكانت فعالة في ذلك - حتى وإن لم تكن قادرة على التعبير عن نفسها في صورة "أهداف الحرب" الأيديولوجية أو حتى إذا حصرت نفسها في صياغة ونشر أهداف الحرب. ومن ثم، ستكون صورة صبيانية من البروباجاندا لا تستطيع أن تحرك أحدًا - ولا عجب لو صاغ الأفراد أهدافهم الخاصة للحرب بصورة مختلفة. وعلاوة على ذلك، يجب الانتباه إلى عمق الأثر

الذي يحدث عندما يستوعب الفرد هذه الأهداف (الحرية، الحرب ضد الهمجية، وغيرها).

يمكن لهذا الأثر أن يكون نشطًا جدًّا لكن متلقي البروباجاندا لن يعبر عنه بالضرورة بنفس الصورة كما تفعل الجرائد. الاختلافات بين عبارات البروباجاندا وتكرار مروج البروباجاندا لها لا تعني أنه فشل في التصرف. علينا أن نستخلص من هذا أن منهج البحث كله لا يمكنه أن يقيس فعالية البروباجاندا.

في النهاية، أود أن أقول كلمات قليلة عن قياس الآثار الملموسة: تحويل الأصوات الانتخابية، وزيادة المبيعات بعد حملة إعلانية، والانضمام لحزب كنتيجة لدافع ما للعضوية. كل هذه الآثار محدودة جدًّا. دائمًا ما تبذل الأحزاب السياسية هذه الجهود لتقييم أدائها وتحاول أن تفسر كل المؤشرات وتعطي البروباجاندا حقها على الدور التي قامت به. مثال ممتاز على هذا الشكل من التحليل قدمه (سرجا تشخوتن)[1] بعد دراسة نتائج انتخابات عام 1932م في ألمانيا. ظهرت في هذه الدراسة آثار البروباجاندا الديمقراطية الاجتماعية في (هيس) ظهورًا واضحًا. ثم أجرت الأحزاب السياسية الأمريكية دراسات بحثية لتفسر انتخابات 1952م وخصوصًا تحول الأصوات الكاثوليكية بعيدًا عن الديمقراطيين.

يبدو أن هذا كان نتيجة جهود مختلفة للبروباجاندا؛ البروباجاندا على الأنشطة غير الأمريكية، البروباجاندا القومية، البروباجاندا العسكرية وحتى الدينية (الأمل في رؤية بطريرك أمريكي). ربط (أيزنهاور) بين النضال ضد الشيوعية والقومية الدينية (الدين نقيض الطغيان). يبدو أن هذا أثّر على الكاثوليكيين بدرجة عظيمة.

أخيرًا، بعد ممارسة الحزب الشيوعي للبروباجاندا في قرية أو مقاطعة ما، قام بتقييم النتائج عن طريق الالتماسات وجمع التبرعات والتوقيعات، وغيرها. ولكن

---

(1) *The Rape of the Masses* (New York: Alliance Book Co.: 1940)

لم يكن هناك أي أهمية لأي من عمليات البحث. نقد تحليل (تشخوتن) كان معروفًا كما كان ربط الهزيمة الانتخابية في (هيس) بأسباب تختلف اختلافًا تامًا عن البروباجاندا الديمقراطية الاجتماعية. لم نخرج بأي شيء مؤكد من التحليلات الأخرى.

قامت الشركات التجارية بمحاولات أخرى لقياس الآثار فيما يخص الإعلانات. الموضوع مختلف لكن المناهج ذات صلة. تهتم الشركات التجارية بالنتائج المباشرة حتى تعرف مدى فائدة الإعلانات وما إذا كان للدعاية فوائد "جانبية" وتوقيت الإعلان (قبل أو بعد إطلاق منتج جديد)، أي وقت في السنة وإلى متى وكيفية تجنب الفشل في بلوغ الهدف المنشود. في أفضل الأحوال، لا يمكن لأي من هذا أن يظهر إلا من تحليلات لآثار سابقة.

لكن علينا أيضًا أن نسأل عن الجمهور الذي تستهدفه الإعلانات. هناك آلاف من الطرائق للبحث في ذلك - تخفيض الأسعار والعينات المجانية والاستطلاعات وهكذا. لكن، كل هذه الطرائق لا تكترث بالتأثيرات على اللاوعي - وهو الجزء الأهم. تعليم الناس ردود أفعال وغرس العادات فيهم هو أثر البروباجاندا الحقيقي ولا يمكن قياسه عن طريق تحقيق مباشر، وإنما من خلال المشاركة الكبيرة التي تثيرها، وليس غيرها. ما يهم هو تقييم الأثر الكامل للإعلان. في العالم التجاري، سيتم قياسها بالأموال؛ تكلفة الإعلانات بمقارنة مع العائد منها. بشكل عام، تتكلف الإعلانات من 5 إلى 20 بالمئة من أسعار المبيعات. إذا تجاوزت 20 بالمئة، سيكون هناك شك فيما إذا كان العائد يبرر التكاليف المضافة، لكن هناك استثناءات لهذا عندما تصاحب الحملات المكلفة تطورات عظيمة في جودة المنتج - مثلًا، مضاعفة الإعلانات لمبيعات السجائر الفرنسية (سيتانس) عام 1938م. لمسألة العائد دور مركزي في الشؤون التجارية.

ليس لزامًا على الدولة دائمًا أن تحسب تكاليف البروباجاندا أو أن تحد منها[1]. في الواقع، كثيرًا ما يتجاوز الهدف مسألة المال. إذا كان الهدف كسب 10 بالمئة أكثر من الأصوات الانتخابية لحشد الإجماع وراء برنامج اقتصادي وتحفيز الطاقات ومحو المقاومة النفسانية لدى الخصم والتأثير على الرأي العام الأجنبي - يمكن قياس كل هذا بشكل فعال، فإن المبادرة السياسية مهمة لدرجة ينفق معها المال دون حساب. في مواقف أخرى، في أوقات كثيرة لا تستطيع الدولة حتى أن تحاول قياس العائد من البروباجاندا. فمثلًا، في وقت الحرب، لا يمكن قياس البروباجاندا الموجهة نحو العدو عن طريق تداعياتها (الانعكاس). على أي حال، إذا نجحت الصدمة النفسانية، يجب أن تظل خفية وإلا ستلقي الشرطة القبض على متلقي البروباجاندا فورًا وسيتوقف أثر البروباجاندا كلها. بجانب ذلك، إذا عرفت الحكومة أنه لبروباجاندا أجنبية ما فعالية، سوف تصنع بروباجاندا مضادة مناسبة.

ولنلخص تحليل المناهج المعيبة المختلفة المصممة لتقييم فعالية البروباجاندا، دعونا نضيف الملحوظات التالية:

1. يعتبر معظم علماء الاجتماع والسياسيين المنهج الحسابي الأفضل والأكثر دقة لكن هذا المنهج - في رأيي - ليس خلافيًا فحسب، بل خطأ أيضًا. المناهج الرياضية (الإحصاءات وغيرها) لا يمكن تطبيقها إلا في حدود ضيقة جدًا وعلى مشكلات لزم انتزاعها من سياقها. أغلبية الظواهر الاجتماعية تخالف هذا المنهج. الرغبة في اختزال الموقف إلى أرقام دقيقة يفترض عملية سابقة ذات أبعاد ثلاثة:

---

(1) من السهل علينا أن نرى عدم التوازن بين المبالغ الطائلة المنفقة والعائد منها في حالات ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي وكذلك الأمريكيين خلال الحرب (كان واضحًا أن آثار ثلاث مليارات منشور ألقوا على الجيش الألماني بين يونيو/ حزيران 1944م ومارس/ آذار 1945م - غير متوازنة مع آثارها فيما بعد).

أ. انتزاع الحقيقة (المراد قياسها كميًّا) من سياقاتها التاريخية والعاطفية والدينية والنفسانية وانتشالها من إدراك الفرد كله ورؤيته للعالم.

ب. اختزال الظاهرة إلى حالتها الأبسط عن طريق محو كل التعقيدات والجوانب الفرعية - التي يمكن أن تكون فعلًا الأكثر أهمية.

ت. النظر في الظواهر الخارجية فقط رغم أنها يمكن أن تكون مجرد امتداد لعوامل مختلفة أكثر أهمية. لكن يجب حصر القياس الكمي في جوانب خارجية وسلوكيات ومواقف واضحة للعيان وهكذا.

يمكن بالكاد قبول هذا لو اعترفنا أن النتائج ضعيفة وليست ذات أهمية نسبيًّا. لكن لأنها ظهرت في صورة أرقام ولأننا نؤمن بدقة الرياضيات إيمانًا أعمى، هناك زعم أن مثل هذه المناهج تنتج الحقيقة ذاتها وأن ما سواها يعتبر خيالًا أدبيًّا. لكن الأشياء الأخرى هي بالضبط الأكثر أهمية إذا لم يكن لدينا صورة "آلية" شاملة للإنسان. الأشياء الأخرى هي ما يهم بشرط عدم التقليل من أهمية الإنسان بكامل كينونته كما فعل تقرير (كينزي) وآخرون. الأهم في هذه الصلة هو أن علماء النفس الاجتماعيين الذين يستخدمون مثل هذه المناهج الرياضية سرعان ما يزعمون أنه ليس هناك ما لا يمكن الوصول إليه عن طريق هذه المناهج.

لكنني حاولت أن أبرهن أن مثل هذه المناهج لا تناسب القضايا التي ناقشناها هنا، ويجب أن أضيف أن النتائج والإحصاءات التي تم التوصل إليها هنا تتجاوز البديهيات والأمور الواضحة. ولا يعتبر كشفًا مدهشًا إذا أثبتنا - عن طريق الأرقام بعد تحقيقات إحصائية - أن النساء أكثر قابلية للبروباجاندا العاطفية من الرجال. البديهيات تشير أيضًا إلى أن الرجال لديهم استقرار عاطفي لا تستطيع البروباجاندا تغييره لدرجة كبيرة؛ الأرقام والرسوم البيانية والنسب لا تضيف الكثير إلى ذلك .

2. ملحوظتي الثانية هي أن المناهج العلمية المزعومة منحازة للغاية. كل تحليلات الفعالية الخاصة بالبروباجاندا التي رأيتها تكشف عن انحياز غير واع. مثال

واحد على ذلك هو أن معظم الدراسات الأمريكية حول الفعالية النسبية للبروباجاندا النازية والأمريكية تخلص إلى أنه لم يكن للبروباجاندا النازية أثر عميق على الشعب الألماني، وأن البروباجاندا النازية لم تصل إلى الرأي الأمريكي على الإطلاق، لكن البروباجاندا الأمريكية كان لها آثار بارعة على الجنود الألمان وحثهم على الاستسلام في 1945م. لكن (جوبلز) أيضًا أمر بإجراء دراسات منهجية وشاملة جدًّا أبطلت الادعاءين الأولين. أما الادعاء الثالث فقد اختلف عليه حتى الاختصاصيين الأمريكيين أنفسهم[1].

هناك آراء يعتقد فيها كل علماء النفس والاجتماع الذين آمنوا أن البروباجاندا ليس لها تأثير كبير - تستند هذه الآراء إلى انتقاء قيمي. ينتمون إلى الإنسانوية ويؤمنون بالطابع المطلق للبشرية، بالشخصية الدائمة، بأسس الحياة النفسانية غير العاقلة المستقرة. وبصورة غير واعية يرفضون الاعتراف بأنه يمكن السيطرة على الناس والتحكم فيهم وتكييفهم على نحو كامل. أو أنهم الديمقراطيين المكرسين الذين يؤمنون بالفرضيات الديمقراطية التي تقول إنه من اللازم أن يستطيع المواطن أن ينال حرية الإرادة والحكم لأن بدونها لن تعني الانتخابات أي شيء، والنواب المنتخبون لن يمثلوا أحدًا ولن يكون هناك حديث عن سيادة الشعب.

من المقبول تمامًا أن يتبنى شخص ما هذا الرأي لكنه رأيًا تجريديًّا نظريًّا. ومن المتعارف عليه جيدًا أن يظل الإنسان متفائلًا ومثاليًّا، ولهذا السبب يعلن أن البروباجاندا ليست بهذه القوة الهائلة، ويرتئي أن الإنسان دائمًا ما سيصعد للقمة. لكن لا يمكن للناس أن يزعموا أنهم وصلوا لهذه الاستنتاجات عن طريق التحليل العلمي والإحصاءات والتجارب الاجتماعية.[2]

---

(1) Shilz & Warburg.

(2) دعونا كذلك نتذكر أن علماء النفس الاجتماعيين الأمريكيين لم يتفقوا جميعًا في تقديراتهم لفعالية البروباجاندا. بشكل عام، يمكننا أن نرى النجاح الباهر لكل أشكال بروباجاندا التبرير: دائمًا ما يعتقد المرء بقوة في كل ما يبرر ذاته. أود أيضًا أن أقترح تجربة بسيطة =

3. لا يمكن التأكد من وجود فعالية البروباجاندا - أو عدم وجودها - عن طريق مثل هذه المناهج. لا يمكن رصدها إلا من خلال ملاحظة ظاهرة عامة، والاستخدام الأمثل لمعرفة الإنسان العامة، وبيئته السياسية الاجتماعية، وعن طريق خليط من أحكام التقدير التقريبي، والاستخدام الأفضل للعقل والمنطق. هذا لا يمكن أن يؤدي إلى أرقام أو حقائق صارمة، بل يقودنا إلى احتمالات معينة، وفوق كل هذا، يستبعد الأخطاء الفادحة التي تُوقِعْنا فيها المناهج الدقيقة.

= نسبيًّا: ادرس مبادئ بروباجاندا (لينين) وطبقها على أفعال القادة السوفييت. النتائج التي يسعون إليها عن طريق البروباجاندا ستظهر بوضوح وستتحقق على وجه العموم تقريبًا دائمًا.

2. عدم فعالية البروباجاندا

فيما يلي سنلقي نظرة على أربع قضايا متعلقة بعدم فعالية البروباجاندا.

استنادًا إلى الاعتبارات العامة لحياة الفرد النفسانية، يصل الكثير من علماء النفس - وخصوصًا الأمريكيون - إلى الخلاصة القائلة إن البروباجاندا غير فعالة. اخترت مثالين فقط من بين أمثلة كثيرة على ذلك. المثال الأول يتعلق باستقرار الصور النمطية. معظم المراقبين[1] يعتقدون أنه مستحيل من الناحية العملية أن نغير الصور النمطية عن طريق التلاعب النفساني. أتفق مع هذا بدون تردد وبدون تحقيق فيما إذا كانت الصور النمطية تلقائية أو أتت عن طريق البروباجاندا. يجب أن نضيف إلى هذا أن الصور النمطية هذه لا تتأثر بالخبرات الشخصية والحقائق الجامدة، وأن البروباجاندا إذا لم تتمكن من تحريكها أو تغييرها، لن تستطيع المعلومات أن تفعل أي شيء تجاهها. لكن لا يمكن إنكار أن صور نمطية معينة تعتبر نتيجة البروباجاندا. تكتسب الصور النمطية الناتجة عن البروباجاندا نفس الاستقرار والقوة التي يحظى بها الصور النمطية الأخرى. على سبيل المثال، الصور النمطية الخاصة بالمثل الشيوعية واليسوعية البروليتارية والربط الذي صنعته البروباجاندا بين الاتحاد السوفيتي والسلام والثورة (لم تكن هناك صعوبة أمام البروباجاندا عند الربط بين ألفاظ متناقضة) قاومت بسهولة أثر الحقائق الصادمة مثل الميثاق النازي-السوفيتي والترحيلات من البلدان البلقانية وأكرانيا (1945-1944م) والمجزرة المجرية (1956م). في واقع الأمر، مثل هذه الحقائق المهولة فعلًا تهز الرأي لوقت قصير وتطمس الصور النمطية لبرهة من الزمن، لكن بعد بضع أسابيع، ستنحدر هذه الحقيقة إلى مرتبة الماضي، وتغرق في التفسيرات، وتتلاشى أهميتها الجلية، وتستعيد الصور النمطية القديمة مكانتها وقوتها وحيويتها ونشاطها دون أن تتغير قيد أنملة. مثلًا، تطور (سارتر)

---

(1) Young, Krech & Crutchfield, MacDougall.

الشخصي استمر من أكتوبر/ تشرين الأول 1956م وحتى يناير/ كانون الثاني 1957م. على ذلك، كيف يمكن الاستنتاج أن البروباجاندا غير فعالة من وجود الصور النمطية؟

من ناحية أخرى، نحن بحاجة إلى النظر في عدم وجود علاقة بين الرأي والفعل مرة أخرى. على سبيل المثال، في الخلاف الذي وقع مؤخرًا حول المدارس العامة، وجدتُ الآتي: عبّر بعض أصدقائي عن صور نمطية عن دعم المدارس العامة - اتحاد الشباب، استقلالية أعضاء هيئة التدريس، الجودة الفكرية، وهكذا. عبروا عن آرائهم بوضوح - لكنهم أرسلوا أطفالهم لمدارس خاصة، وهذا ليس خارج المعتاد، لكنني قد برهنت أن البروباجاندا بالأساس تهتم بتشكيل الفعل والسلوك، ومع قليل من التفكير. ولهذا السبب، عجز البروباجاندا النسبي عن تعديل الصور النمطية لا يسمح بالوصول إلى الخلاصة القائلة بإنها غير فعالة ما دامت قادرة على تحقيق أعمال غير عاقلة - وهو ما يتجاوز الآراء. ومع ذلك، أعترف بهذا العجز النسبي. ينطبق هذا أيضًا على مثالي الثاني: المواقف المسبقة.

تعتبر مسألة المواقف الآن مسألة جوهرية، ويمكن تعريفها بطرائق مختلفة:

صرح (كروجر) أن الموقف هو "رواسب الخبرة التي تكيف النشاط وتتحكم فيه. إعداد التنظيم العقلي الذي يحضر الفرد إلى نوع معين من النشاط أمام الناس أو الأوضاع." قال (يونج) إن "الموقف هو شكل من العادات غير الواعية التي تعبر عن ميول عميقة في دافع نحو الفعل."[1] اعتبر (كرتش) و(كرتشفيلد) أن الموقف "تنظيم طويل الأمد للحوافز الحسية والعاطفية والإدراكية المتعلقة بمظهر من مظاهر العالم." تكفي هذه التعريفات لتثبت أنه على أساس مثل هذه الاعتبارات فالموقف هو عامل شخصي يؤدي إلى الفعل. بالطبع، شخصية المرء لا تتكون من موقف واحد وإنما عقدة من المواقف المترابطة والمتكاملة. الطريقة التي

---

(1) وعليه، قد أوضحت كيفية "اختيار" الفرد هذه المعلومة أو تلك، ورفض هذا الحافز أو ذاك، أو كيفية هروبه من كل الهجمات على افتراضاته المسبقة.

يرد بها الفرد على حافز ما تتوقف على نمط مواقفه كله. لا يهم سواء كان الحافز حدثًا عامًّا أو خاصًّا، ولا يهم كذلك إذا كان الحافز عرضيًا أو نتيجة خطة. كنتيجة لذلك، الفرد الواقع في قبضة البروباجاندا سيستجيب وفقًا لمواقف مسبقة، وللدرجة التي تقوده إليها هذه المواقف. ومن ثم، على البروباجاندا أن تؤسس نفسها على ميول موجودة بالفعل حتى تؤدي إلى أعظم أثر ممكن. وإذا سارت ضد المواقف الراسخة المتأصلة فلن يمكنها أن تترك أي أثر[1]. قال (مكدوجل) إن البروباجاندا المعمدانية مثلًا لا تبلغ الكاثوليكيين الواعين وأن البروباجاندا الغربية لا تصل إلى الشيوعيين المخلصين. ولكن، ما زال هناك انشقاقات: بعض الكاثوليكيين فعلًا يصبحون معمدانيين والعكس صحيح. ولذلك، سيميل المرء إلى القول إن مواقفهم السابقة لم تكن إلا مواقف سطحية. لكن هذا ليس منطقًا جادًّا. هذا يشبه الفكر المصيري الذي يعتبر أن المسيحي الذي اقترف ذنبًا لم يكن عنده الإيمان الصحيح من البداية.

ذهب (دوب) أبعد من ذلك: "أي استجابة لحافز البروباجاندا يعتمد كليًّا على الخبرات السابقة للفرد. تحصر البروباجاندا نفسها في إثارة استجابة تعلمها الفرد بالفعل. كانت هذه الاستجابة بالفعل جزءًا من شخصيته...على مروج البروباجاندا أن يتبع تيار الرأي العام." في رأي (دوب)، إذا كان علينا أن نبحث إذا كان للبروباجاندا أثر، سيتوجب علينا فحص كل من هؤلاء الذين أطاعوا البروباجاندا حتى نرى إذا كان لديهم مواقف دفعتهم نحو الفعل في اتجاه معين. كان (دوب) على يقين من وجود هذه المواقف. تعرض هذا الرأي لنقد صائب من (ميوتو) الذي رأى التالي:

---

(1) كثير من الخبرات التي تستند إليها هذه التصريحات تتسم بالخلافية. مثلًا، زعم (كارترايت) أن البروباجاندا الهائلة في الولايات المتحدة بين 1941م و1945م لشراء سندات وزارة الدفاع لم تغير المواقف. في الواقع، السبب الذي صرح به المشترون لم يتغير لمدة أربع سنوات رغم تنوع الأسباب: الحافز الفردي لم يتبدل. وهذا فعلًا يثبت أن الناس في حاجة إلى أسباب بسيطة لأفعالهم. أسباب البروباجاندا كانت في غاية التعقيد. إذا كان عند الفرد سبب واضح لفعل شيء، لماذا إذًا يتبنى أسباب أخرى معقدة ومملة لفعل نفس الشيء؟

1. كيف يمكن لبروباجاندا (جوبلز) أن تحافظ على سيطرتها على الألمان وتجعلهم يحاربون حتى آخر لحظة رغم كل مشاعر الخوف والرغبة في السلام ورغم كل الأدلة؟

2. من ناحية أخرى، كيف يمكن تفسير مجموعة "المترددين" الشهيرة في الانتخابات وفي كل القضايا السياسية؟ المترددون لا يتخذون قراراتهم بما يتفق مع ميول مسبقة، بل وفقًا للمكان الذي تدفعهم البروباجاندا نحوه.

3. تبرز أهمية المواقف المسبقة في وقت السلم إذا لم تتعرض الحشود لتوترات نفسانية وإذا اتسمت المجموعات الاجتماعية بالاستقرار. على البروباجاندا أن تؤقلم نفسها مع عادات الحشود في أوقات مثل هذه. ولكن، داخل مجتمع يتسم بحالة من التفكك وتغيرات طبقية كبيرة وتوترات عصبية عالية، لا تحتاج البروباجاندا أن تتحرك بأنماط تقليدية؛ يمكنها أن تتدخل بقسوة وتحمل القرار أبعد من كل الاعتبارات المعتادة.

4. في النهاية، كيف يمكن شرح التحولات العنيفة للبروباجاندا وتغيراتها كما كان الحال مثلًا مع الشيوعيين أو النازيين؟ لم يتسن الوقت للمواقف أن تسير في نفس الاتجاه لكن الناس، في معظم الحالات، اتبعوا البروباجاندا. لا يمكن القول إنهم يفعلون ذلك عبر الطاعة. عند السير وراء البروباجاندا، يصدقها الناس.

دعونا نضيف هنا فكرة (ستوتزل) الذي طرح نظرية تقول إن الفرد يمكن أن يتبنى رأيين عن نفس الموضوع - رأيه الخاص الذي يحتفظ به لنفسه أو يعبر عنه فقط لعدد صغير من الناس، ورأيه "العام" الذي يشاطره مع مجموعته. تستخدم البروباجاندا هذا التعايش بين الرأيين، وعند فعل ذلك، يمكنها أن "تجعل الفرد يقوم بفعل شيء مختلف تمامًا من الفعل الذي كان سيقوم به نتيجة رأيه الخاص." لكن التعبير عن الرأي العام لا يعتمد بالضرورة على ملامح موجودة مسبقًا. ينبثق في أحيان أكثر من الظروف والتيارات الخارجية، وهكذا.

وأخيرًا، عندي ملاحظتان: من الجلي أن المواقف المسبقة تتواجد في مواجهة مع فعل واحد خاص بالبروباجاندا. إذا أعد شخص خطابًا واحدًا أو نشر مقالًا واحدًا، ستتكيف بالطبع استجابة الناس معه حسب مواقفهم السابقة. لكن هذا لا يعتبر بروباجاندا. هل هناك من يصدق أن المواقف المعدة مسبقًا ستقاوم بروباجاندا حقيقية تحيط بالفرد دون توقف، من الصباح إلى الليل، من الطفولة إلى الشيخوخة، في كل ما يقرأ ويرى ويسمع، دون إعطائه مهلة للراحة أو لحظة للتوقف والتفكير والتقاط الأنفاس؟

تحت مثل هذه الظروف، سريعًا ما تتلاشى المواقف المسبقة. ولا يمكنها أن تقاوم الهجمات المستمرة لحملة البروباجاندا الحقيقية. حتى إذا ظن المرء أن مثل هذا الوصف ينطبق فقط على البروباجاندا في البلدان الشمولية، علينا أن نتذكر ما قلناه بشأن البروباجاندا النفسانية في البلاد الأخرى. ومن ثم، ليس هناك ثقل للنظرية القائلة إن البروباجاندا تعتمد على مواقف مسبقة. فوفقًا لهذا، ليس ممكنًا أن يكون هناك تفسير نفساني للبروباجاندا.

كل ما يمكن الاحتفاظ به من هذه النظرية هو أن البروباجاندا يجب دومًا أن تستخدم النزعات الموجودة بالفعل كما ذكرت. لكن المواقف المسبقة ليست إلا عامل مؤقت ذو أهمية ثانوية – ولا يمكن اعتبارها إلا في بداية حملة البروباجاندا.

زعم البعض أنهم وجدوا دليلًا على عدم فعالية البروباجاندا في أماكن أخرى. يقولون إن البروباجاندا تؤدي بشكل عام إلى اللامبالاة. عندما يوضع الفرد بين نوعين من البروباجاندا في نظام ديمقراطي، لن يكون أمامه سبب ليقرر نعم أو لا، فكل نوع من البروباجاندا يبطل مفعول الآخر. المثال الأكثر استخدامًا هو حملة الانتخابات. فيما يخص البلدان الشمولية، حيث تشن البروباجاندا الثقيلة هجمات عاتية على الفرد، يقال إنه يعرف أنه يسمع أكاذيب ولم يعد يستمع لها ويهرب من ذلك إلى شرود الذهن السياسي. ثم ينغلق ولن يكون هناك أي فرصة للوصول إليه. يقال إن أمثلة على هذا هي مواقف الشعب السوفيتي تجاه

البروباجاندا الستالينية أو الرأي المجري، طبقًا لاستطلاع أجري في 1958م: "مال أغلبية المشاركين إلى (كادار)." (بالطبع!)، ولكن ذكر أيضًا أن "المجريين كانوا مهتمون بالأساس بالمشكلات السياسية والدولية." الزعم هنا هو أن هذا يثبت عدم فعالية البروباجاندا.

في الاتجاه ذاته، نرى ملاحظات (لازرسفيلد): في الولايات المتحدة، طالبت هيئة الاتصالات الفيدرالية كل إذاعة ومحطة تليفزيونية خاصة أن تخصص بعض الساعات للبرامج المدنية، لكن النتائج - كما قال (لازرسفيلد) - لم تكن مبشرة؛ أغلق المستمعون والمشاهدون أجهزة المذياع والتلفاز - "الصعوبة ليست في أن تجعل الحصان يشرب وإنما في أن تقوده للماء...ومن باب التناقض المطلق، تعززت تحيزات المستمعين وآرائهم عندما طُلب منهم التخلي عنها." هذا الأثر المعروف عُرِف باسم "النتائج العكسية" أو "بوميرانج." وبالمناسبة، كثيرًا ما يُستند إلى هذا الأثر لدعم مزاعم عدم فعالية البروباجاندا. لكن هذه الأمثلة ليست مقنعة جدًّا. لقد بحثنا ظاهرة اللامبالاة في حالة البروباجاندا الأحادية في البلاد الشمولية ووجدنا أنها ليست بروباجاندا فاشلة، بل ناجحة. فيما يتعلق بعدم الفعالية المزعومة لنوعين متعارضين من بروباجاندا الانتخابات، سأحصر كلامي في ثلاث ملاحظات مكملة لما قيل بالفعل عن هذا الموضوع:

1. هؤلاء الذين يشددون على استقلالية المستمع أمام حملات دعائية متعارضة - هم دائمًا المثقفون الذين ينظرون إلى الظاهرة من بعيد. علاوة على ذلك، هم دومًا الرجال الذين يحملون بالفعل رأيًا ثابتًا ويرفضون أن يعطوا أنفسهم الفرصة للتأثر.

2. علينا أن نتذكر مدى صعوبة قياس فعالية البروباجاندا وشدتها. هل يمكننا حقًا أن نتحدث عن نوعين متساويين من البروباجاندا؟ من الصعب تصديق ذلك. وبالمناسبة، هذا لا يعني أن البروباجاندا الأفضل والأشد ستفوز فوزًا تلقائيًا وفي وقت قصير. حتى بروباجاندا الانتخابات يمكن أن يكون لها آثار

طويلة المدى إذا صُنعت بمنهجية. في فرنسا، بين 1921م و1936م، أحرز الحزب الشيوعي تقدمًا بالأساس كنتيجة لبروباجاندا الانتخابات، وينطبق نفس الكلام على الحزب النازي خلال الفترة من 1929م إلى 1933م. ومن ثم، يستحيل تقريبًا أن نزعم أن وجود نوعين من البروباجاندا هو ببساطة السبب وراء إبطال مفعول الاثنين. هذا الاعتراض البديهي سطحي للغاية. ودعونا نضيف أن الشخص الذي يفشل على أي حال في صناعة البروباجاندا سينهزم فورًا. وهذا على الأقل يثبت أن هناك حاجة إلى البروباجاندا.

3. دعونا نعود إلى مثال العوام الأمريكيين الذي لا يكترثون بالبرامج المدنية على المذياع. لكن، هل تعتبر مثل هذه البرامج بروباجاندا؟ نعرف أن أول ضرورة من ضرورات البروباجاندا هي أن تُسمَع وأن تثير الفرد وتجعله يسمع أو ينظر. وعليه، لزامًا علينا أن نفترض أن التقنيات المستخدمة – على أقل تقدير – ليست الأفضل. دعونا نلقي نظرة إلى موضوع الإذاعات: افتتاح مستشفى جديد مع وصف كامل لخدماتها؛ افتتاح مكتبة عامة جديدة مع خطابات عن قيمة القراءة؛ مؤتمرات عن إدمان الكحول، الصداقة بين الناس...لم يكن ضروريًّا إجراء استطلاع هنا؛ كان يمكنني أن أقول للسيد (لازرسفيلد) إن 75 بالمئة من المستمعين سيغلقون البرنامج بمجرد إلقاء نظرة على القائمة.

كما أوضحت في مواضع أخرى، هذا مثال على الضعف الكبير في المعلومات أمام البروباجاندا التي لا تدعي أنها تعليمية. تلقي البروباجاندا بالناس في واقع مشتعل وتستعدي كل ما يثيرهم. ومن ثم، فلن يغلقوا البرنامج. من البديهي أن الدكان الصحي الذي يبيع عصائر الفواكه أقل جاذبية من المحل الذي يبيع الخمور.

من السهل كذلك على الماركسية أن تتخذ موقفًا ناقدًا بشأن فعالية البروباجاندا. سأقدم مثالًا واحدًا. في تقرير كُتب في فبراير/ شباط عام 1951م

ونُشر في يونيو/ حزيران عام 1957م عن الفروق الداخلية بين البلدان الشيوعية، أعلن (ماو تسي-تونج) أنه لا يمكن إجبار شعب على التخلي عن المثالية أو تبني الماركسية. قال إن البروباجاندا تستطيع أن "تجبر" شعبًا على أن يصير ماركسيًا، لكنها غير فعالة عندما تقوم بذلك. أضاف (ماو) أنه "يجب استخدام مناهج ديمقراطية مثل النقاش العام والنقد والإقناع والتعليم المناسب." يبدو أن هذا يشبه برنامج العلاقات العامة والإنسانية. بالرغم من ذلك، يجب أن نتذكر أن الهدف ثابت ودقيق: من اللازم أن يصير الناس ماركسيين. لم يرفض (ماو) إلا مناهج معينة فقط للضغط النفساني والأشكال الأكثر بدائية للبروباجاندا. لكن، ما "التعليم المناسب"؟ هو التلقين الماركسي للأطفال وإعطائهم مفهوم الماركسية للعالم فيما يتعلق بالتاريخ والعلوم. ما النقاش العام والنقد؟ مَن سيدير الجلسات إذا لم يكن قائدًا على دراية بالمقصد الذي سيقودهم إليه، كما سيقود المتحدثين تدريجيًا لنقطة بعينها في مسار النقاش. أليس الإقناع أحد أشكال البروباجاندا الأكثر مواكبة للعصر؟ ركز (ماو) وصفه على الأشكال المشخصنة والحديثة للبروباجاندا فقط.

عند الحديث عن الأنظمة الديمقراطية، تعلمنا من تجربة تغيرات وتفاعلات الجماعات مدى زيف التأكيد على أن البروباجاندا غير فعالة[1]. بعبارة أخرى، كل ما يهم هو ما يعنيه المرء بالبروباجاندا. بجانب ذلك، حتى لو كان مستحيلًا للبروباجاندا أن تجعل الناس يؤمنوا بالماركسية، كانت البروباجاندا ناجحة جدًا في الصين في دفع الناس على التصرف بما يتماشى مع رغبات الحكومة. "القفزة الكبيرة للأمام" والبلديات تعتبر أمثلة رائعة على فعالية البروباجاندا.

يشير الكثيرون إلى أمثلة تاريخية عظيمة لدعم فرضية عدم فعالية البروباجاندا. على سبيل المثال، تم إجبار علماء الاجتماع الأمريكيين على الاعتراف بأن البروباجاندا الأمريكية فشلت عندما حاولت أن تجعل الألمان يقاوموا

---

(1) انظر: Whyte, Sorokin

حكومتهم في الفترة بين 1943م و1945م. تحديدًا، استمر المدنيون الألمان في المقاومة رغم القصف وشح الطعام. ظل الإنتاج الصناعي في مستويات عالية جدًّا لدرجة مفاجئة رغم الدمار الكبير؛ لم تتحطم الروح المعنوية بأي حال من الأحوال[1]. اعتقد اختصاصيو البروباجاندا أن الروح المعنوية ستنهار بعد غزو نورماندي، لكن الرغبة في القتال ثابرت. ويحدث كل هذا رغم فعل نفساني قوي. ومن ثم، لم تكن البروباجاندا فعالة.

ومع ذلك، ربما يجب النظر إلى الجانب الآخر من المسألة ودراسة السبب وراء المعنويات الألمانية العالية التي أدت إلى بالناس إلى المقاومة والقتال حتى نفاد الوسائل المادية لعام على الأقل، دون أمل، بينما استسلم نفس الناس قبلها بثمانية وعشرين سنة عندما كان جيشهم في خطر أقل من الخطر الذي تعرض له في 1944م. ليس هناك أي شك أنها كانت نتيجة التعليم النازي - بعبارة أخرى، البروباجاندا التي تمجد التضحيات والحروب والقيم العسكرية والثقة بالقائد والمصلحة العامة وسمو العرق الألماني الذي لا يُقهر. مثل هذه البروباجاندا بدأت منذ 15 سنة، وهذا يعني أنها استغرقت الوقت اللازم لترك أثر. البروباجاندا الأمريكية التي لم تبدأ في الاختراق إلا في 1943م لم تتمكن من إيقاف المد؛ لم يكن هناك وقت كاف. المعنويات العامة التي تعتمد على البروباجاندا - وليس بقاء الجماعات والفرق المتخصصة، كما افترض تحليل (شيلز) المجهري - هي التي أدت إلى المقاومة الألمانية[2]؛ لأربع شهور على الأقل قبل نهاية الحرب، انقطعت

---

(1) انظر: Warburg

(2) هذه هي خلاصة (جرفين) و(جانووتز) اللذان أثبتا مثلًا أن - من يونيو/ حزيران 1944م إلى إبريل/ نيسان 1945م - أكثر من ستين بالمئة من الجنود الألمان ظلوا محتفظين بإيمانهم بـ(هتلر) وأن - في فبراير/ شباط 1945م - أربعين بالمئة منهم صدقوا أن ألمانيا مازالت تستطيع أن تفوز في الحرب. خلص هذان الكاتبان إلى أنه لا يجدي أن يتم استهداف الجنود الألمان على أسس أيديولوجية لأنهم محصنين بحكم كونهم متلقين للبروباجاندا. لكن، في المقابل، هناك دراسة مفاجئة أجراها (شيلز) الذي حاول فيها أن يثبت فيها أن البروباجاندا الألمانية لم يكن لها أثر كبير وأنه وجد فيها أن قيم مثل الشرف والوطنية =

الاتصالات ومارست الشرطة والحزب الضغط على نحو متقطع، ولم تعد الإدارة تؤدي عملها بنجاح.

إذا قاوم الناس - وليس فقط مجموعات المعارك التي درسها (شيلز) - ليس السبب وراء هذه المقاومة هو الضغط الرسمي المحيط بهم، بل عمق البروباجاندا التي تعرضوا لها. وهذا أيضًا جعلهم محصنين ضد البروباجاندا الأمريكية.

مثال آخر - تقليدي - هو المجر. من لحظة قيام الثورة المجرية في 1956م، قيل إن البروباجاندا الشيوعية قد فشلت: مع أن البروباجاندا كانت متواصلة لعشر سنوات، احتفظ الناس بحسهم النقدي ولم يقتنعوا بها. كانت هذه الحجة النموذجية. سعدت الطبقة البرجوازية الغربية باستقبال المعادين للشيوعية، هؤلاء المقاتلون الشجعان المدافعين عن "العالم الحر." ما أعظم الدهشة والتعتيم الذي مورس عند اكتشاف أن تقريبًا كل هؤلاء الثوار شيوعيين أو على الأقل اشتراكيين. ورفض اللاجئون المجريون لعام 1945م (تقريبًا كلهم من أتباع نظام (هورثي)) أن يكون لهم أي صلة بالوافدين الجدد على أساس أنهم مثّلوا اليسار

= وغيرها تواجدت عندما نجحت المجموعات الصغيرة، وبخاصة المجموعات العسكرية، في النجاة. حيث إن الفرد الذي يشعر بالرضا داخل مجموعته الصغيرة لا يمكن مهاجمته، ومقاومته للقوى الخارجية لن تأتي من البروباجاندا. هذا التفسير - تفسير شيلز - يتعارض مع رأيي مع بعض الاعتبارات البسيطة. فيما يخص المجموعات الصغيرة، لماذا كان هناك مثل هذه الاختلافات الكبيرة، فبعض المجموعات كانت تتفكك دون سبب واضح؟ هناك قضية أساسية هنا: معنويات المجموعة. هذه المعنويات بالضبط هي نتيجة البروباجاندا. إذا حكمت مجموعة من الرفاق على شخص تحول حديثًا إلى معاداة للنازية، يحدث تحول في أهمية الشعارات على المستوى الشخصي: ثم تشكل الوحدة الأيديولوجية و"المعنويات" القوة التي توحد المجموعة الأساسية. وعلى العكس، إذا رأينا معنويات شخص تنهار بسرعة عندما ينفصل عن مجموعته، يحدث هذا (باستثناء أسباب بديهية أخرى) لأن البروباجاندا ظاهرة جماهيرية، ولذلك بطبيعة الحال، يتوقف الفرد المعزول عن كونه متلقي للبروباجاندا. ومن ثم، فإن (شيلز) على حق لكنه توقف في منتصف الطريق. تتواجد البروباجاندا في المجموعة القتالية.

المتطرف. هذا نجاح آخر للبروباجاندا. خلال عشر سنوات، المجموعة السكانية مع أغلبية كاسحة من اليمينيين المعتدلين، ومجموعة يسارية معتدلة ذات أهمية، وأقلية شيوعية صغيرة (8 بالمئة) تحولت تمامًا تقريبًا إلى أمة شيوعية. أقول "تمامًا تقريبًا" لأن معارضي النظام السياسي الذين فروا كانوا كذلك شيوعيين (حتى عندما كانوا بمنأى عن الدولة الشرطية) استمروا في قول ذلك مع أنهم عرفوا أن الشيوعيين لم يكن لهم شعبية في البلاد التي ذهبوا إليها. لم يثوروا على شكل الحكومة أو ضد الشيوعية لكن ضد الإنسان والقيود المبالغ فيها ووجود الروس.

هذا يعني أنه لا يمكن الحصول على أي شيء من خلال البروباجاندا، وأن البروباجاندا السطحية والتكتيكية هي التي أخفقت في حين أن البروباجاندا الأصولية كانت ناجحة. لكن، من الجلي أن الإثبات أن البروباجاندا نجحت في تحويل الأمة إلى الشيوعية أكثر أهمية من الإثبات أنها استطاعت جلبهم على قبول قيود غذائية معينة.

مثال آخر على عدم فعالية البروباجاندا هو الجزائر[1]. صحيح أن الفعل النفساني الموجه نحو العرب فشل بشكل عام. أقنعت البروباجاندا عددًا قليلًا جدًّا من الفلاحين بتسليم أسلحتهم والانضمام إلى الصفوف الفرنسية. ولا يبدو أن الحالات القليلة التي حدث هذا كانت نتيجة البروباجاندا. لم يكن ممكنًا رصد أي نجاح كبير بين الشعوب العربية "المحايدة" ولا أن العاطفة المؤيدة لفرنسا قد زادت. ومن ثم، قيل إن البروباجاندا كانت غير فعالة. لكن يجب هنا رسم حدود فارقة. دعونا نقول أولًا إن البروباجاندا كانت فعالة للغاية فيما يتعلق بالمجموعات الفرنسية. الجنود الشباب - والذين كثيرًا ما كانوا ضد الحرب في الجزائر في البداية - غيروا موقفهم بعد شهور قليلة هناك. لم يكن هذا نتيجة للفعل النفساني فقط لكنه لعب دورًا وارتبط بأشياء أخرى مثل انضمام الفرد للمجموعة ومشاركته في حالة عقلية ما - كل الأشياء التي برهنت أنها ترتبط

(1) كُتب هذا في 1959م وتم ذكره دون تغيير.

ارتباطًا وثيقًا بالبروباجاندا. فيما يخص المدنيين الفرنسيين، كانت البروباجاندا فعالة على قدم المساواة، ولم يكن ممكنًا تفسير أحداث 13 مايو/ أيار دون إعدادات نفسانية دقيقة لأحداث ذلك اليوم. فشل البروباجاندا تجاه العرب يجب أن يُعزى بالأساس إلى ضعفها الشديد وعيوب مناهجها - بجانب أن البروباجاندا تجاه مثل هذه المجموعات هي الأكثر صعوبة. بعض الاجتماعات - التي يعقدها عادةً شباب بلا خبرة - وعدد قليل من المنشورات (بعضها أعد إعدادًا جيدًا) وبعض التسجيلات - مَن يتوقع اقتناع أي شخص بأي شيء عن طريق هذه الوسائل؟ من اللازم أيضًا ربط فشل البروباجاندا بالغياب الكامل لكل من الأيديولوجية المناسبة والموضوعات التي يمكن أن تثير الجماهير وتحمسهم: لم يكن هناك أي جهد لحشد الناس ضد العاطفة القومية. ولم يكن هناك أي حافز فعال على أي مستوى من المستويات. كيف يمكن الزعم بالحكم على البروباجاندا في مثل هذه الظروف؟ ذِكر ما حدث في المعسكرات في غاية الصعوبة[1]. كل ما يمكن الخروج به من هذا الفشل هو أن البروباجاندا لا يمكن ارتجالها أو صنعها بأي طريقة كانت[2].



---

(1) انظر "غسيل الدماغ" في الملحق الثاني.

(2) هنا أمثلة أخرى معروفة لفشل البروباجاندا: بروباجاندا (جوبلز) في 1929م ضد خطة (يونج)؛ وانتخابات رئاسة البلدية في مدينة بوسطن؛ والانتخابات الرئاسية في 1948م في الولايات المتحدة؛ والإعداد النفساني لحملة السويس (1956م)؛ ومجموعة الدفاع الأوروبية في فرنسا. لكن كل هذه الإخفاقات تقريبًا كانت نتيجة حكم خطأ بشأن الأرض التي طبقت عليها البروباجاندا أو نتيجة قوة غاشمة للخصم.

3 .فعالية البروباجاندا

من المستحيل في رأيي أن نؤسس قياسات دقيقة لفعالية البروباجاندا أو عدم فعاليتها. وبكل صدق، لا يمكن الحكم عليها إلا فيما يتعلق بحقائق وأفكار عامة جدًّا. وهنا سأقدم بعض معايير الحكم التي كثيرًا ما تعتبر بسيطة ومبتذلة والتي تسمح لنا بالوصول إلى الخلاصة أن البروباجاندا حقًّا فعالة.

أولًا، هناك بعض الأسباب العامة جدًّا الجديرة بالاعتبار. السبب الأول هو أن كل السياسيين ورجال الأعمال الكبار اليوم يتفقون على أنه لا يمكن الاستغناء عن الفعل النفساني والبروباجاندا والدعاية والعلاقات الإنسانية والعلاقات العامة، وعلى أنها بالطبع تؤتي بنتائج. هل يمكن القول إن هؤلاء الرجال يطيعون موضة جديدة، وضحايا لوهم ما، ولم يفكروا فيه حقًّا؟ بالنظر إلى المحاولة المدروسة من جانب بعض علماء النفس الاجتماعيين ليبرهنوا أن السياسيين قد أخطأوا عندما "آمنوا" بفعالية البروباجاندا، يمكننا أن نسأل عن هوية الضحية الحقيقية للأوهام هنا. إذا ظننا أن الناس يتحفزون بالكامل بالرغبة في الكفاءة مثل (لينين) أو رجال أعمال مدفوعين تمامًا برغبة في أرباح أعلى، سيكون من الصعب الاعتراف أن مثل هؤلاء (الواقعيون جدًّا) يسمحون للأوهام بالسيطرة عليهم في هذا الميدان.

رأي ثاني عن نفس الموضوع هو أن كل هؤلاء الذين عاشوا في بيئة تعرضت بشدة للبروباجاندا وآثارها بينها يحاولون أن يبتعدوا عن آثارها، وكل هؤلاء الذين يرون البروباجاندا في فعلها الهائل يتفقون أن البروباجاندا فعالة. هؤلاء الذين ينكرون وجودها يعيشون في بلاد ما زالت ليبرالية ولم تتعرض للبروباجاندا الشديدة. بالكاد تجد اليوم أي ألماني أو روسي أو جزائري يشك في فعالية البروباجاندا. ليس إلا هؤلاء الذين يرونها من بعيد ولم يتعرضوا لها مباشرةً ولم يشهدوا الآراء تتغير بسبب البروباجاندا ويخلطون بين نيران (مكارثي) وبروباجاندا (جوبلز) – هم الذين يشككون فيها. علاوة على ذلك، يفعلون ذلك

بنفس الدرجة التي معها لا يستطيعون أن يروا البروباجاندا الممارسة عليهم - وهذا ما يميزهم. هذا يفسر السبب وراء العدد الكبير من علماء النفس الاجتماعيين الأمريكيين الذين ينكرون فعالية البروباجاندا لكنهم يعترفون بفعالية العلاقات العامة والعلاقات الإنسانية: لأن هذه بالضبط هي الأشكال والصور التي تتخذها البروباجاندا في الولايات المتحدة حيث تعتبر الشكل الوحيد المنهج والمتطور حقًا والدائم للبروباجاندا.

يجب الآن أن ننتقل إلى بعض الحقائق العامة جدًا التي تحتمل تفسيرات مختلفة. أولًا، كيف يمكن تفسير التطورات التالية دون الاعتراف بأن تغيرات الرأي والسلوك حدثت نتيجة استخدام وسائل الإعلام الجماهيري؟

1. الاستحواذ على وعي الطبقة العاملة بين 1848م و1917م. أصاب (ماركس) حقًا عندما قال إن الحالة الحقيقية للطبقة البروليتارية العاملة لا تعني شيء إذا لم تدرك هذه الطبقة حالتها؛ بمعنى أن مثل هذا الوعي في الوقت ذاته يخلق طبقة العمال والإرادة الثورية، وأن هذا لا يمكن أن يحدث تلقائيًا أو فرديًا. فهو ثمرة ما يقوله مثقفون بعينهم إلى العمال، نتيجة "التعليم" أو البروباجاندا في الواقع. أحيانًا تتسم البروباجاندا بعدم اليقينية وتبحث عن طريقة فعالة على المدى الطويل - وعندها تقود الطبقة العاملة إلى المكان الذي هي فيه الآن، وقد فعلت ذلك عن طريق خلط الفعل، والتعليم، والاجتماعات الحاشدة، والبروباجاندا بالمعنى الحرفي للكلمة، وفقًا لما أشرت إليه كفعل نمطي للبروباجاندا بالمعنى العام للكلمة.

2. انتشار العقلية الاشتراكية في فرنسا بين 1900م و1950م: كيف حدث هذا التحول الشهير إلى اليسار؟ لماذا زاد باستمرار عدد الأصوات الانتخابية الاشتراكية (الشيوعية لاحقًا)؟ لماذا حدثت الإصلاحات الاشتراكية للدولة والاقتصاد دون ثورة؟ من سيشكك اليوم في تأميم مشاريع معينة والتأمين الاجتماعي والإجازة مدفوعة الأجر وغيرها؟ يجب التفريق بين هؤلاء (وهم

أكثر بكثير) الذين يصوتون لصالح الاشتراكيين وهؤلاء الذين أُشبعوا بالفكر الاشتراكي ولم يعد لديهم المقدرة على التعرف على ما كان يُعتبر مطالب اشتراكية خالصة منذ 50 سنة. هنا - مرة أخرى - نرى اختراق بطيء للبروباجاندا.

3. ثورتا 1917م و1933م كانتا نتيجة البروباجاندا - وفقًا لما قاله حرفيًا هؤلاء الذين صنعوا هاتين الثورتين. كثيرًا ما قال (لينين) و(تروتسكي) و(هتلر) و(جوبلز) إن نجاح ثوراتهم كان نتيجة البروباجاندا التي جعلت الجماهير يصيرون أتباع أقلية.

4. انتشار الشيوعية وتحويل الشعوب إلى الشيوعية في الأنظمة الديمقراطية وفي الصين كان أيضًا نتيجة البروباجاندا. تحولت هذه الشعوب تحولًا جذريًا ومتزايدًا إلى الشيوعية عن طريق انضمامهم إلى حركة جماهيرية نفسانية، والتعليم المنهج، وربطهم بأفعال معينة صممت لغايات نفسانية. مسألة الحقيقة أو الإقناع العقيدي ليس له أهمية في العملية.

5. انفجارات القومية في الكاميرون والجزائر والهند الصينية وغيرها لا يمكن تفسيرها بشيء غير نتائج البروباجاندا. كانت شعوب هذه البلاد بدون تناسق تاريخي، أو عرقي، أو وجود قومي، أو دولة شعبية. من ناحية أخرى، كانت القومية ظاهرة خاصة بأوروبا في القرن التاسع عشر - بخلاف الفرضية القائلة إن القومية هي "مرحلة" تاريخية ضرورية بين الاشتراكية والإقطاع، وهي فكرة ماركسية خالصة لم يثبت التاريخ صحتها. في الواقع، الشعوب المستعمرة رأت في القومية العظمة والرمز والقدرة للمنتصرين وتبنوا شكلها وحماستها ليصيروا بدورهم منتصرين - وهو أمر طبيعي تمامًا. لكن، هذا المنطق من جانب بعض المثقفين كان بعيدًا عن الواقع وليس فيه قوة وليس له فعالية حتى تشعل الحماسة القومية القلوب وحتى يكون هناك خلق منهجي للتمجيد القومي فيما يخص الأمة التي لم تكن موجودة. حدث هذا من خلال البروباجاندا.

يمكنني أن استشهد بأمثلة أخرى. في المجمل، تتمتع الحقائق بأهمية أكبر في الحكم على فعالية البروباجاندا من أي تحليلات لأنماط التصويت أو آثار المنشورات. بالتأكيد، هناك حاجة للتوثيق لكل هذه الأمثلة. هناك بالفعل توثيق لبعض هذه الأمثلة وجاري البحث لتوثيق البعض. لا يمكنني تتبع كل عنصر هنا، لكنني سأقول إن تصريحاتي ليست بدون مبرر، ولم أتساهل في طرحها. هناك تحفظ ضروري لتجنب سوء الفهم: لا أقصد أن أقول إن هذه التطورات كانت نتيجة نوع واحد فقط من البروباجاندا، أو حتى البروباجاندا بالمعنى الضيق للتلاعب النفساني بالرموز. بالطبع، ثورة 1917م أو ظهور القومية الجزائرية كان التقاء عوامل عديدة. هناك ظروف مسبقة، وتطور تلقائي للآراء والأحداث، ونمو بعض التنظيمات وانحدار البعض، وظواهر اقتصادية، وهكذا.

لكن هذه الحقائق بذاتها لا تقدر أن تنتج الحركات البشرية الحاشدة مثل الحركة العمالية للثورة النازية. العامل الحاسم هو عامل البروباجاندا الذي يحرك هذه التطورات وينظمها ويجعل الناس واعين بها. من الجلي أن البروباجاندا لا تنشأ بذاتها. لكن، بدونها، لا يحدث أي شيء. هي فعلًا التي تشغل المحرك. عندما تكون الحركة نشطة وفعالة، توجهها البروباجاندا وتعمل على مواصلتها العمل وتضمن نجاحها. من وجهة نظر أخرى، يمكننا أن نرى أيضًا أهمية هذه الحقيقة إذا أدركنا أنه ليس هناك أي مشروع يمكن القيام به في أي مكان بدون إعداد نفساني وتكييف وإقناع. كل حدث في مجتمعنا يفترض إخلاص الجميع أو موافقتهم، ولا يمكن نيل مثل هذه المشاركة العقلية أو العملية إلا من خلال البروباجاندا. الحقيقة أن البروباجاندا مستخدمة في مجالات متعددة يثبت أن مجتمعنا في طريقه إلى أن يصبح مجتمعًا شاملًا، بمعنى أنه مجتمع لا يوجد فيه فعل واحد يتسم باللامبالاة؛ فكل فعل وشعور يفترض طابعًا سياسيًّا؛ وليس هناك فعلًا فرديًّا خالصًا. عدم المشاركة في "معونة الشتاء" (مستلزمات شتوية للفقراء) الخاصة بـ (هتلر) أو النشيد الوطني في بعض البلاد الإفريقية الجديدة أو عدم الاهتمام بالنظام التعليمي المدرسي في فرنسا في 1959م - لم تعد فعلًا فرديًّا وإنما

قطع روابط الفرد مع مجتمعه الذي لا يستطيع أن يواصل اليوم إلا إذا كان المواطنون مندمجين بما يكفي ليشارك الجميع في كل إصلاح (بغض النظر عن نوعه) يتسم بطابع سياسي. كنتيجة لذلك، البروباجاندا ضرورية. وفي الوقت ذاته، يجب التشديد على أن الآلية تعمل بهذه الطريقة وعامةً تحقق الغرض منها لأن البروباجاندا فعالة.

هل من الضروري أن نُذَكِّر القارئ هنا بظاهرة الإعلانات؟ لقد قلتُ إنه لا يمكن استخلاص استنتاجات من ممارسات الإعلانات لكنه يبدو مستحيلًا هذه الأيام أن ننكر أنها فعالة في حقلها؛ لا أحتاج إلى أن أعيد التأكيد على الأمثلة الموجودة في كل الكتب - عن السجائر التي دخنها أعضاء العصابات في الأفلام أو عن مصنعي السجائر الذين ظنوا أنهم غزوا السوق ثم أوقفوا الإعلانات، وبُعَيد ذلك، خسروا المبيعات. لكن، من اللازم أن أشير إلى ثلاثة أشياء. حتى القارئ الدقيق الذي ينتبه إلى المبالغات يجب أن يأخذ حقائق وأمثلة (فانس باكارد) على محمل الجد إذ إنها تشير إلى ضعف العوام المفرط أمام الإعلانات. ثانيًا، تظهر منتجات جديدة كل شهر وليس لها حاجة مسبقة لكنها تأخذ مكانها في السوق دون مقاومة كبيرة. هذه نتيجة البروباجاندا وليس غيرها. تنشأ الحاجات الجديدة في يوم طرح منتج جديد. بعد شهور قليلة من التعود على المنتج، سيشعر الناس بغيابه لأنه قد تم خلق حاجة مؤثرة له. لكن الإعلانات وحدها هي التي خلقت الحاجة. إذا قُدِّم المنتج دون إعلان لن يشتريه أحد. ثالثًا، الظهور المتكرر والانتشار السريع للإعلانات في الاتحاد السوفيتي بعد أن اعتبر الشيوعيون الإعلانات على أنها ظاهرة رأسمالية، إنفاق غير مجدي، وما إلى ذلك، وبعد القضاء عليها باعتبارها عديمة الفائدة في المجتمع الاشتراكي، أعادوها مرة أخرى خلال العشر سنوات الماضية. تسير الإعلانات جنبًا إلى جنب مع الإيمان بالإنتاج. يمكن أن نتيقن أنه عندما يزيد الإنتاج أكثر وأكثر وتظهر منتجات جديدة أفضل، ستزيد الإعلانات زيادة كبيرة مفاجئة مشابهة لما حدث في الولايات المتحدة. ألا يثبت هذا أن الإعلانات حقًا فعالة؟

دعونا الآن نبحث في مجالًا آخر تنشط فيه البروباجاندا نشاطًا فعالًا: في الحياة الخاصة، وفي أمور تبدو خارج مجالها، لكنها تثبت ضعف الفرد المفرط أمام البروباجاندا. هل يمكن القول إن البروباجاندا تؤثر على الفرد المستهدف وحده؟ إذا سلمنا بتفريق (ستوتزل) بين الآراء العامة السطحية جدًّا للفرد والمواقف العميقة التي تظل معه، يمكن أن نخلص إلى أن البروباجاندا تعمل على الأولى وليس الأخيرة. هذا رأي سائد ومطمئن. وصول البروباجاندا للفرد يتوقف على درجة مشاركته في الرأي العام (أو درجة اندماجه في الحشد)، وثم في المستويات العليا من نفسيته الفردية، ثم الجمعية. بهذه الطريقة، لن تتجاوز التأثيرات النفسانية تأثيرات الرأي العام ولن يكون لها تأثير على جوهر الشخصية. عند السعي وراء تأثيرات جماهيرية، لن تحدد البروباجاندا إلا السلوك الجمعي، وهذا سيوضح سبب تأثير البروباجاندا الضئيل على السلوك الفردي.

أمثلة نمطية هي البروباجاندا ضد الإدمان على الكحول أو من أجل معدلات أعلى للمواليد. كما قيل، مثل هذه البروباجاندا لا تعمل عملًا نافعًا إذ إنها تتعامل مع أمور شخصية. الصور النمطية لقوة الصحة أو الوطن - التي يقبلها الجميع في العلن - حتمًا تؤدي إلى احترام الامتناع عن تناول الكحول وللعائلات الكبيرة، لكنها لم تقلل من ظاهرة الإدمان على الكحول أو تزيد من عدد أفراد العائلات. وبالتالي، البروباجاندا غير قادرة على التأثير على الشخصية - حتى إذا نجحت في إثارة أفعال جمعية معينة.

هذا تحليل شامل في ظاهره لكنه يتجاهل تعقيدات الأمور ولا يبدو أنه يعكس الحقائق. أولًا، ليس صحيحًا أن احترام الامتناع عن تناول الكحول والعائلات كبيرة الحجم في فرنسا يعتبر اتجاه عام؛ فداخل الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية، هناك حكم عام يقول إن العائلة كبيرة الحجم مجرد جنون والسكر المعتدل مقبول، وهذا الحكم يضاهي، على أقل تقدير، ذاك الاحترام. ما يمكن أن نسميه عقلية صحيفة (*Canard Enchainé*) هو فعلًا عقلية الأغلبية في هذه الصلة. ومن المؤكد أن الصورة النمطية للشخص الذي يتمتع بحياة الترف والنبيذ

والانحلال ولا يكترث بإنجاب الأطفال - أقوى من الصورة النمطية لرجل العائلة المستقيم.

لكن، ملصقات البروباجاندا المناهضة لإدمان الكحول في أنفاق باريس بدأت ببطء أن تصل للفرد. ليس هناك إحصاءات دقيقة على هذا حتى الآن، لكن احتجاجات منتجي الخمر والكحول التي خاطبت البرلمان الفرنسي كانت علامة مهمة. وحتى تتسبب في مثل هذه الإثارة يجب أن يكون هناك شعورٌ بأثر على استهلاك الخمور. ينطبق الكلام نفسه على البروباجاندا التي تروج لمعدلات مرتفعة في إنجاب الأطفال. لم يعد ممكنًا الشك في أن البروباجاندا كان لها أثر عميق على عدد المواليد. ما يثير الفضول حقًّا هو أن هناك زيادة في عدد المواليد دون تغير مشابه في الرأي العام السطحي لصالح العائلات كبيرة الحجم. من النادر أن تجد جدلًا اليوم على أن الزيادة في عدد المواليد كان نتيجة البروباجاندا في ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، وفي فرنسا منذ 1941م.

بنفس الطريقة التي تعمل بها البروباجاندا لزيادة معدل المواليد، تستطيع أيضًا أن تعمل على تقليلها - بخلاف ما ظننته أنا شخصيًّا حتى وقت قريب. التجربة المفاجئة في اليابان لها أهمية. من المعروف جيدًا أن بلد ما يبدأ تلقائيًّا في إنجاب أطفالًا أكثر بعد الهزيمة. كانت اليابان بالفعل غزيرة النسل فيما مضي، ولم تكن استثناءً لهذه القاعدة: بدايةً من 1945م، ارتفع معدل المواليد بسرعة كبيرة لكنها أدركت سريعًا أن هذا سيؤدي إلى كارثة. كنتيجة لذلك، انطلقت بروباجاندا من أجل معدل أقل للمواليد في 1945م - وبالتأكيد، وبما يتفق مع ما قلته مرارًا، لم يكن للحملة أثر مباشر. لكن البروباجاندا التي تمت ممارستها بقوة لمدة أربع سنوات تمكنت من أن تؤتي بنتائج في 1950م. من 34.3 لكل ألف في 1947م، نزلت إلى 29 في 1950م، ونزلت إلى 20 في 1954م، وإلى 17.2 في 1957م - انخفاض بنسبة خمسين بالمئة في عشر سنوات - وهو أمر غير مسبوق.

معدل المواليد الآن في اليابان يعتبر من أقل المعدلات في العالم[1]. جانب مدهش من هذا التطور هو أن تنظيم النسل انتشر في المناطق الريفية أسرع من المدن.

مثال أخير: منذ 1950م على الأقل، كان هناك قلق في فرنسا بسبب العدد الكبير لطلاب الفنون والآداب والقانون، والعدد القليل جدًّا من طلاب العلوم والتكنولوجيا، لكن لم يكن هناك تغير حتى صدر قرار بـ "اتباع أعمال بروباجاندا مع الآباء لتوجيه الأطفال نحو مناطق النقص" (نوفمبر/ تشرين الثاني 1951م). ومن هذه اللحظة، حدث التغير مع إن البروباجاندا لم تكن متسقة جدًّا أو مثابرة أو مستمرة. البروباجاندا التي انطلقت في 1952م بدأت في إحكام سيطرتها في 1956م: من 1956م وحتى 1959م حدثت نقلة تقدر بـ 25 بالمئة من الطلاب في الاتجاه المرغوب فيه.

حتى في سلوكه الشخصي، يتسم الفرد بالضعف الشديد أمام البروباجاندا في بعض الميادين. وأعتقد أن هذا يؤدي إلى الخلاصة أن نفس الشيء ينطبق على السلوك السياسي. في الحقيقة، عندما يتعلق الأمر بشراء منتج، يمكن للفرد أن يستند إلى خبرة شخصية بالنسبة إلى احتياجاته وقيمة المنتج، وهكذا. يمكنه أن يقارن بين المنتجات قبل التسوق؛ وكل هذا على مستوى الخبرة المباشرة، عملية بسيطة[2]. الآن، إذا أمكن التأثير عليه في هذا المجال (مع أنه حتى هذه النقطة فقط - لن يشتري أي منتجات تبدو متدنية)، يمكن التأثير عليه أكثر على مستوى الاقتصاد أو السياسة خارج نطاق خبرته الشخصية، هذا المجال ليس بسيطًا على الإطلاق ولطالما صعب مقارنته. وبشكل مشابه، فيما يتعلق بسلوكه الخاص - إنجاب أطفال أو لا، أو ما الذي يجعلهم يدرسون - عمومًا، يعرف الفرد ما يريد ويطيع المحفزات الشخصية جدًّا والتي ترتبط بشخصه ارتباطًا وثيقًا. ولذلك، إذا

---

(1) "Outlook of Studies" *Population Problems in Japan*, IV, 1959

صحيح أن معدل المواليد قد ارتفع مرة أخرى منذ 1959م

(2) لكن السلوك قد تغير تغيرًا فعالًا على هذا المستوى. مثلًا، تم رصد زيادة بنسبة 32 بالمئة في استهلاك اللحم البقري المذبوح بعد حملة جيدة التنفيذ. تحقق نجاح مشابه فيما يتصل بعصائر الفواكه وزيت كبد الحوت.

أمكن التأثير عليه حتى هناك، ألن يكون أكثر قابلية للتأثر بشأن مسائل وقضايا أبعد وأكثر إثارة والتي لا تهمه مباشرةً بنفس الدرجة؟

في النهاية، لكي نقدم دليلًا دامغًا على ضعف الفرد المفرط، علينا أن نلقي بنظرة على الشائعات والموضة - ظاهرتان مترابطتان للغاية. كل شائعة يتم تداولها لها أثر ما. حقيقة مدهشة أن الشائعات ذات أصول غير معروفة لها جمهور محدود في البداية، وجمهور كبير بعد بعض الوقت. كلما ابتعد المصدر وزاد عدد الأفراد الذين يتداولونها، تتلاشى أهمية الحقيقة المحايدة الموضوعية وتزداد ثقة الجماهير الغفيرة في الشائعة التي يتبعونها ويتقيدون بها. الفرد لا يظل بعيدًا عن تأثير الشائعة التي انتقلت تلقائيًا إلى بيته عن طريق عدد متزايد من الناس. من الجلي أنه لا يعيرها انتباهًا إلا إذا كان مهتمًا بها بالفعل اهتمام شخصي. في واقع الأمر، لا يمكن لشائعة أن تنتشر إذا لم يكن الفرد مهتمًا. يمكن أن يكون مهتمًا أو يشعر أنه مهتم على أساس حكم بيئته أو ما يظن أنه حكم بيئته - وهنا نجد الموضة. لكن ربما يكون هناك اعتراض أن العنصر الحاسم هو الآلية التجارية: يطلق المنتجون موضة ما، وتلعب الإعلانات أكبر دور (في شكل شائعة منظمة أطلقها مروجو البروباجاندا). يصح هذا الكلام في معظم الحالات وحتى في حالة الموضة الغربية مثل (اليويو) أو (الهولاهوب) أو (دافي كروكت). لكن لا تكون هكذا طول الوقت - في بعض الأحيان، تنتشر الشائعة العبثية دون دعاية ومن نقطة انطلاق واحدة فقط مثل الحالة المدهشة لـ(سكوبيدو). البداية كانت مع مقال في مجلة أطفال، وبدون أي مصلحة تجارية، انغمرت فرنسا في خلال شهر بـ (سكوبيدو) الذي صنعه الأطفال والبالغون. من البديهي أننا في مواجهة مباشرة مع ظاهرة المحاكاة ببساطة شديدة. لكن، حيث إن هذه المحاكاة قد حدثت بسبب مقال قرأه عدد محدود من الأطفال، فإنها مثال على ضعف الفرد الشديد وقابليته للتأثر بالبروباجاندا والتشكل. وحتى إذا تحداها، وحتى إذا تصلب في وجه البروباجاندا الحقيقية، سيظل ضعيفًا للغاية. هذه المقولات والتأملات المختارة بشكل عشوائي من مجالات مختلفة والتي تستند إلى مناهج مختلفة تقودنا إلى الاستنتاج بأن فعالية البروباجاندا بالفعل عظيمة وحاسمة.

4. حدود البروباجاندا

رغم فعالية البروباجاندا إلا إنها بالطبع لا تتمتع بقوى لا حدود لها – من الخطأ الاستنتاج أنه يمكن نيل أي شيء على الإطلاق من الناس عن طريق البروباجاندا. لقد أشرت بالفعل إلى بعض القيود والحدود. يلزم تواجد بعض الظروف الاجتماعية والنفسانية مسبقًا حتى تعمل الآلية. على سبيل المثال، يجب أن نضع في اعتبارنا الاحتياجات التي يلزم على البروباجاندا أن تلبيها. من الجلي أنه لا يمكن إنتاج تغيرات نفسانية أو اختلافات في الآراء بغتةً. لقد قلتُ أيضًا إنه لا يجب مهاجمة الآراء الراسخة مهاجمة مباشرة. ومع ذلك، تتألف البروباجاندا في المقام الأول من تقييم للحدود القائمة. خارج هذه الحدود، من الواضح أنها غير فعالة. لكنه سيبدو عبثيًا إذا أنكرنا كفاءة السيارات كوسيلة للانتقال لأنها لا تستطيع أن تسير على الشاطئ أو في الحقول المفتوحة. في نفس الوقت، حدود مجال عمل البروباجاندا شاسعة.[1]

في محالة لاقتفاء أثر هذه الحدود، ربما نتذكر أربعة عناصر تمت دراستها بالفعل:

1. المواقف المسبقة. في البداية لا تستطيع البروباجاندا أن تتحرك إلا في ثنايا هذه المواقف التي لا يمكنها أن تعدل فيها إلا ببطء شديد.

2. التيارات العامة والعوامل النفسانية للمجتمع التي تنشط فيه. أول محدد من المحددات يعتبر نسبي ويمكن تجاوزه لكن الثاني محدد مطلق. لا يمكن للبروباجاندا أن تغير التيارات الرئيسية في المجتمع. مثلًا، في الولايات المتحدة، لا يمكن لأي بروباجاندا أن تكون شعبية إذا كانت ضد الديمقراطية (رسميًا) ومع الملكية. ولا يمكن لأي بروباجاندا أن تنجح في

---

(1) هذا لا يتعلق ببروباجاندا داخل مجموعة مذعورة تحت وطأة إرهاب شديد أو في بيئة تهرب إلى الخيال لتحمي ذاتها أو تبررها. وبالمثل، ليس من المنطقي أن نُصِر على أن بنية الإعلام الجماهيري تحد من البروباجاندا. في النهاية، في وضع نفساني مناوئ، لا تستطيع البروباجاندا أن تفعل أي شيء. كل هذا يشكل دليلًا.

الاتحاد السوفيتي إذا كانت ضد الاشتراكية، ولا يمكن لأي بروباجاندا في أي مكان في العالم إذا كانت ضد التكنولوجيا والتقدم والسعادة وهكذا.

3. ثالث محدد هو ضرورة تناسق الحقائق. هناك ضرورة دائمة للحقيقة الأساسية. لا يمكن أبدًا للبروباجاندا أن تكون بروباجاندا الأفكار لكن عليها أن تعلن الحكم على حقائق معينة (سواء كانت هذه الأحكام دقيقة أو لا). لا يمكن للبروباجاندا أن تسود ضد حقائق جماهيرية وحاسمة للغاية: غَيّر (جوبلز) البروباجاندا التي صنعها بعد معركة (ستالنجراد) لأنه كان مستحيلًا تحويل هذه الكارثة إلى نصر. بروباجاندا النجاح لـ (جوبلز) أعقبت بروباجاندا البطولة [1].

4. آخر محدد يقلص من كل قدرات البروباجاندا هو الزمن، من وجهتي نظر. لكي يكون للفعل النفساني أي أثر يجب أن يكون دائمًا ومستمرًا. لكن الزمن يمثل محددًا بسبب ضعف صمود الآثار المباشرة. في الرأي العام الألماني، العقيدة النازية الآن تتلاشى. تتبخر كل البروباجاندا بشكل متزايد عندما تتوقف. ومن ثم، لا يمكننا أن نأمل في خلق تيار أخير للرأي أو نوع ما من أنواع الأفراد. ولكن، هنا أيضًا تتضاءل قوة هذا المحدد؛ كلما استغرقت البروباجاندا وقتًا أطول في صنعها، طالت آثارها. وكلما زاد عمقها وشموليتها وتفوقها التقني، غيرت الإنسان أكثر وأكثر. لا ينتهي عمل مروج البروباجاندا أبدًا. بعد أربعين سنة من البروباجاندا المذهلة في الاتحاد السوفيتي، يظل هناك الكثير لعمله للسيطرة على الإنسان سيطرة تامة. القضايا التي نظن أننا حققنا مرادنا بشأنها وأنه لم يعد هناك حاجة للتعامل معها - يجب العمل عليها مرة أخرى [2]. والآن سأنتقل إلى عنصرين جديدين.

---

(1) بعد فرار (هيس) قال (جوبلز): "هناك مواقف لا يمكن لأفضل أنواع البروباجاندا في العالم أن تحاربها."

(2) دعونا نتذكر الهجمات العنيفة في 1960-1961م ضد البروباجاندا الضعيفة. أكثرية البروباجاندا كانت تعتبر مملة ومتزمتة؛ كان يجب أن تتغير إلى منهج فعل حتى تحفز الإنتاجية العالية؛ يجب أن تتوقف عن كونها مجردة وأن ترتبط بالحقائق.

محدد واحد لم يتضح بعد على فعالية البروباجاندا: البلاد الأجنبية. شروط تطور وفعالية البروباجاندا التي حللناها هنا كانت تتعلق بالأساس بالبروباجاندا الداخلية، داخل مجموعة كبيرة، أو المجتمع، أو الأمة. يتعاظم تأثير البروباجاندا وتتعاظم خطورتها وكذلك لا يمكن ملاحظتها عندما تتواجد داخل مجموعة. حتمًا البروباجاندا التي تخاطب الخارج ستكون غير فعالة إلى حد كبير[1]: هناك جهل نفساني عند مروج البروباجاندا بالمواقف ومراكز الاهتمام والافتراضات التي يحملها مَن يستهدفه والشك التلقائي لدى المُستهدَف تجاه كل ما يأتي من الخارج. هناك صعوبة في تأسيس الاستمرارية، واستحالة البقاء في "تواصل" حقيقي، وهناك تأخر حتمي فيما يخص الأحداث المباشرة، واستحالة أن تتمكن كل وسائل الإعلام الجماهيرية من صنع البروباجاندا المسبقة واستخدام البروباجاندا الاستحواذية، وهكذا. حتى عندما تحتل قوة أجنبية بلد ما، لا تستطيع هذه القوة حقًا صنع بروباجاندا فعالة (مثلًا، البروباجاندا الألمانية تجاه البلاد المحتلة خلال الحرب العالمية الثانية). ملصق أو مقال يثير استجابة في بلد ما يمكن أن يفشل في غايته في بلد مجاور[2]. كل ما يمكن عمله هو عمليات بدائية جدًا، تقع فريسة للظروف غير المتوقعة - وهذا حقًا ليس البروباجاندا الحديثة. المدهش هو أن مثل هذه البروباجاندا تثير الاهتمام إلى أقصى حد وأنها يجب أن تمثل الشكل الذي يتم من خلاله تقدير فعالية البروباجاندا. يستجيب الناس استجابة حماسية للحرب النفسانية لكنها أقل أنواع البروباجاندا إقناعًا. لقد ناقشت هذا بالفعل.

كثيرًا ما يتم الحكم على البروباجاندا عن طريق آثارها على الغرباء والأعداء. من آثارها على الجيش الألماني، خلص الامريكيون إلى أن البروباجاندا ليست فعالة (مع اختلافات في التقييمات). وأنا بدوري مندهش أن حتى جندي واحد كان عليه أن يستسلم كنتيجة لمنشور. وبالمثل، البروباجاندا تجاه البلاد الاشتراكية كان لها قدر محدود جدًا من القيمة أو التأثير (حتى إذا كان لها صوت مسموع - وهو

(1) هكذا ننظر لمعظم إخفاقات البروباجاندا الألمانية في البلاد المحايدة والمحتلة.

(2) ومن هذا نستنتج أنه لا يمكن استيراد البروباجاندا.

أمر غير مؤكد - كثيرون من الذين تسلموا أجهزة كانوا مسؤولين رسميين). إذا نسبنا التمرد في برلين الشرقية والمجر لمثل هذه البروباجاندا، فإننا نعطيها شرفًا غير مستحق. من المرجح أكثر أن المتمردين تذكروا عبارات تلك البروباجاندا وأخذوها على محمل الجد - بمجرد أن تنشب أعمال التمرد. وعندما لا يعقب هذا فعل، يشعر المتمردون أنهم قد خُدعوا ويرفضون الغرب أكثر وأكثر: هذا "أثر الارتداد" الشهير وهو ما يحدث دون ريب. على أعلى تقدير، يمكن لمثل هذه البروباجاندا أن تخلق غموضًا ما في أفكار ومشاعر الأجنبي؛ ويمكنها أن تعكر صفو أفكار وأحكام معينة وتبيّن مزاعم البروباجاندا المحلية على أنها زائفة وتخلق قدرًا معينًا من تأنيب الضمير. كل هذا لم يكن قليل الأهمية لكن لا يجب التهويل فيه أو اعتباره نمطي فيما يخص آثار البروباجاندا. قام (سبير)[1] بتحليل ضعف البروباجاندا التي تخاطب الخارج بامتياز، حتى أنه نظر في أسئلة مثل: مَن فعلًا العدو في أمة معادية؟ هل يجب استهداف النخبة العسكرية بنفس قدر استهداف النخبة السياسية؟ مَن في مِثْل هذه الأمة يعد حليف فعلي أو محتمل؟ مَن يمارس القوة الحقيقية؟ ما الذي يمكن - ويجب - تغييره عن طريق البروباجاندا؟ القواعد الأيديولوجية والبنيات السياسية والمؤسسات الاجتماعية؟

لا يمكن تقديم إجابات دقيقة لأي من هذه الأسئلة - الإجابة عنها تتطلب تحقيقات نفسانية لا يمكن إجرائها في بلاد أجنبية، ناهيك بالبلاد المعادية. التقديرات والأفكار العامة هي الوحيدة القادرة على إرشادنا. ولا يجب الظن أن العمل مع البروباجاندا في البلاد الديمقراطية أسهل من الدكتاتورية. من الواضح في الحالة السابقة أن حقن البروباجاندا من الخارج سهل، لكن على الجانب الآخر، أسهل أن نشعر أنها بروباجاندا (لأن البروباجاندا الحكومية الداخلية أقل تنظيمًا وأقل وضوحًا) ولذلك لا يثق الناس بها. من ناحية أخرى، لا تستجيب للاحتياجات بما يكفي. في البلدان الشمولية، معظم الناس، قبل اندماجهم اندماج كلي، يريدون أن يسمعوا المحظور والجانب الآخر الذي - بالمناسبة -

---

(1) Daniel Lerner (ed): *Propaganda in War and Crisis* (New York: George W. Stewart; 1951).

يعتبر الدعم الوحيد الذي تتلقاه البروباجاندا الأجنبية. ولكن، في النظام الديمقراطي، لا نشعر بهذا كثيرًا. لذلك، مع أن الأسباب ليست واضحة، من الصعب ممارسة البروباجاندا الخارجية ضد الديمقراطية كما هو الحال مع الدكتاتورية. هذه القيود والحدود على فعالية البروباجاندا "الأجنبية" تنطبق أيضًا عندما يعيش الأجانب في إقليم تسيطر عليه البروباجاندا. ثبت صحة هذا الكلام على العرب والقبائل في الجزائر حيث خاطبت البروباجاندا الفرنسية الشعب الذي ظل أجنبي.

حقًّا نواجه هنا أكبر عقبة أمام الفعل النفساني: لا يمكنه أن يكون فعالًا فعالية كاملة إلا إذا كان في أيادي مواطنين يخاطبون إخوانهم المواطنين. بلا شك هذا هو السر وراء قوة البروباجاندا الشيوعية وفعاليتها العظيمة. وطن الاشتراكية لم يوجه البروباجاندا تجاه شعوب أخرى، بل صنعت الأحزاب الشيوعية تلك البروباجاندا. الأحزاب الشيوعية أحزاب وطنية وبالتالي على مقربة من هؤلاء المراد غوايتهم. وعليه، تختلف الموضوعات والمناهج اختلافًا كبيرًا من بلد لآخر. هذا لا يعني التناقض بين أحزاب شيوعية مختلفة لكن يعني أن هناك بعض من الحرية في الفعل على مستوى البروباجاندا التي يجب تبنيها في كل بلد. وكل مرة تحدث فيها محاولة لتوحيد عقائد البروباجاندا (مثلما حدث في 1949-1950م) تتضاءل الفعالية. ومن ثم، مع أنها تأتي من الخارج وتؤدي عمل الاتحاد السوفيتي، البروباجاندا الشيوعية هي البروباجاندا الوطنية التي تستخدم الميول والحقائق المفهومة والمعروفة لدى الناس معرفة مباشرة.

يجب أيضًا أن نأخذ في الاعتبار آخر محدد من المحددات. رغم كل التقنيات، في التحليل النهائي، يبقى هناك عجز عن التنبؤ بالاستجابة التي يتم تشجيع الفرد على إنتاجها. كنتيجة للحافز، قد تستجيب الشخصية بطرائق مختلفة وآراء أو أفعال متعددة. عدد الاستجابات الممكنة يتباين من شخص لآخر. من الواضح أن ردة فعل الرياضي المحترف للملصق ستختلف من استجابة عامل. تتوقف الاستجابة حقًّا على السياق الاجتماعي للفرد بأسره وعلى بيئته وتعليمه وعائلته ومهنته. في هذا الميدان (ميدان الاستجابات الفورية والمحلية)، تنطبق نظرية

المواقف المسبقة إلى أبعد حد. وثبت مثلًا أنه في حالة الأفلام، هؤلاء الذين تعاملوا معه بموقف محبذ جدًا تأثروا به للغاية. (1944م- خدمات المعلومات للجيش الأمريكي) وكذلك سيتأثر الناس أكثر بالبروباجاندا من جماعتهم هم، ويعتبرون أكثر عرضة لإنتاج الاستجابة المتوقعة منهم.

معرفة الاستجابة التي يمكن توقعها من شخص ما تتطلب إجراء تحليل نفساني كامل. عامل من العوامل التي تعدل في الاستجابة تعديلًا عميقًا هو الثقافة. الثقافة العالية تخدم البروباجاندا لأنها تجعل الإنسان أكثر قدرة على فهم الحقائق وعلى أن يصير أكثر اهتمامًا بالمشكلات وتشكيل الأحكام وتعلم مواقف جديدة. لكن لا تتسم هذه القدرة بالحسم إلا إذا كانت البروباجاندا جادة للغاية. وبالعكس، تُصَعِّب الثقافة من عمل مروج البروباجاندا لأنها تؤدي إلى تنوع الاستجابات لحافز واحد – الاستجابات التي كثيرًا ما ستكون متناقضة: ومن ثم، لن يكون مروج البروباجاندا متيقنًا من الأثر الذي سيتركه. تجعل الثقافة الناس يرون حلولًا متعددة ويناقشونها ويشعرون بعدم اليقين تجاه معتقداتهم، ولهذه الأسباب، إما لا يتصرفون على الإطلاق وإما يستجيبون استجابة غير متوقعة. وبالعكس، الإنسان بدون ثقافة سيتعلم الاستجابات بصورة أبطأ وليس من السهل إثارته أو استفزازه ليعطي استجابة ما: لكن عندما يشعر إنسان مثل هذا بالتحريض، لن يعطي استجابات متعددة، وبالأخص الاستجابات المتناقضة. وسيختلف عمل مروج البروباجاندا في هذه الحالة: إثارة ضعيفة في البداية ثم يتم تعزيزها عن طريق جدال ثاني، واستبعاد عدد كبير من الاستجابات عند التواصل مع بيئة مثقفة، ولكن مع تحريض عنيف، بدون جدال ثانوي، في وجه العوام غير المثقفين.

ومع ذلك، علينا أن نتذكر أن الثقافة ليست إلا عنصرًا واحدًا من العناصر التي تحدد الاستجابة. المهم بالنسبة لمروج البروباجاندا هو نيل الاستجابة (من بين كل الاستجابات التي يستطيع الفرد أن ينتجها) التي تتعلق بالهدف السياسي للبروباجاندا تعلقًا مباشرًا. هذه ستكون "الاستجابة ذات الصلة" أي الاستجابة المحددة المتوقعة في وئام مع كلًّا من الهدف المقترح والعملية الفاعلة التي انطلقت.

لا يمكن أبدًا الحصول على هذه الاستجابة "ذات الصلة" بصورة تلقائية إذا تم العمل على رأي عام حر: تتحرك عوامل أكثر من اللازم حتى يصير توقع النتائج ممكنًا. يختلف الوضع إذا كان هناك بروباجاندا مسبقة. لكن باستثناء هذه الحالة، يمكن أن تفشل البروباجاندا عندما يتسم الحافز بالضعف الشديد، وإذا سار الحافز في اتجاه مضاد للآراء الموجودة، أو إذا كانت الاستجابات الأخرى أقوى من الاستجابة المرجوة. اختيار الحافز ومجال تأثيره وقوته وعلاقته ببيئة متلقي البروباجاندا النفسانية والاجتماعية - كل هذا يعتبر عمل مروج البروباجاندا الذي سيضمن أن استجابات معينة محتملة نسبيًا في حدوثها.

من ناحية أخرى، يستطيع مروج البروباجاندا أن يُسَهِّل حدوث الاستجابة، إما عن طريق الاستجابات الداعمة وإما من خلال إنتاج استجابات سابقة والتي أطلق عليها (دوب) اسم "استجابات ما قبل النشاط." الاستجابة الداعمة هي التي تُستثار باليقين عن طريق سماع أو رؤية شيء؛ ربما لا تتعلق مباشرةً بالهدف المنشود لكنها تُسَهِّل وقوع الاستجابة المأمولة. تعتمد كل الإعلانات على مثل هذه الاستجابات الداعمة. إعلان حسن الصنع سيثير ردة فعل محبذة بشكل عام ويجبر الفرد على التوقف عن السير في طريقه ليتأملها. وهناك استجابة حسية ربما يأتي بعدها الاستجابة المرغوب فيها. تلك هي الاستجابات الداعمة للاستجابة المرغوب فيها: شراء المنتج المعلن عنه.

وبالمثل، تقديم شابة جميلة لمنتج ما يثير استجابة حسية أو شهوانية أو استجابة تسمو على الغرائز أو استجابة التوحد - الاستجابات الداعمة للقرار الأساسي المتوقع من المشاهد. ليس هناك صلة مباشرة بين الاستجابة الداعمة والاستجابة "ذات الصلة." لا تتبع الأخيرة بالضرورة الأولى التي لا تفعل شيئًا إلا تسهيل حدوثها. ربما تثير الاستجابة الداعمة الانتباه وتخلق مناخًا مواتيًا وتمحو بعض المشاعر غير المحبذة وتزيد من قوة الحافز اللاحق لكنها لن تؤدي مباشرةً إلى القبول أو إلى الفعل. ومع ذلك، يمكنها أن تجعل الفرد أكثر قابلية لاستجابة لا يتوقعها من مروج البروباجاندا.

لزامًا على مروج البروباجاندا أن يبحث عن وسائل أخرى لحث الأفراد على

الفعل. بمعنى من المعاني، يمكن القول إن "البروباجاندا هي شكل من أشكال التواصل الذي يرمي إلى تعلم استجابات جديدة. لا يمكن تعلم هذه الاستجابات إلا بعد إدراك حافز البروباجاندا وبعد إثارة الاستجابة الفردية التي ترتبط بهدف البروباجاندا" (دوب). في الواقع لا يمكن للاستجابة المرجوة أن تحدث إلا بعد استجابة تلقائية. الاستجابات المكتسبة هي المواقف التي تعد الناس لفعل ما. يجب أن نأخذ في الاعتبار الاستجابات المكتسبة التي تصير مدمجة في مجمل استجابات الفرد. إذا تعلم الأفراد هذه الاستجابات عن طريق البروباجاندا، فإن (دوب) يطلق عليها "استجابات ما قبل الفعل" وهذا يشير إلى قربها أو بعدها من الفعل. في واقع الأمر، يمكن للبروباجاندا أن تعدل في الآراء وتنال الاستجابات التي ستظل بدون تجلي خارجي لفترة محددة من الوقت. هذه هي المشاركة السلبية التي ناقشناها قبل قليل.

ربما يتفق الفرد مع مروج البروباجاندا ولكنه لا يتصرف كما يريده مروج البروباجاندا أن يفعل. في حالات معينة، سيرضى مروج البروباجاندا بمثل هذا الاتفاق بلا تجلي خارجي؛ الشلل الذي أثارته بروباجاندا الإرهاب يحقق أهداف مروج البروباجاندا تحقيقًا كاملًا. ولكن، في كثير من الأحايين، مثلًا، فيما يتصل ببروباجاندا الانتخابات، لا بد من اقتياد الفرد من استجابة "ما قبل الفعل" هذه إلى استجابة الفعل.

ومن ثم، فسيحاول مروج البروباجاندا أن يعطي "استجابة ما قبل الفعل" أكبر قوة ممكنة للانخراط. الفرد يتعلم استجابة ما ويصير قادرًا عليها، ويشعر – كنتيجة لهذه الاستجابة – بالحاجة لتجاوزها والمرور إلى الفعل الذي سيظهر لاحقًا كعاقبة لاستجابة "ما قبل الفعل" التي أسستها البروباجاندا. مثل هذه الاستجابة ستتمتع بقوة إذا مَثّلت الدافع المركزي في الشخصية. وستكون أقوى إذا وقعت مؤخرًا وإذا عززتها الاستجابة الداعمة.

كل هذا يعطينا الفرصة لفهم الاستجابة التي يسعى ورائها مروج البروباجاندا. لكن هذه الاستجابة ليست مؤكدة أبدًا سواء كان صوت انتخابي أو ولاء لحزب ما. في ضوء مثل هذه الاستجابة، حتى إذا كانت مكتسبة، وحتى إذا

ساعدتها كل الاستجابات الداعمة، وحتى إذا استندت إلى كل حسبة ممكنة، يجب أن تكون نتيجة حملة بروباجاندا محددة وخاصة، وتظل غير متوقعة. وتزداد ضبابية إذا خاطب مروج البروباجاندا أفراد بعينهم (محاولًا أن يتوقع كيفية رد شخص ما لبروباجاندا ما) وإذا كان هناك حاجة للإتيان بفعل محدد. لا يمكن معرفة ما إذا كانت الاستجابة محبذة أو لا - إلا بعد الحملة. لكن موقف من هذا النوع غير مقبول بالنسبة إلى مروج البروباجاندا. لأنه تقني لا يستطيع بكل بساطة أن يقبل حالة عدم اليقين هذه التي يميل علماء الاجتماع إلى التأكيد عليها. أما مروج البروباجاندا فيسعى وراء استجابات أكثر يقينية وتلقائية.

في البداية، سيتخلى مروج البروباجاندا عن توقع ردة فعل الفرد وسيفكر في الجماعة وسيرضى بنتيجة محبذة بوجه عام - مثل الاستحواذ على 80 بالمئة من الاستجابات. من ناحية أخرى، سيبذل مجهودًا لاستحضار استجابة بعينها نحو فعل محلي أقل من المجهود الذي سيبذله لتحقيق الموقف العام الذي بدوره أن يخلق استجابات محلية.

وعليه، سيهدف جهد مروج البروباجاندا إلى القضاء على العوامل الرامية إلى الفردية. يجب أن يتضاءل تكييف الاستجابة المتوقعة عن طريق العناصر الطبيعية أكثر وأكثر (البيئة والتعليم وهكذا) وأكثر وأكثر عن طريق "التعليم المسبق" الذي تقدمه البروباجاندا بعمق. في اللحظة التي تبدأ فيها المواقف المتعلمة (من خلال البروباجاندا) في أن تسود على المواقف "الطبيعية" - وهي عادات الإنسان الراسخة - تصير مواقف جماعية، ومروج البروباجاندا (الذي عَلَّم الإنسان هذه المواقف) يستطيع أن يحسب بطريقة أسهل ما سيحققه حافزًا ما ويحثه على فعله.

الملحق

الثاني

بروباجاندا ماو تسي-تونج[1]

(1) عن بروباجاندا (ماو) اقرأ:

Mao Tse-tung: *Selected Works* (New York: International Publishers; 1954-6), Vols. I, III;

Roderick MacFarquhar (ed.): The Hundred Flower. *Campaign and the Chinese Intellectuals* (New York: Frederick A.Praeger; 1960);

and Tibor Mende: *China and Her Shadow* (New York: Coward-McCann; 1962).

طبق (ماو) مبادئ البروباجاندا اللينينية وكيفها مع ظروفه الخاصة ولم يفعل أكثر من ذلك لكنه فعل ذلك بدقة ملحوظة وإدراك عظيم للحقائق. بالنظر للبروباجاندا، كان للوضع ثلاثة مظاهر جوهرية: الغياب التام لوسائل الإعلام الجماهيري (ليس هناك جرائد ولا ملصقات)، والعدد الكبير من الناس المطلوب التوصل إليهم، والطابع الثوري للحرب التي خاضها. بسبب هذا الوضع، كان على مبدأ البروباجاندا التي اتبعها أن يكونا التعليم والتنظيم.

لا أقصد بكلمة "تعليم" هنا مجرد نشر المعلومات أو الإرشاد الفكري. المعلومات - الموجهة والتي تم التلاعب بها على النمط اللينيني - مع الإرشاد، يندمجان مع التعليم الذي كان يهدف إلى التغيير في الإنسان كله من خلال إعطاءه رؤية جديدة تمامًا للعالم وإيقاظ داخله مجموعة من المشاعر وردود الفعل والأفكار والمواقف والتي تختلف تمامًا عن تلك التي تَعَوَّد عليها[1].

(1) رغم أن (ماو) قد أعطى دائمًا المكانة الأولى للتعليم، تلقت البروباجاندا اهتمامًا كبيرًا مساوي للتعليم في الفترة الأولى. كان الهدف إثارة مشاعر الكراهية والوطنية، واللعب على مكانة الجندي الاجتماعية والخوف من الانتقام. هنا نرى الخصائص التقليدية للبروباجاندا.

بكلمة "تنظيم" أقصد أنه يجب وضع كل فرد في شبكة تتألف من تنظيمات متعددة تحيط به من كل الجوانب وتتحكم فيه على كل المستويات. لكن الهدف ليس كبت الفرد من خلال التنظيم وإنما جعله عضو ناشط في التنظيم.

مرت هذه المبادئ بتغيرات طبقًا لظروف متغيرة. من البديهي أنه يجب التفريق بين فترة الحرب وفترة التماسك.

1. الحرب: من 1926م إلى 1949م

التعليم

في الأراضي المحتلة المسيطر عليها، كانت المهمة نشر الآراء الأساسية للماركسية الثورية عبر الشعارات والتفسيرات لـ "المبادئ الثلاثة للشعب" وعن طريق الاجتماعات التي يستنكر المجتمعون فيها الأثرياء والمستغلين. لم يهتم التعليم السياسي كثيرًا باستهداف التحريض والتمرد واهتم أكثر بالغرس العميق البطيء لأفكار اقتصادية معينة تستند إلى رغبة سائدة في توزيع الأرض. تم استخدام الاجتماعات والمسيرات واللافتات والملصقات لنشر هذه الشعارات. ولطالما تمت التفسيرات في المجموعات التي بنيت بصورة طبيعية مثل نقابة الفلاحين. من الجلي أن التعليم السياسي قد اندفع بشكل أقوى في تنظيم

البروباجاندا الأساسي: الجيش. بمساعدة من التعليم الماركسي المستديم، كان هناك محاولة لرفع المستوى السياسي لأعضاء الحزب والجيش. صَاحَب هذا كفاح ضد مذاهب المساواة والفردية والانقلابية وهكذا.

ومن ثم، فلم يكن الهدف هو التمرد المباشر بقدر ما كان "الحشد السياسي،" في مسار البروباجاندا التي تحرك الجماهير التي ستدرك وعود البروباجاندا وشعاراتها. من الممكن جدًّا أن تكون هذه من بنات أفكار (ماو): الذي يصوغ الشعار لا يحقق الوعد الذي يتضمنه. سيحشد الشعار الناس الذين سيتوجب عليهم لاحقًا تحقيق الهدف المتضمن في العبارة التي أثارتهم في بادئ الأمر. في الأقاليم التي ليس عليها سيطرة، هذا النوع من العمل كان أقل شدة. من ناحية، كانت هناك محاولات للوصول لقوات العدو من خلال السجناء. الجنود الأسرى تعرضوا لبروباجاندا شديدة وتشكيل سياسي جديد وتحول جذري كامل لرؤيتهم للعالم (صارت هذه العملية لاحقًا غسيل الدماغ)؛ ثم أُطلق سراحهم. كان هذا الإفراج في حد ذاته عمل من أعمال البروباجاندا التي صممت لتبين كرم الشيوعية تجاه الخصوم لكن ما هو أبعد من ذلك هو أن الهدف من الإفراج عنهم كان إظهار مواقف جديدة في وسط الجيش القديم.

من ناحية أخرى، الكفاح الثوري أدى بـ(ماو) مؤقتًا لاحتلال مناطق أصبحت مهجورة فيما بعد - وبشكل متكرر - مع العديد من أعمال التسلل وتدفق كبير للناس ذهابًا وإيابًا. الغرض هنا كان المغادرة بعد تشكيل الناس تشكلًا أيديولوجيًا عندما أضطر الجيش الثوري إلى التقهقر. مواجهة العدو بدون أي سلاح أيديولوجي سمحت لـ (ماو) بإفساد جيش العدو شيئًا فشيء عندما احتل هذه الأقاليم. وللتأكيد، لم يكن ممكنًا ترك هذه المناطق لوقت طويل جدًّا بدون بروباجاندا؛ كان من اللازم حدوث التسلل والاحتلال الجزئي حتى يتجدد ويتعزز "التعليم السياسي." في تلك المرحلة، يتألف التعليم السياسي من أخذ المأساة السائدة والقمع المنتشر وردود الفعل العفوية ضده كنقاط انطلاق لتوفير تفسيرات متسقة من أجل تحديد الأعداء الذين يمكن أن يساهموا في إثارة مشاعر

كراهية موجودة بالفعل ورسم أسطورة التحرير وإظهار وسائل هذا التحرير (تعاون الناس والتزامهم بالشيوعية)، مع كل هذه العناصر التي تتحد داخل الكيان الكلي الجامد.

التنظيم

كان يجب إدخال الناس الذين تعرضوا للبروباجاندا في نظام. إبان المعركة، اشتمل تنظيم (ماو) على ثلاثة عناصر. الأول هو "نقابة الفلاحين" التي صُممت لتنظيم الفلاحين في المنطقة ونشر الشعارات وشرحها في المجموعات النقاشية. هذه النقابات، التي تحظى بعدد كبير من الأعضاء، ولأول وهلة يبدو أن لها توجه ليبرالي، كانت تحت الاتجاه الرسمي للحزب. استطاع (ماو) أن يقول - وهو قول مبرر: " هل كان ممكنًا - حتى إذا شيدنا عشرات الآلاف من المدارس للتعليم السياسي - تعليم جميع الرجال والنساء حتى في أكثر القرى نأيًا في أقصر فترة ممكنة؟" نقابات الفلاحين هذه لم تكن تنظيمات للفعل ولا للمعركة، بل حشود كبيرة لتخدم أغراض التنظيم النفساني والاستقطاب.

العنصر الثاني كان البناء الهيكلي الموازي الشهير. جنبًا إلى جنب مع الإدارة الرسمية (ما زالت إدارة حكومة العدو في أراضي المعركة)، كان يتم بناء إدارة سرية ثورية كاملة. كان لهذه الإدارة مواردها المالية الخاصة وشرطتها الخاصة ووظائف دقيقة جدًّا للبروباجاندا. كان الهدف - كما قال (ماو) - هو "حشد الجماهير عن طريق اللجوء إلى عمل التنظيم."

في واقع الأمر، حولت الإدارة الأفكار العامة والآراء الجديدة (التي أتت كنتيجة للتعليم السياسي) إلى أفعال: الأجور والمؤن وإمدادات الإعاشة وهكذا. كان على التحول الاجتماعي والاقتصادي أن يحدث من الداخل وفي السر حتى يمكن فرضه على تنظيم سابق، ومشاركة الفرد على كل الأصعدة كان ضروريًّا لتعزيز المعتقد أن هذا التحول لم يُفرض من الخارج ومن فوق. صرح (ماو) أنه "من اللازم ألا تكون مناهج حشد الجماهير بيروقراطية." تم استدعاء البناء

الهيكلي الموازي "لصنع بروباجاندا في كل حدث" لخلق شعور بالمشاركة في العمل العام - مع علم (ماو) أنه بمجرد اكتساب الفرد شعور بالمشاركة، سيتوفر لكل الأفعال تبريرها الخاص وستدفع الأفراد على الانخراط بصورة أعمق. كثيرًا ما أصر (ماو) على أنه لا يمكن لخلق البناء الهيكلي الموازي أن يؤدي أي غرض بدون هذه البروباجاندا التي صُممت لتقود الناس إلى الفعل "العفوي."

في النهاية، تنظيم البروباجاندا الثالث هو الجيش: "الجيش الصيني الأحمر هو تنظيم مسلح يؤدي مهام سياسية للثورة... وله مهام مهمة ليؤديها: البروباجاندا بين الجماهير وتنظيم الجماهير وهكذا... الجيش الأحمر لا يصنع الحرب لذاتها: هذه الحرب هي حرب من أجل البروباجاندا بين الجماهير." المهمة الأولى كانت تشكيل جنود الجيش الأحمر وتعليمهم سبب خوضهم القتال وبعد ذلك تحويلهم إلى مروجين للبروباجاندا وحاملين لأفكارها. كان عليهم التعايش بصورة تكافلية مع المدنيين حتى يتمكنوا من اختراق الناس اختراقًا أيديولوجيًا ودمجهم على نحو متزايد.

مناهج البروباجاندا من هذا النوع متعددة ودقيقة وتغطي مساحة عريضة تبدأ من الإرهاب وتصل إلى التلقين العقيدي، من المشاركة في المسيرات وحتى الانخراط في الفعل. لكنها لا تحدث إلا في حالة وجود جيش شعبي للغاية. ينبع هذا من عبارة شهيرة تتردد كثيرًا: "على الجيش أن يؤدي عمله بين الناس كما يفعل السمك في الماء." من المؤكد أن في ذلك افتراض أن جنود مثل هذا الجيش يتم تجنيدهم من الشعب الذي يجد فيه الدعم والذي يعبر عنه والذي يشاركه نفس الاهتمامات ويخدم مصلحته العامة والذي لا يتصرف أبدًا كما لو كان في بلد منهزم، ويتصرف كما لو كان لنضاله معنى إيجابي في عيون الناس. إذا لم تتوفر هذه الظروف المسبقة، فلن يكون ممكنًا صنع أداة البروباجاندا من قماشة الجيش (هذا يفسر فشل محاولة تبني مناهج (ماو) في الجزائر). يعد الجيش الأحمر جهاز بروباجاندا لأنه تشكل على أساس الأيديولوجية ولأن وجوده يحشد الناس: ليس أمامهم اختيار إلا المشاركة والانخراط .

2. منذ عام 1949م

بعد النصر، تظل مبادئ البروباجاندا كما هي لكن تطبيقها يختلف. في 27 فبراير/ شباط 1957م قال (ماو) في تقرير مؤتمر الدولة الأعلى إنه "لا يمكن إجبار شعب على استنكار المثالية أو فرض الاعتقاد في الماركسية عليه. حل المسائل الأيديولوجية يتطلب التصرف من خلال مناهج ديمقراطية في النقاش والنقد والإقناع والتعليم المناسب." لكن علينا أن نتذكر منهج "المئة وردة" - وهو منهج عظيم بالمناسبة. كما كان الحال في ألمانيا النازية في 1943م[1]، كان هناك فترة من الليبرالية الواضحة عندما كان هناك تسامح مع الإفصاح عن كل أنواع النقد والانشقاق والميول الدينية والمثالية وهكذا - بل وصل الأمر إلى السماح به والتشجيع عليه. ثم - بعد أن يتحدث كل الخصوم - يرتطمون بموجة من القمع: الاعتقالات والعقوبات بالسجن - وفوق كل شيء - التعليم السياسي مرة أخرى. الغرض من حملة "المئة وردة" كان حمل الخصوم على الإجهار بأنه يمكن تصفيتهم أو حبسهم. ولا يمكن لحملة "التصحيح" اللاحقة أن تكون "رقيقة كالنسيم أو مطر الصيف لأعداء الشعب".

وحتى البروباجاندا التي ترتكز على التعليم لا يمكنها أن تفعل أي شيء بدون الإرهاب. من أجل الوصول إلى إذعان كامل مع البروباجاندا، يتوجب القضاء على الفرديين "الذين لا يمكن تصحيحهم" ويمثلون 7 بالمئة. هدف بروباجاندا (ماو) مزدوج: دمج الناس في كيان سياسي جديد بأعمق صورة ممكنة - وفي نفس الوقت - فصلهم عن المجموعات القديمة مثل العائلة أو تنظيمات القرية التقليدية. من اللازم تفكيك هذه المجموعات - من خلال أفعال داخلية دائمًا. ولهذا يجب أن تتوفر أقصى درجة ممكنة من الامتثال من جانب الفرد[2]. وفقًا

---

(1) كان الهدف من إعطاء الحرية لصحافة النظام السياسي في نهاية عام 1934م إعطاء الفرصة للخصوم أن يكشفوا عن أنفسهم.

(2) هذا الامتثال أيديولوجي وشمولي. من الممكن جدًا لـ (ماو) أن يقول إن "غياب الرأي الأيديولوجي الصحيح مثل غياب الروح."

لرجل مثل (ر. جوليان وتيبور ميندي) كان هذا المشروع ناجحًا. كتب (ميندي) "أصبحت النماذج الأولية (والتي أنتجها الحزب بكميات ضخمة) طيعة للغاية بعد عشر سنوات من الطَرْق والدق - لتحل محل الأصناف التي فرضها الباحثون الكونفوشيوسيون سابقًا." من ناحية أخرى، المهمة هي دفع الفرد إلى العمل إلى حد أبعد من قدراته لغرض التنمية الاقتصادية. تتوقف "القفزات للأمام" هذه على البروباجاندا فقط. قد تتخذ البروباجاندا شكل الإثارة والحماس الفائق والتظاهرات الحاشدة (على الصين أن تتفوق على الولايات المتحدة، ويجب إثارة مشاعر الكراهية ضد الرأسماليين) أو محاكاة "الخطة الخمسية" لكنها في المقام الأول تتخذ صورة التعليم والإقناع في المجال الاقتصادي. عندما تتغير التوجهات، تتغير المناهج أيضًا.

التعليم

كان هناك ثلاثة ابتكارات.

1. تتزايد العمليات التقليدية للبروباجاندا: يتعلم الجميع القراءة، وتوضع الجرائد والكتيبات في متناول الجميع، وهكذا. في الوقت نفسه، يندمج تعليم الأطفال اندماجًا تامًّا في البروباجاندا: بدايةً من الروضة فصاعدًا، يتكيف الأطفال الصغار حتى يتقبل اللاوعي لديهم مبادئ الاشتراكية ومعتقداتها. يحدث هذا على كل مستويات التعليم.

2. توسع نظام النقاش. قال (ماو) في تقرير عام 1957م: "لقد صنعنا شعار "الوحدة-النقد-الوحدة" في 1942م لتعريف المنهج الديمقراطي لحل النزاعات من خلال النقد والجهود اللاحقة للوصول إلى وحدة جديدة على أساس جديد." ذَكَّر (ماو) مستمعيه بأن النجاحات الأولى لهذا المنهج تعود إلى 1927م. صَرَّح أن منهج الإقناع لا يمكن استخدامه إلا على العمال. يجب إجبار الآخرين: الخير للشعب والديكتاتورية للأعداء." تبذل البروباجاندا جهدًا جهيدًا تجاه هؤلاء المحتمل دمجهم؛ والقضاء على

الآخرين. من المتبع أن "النقاش-النقد-الوحدة" هو منهج لا يعمل إلا في ثنايا دائرة محدودة، على أساس افتراضات شائعة، وبدون تشكيك في المصالح العامة. وعن هذا الموضوع، ذكر (تيبور ميندي) إجابة مدير مسبك الصلب في (أنشان) بشأن تنظيم العمل وتأسيس المعايير: "نصل لقرارات بعد نقاشات طويلة. المعارضة؟ لا نعتمد إلا على الإقناع. ليس هناك أي احتمال أن يقاوم أي شخص القرار الذي أتخذ بعد النقاش، عندما يقتنع الكل بأن الطريق المسلوك هو الطريق الصحيح." وكيف يمكن للمرء أن يحدد ما إذا كان هذا الطريق هو الطريق الصحيح حقًّا؟ "الأبيض ليس أسود. نعرف أين تكمن الحقيقة. ليس هناك إلا حقيقة واحدة، وبالصبر يمكن تفسيرها." هذا يكمل منهج (ماو) إكمالًا تامًّا.

لكن دعونا نتذكر المنهج الديمقراطي: يَعْرِف الإنسان الحقيقة المطلقة ويَطْرَح المشكلات التي لها حلول ويُشَجِّع الاعتراضات (في إطار محدود). النقاش الذي يأتي بعد ذلك لا ينطوي على هدف البحث العام عن الحقيقة أو خطة مؤسسة على آراء الجميع والتي تتشكل بالتدريج. هدف النقاش هو استغلال المعارضة وتجريد الخصوم من طاقتهم ومعتقداتهم. هدفه هو "هزيمة" كل عضو من أعضاء المجموعة حتى يلتزموا آراء أعلن القائد أنها الحقيقة المطلقة.

3. الجانب الجديد الآخر في التعليم هو نظرية القولبة والتي تم وصفها أيضًا في تقرير 1957م. الهدف هو الضغط على الإنسان حتى يتقولب ووضعه في القالب بصورة دورية "وإعادة قولبته" على نحو ممنهج أيًّا كانت معتقداته أو ميوله، حتى إذا كان شيوعي مخلص. قال (ماو): "عندما نبني مجتمعًا اشتراكيًّا، يجب أن نضع الجميع في قوالب – العمال والمستغلين الظالمين. من يقول إن الطبقة العاملة لا تحتاج هذا؟ من الطبيعي أن عمليات قولبة المستغلين تختلف عن عمليات قولبة العمال... نحن أنفسنا نوضع في قوالب كل عام... لقد خضعت لقولبة أفكاري...وعليَّ أن أستمر."

من ناحية، هناك قالب للشخص الاشتراكي الكامل - وهو ما يظهر في صورة مثل أعلى مطلق. ومن ناحية أخرى، هناك منهج للضغط على الأفراد مرارًا وتكرارًا ليدخلوا في هذا القالب - وإعطائهم الشاكلة التي تتطابق مع هذا المثل. لم يعد هناك أي تشكيل تلقائي للإنسان الجديد كنتيجة لتغيرات البناء الاجتماعي كما كان الحال مع (كارل ماركس). وكذلك ليس التشكيل طوعيًا للإنسان الجديد الذي يلزم بناءه لكن كيانه النهائي ليس معروفًا - كما كان الحال تحت قيادة (لينين). بالنسبة إلى (ماو)، فكرة القولبة تفترض فكرة نموذج مبدئي مثالي يمكن التعرف عليه وينبغي تشكيل كل فرد عليه. هذا التفسير الذي قدمه (ماو) تأكد في ضوء اهتمامه بوضع معايير الفعل والتعريفات العقيدية التي تتعلق بما يجب أن يكون عليه الإنسان، ومعاييره الستة للخير - من بين معايير أخرى. "يمكن الحكم على الأفعال على أنها أفعال خيرة من خلال هذه المعايير الستة: إذا ساهمت في توحيد الناس بدلًا من تفريقهم، وإذا كانت مواتية لبناء الاشتراكية، إذا عززت المركزية الديمقراطية، وإذا وطدت اتجاه الحزب الشيوعي، وإذا كانت مواتية للتضامن الاشتراكي الدولي." معايير الخير هذه تعكس اهتمام (ماو) بتقديم الوسائل البسيطة للحكم عند الاشتراكيين والتعريف الواضح لنوع الإنسان الذي يجب تشكيله وقولبته. كذلك يجب أيضًا خضوع أعضاء الحزب للقولبة لكن هذا يفترض أن هناك فردًا أو مجموعة تقوم بعمل التشخيص وتضع الناس في القالب. على أي حال، فهي عملية نفسانية وأيديولوجية قبل أي شيء آخر لكن الهدف هو الامتثال الكامل للفرد بالعقيدة الماركسية والبناء الجديد للمجتمع. والتأقلم سيكون بطيئًا وتدريجيًا ومنهجيًا كنتيجة لعمليات إعادة القولبة المتتالية.

التطويق

لقد تناولت بالفعل هذه النقطة الهامة خلال مناقشة البروباجاندا الأفقية. دعونا نتذكر فقط أن الجيش لم يعد له دور محبذ كأداة للبروباجاندا.

3. غسيل الدماغ[1]

اشتهر هذا المصطلح رغم أنه لم يكن إلا جانب ثانوي من البروباجاندا الصينية. وللتأكيد، غسيل الدماغ ليس له أي علاقة بنوع السحر الموصوف في مجلة (*L'Express*) في 1957م تحت هذا العنوان. هدف غسيل الدماغ هو استرجاع الأعداء وتحويلهم بدلًا من القضاء عليهم - إما لجعلهم مناصرين للماركسية ثم إعادتهم لأوطانهم، أو توجيههم نحو أمثلة تهذيبية. العملية لها ثلاثة جوانب أساسية (في حدود ما يمكن التعرف عليه):

1. يُقتلع الفرد من كل شيء، من بيئته الاجتماعية السابقة ومن الأخبار والمعلومات. لا يمكن القيام بذلك إلا إذا وضع الفرد في زنزانة أو معسكر. يجتث الفرد من جذوره اجتثاثًا تامًّا. غياب الأخبار يضع هذا الفرد (الذي تعود على المعلومات) في الخلاء الذي يصعب تحمله بعد فترة من الوقت. تضاف المناهج التكميلية إلى ذلك: الحرمان من الطعام والنوم لإضعاف مقاومته النفسانية وإضعافه أمام المؤثرات (مع أنه ليس هناك نية لإرهاقه)، العزلة والوحدة المتكررة التي يمكن أن تتسبب في قلق من نوع ما والذي يتزايد بسبب عدم اليقين بشأن مصيره وغياب عقوبة محددة؛ وكذلك السجن لفترة طويلة في زنازين بلا نوافذ وليس فيها إلا ضوء كهربي، وساعات غير منتظمة للوجبات والنوم والاستجوابات، وهكذا، حتى يتدمر إحساسه

---

(1) انظر:

A.M. Meerloo: *The Rape of the Mind: The Psychology of Thought Control, Menticide, and Brainwashing* (New York: World Publishing Company; 1956); Eleutherius Winance: *The Communist Persuasion: A Personal Experience of Brainwashing*, trans. Emeric A. Lawrence, O.S.B. (New York: P. J. Kenedy & Sons; 1959); and Robert Jay Lifton: *Thought Reform and the Psychology of Totalism: A Study of Brainwashing in China* (New York: W. W. Norton & Company; 1961)

بالوقت. الهدف الرئيس من المناهج النفسانية هذه هو هدم بيئة الفرد الاعتيادية وحيزه الشخصي وأنماطه وتوقيتاته وهكذا. يجب تجريد الفرد من دعائمه الاعتيادية. وفي النهاية، يعيش هذا الفرد في وضع متدني مهين لا يهدف إلى تدميره وإنما إعادة بنائه.

2. الفرد الموضوع في الظروف المذكورة أعلاه يتعرض إلى وابل من الشعارات عن طريق الإذاعة أو زملاء السجن الذين يمطرونه بالشعارات والتبكيت لأنهم بالفعل في طريقهم إلى بنائهم هم. هناك تكرار لا نهاية له من العبارات والتفسيرات والمثيرات البسيطة. بالطبع، في البداية، كل هذا ببساطة يثير سخرية وشكوك الفرد المستهدف. مع ذلك، بعد بعض الوقت، تحدث عملية التآكل؛ سواء أحبها الفرد المستهدف أو لا، ينتهي به الحال حافظًا لعبارات تلقينية معينة عن ظهر قلب رُددت له ألف مرة. كما ينتهي الأمر بهذه الشعارات أن تسكنه رغم أنها لا تحمل أي معتقد. فهو لا يستسلم لبعض الشعارات الإعلانية مثلًا لأنه يعرفها فحسب، وإنما من اللازم ألا ننسى أن السجين لا يسمع أي شيء آخر، وأن التكرار الذي لا يتوقف لهذه الشعارات أيضًا يحُول دون أي تأمل شخصي أو تفكير عميق. النتيجة هي الاختراق اللاإرادي وضعف فكري من نوع ما بالإضافة إلى استحالة عيش حياة فكرية فردية.

3. العنصر الثالث لغسيل الدماغ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعنصرين الآخرين – هذا العنصر هو النقاش الجماعي وفقًا لـ "المنهج الديمقراطي." من الجلي أنه على القائد أن يكون رجلًا سريع البديهة وذا عقلية رفيعة المستوى وقادرًا على الإجابة عن كل الأسئلة والرد على كل الاعتراضات. لكن، من الواضح أن الهدف من وراء مثل هذا النقاش ليس هدف نقاشات المجموعات الحرة. الهدف الأول هو خلق غموض في عقل السجين فيما يتعلق بأفكاره ومعتقداته، وعدم اليقين والشك بشأن مسائل الحقيقة (قبل أي شيء، هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟) – مثلًا، المعلومات التي يقدمها القائد –

المصدر الوحيد للمعلومات - وفي الوقت نفسه الشعور بالذنب القائم على أفكار تتعلق بالأخلاق داخل الفرد نفسه. (كنت أنتمي إلى جماعة، أو طبقة، أو شعب تسبب في الكثير من الضرر وجرائم نكراء ضد الإنسانية. هذا النوع من التفكير سيرتبط بسهولة بالضمير المسيحي مثلًا.) من البديهي أن يؤدي خلق شعور بالذنب إلى الرغبة في التخلص منه وتنقية الذات وتطهيرها وتبرئتها.

عندما يبدو أن غموض المعتقد ومشاعر الذنب قد تأسست وترسخت في الجماعة، يمكن الوصول لمرحلة جديدة: التفسيرات. يتم عرض هذه التفسيرات على مستويين. مجموعة من التفسيرات تتناول الوضع الفردي للسجين وشعوره بالذنب والإهانة والحبس: ويعرض أمامه شرعية كل ذلك والمنطق من ورائه وحجته بهدف محو شعوره بالاستياء نحو السَجَّان الذي - من ناحية أخرى - يفصح عن حسن نيته نحو السجين. مجموعة أخرى من التفسيرات تتعلق بالمشكلات العامة في العالم والوضع السياسي. يُرسم التاريخ والكون بمساعدة المنهج المنطقي. فلسفة رؤية العالم بأسرها تكشفت تدريجيًا - ليس بصورة عقيدية عن طريق خطابات عظيمة وإنما تتكيف شيئًا فشيء مع تجربة السجين الشخصية ومع تفسيرات فردية قدمت له. وبالتدريج تُزال رؤيته التقليدية المسيحية، أو البرجوازية، أو الليبرالية، أو الإقطاعية - ويحل محلها رؤية مختلفة. في الوقت ذاته، الشعارات التي تعلمها الفرد عن ظهر قلب في الماضي الآن يفهمها ويدركها بوضوح. وكنتيجة لذلك، العبارات المبدئية - والتي تتكرر ألف مرة - تتغير وتتبدل عبر مناقشات تفسيرية عميقة عمق متزايد. ثم نأتي إلى المرحلة الأخيرة: "الطريق إلى الخلاص." بمجرد الدخول إلى رؤية جديدة للعالم والاقتناع التام بالذنب "يتوق الفرد إلى خلاص نفسه وتطهيرها." ثم يقبل قواعد الانتماء والأفعال المقترحة عليه. ومن ثم، يبرر نفسه في عيونه هو وفي عيون الآخرين.

هذه تقريبًا تقنية غسيل الدماغ. علينا أن نذكر أنه لأنه بطيء ولأنه يستخدم مناهج معقدة وأفراد رفيعة المؤهلات، لا يمكن ممارستها إلا على عدد صغير جدًا

من الأشخاص المميزين الذين يتم اختيارهم بعناية. وعلاوة على ذلك، آثاره لا تدوم إلا عندما يدخل السجين - بمجرد إطلاق سراحه - في مجتمع بنفس الرؤية للعالم مثل تلك التي فرضت عليه. إذا لم يفعل ذلك، ما بُني سينهار في نهاية المطاف. على أي حال، هذه التقنية ليس لها إلا أهمية ثانوية في نظام (ماو)[1].



(1) تمت ممارسة هذا النوع من غسيل الدماغ في معسكرات الاعتقال الجزائرية بعد عام 1957م. في يناير/ كانون الثاني 1958م نُشر بيان رسمي بشأن "الهيئة الفرنسية للفعل النفساني" في المعسكرات والذي يؤكد ببساطة ما قلناه سلفًا. هناك بعض التفاصيل التي يجدر ذكرها:

أ. تصنيف الأفراد إلى "لا يمكن إصلاحه" و"طَيّع" و"يمكن الاحتفاظ به."

ب. طبقًا للصينيين، غسيل الدماغ استغرق من ستة شهور إلى سنتين حسب مستوى السجين. لكن في الجزائر كان الوقت أقل من ذلك (وهذا يفسر الإخفاقات الفرنسية).

ت. التقسيم إلى ثلاث مراحل: 1 - تفكيك الفرد 2 - خلق ضمير جمعي بالإضافة إلى إعادة التلقين العقيدي 3 - نقد الذات والانخراط الكامل في موقف جديد.

ث. خلق ضبط النفس الجمعي مع عقوبات يفرضها السجناء أنفسهم.

ج. نظام "الموجات" شبه الأسبوعية: موجات الانضباط والعمل والدراسة والبهجة وهكذا. وهذا يخلق تيارًا جمعيًا.

ح. آلية التحرير: "للشعب الحق في العفو عن المجرمين"؛ جماعية المعسكر في اجتماع عام مع مناقشات، ونقد، ونقد ذاتي من جانب هؤلاء الذين سيتم تحريرهم وقد أصبحوا أعضاء في "الجزائر الفرنسية الجديدة."

فشل كل هذا بشكل تام تقريبًا لأنه لم يكن هناك أيديولوجية يمكن استخدامها حقًا ولاسيما بسبب غياب فرق متخصصة منظمة تنظيم فعال بدرجة كافية.

قائمة المراجع

Albig, John William: *Propaganda, Encyclop.* Americana.

Albig, John William: *Modem Public Opinion.* New York: McGraw-Hill Book Company; 1956.

Alexandrov: Soviet antireligions propaganda. *BIE U.S.S.R.*, 1957.

Allport, Gordon W.: "The Basic Psychology of Rumor." In Katz *et al.*

-and Leo Postman: *The Psychology of Rumor.* New York: Henry Holt & Company; 1947.

Altschuler et Fauvet: *Propagande totalitaire et démocratique*, 1957, C.E.G.O.S

Aroneanu, Eugéne: *La définition de l'aggression: exposé objectif.* Paris: Editions Internationales; 1958.

Barthes, Roland: *Mythologies.* Pt. II. Paris: Editions du Seuil; 1957.

Bartlett, Fred Charles: "The Aims of Political Propaganda." In Katz *et al.*

-: *Political Propaganda.* Cambridge, Eng.: Cambridge University Press; 1940.

Baschwitz, Kurt: *Du und die Masse*, Studien zu einer exacten Massenpsychologie. 2nd ed. Leiden: E. J. Brill; 1951.

Baytogan, *Le Manuel de l'Agitateur* (en russe: 1957)

Berelson, *Communications in Modern Society*, 1948.

Berger, L'Opinion publique, in: *L'opinion publique.*

Bernays, Edward L.: *The Engineering of Consent.* Norman, Okla.: University of Oklahoma Press; 1955.

--: Propaganda. New York: H. Liveright; 1928.

Bogardus, Emory Stephen: *The Making of Public Opinion.* New York: Association Press; 1951.

Bourricaud, François: Esquisse d'une théorie de l'autorité. Paris: Plon; 1961.

Bramstedt, *Dictatorship and political police*, 1945.

Bruner, Jerome S.: "The Dimension of Propaganda." In Katz *et al.*

Bryce, James: "The Nature of Opinion." In Katz *et al.*

Burdeau, *Traité de Science politique, t. VI, La Démocratie.*

Burdeau, Evolution des Techniques d'expression de l'opinion publique en démocratie, in: *L'opinion publique.*

Campbell, Angus: "Television and the Election." In Katz *et al.*

Cantril, Hadley. Gauging Public Opinion. Princeton: Princeton University Press; 1944.

-and Gordon W. Allport: *The Psychology of Radio.* New York: Harper & Brothers; 1935.

Carrere D'Encausse, La persuasion des consciences, *RMI*, 1957.

Cartwright, Dorwin: "Some Principles of Mass Persuasion." *In Human Relations*, 1949.

Cartwright, Dorwin: "Principles of Mass Persuasion." In Katz *et al.*

Citoyen français, Le. Special issue of Problémes (1958).

Cooper, Eunice, and Marie Jahoda: "The Evasion of Propaganda." In Katz *et al.*

Davidson, P.: *Propaganda and the American Revolution*. Chapel Hill, N.C.:
University of North Carolina Press; 1941.

de Plas, Bernard: La Publicité. Paris: H. Verdier; 1947.

Dicks, Henry V.: "German Personality Traits and Nazi Ideology." In Lerner (ed.).

Dombrowsky, *Fondements idéologiques de l'éthique bolchevique* (en russe), Ukrainsky Zbirnyk, 1957.

Domenach, Jean-Marie: Les Dessous psychologiques de l'homme de la rue. C.E.G.O.S.; 1956.

-: La Propagande politique. Paris: Presses Universitaires de France; 1949·

Doob, Leonard W.: "Goebbels' Principles of Propaganda." In Katz et al.

Public Opinion and Propaganda. New York: Henry Holt &
Company; 1948.

-: Propaganda: Its Psychology and Technique. New York: Henry Holt & Company; 1935.

Driencourt, Jacques: La Propagande, nouvelle force politique. Paris: A. Colin; 1950.

Dupouy, Bernard: La Propagande dans la guerre d'Algérie (1956-1958).
Algiers: Maison des Livres; 1958.

Einsiedel, Heinrich: *Tagebuch der Versuchung*. Berlin: Pontes Verlag; 1950.

Eldersveld, Samuel J.: "Personal Contact or Mass Propaganda." In Katz *et al.*

Ellul, Jacques: "Propagande et évangélisation." Revue de l'Evangélisation (1959).

-: "La Crise de l'opinion et la propagande." Foi et Vie (1958).

-: "Les Mythes modernes." Diogéne (1958).

-: "Information et propagande." Diogéne (1957).

-: "Les Présuppositions sociologiques collectives." Evangelische Theologie (1957).

-: La Technique ou I'enjeu du siécle. Paris: A. Colin; 1954.

-: "La Propagande." Bulletin de I'I.F.O.P. (1954).

-: Les Techniques de propagande. Cours polycopié; 1951.

Farrago, Ladislas: "British Propaganda." United Nations World (1948).

Fellgiebel, Aufkarung and Propaganda, *Militarwissenschaft. Rundscau*, 1938.

Félice, Philippe de: Foules en délire, extases collectives. Paris: A. Michel; 1947·

Gaev, Comment le people societique reagit aux Nouvelles, (en russe) Vestnik Institute, 1954.

Girard, Connaissance de l'opinion publique et Méthode des Sondages, in *l'Opinion publique*.

Goebbels, Joseph: Der Angriff, Aufsätze aus der Kampfzeit. Munich: F. Eher; 1941.

-: *Wesen* und *Gestalt des Nationalsozialismus*. Berlin: Junker und Dünnhaupt; 1935.

Gramsci, Antonio: *Gli intelletualli e* l'*organizzazione della cultura*. Turin: G. Einaudi; 1949.

Grisewood, Brocedvasting and society, 1949.

Grosser, Alfred: *Hitler, la presse et la naissance de la dictature*. Paris: A. Colin; 1959.

Guerre revolutionnaire, La. Special issue of *Revue Militaire d'Information* (1957).

Gurfein, Murray I., and Morris Janowitz: "Trends in Wehrmacht Moral." In Lerner (ed.).

Hadamovsky, Eugen: *Propaganda* und *die nationale Macht, die Organisation der öffentlichen Meinung für die nationale Politik.* Oldenburg: G. Stalling; 1933.

Hagemann, Walter: *Publizistik im Dritten Reich: Ein Beitrag zur Methodik der Massenführung.* Hamburg: Hansischer Gildenverlag; 1948.

Hartley, Eugene L.: *Fundamentals of Social Psychology.* New York: Alfred A. Knopf; 1952.

Harvey, Ian: *The Technique of Persuasion.* Grey Walls, Eng.: Falcon Press; 1951.

Hehn, *Die Weltfriedens bewegung in Atomzeitalter*, Europa Archiv., 1954.

Heriz, *Some lessons from leaflet propaganda.*

Horney, Karen: *The Neurotic Personality of Our Time.* New York: W. W. Norton & Company; 1937.

Hovland, Carl I., and Walter Weiss: "Influence of Source Credibility on Communication Effectiveness." In Katz *et al.*

-, Arthur A. Lumsdaine, and Fred D. Sheffield: "Experiments on Mass Communications." *Studies in Social Psychology in World War* II. Princeton: Princeton University Press; 1944.

Hummel, William, and Keith Huntress: *The Analysis of Propaganda.* New York: William Sloane Associates; 1949.

Huxley, Notes on propaganda (Harper's 174-32)

Hyman, Herbert H., and Paul B. Sheatsly: "Some Reasons Why Information Campaigns Fail." In Katz *et al.*

Inkeles, Alex: *Public Opinion in Soviet Russia.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press; 1958.

Institute International de Presse: *Les Pressions du pourvoir sur la presse,* 1955.

Irion, Frederick C.: *Public Opinion and Propaganda.* New York: Thomas Y. Crowell; 1950.

Janis, Irving L., and Seymour Feshbach: "Effects of Fear-arousing Communications on Reaction to a

Subsequent New Event." In Katz *et al.*

Janis et Lumsdaine, Effects of preparatory communications on reaction to a subsequent New Event, in Katz.

Kalashikov, *Caractéristique de l'agitation bolchevique* (En russe, Moscou, 1948)

Kalinin, Uber politische agitation, 1949.

Karmakov, *Réaction du people soviétique a la propagande* (en Russe: Institute for study of U.S.S.R., 1954)

Kasanzev, *Propagande communiste sovétique* (en Russe: Vestnik instituta, 1952)

Katz, Daniel, Dorwin Cartwright, Samuel J. Eldersveld, and Alfred McClung Lee: *Public Opinion and Propaganda.* New York: Dryden Press; 1954.

Kohn-Bramstedt, Ernst: *Dictatorship and Political Police.* Oxford: Routledge; 1945.

Korspeter, Der Neofaschismus im Spiegel der Hannoverschen Presse, 1952.

Kostetsky, The truth through the mirror of Distortion, Bulletin of Institute of Study of U.S.S.R., 1955.

Kremneva, *Expérience de l'agitation politique pour le plan* (En Russe, Moscou, 1948)

Krech, David, and Richard S. Crutchfield: *Theories and Problems of Social Psychology.* New York: McGraw-Hill Book Company; 1948, 1962.

Kris, Ernst, and Nathan Leites: "Trends in Twentieth-Century Propaganda." In Lerner (ed.).

--, Hans Speier, *et al.*: *German Radio Propaganda.* Studies of the Institute of World Affairs. New York: Oxford University Press; 1944.

Kubik, Soviet Broadcasting, Bull, of Instit. For Study of U.S.S.R., 1955.

Lambert, Structure sociale et opinion publique, in L'opinion publique.

Lange, Max Gustav: *Totalitare Erziehung, das Erziehungssystem der Sowjetzone Deutschlands.* Frankfurt

am Main: Verlag der Frankfurter Hefte; 1954.

LaPiere, Richard Tracy: A *Theory of Social Control.* New York: McGraw-Hill Book Company; 1954.

LaPiere, Richard Tracy: Les facteurs socioloiques de formation de l'opinion publique, in *L'opinion publique.*

Lasswell, Harold D.: *Psychopathology and Politics.* New York: Viking Press; 1960.

-: "Rôle des Idéologies." *Rapport AISP* (1952).

--: "Political and Psychological Warfare." In Lerner (ed.).

--: "The Strategy of Soviet Propaganda." In Lerner (ed.).

--: "Propaganda and Mass Insecurity." *Psychiatry (*1950).

-- and Dorothy Blumenstock: *World Revolutionary Propaganda.* New York: Alfred A. Knopf; 1939.

Lazarsfeld, Paul F., Bernard Berelson, and Hazel Gaudet: *The People's Choice.* New York: Columbia University Press; 1948, 1960.

-- and Robert K. Merton: *Studies in Radio and Film Propaganda.* Transactions of the New York Academy of Sciences, Series II, 6, 1943.

Lebon, *L'esprit de foules*

Lee, Alfred McClung: *How to Understand Propaganda.* New York: Rinehart; 1952.

Lenin, V. I.: *Selected Works.* Moscow: Peoples Publishing House; 1954.

Lenz, *Einführung in die soziologie des rundfünks*, 1952.

Lerner, Daniel (ed.): *Propaganda in War and Crisis.* New York: George W. Stewart; 1951.

--.; "Effective Propaganda, Conditions and Evaluation." in Lerner (ed.).

Lewin, Kurt: *Resolving Social Conflicts: Selected Papers* on *Group Dynamics.* New York: Harper &brothers; 1948.

Lewin et Lippitt, an experimental study of the effect of Democratic and authoritarian group atmosphere, Studies in Topological psychology, n 1.

Lipset, S. M.: "Opinion Formation in a Crisis Situation." In Katz *et al.*

MacDougall C.: *Understanding Public Opinion.* New York: The Macmillan Company; 1952.

MacFarquhar, Roderick (ed.): *The Hundred Flowers Campaign and the Chinese Intellectuals.* New York: Frederick A. Praeger; 1960.

Maier, Norman R. F.: *Principles of Human Relations.* New York: John Wiley & Sons; 1952.

Mao Tse-tung: *Selected Works.* New York: International Publishers; 1954-6. Vols. I, III.

Maucorps, Paul: *Psychologie des mouvements sociaux.* Paris: Presses Universitaires de France; 1950.

Mégret, Maurice: *L'Action psychologique.* Paris: A. Fayard; 1959.

Merton, Robert K.: *Mass Persuasion: The Social Psychology at a War Bond Drive.* New York: Harper & Brothers; 1946.

Miotto, Antonio: "Folla e propaganda." *Psicologia e vita contemporanea* (1952).

-: *Psicologia della propaganda.* Florence: Editrice Universitaria; 1953.

Monnerot, Jules: *LA Guerre en question.* Pt. I. Paris: Gallimard; 1952.

Sociology and Psychology of Communism. Boston: Beacon Press;1953.

Morin, Edgar: *The Stars.* New York: Grove Press; 1960.

Munson, Edward L.: *The Management of Men: Handbook on Systematic Development of Morale and*

Control of Human Behavior. New York: Henry Holt & Company; 1921.

Ogle, Marbury B.: *Public Opinion and Political Dynamics.* Boston: Houghton Mifflin Company; 1950.

Opinion Publique, L'. Ouvrage collectif (1957).

Packard, Vance O.: *The Hidden Persuaders.* New York: David McKay Company; 1957.

Pearlin, Leonard I., and Morris Rosenberg: "Propaganda Techniques in Institutional Advertising." In Katz *et al.*

Pohle, Heinz: *Der Rundfunk als Instrument der Politik, von* 1923 *bis 1938.*

Hamburg: Hans-Bredow Institut; 1955.

Pol, Quentin: *La Propagande politique, une technique nouvelle.* Paris: Plon; 1943.

Polonski, Jacques: *La Presse, la propagande et opinian publique sous occupation.* Paris: Plon; 1943.

Pritchett, Charles Herman: *The Tennessee Valley Authority: A Study in Public Administration.* Chapel Hill, N.C.: University of North Carolina Press; 1943.

Propaganda Techniques of German Fascism. New York: Institute of Propaganda Analysis; 1938.

Rauschning, Hermann: *The Revolution of Nihilism:* Warning to *the West.* New York: Alliance Book Co.;1939.

Reiwald, P.: *De Esprit des masses: traité de psychologie collective.* Pts. II, V. Neuchâtel: Delachaux et

Niestlé; 1949-50.

Riesman, David: *The Lonely Crowd.* New Haven: Yale University Press; 1950.

Riess, Curt: *Joseph Goebbels:* A *Biography.* New York: Doubleday & Company; 1948.

Robin, Armand: *La Fausse parole.* Paris: Editions de Minuit; 1953.

-: "Expertise de la fausee parole." Series of articles in *Combat* (1949).

Sauvy, Alfred: *La Nature sociale.* Paris: Presses Universitaires de France; 1957.

-: *L'Opinian publique.* Paris: Presses Universitaires de France; 1956.

Schramm, Wilbur L.: *Communication in Modern Society.* Urbana, Ill.: University of Illinois Press; 1948.

Shils, Edward A., and Morris Janowitz: "Cohesion and Disintegration in the Wehrmacht." In Lerner (ed.).

Siepmann, Charles A.: *Radio, T.V., and Society.* New York: Oxford University Press; 1950.

Six, Franz A.: *Die politische Propaganda der N.S.D.A.P. im Kampf um die Macht.* Heidelberg: Winter; 1936.

Sladen, Frank J.: *Psychiatry and the War.* Pts. III, IV. Springfield, Ill.: Charles C Thomas; 1943.

Smith, Bruce L.: "Propaganda Analysis and the Science of Democracy." *Public Opinion Quarterly,* V (1941).

Speier, Hans: "Morale and Propaganda." In Lerner (ed.).

-and Margaret Otis: "German Radio Propaganda." In Lerner (ed.).

Stoetzel, Jean: *Equisse d'une théorie des opinions.* Paris: Presses Universitaires de France; 1943.

Tarde, Gabriel de: *L'Opinion et la foule.* Paris: Alcan; 1901.

Taylor, Edmond: *The Strategy of Terror.* Boston: Houghton Mifflin Company; 1940.

Tchakhotin, Serge: *The Rape of the Masses.* New York: Alliance Book Co.; 1940.

Traxler, Arthur E.: *Techniques of Guidance.* New York: Harper & Brothers; 1945.

Truman, David B.: *Governmental Process: Political Interests and Public Opinion.* New York: Alfred A. Knopf; 1951.

Waldrop, Frank C., and Joseph Boskin: *Television: A Struggle for Power.* New York: William Morrow &Co.; 1938.

Whyte, William H.: *The Organization Man.* New York: Simon and Schuster; 1956.

Young, Kimball: *Social Psychology.* New York: F. S. Crofts; 1947.

الفهرس

(أ)

أيزنهاور 306, 351, 375

الاتحاد السوفيتي 22, 29, 47, 51, 53, 61, 65, 68, 72, 73, 76, 83, 98, 102, 106, 107, 108, 109, 121, 126, 129, 137, 139, 155, 156, 166, 173, 175, 180, 184, 185, 190, 191, 200, 201, 207, 210, 211, 224, 252, 254, 274, 301, 303, 311, 315, 319, 363, 365, 377, 381, 397, 403, 406

الاتحاد السوفيتي، السياسة الاقتصادية الجديدة فيه 170

الاتصال، وسائل الإعلام 28, 29, 43, 48, 54, 90, 111, 124, 131, 134, 142, 161, 164, 172, 236, 237, 256, 284, 297, 307, 310, 321, 330, 360, 394, 404, 412

ألبج، جون 25, 36, 149, 281, 350

الأدب 50, 168, 171, 258

أذربيجان 155

الارتياب	265
ألمانيا	17, 22, 26, 34, 76, 95, 96, 103, 107, 161, 205, 266, 272, 274, 307, 311, 340, 365, 372, 375, 377, 389, 399, 417
الأمم المتحدة	175
استبيانات	97
الأيديولوجية	78, 80, 82, 85, 111, 115, 116, 126, 131, 147, 179, 180, 185, 192, 210, 212, 218, 230, 272, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 282, 283, 284, 285, 286, 287, 302, 310, 311, 321, 322, 323, 326, 346, 347, 374, 389, 390, 392, 405, 416, 417, 420, 425
الأساطير	32, 40, 41, 43, 46, 55, 71, 72, 74, 77, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 88, 113, 126, 136, 139, 155, 163, 179, 180, 191, 210, 213, 218, 242, 264, 283, 284, 285, 320, 321, 325, 329, 337,

338, 339, 340, 341, 342, 343, 345, 346, 348, 355, 369, 415

الاعترافات 50

الإعلان 66, 83, 93, 100, 110, 111, 112, 113, 137, 152, 183, 194, 205, 229, 230, 234, 251, 254, 262, 296, 320, 325, 373, 376, 397, 401, 408, 422

الإذاعة 41, 43, 44, 45, 46, 47, 54, 55, 60, 73, 117, 142, 161, 162, 175, 178, 187, 236, 237, 263, 293, 297, 300, 303, 306, 321, 323, 329, 330, 351, 365, 422

الإنسانوية 286, 379

إنكليس، أليكس 107

إريون، فردرك 98

الإسلام 196, 282

إيطاليا 22, 26, 96, 102, 307, 399

إفريقيا 85, 100, 103, 167

الإمبراطورية الرومانية 95

الإحصاءات 98, 100, 101, 106, 137, 138, 139, 140, 161, 169, 362, 377, 378, 379, 399

الإصلاح 117

آرون، راموند 179

آسيا 81, 85, 171, 202

الاختيار، تقنية 46, 66, 90, 103, 109, 140, 161, 163, 176, 185, 188, 202, 208, 223, 225, 253, 284, 290, 325, 327, 346, 353, 354, 355, 360, 369, 382, 408, 416, 424

الاستجابة 45, 54, 77, 152, 193, 206, 239, 244, 260, 295, 369, 383, 385, 404, 406, 407, 410

استجابة ما قبل الفعل 409

استجابة سابقة 408

استجابة فردية 409

استجابة داعمة 408

استجابة ذات صلة 407, 408

استجابة تلقائية 283

استجابة متكررة 226

استجابة عاطفية 179

استجابة عفوية 177

استجابة شرطية 39

الافتراضات المسبقة التي تستخدمها البروباجاندا 73, 80, 81, 84, 86, 246, 323, 382

الانحياز 28, 51, 55, 73, 74, 76, 79, 85, 94, 113, 119, 130, 149, 157, 172, 178, 185, 195, 228, 231, 237, 238, 240, 241, 242, 247, 254, 292, 329, 358, 366, 367, 373, 378, 386

(ب)

برلين الشرقية والتمرد فيها 405

بلجيكا 308

البلديات 50, 102, 120, 121, 123, 388, 392

برناز، إدوارد 18, 114, 184

البروباجاندا، الأساس العلمي لها 39

البروباجاندا الأمريكية	39, 119, 138, 302, 333, 372, 379, 388, 389, 390
البروباجاندا الستالينية	240, 386
البروباجاندا الهتلرية	26, 28, 39, 48, 56, 107, 109, 110, 112, 121, 129, 132, 138, 143, 144, 185, 266, 333, 372
البروباجاندا، الهيكل الخارجي لها	61
البروباجاندا، ليونتها	369
البروباجاندا السوداء	52, 53, 361
البروباجاندا البيضاء	52, 53
البروباجاندا، وزارة	53, 58, 182
البروباجاندا العسكرية	286, 375
البروباجاندا الشاملة	47, 154, 155, 365
البروباجاندا الألمانية، فشلها	59, 404
بروباجاندا السويس، عملية	105, 392
البروباجاندا، حدودها	402
البروباجاندا الداخلية	109, 121, 404
البروباجاندا اللينينية	173, 285, 412
البروباجاندا، تعريفها	24, 25, 26, 66, 98, 108, 109, 110
البروباجاندا في الصين	29, 121, 133, 143, 171
البروباجاندا السياسية	83, 109, 110, 111, 132, 361
البروباجاندا العمودية	131, 132, 134
البروباجاندا الأفقية	132, 134, 136, 296, 420
البروباجاندا والمعلومات	137, 174

بروباجانـدا عقلانيـة وغـير عقلانية 137, 138, 139

بروباجاندا الحكومة 73, 105, 123, 176, 182, 193, 197, 199, 200, 207, 211, 212, 335, 342, 343, 354, 377, 388

البروباجانـدا كـسلاح ديمقراطي 33, 202, 340, 341, 356

البروباجاندا كحافز للتضحية 212, 256, 271, 359

البروباجاندا، الحافز لها 383, 409

البروباجانـدا المتعلقـة بالتكنولوجيا 94

البروباجاندا من أجل السلام 76, 89, 106, 173, 230, 381

البروباجانـدا القائمـة عـلى مراكز الاهتمام الجمعي 94, 95, 96, 97, 404

البروباجاندا الدينية 94, 302, 375

البروباجاندا السوفيتية 47, 86, 102, 109, 213, 371

البروباجاندا المباشرة 51, 52, 76, 114, 131

البروباجاندا العلنية 52, 53

البروباجاندا الاجتماعية 52, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 119, 172, 369

البروباجاندا الديمقراطية 54, 328, 333, 334, 338, 339, 340, 342, 351, 353, 375, 376

البروباجاندا الاندماجية 18, 19, 120, 125, 126, 127, 128, 129, 130, 131, 136, 165, 174, 254, 269, 316

البروباجاندا المسبقة 19, 20, 70, 71, 72, 73, 248, 360, 404

بروباجاندا القوة 59

بوريكاد، فرانس 369

بولكانين، نيكولاي 47

بيزنطة 94

البوذية 282

البطل 82, 152, 153, 215, 216, 220, 224, 239, 249, 250, 253, 260, 282, 372, 379, 385

البطل، طائفته 249, 343, 344

باكارد، فانس 315, 397

بريكليس 37, 187

بافلوف، إفن 39

البحث التحفيزي 66

(ت)

التحول الثقافي 167

تحولات البروباجاندا العنيفة 384

تأثيرات البروباجاندا على عالم العمل 312, 313, 314, 317, 318, 316, 394, 396

تـــأثير البروباجانـــدا عـــلى الكنيسة 319, 320, 320, 321, 322, 323

التجميع 152, 307

تأثير بوميرانج 75, 386

تشيكوسلوفاكيا 198, 199

تروتسكي، ليون 395

تشخوتن، سرجا 375

تيتو، مارشال 196

التلفاز 43, 44, 139, 142, 162, 164, 165, 187, 214, 237, 253, 255, 262, 306, 331, 350, 351, 352, 386

التوقيت المناسب 86

تيبريوس 187

التعذيب 104, 270, 286

التكنولوجيا 33, 81, 83, 84, 94, 112, 126, 400, 403

تافت-هارتلي، قانون 115

التوقعات 78, 232

التوقعات، بنيتها 78, 232

تأثير الصدمة، للبروباجاندا 251, 253, 260, 330

التحسس 262, 263

تمرد كرنشتات 129

تمرد الحشود 18, 61, 79, 120, 130, 165, 174, 177, 178, 223, 313, 405, 413, 414

التكرار 55, 70, 71, 149, 196, 345, 351, 375, 422

التحيزات العرقية 254, 367

التحليل النفساني 226, 369

التبلور النفساني 241, 242, 290, 291

التعليم السياسي 65, 72, 73, 129, 130, 135, 174, 274, 413, 414, 417

التلميح كتقنية 103

التعريف 23, 24, 25, 26, 38, 66, 108, 109, 110, 117, 168, 207, 276, 347, 362, 364, 366, 382, 418, 420

التحفيز 152, 211, 266, 377

تشامبر، ب. 287

التاريخ 50, 81, 82, 217, 233, 326, 327, 423

(ث)

الثورة الروسية 143

الثورة المجرية 261, 390

الثورة الفرنسية 180

الثقافة 74, 159, 169, 170, 172, 173, 174, 205, 227, 243, 287, 312, 407

(ج)

الجماعات، مناشدتها 149

جبهة التحرير 49, 60, 105, 109, 122, 130, 131, 156, 212, 286

الجزائر 29, 49, 62, 69, 79, 85, 104, 109, 122, 123, 126, 128, 130, 137, 139, 143, 152, 156, 194, 212, 232, 257, 270, 286, 287, 342, 364, 365, 391, 395, 396, 406, 416, 424

الجزائر الفرنسية، فيلم 139

جالوب، جورج 368

جرفن، موراي أي 372

الجيش 49, 130, 137, 185, 193, 202, 204, 205, 269, 272, 273, 294, 324, 371, 377, 404, 414, 416, 420

الجمهورية العربية المتحدة 61

الجمهورية الرومانية 50

الجيش الصيني الأحمر 416

جوبلز، جوزيف 18, 23, 49, 53, 56, 59, 64, 65, 70, 72, 78, 83, 86, 98, 99, 100, 102, 103, 107, 144, 148, 195, 198, 252, 268, 292, 335, 341, 379, 384, 392, 393, 395, 403

جواتيمالا 225

جوليان، ر. 418

الجرائد 15, 45, 55, 68, 99, 159, 161, 163, 176, 184, 188, 214, 215, 224, 225, 251, 262, 303, 304, 306, 317, 329, 362, 367, 375, 412, 418

جمال عبد الناصر 61, 105

جونسون، لاندون 153, 191

جانواتز، موريس 44

جونسون، شبكة 49

(ح)

حملة انتخابية 57, 360, 365

حملة البروباجاندا 16, 17, 19, 47, 48, 57, 58, 61, 74, 85, 89, 92, 100, 110, 111, 121, 138, 172, 173, 184, 185, 200, 201,210, 233, 236, 237, 250, 254, 270, 272, 309, 325, 359, 360, 361, 362, 368, 385, 399, 400, 410, 417

الحرب 23, 60, 68, 78, 89, 92, 98, 103, 104, 105, 110, 120, 126, 127, 128, 129, 173, 184, 188, 204, 205, 211, 212, 227, 232, 245, 252, 261, 270, 325, 326, 328, 332, 334, 342, 374, 375, 377, 413, 416

حملة المئة وردة 417

الحرب، أهدافها 371, 373, 374

الحرب العالمية الأولى 143, 324

الحرب العالمية الثانية 44, 143, 371, 404

الحرب الكورية 75, 168

الحرب الباردة 143, 203, 326, 328, 332

الحشود 129, 149, 171, 173, 182, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 195, 197, 198, 199, 208, 216, 233, 274, 281, 305, 306, 322, 323, 324, 334, 343, 363, 364, 384

الحشد الوحيد 43, 218

الحقيقة 97, 98, 99, 101, 102, 103

حريق الرايخستاج 50

الحكم النقدي 246, 247

الحاجات أو الاحتياجات المصطنعة 251, 255, 256

حلف شمال الأطلسي 183

(خ)

خدمات المعلومات التابعة للجيش الأمريكي 407

الخصخصة 259, 374

خروتشوف، نيكيتا 47, 83, 88, 89, 92, 101, 102, 106, 109, 197, 200, 201, 225, 250, 254, 344

الخوف 59, 89, 138, 162, 224, 225, 226, 252, 256, 265, 268, 269, 338, 369, 384, 412

(د)

الدبلوماسية 49

الديمقراطية 20, 29, 31, 32, 50, 54, 56, 61, 65, 66, 107, 108, 135, 138, 179, 180, 188, 189, 192, 194, 195, 196, 198, 200, 202, 203, 206, 209, 283, 308, 313, 324, 325, 326, 327, 328, 329, 330, 331, 332, 333, 335, 336, 337, 338, 339, 340, 341, 342, 343, 344, 345, 346, 348, 349, 350, 351, 352, 353, 354, 355, 379, 402, 406, 420

الديمقراطية الأثينية 50

الديمقراطية الليبرالية 50, 65, 66

دين، جامس 223

دي جول، تشارلز 153, 342, 343

ديوي، جون 39

دوب، ليونارد 26, 110, 295, 296, 289, 363, 364, 383, 408, 409

درينكورت، جاك 24, 336

دراسات على الجنود الألمان 371

الدولة المركزية 83

(ر)

الرأسمالية 68, 108, 115, 118, 165, 173, 292, 302, 310, 312, 313, 314, 317, 319, 330, 397, 418

الرأي العام 28, 32, 53, 65, 66, 77, 88, 93, 104, 105, 117, 118, 119, 143, 150, 151, 157, 158, 159, 160, 172, 175, 176, 178, 189, 190, 191, 192, 199, 202, 208, 241, 248, 257, 273, 283, 286, 288,

289, 290, 291, 292, 293, 294, 300, 302, 304, 305, 309, 310, 311, 318, 319, 324, 328, 353, 360, 364, 367, 370, 371, 373, 377, 383, 384, 398, 399, 403

الرأي العام، محاولات تحليله 367

الرموز 25, 60, 62, 71, 74, 75, 82, 150, 159, 160, 172, 238, 239, 240, 242, 249, 396

رومل، إيرون 103

روزفلت، فرانكلن دي 343

روبر، إلمو 148, 368

روزنبرج، موريس 125

روسو، جان-جاك 195

روبل، م. 230

رايزمان، دافد 20, 266

ريفيرو 331

ريفيت، بال 172

ردة الفعل 68, 72, 74, 139, 239, 262, 266, 305

ردود الفعل المكيفة 77, 132, 173, 284, 321

رانك، آرثر 115

روشننج، هرمن 107

الرقابة 48, 53, 55, 188, 310, 331, 342

رجل التنظيم 136

رابطة الصناعيين الوطنية 114

(ز)

الزنوج 118, 288, 369

(س)

السلوكية 78, 125, 143

سوريا 61

السويد 223

ستوتزل، جان 152, 238, 241, 251, 288, 289, 293, 384, 398

ستالين، جوزيف 26, 28, 39, 89, 107, 109, 110, 132, 196, 230, 249, 250, 258, 287, 299, 386

سوفوكليس 327

ستيكانوفايت، حركة 211

سايمون، ب. 286

سارتر، جان-بال 381

سافي، ألفريد 98, 102, 106, 128

السلام 76, 78, 89, 104, 106, 152, 173, 187, 188, 202, 227, 230, 252, 260, 285, 296, 326, 338, 381, 384

(ش)

الشعارات 44, 58, 111, 130, 238, 240, 263, 266, 282, 283, 291, 331, 353, 373, 390, 413, 414, 415, 418, 422, 423

شلز، إدوارد 44

الشائعة 401

الشيوعية 59, 60, 83, 98, 99, 118, 168, 179, 239, 254,

271, 281, 283, 292, 301, 316, 349, 375, 381, 391, 394, 395, 415

الشيوعية، الأحزاب 201, 307, 406

الشعور بالذنب 77, 221, 227, 228, 241, 253, 265, 266, 269, 270, 423

شمال فيتنام 22, 29, 130, 156

شباب هتلر 249, 352

(ص)

صوت أمريكا 61, 162

الصور النمطية 71, 73, 74, 76, 78, 79, 94, 113, 125, 126, 130, 150, 172, 191, 238, 239, 240, 241, 242, 246, 290, 291, 292, 293, 297, 366, 373, 381, 382, 398, 399

الصور النمطية والتحيزات 73, 74, 76, 78, 94, 113, 125, 126, 130, 150, 172, 191, 238, 239, 240, 241, 242, 290, 292, 293, 366, 381, 382, 398

الصمت كتقنية 48, 52, 53, 99, 102, 264

الصين 22, 29, 50, 75, 102, 109, 110, 121, 123, 130, 132, 133, 134, 135, 136, 137, 143, 155, 156, 171, 173, 175, 210, 212, 213, 214, 299, 349, 365, 388, 395, 416, 418, 421

الصحافة 44, 45, 57, 60, 102, 142, 161, 175, 185, 187, 190, 211, 237, 258, 293, 297, 300, 301, 321, 323, 329, 342, 351, 417

(ض)

الضرائب، فرضها 189, 211, 220

(ط)

طبقة العمال البروليتاريا 81, 124, 255, 314, 369

الطبقة المتوسطة 74, 166, 167

(ع)

العراق 61

العمـــــل: دوره في الحيــــاة المعاصرة 209, 210, 211, 314, 316, 317

العمال 79, 210, 277, 291, 312, 313, 314, 315, 316, 317, 318, 351, 394, 418, 419

العمل النفساني 59, 202, 203, 204, 205, 206, 316, 324

العقلنة 107, 228, 230, 231, 232, 241

العلاقات العامة 27, 111, 113, 315, 388, 393, 394

العلوم 37, 400

علم النفس 36, 38, 39, 64, 142

علم الاجتماع المصغر 125

علم نفس الغرائز 78

علم النفس الاشتراكي 315

علم النفس الفردي 292

علم النفس التطبيقي 258

علم النفس الاجتماعي 37, 95, 143, 295

علم نفس العمق 78, 143

علم الاجتماع 36, 37, 38, 39, 125, 142

العصاب 243, 244, 245, 257

العلاقات الإنسانية 63, 69, 111, 132, 204, 206, 211, 218, 225, 234, 393, 394

(غ)

غسيل الدماغ 27, 48, 349, 392, 414, 421, 422, 423, 424

(ف)

الفاشية 29, 59, 225, 249, 292, 340, 365

الفيلق الأمريكي 117, 339

الفرق المتخصصة 59, 305, 389, 424

الفصام 265

فعالية البروباجاندا 31, 39, 40, 55, 57, 61, 64, 74, 94, 95, 97, 101, 113, 114, 125, 131, 134, 151, 171, 175, 206, 207, 208, 253, 255, 261, 270, 282, 286, 290, 302, 321, 333, 336, 342, 347, 353, 355, 358, 359, 360, 361, 365, 367, 369, 371, 375, 377, 378, 379, 380, 381, 385, 386, 387, 388, 391, 393, 394, 396, 401, 402, 404, 406

فاعلية للبروباجاندا، أقصاها 48, 64, 109, 150, 154

فرنسا 22, 49, 51, 59, 61, 84, 95, 96, 102, 105, 110, 111, 119, 139, 143, 161, 170, 173, 184, 192, 193, 205, 210, 224, 231, 270, 273, 306, 307, 308, 331, 339, 342, 362, 363, 370, 387, 391, 392, 394, 396, 398, 399, 400, 401

الفيدرالية 83

فيليس، فيليب ب. 257

فرويد، سجمند 39

فريدمان، م.ج. 315

الفيلم 16, 17, 43, 44, 45, 49, 51, 55, 58, 73, 111, 112, 115, 117, 118, 119, 137, 139, 142, 152, 153, 161, 165, 172, 184, 236, 249, 250, 253, 294, 318, 329, 330, 351, 366, 367, 397, 407

(ق)

القلق 53, 118, 152, 209, 213, 225, 226, 227, 228, 232, 233, 245, 258, 264, 268, 269, 298, 400, 421

القوقاز 155

القراءة والكتابة 169, 170, 171, 418

القيادة 157, 158, 299

(ك)

كامبل، أنجس 351

كندا 249, 371

كارترايت، دورين 383

كاسترو، فيدال 105, 122, 129, 199, 200

الكاثوليكية 17, 224, 375, 383

كيو، رايت 179

كيمبل، يونج 299

كينزي، تقرير 378

كومسومول 198, 352

كرتش، دافد 110, 113, 382

كريس، إرنست 138, 144, 333

كروجر 382

كو كلوكس كلان 339

الكثافة السكانية 149, 151, 187

كوريا الشمالية 171, 175

الكذب 63, 97, 98, 100, 101, 102, 103, 105, 107, 108, 327, 333, 341, 345

الكراهية 79, 80, 123, 124, 127, 128, 212, 223, 224, 238, 242, 282, 283, 285, 337, 360, 412, 415, 418

(ل)

اللاوعي 46, 66, 236, 259, 264, 345, 376, 418

ليتيس، نيكولاي 138, 144, 333

لينين، نيكولاي 47, 48, 68, 70, 72, 73, 98, 99, 107, 109, 120, 121, 122, 129, 148, 168, 170, 278, 279, 280, 287, 290, 380, 393, 395, 420

ليرنر، دانيال 25, 362

ليبسيت، س. م. 174

لويس الرابع عشر 187

لومومبا 124, 128, 138

اللغة 79, 80, 259, 282

لازويل، هارولد 20, 23, 25, 53, 131, 239, 281, 334, 335, 362

لازرسفيلد، بال 17, 300, 386, 387

(م)

الموضة 393, 401

المجتمع الفردي 145, 146, 147, 153

مجتمع الدفاع الأوروبي 193
مزاج 257
مصر 14, 15, 16, 17, 22, 61, 102, 105, 138, 166
محاذاة الوعي 258
معاداة السامية 118, 279, 373
معدل المواليد 398, 399, 400
الميكنة 33, 220, 312, 343
معونة الشتاء 396
المترددون 93, 97, 100, 307, 360, 361, 370, 384
المجتمع التكنولوجي 19, 32, 33, 208, 222, 234, 235, 350
المزاج 257
ماو تسي-تونج 48, 49, 59, 65, 68, 70, 72, 73, 99, 121, 122, 130, 134, 135, 136, 137, 144, 167, 168, 171, 173, 245, 270, 296, 299, 388, 411, 412, 414, 415, 416, 417, 418, 419, 420, 424
محاكمات نورنبرج 50
محاكمات موسكو 50
المشاركة 18, 42, 87, 65, 66, 69, 70, 71, 72, 95, 108, 111, 121, 125, 133, 134, 136, 138, 149, 179, 183, 184, 187, 188, 189, 195, 197, 206, 208, 209, 211, 218, 219, 220, 221, 231, 232, 233, 249, 259, 261, 262, 265, 271, 272, 273, 297, 298, 313, 337, 344, 325, 348, 352, 367, 376, 396, 409, 415, 416
المكارثية 117
ماكدوجلاس، كرتشفيلد 113

ماركس 73, 79, 230, 279, 282, 394, 420

الماركسية 64, 135, 144, 171, 287, 291, 312, 387, 388, 395, 413, 414, 417, 421

المجتمع الجماهيري 145, 146, 148, 149, 150, 152, 154, 155, 160, 222

المادية 81, 84

ميجرت، موريس 29, 106, 324

ميندي، تيبور 418, 419

منديس-فرانس، بيير 102, 194

الميثراداتسية 263, 264

مونيروت، جولز 246

ميوتو، أنتونيو 25, 56, 383

ميونخ 87, 105

موسوليني، بينيتو 87, 196

الملصقات 44, 45, 55, 124, 263, 306, 317, 352, 399, 404, 406, 412, 413

المصطلحات التشغيلية 90

المسيحية 74, 81, 104, 110, 230, 258, 271, 282, 286, 302, 319, 320, 321, 322, 323, 383, 423

المجلس الفرنسي لحركات الشباب 262

معهد تحليل البروباجاندا 25, 47

(ن)

النخبة 45, 145, 335, 349, 371, 405

النمسا 129, 202

النقابية 313

النقابات 145, 155, 184, 198, 300, 301, 316, 317, 318, 360, 415

النقد الذاتي 47, 156, 241, 364

نقد جمهورية ألمانيا الديمقراطية 138

النهضة، عصر 50

النيات والتأويلات 99, 104, 105, 106, 107

النازيون 29, 53, 69, 103, 166, 210, 230, 241, 365, 372, 384

نابليون 49, 87, 97, 187, 189, 211

(هـ)

هتلر 26, 28, 29, 39, 48, 55, 56, 87, 97, 98, 104, 107, 109, 110, 112, 121, 122, 129, 132, 138, 143, 144, 185, 195, 196, 200, 230, 250, 266, 274, 278, 279, 280, 299, 307, 333, 372, 389, 395, 396

الهند 100, 103, 166

الهند الصينية 29, 143, 155, 156, 212, 214, 395

هو تشي مين 122

هورني، كارن 227, 243, 245

هوفلاند، كارل 87

الهندسة الإنسانية 111, 234

هامون، ليو 194

الهروب 96, 173, 223, 261, 295

(و)

وايت، وليام أنش 136

الولايات المتحدة 25, 29, 40, 61, 72, 77, 78, 85, 99, 107, 111, 116, 118, 126, 132, 135, 139, 143, 148, 150, 161, 168, 175, 180, 184, 194, 201, 211, 232, 249, 254, 266, 304, 308, 312, 315, 317, 318, 319, 330, 339, 343, 345, 346, 350, 353, 367, 371, 383, 386, 392, 394, 397, 402, 418

الوعي السري 258

الوعي الطبقي 177, 291

الوطنية 79, 83, 85, 155, 179, 185, 200, 206, 212, 389, 412

وعي مخطط له 258

الوجوديون 219

(ي)

يوجوزلافيا 22

اليابان 340, 399, 400

اليعقوبية 339



بروباجاندا

"رغم ظهور هذا الكتاب عام ١٩٦٢ إلا أن ما به لا يزال قادرا على تفسير ما يجري في العالم كله، ليس في بلاد الثورات الناقصة، والانتفاضات المجهضة، والاستبداد المقيم فقط، بل في بلدان الغرب نفسها، حيث التحديات الشديدة التي تفرغ الديمقراطية من مضمونها، دون أن تدرك الأغلبية أنها كانت ضحية لعمليات منظمة من الدعايات المسمومة، والشائعات المغرضة، وغسيل المخ، ولفت الانتباه بعيدا عن القضايا الحقيقية التي خرج لها الناس وضجوا وضحوا، وشقوا الهواء بقبضات أيديهم الغاضبة، وحناجرهم التي أتعبها الهتاف. عكف المترجم على ترجمة هذا الكتاب بدقة وأمانة للقارئ الراغب في معرفة ما عليه أن يفعل كي لا يبقى مخدوعا."

عمار على حسن

